

# رواية الهائل

بهاء طاهر



نقط النور

## الإهداء

فى ذكرى مولد الكاتب والإنسان الكبير  
يحيى حقى .. رحمه الله  
أنتسم عطر الأحباب !

بهاء طاهر

٧ يناير ٢٠٠٦

قال أستاذنا الحكيم :

- الناس أجناس والنفوس لباس ، ومن تلبس نفسا  
من غير جنسه وقع فى الالتباس .

فسألناه :

- يا معلمنا ، فهل النفس قناع نرتديه إن أحببناه  
وإن كرهنا نبذناه ؟

فرد مؤنبا :

- أو لم أقل لكم من تقنع هلك ؟

قلنا :

- فمن ينجو يا معلمنا ؟

أطرق متأملا ثم رفع رأسه يجول فينا ببصره  
وقال فى بطاء :

- يا أبنائى وأحبائى ، أفنيت العمر فى البحث  
والترحال ، فما عرفت إلا أن الجواب هو السؤال .

الخلاف رسم

وتصميم الفنان :

محمد أبو طالب

## القسم الأول

liilas.com/vb3  
ola\_mfs

عاش سالم منذ طفولته في رعاية جده الباشكاتب.

لم يكن يعرف وهو صغير معنى هذا اللقب ولا تلك الوظيفة ، لكنه كان يسمي أياه يرد على استفسارات بعض الجيران بعبارة «سأسال الوالد حضرة الباشكاتب» ، ففهم أنها وظيفة مهمة .

وعى سالم على الدنيا وجدده على المعاش . كانت للجد أحسن غرفة في البيت . تطل على البحري وتفتح على الشرفة الواسعة المعروفة في البيت باسم (التراسية) ، والتي تعلو قاعدتها المكونة من اسطوانتين حجريتي صغيرتي متجاورتين ، شبايك خشبية مشغولة مثل المشربيات ، تكسر حدة الشمس في النهار وتفتح على مصاريعها للهواء في المساء . واعتاد الباشكاتب أن يقضي وقتا طويلا في هذه الشرفة كل ليلة قبل أن ينام . يجلس على مقعد أمام نافذة مفتوحة يتابع بها يحدث في الشارع المزدهم بالقادمين من ميدان السيدة زينب والمتجهين إليه . يحمل النسيم إليه في موسم الزهر عطر شجرة «التمر حنة» المزروعة في الحمر الصغير أسفل البيت .

أما غرفة الباشكاتب نفسها فكانت تضم سرير النحاسي الكبير بأعمدته الأربعة المعلقة فيها الناموسية ، والكتب ذا الأبراج العديدة المعلقة باستمرار ، والذي تعلوه أكوام من الكتب المجلدة في ناحية ، وفي الناحية الأخرى ملفات قديمة باهتة الخضرة ومصفرة الأطراف .

وعندما كبر سالم قليلا عرف أن الشقة التي يقيمون فيها هي شقة جده . وأنه هو أيضا مالك البيت الذي يضم ست شقق متوالية ، كان بيتا من أربعة طوابق

بناه الحاج السعدى والد الباشكاتب في مطلع القرن ، تشمل الأسرة طابقه الثالث وتسكن الشقق الأخرى المتوالية منذ بناء البيت أسر من أصحاب المصلات القريبة ورت أنصارهم منهم ومساكلهم وهم نجار ومنجد وعطار وكهربائي وتاجر أحذية ، كان الباشكاتب هو الموظف الوحيد من سكان البيت ، وكانوا جميعا يحترمونه ويحبونه .

لا يعرف سالم لون البيت أو طلاء الخارجى الأصلي . فقد وعى عليه يلونه الحائل الجامع بين الرمادى والبني ، والذي يشبه لون المساجد والتكايا والأسبلة الأثرية المنشورة في الحى . ولكن من الواضح أن الجد الأكبر اعتنى بزخرفة بيته عندما بناه . فإلى جوار الشرفتين الحجريتين في كل طابق ، كانت هناك شرفتان أصغر ، المريزمتان من حديد مشغول على شكل أغرع كروم مقوسة تتدلى منها عناقيد من الكوسم والشرفات بامتداد طول العمارة من ناحيتين متقابلتين زخرفة منقوشة في الحجر كضفائر مجدولة تحتل فراغاتها زهور حجرية مدورة الأوراق .

وكان هناك أيضا سور حديدى وأطى . يحيط بمدخل البيت ويحتضن الحمر الصغير الذى يسميه بعض السكان (الجنة) لأنه يضم إلى جانب شجرة التمر حنة اثنتين من شجيرات (الفيكس) ذات الأوراق اللامعة المقطعة المسعاة (ودن الفيل) ، والمزروعة في كثير من بيوت الحى . غير أن أبرزيت بواب العمارة العجوز لم يعد يستطيع العناية بهاتين الشجرتين كما كان يفعل من قبل . أصبح في شيخوخته شب مقبم في غرفته الموجودة أسفل السلم وأهمل الرى المنتظم ، فاصفرت بعض الأوراق وتهدأت ، ولكن الأشجار ظلت سليمة في مجملها تهيب . للبيت متخلا زاهى الخضرة .

كانت تلك هي الجهة العمارة التي تطل على الشارع الرئيسى المتفرع من ميدان السيدة زينب . أما جانب البيت المطل على ناصية الحارة والجانب الآخر فتشغلهما نوافذ خشبية مستطيلة متوازية ،



ولد سالم في ذلك البيت وعاش هو وأخته الأكبر فوزية والديهما شعبان الذي ظل يقيم مع أبيه الباشكاتب بعد زواجه وإنجاب. ولا يذكر سالم أمه التي ماتت بعد مولده بستين، ولكنه رآها في الصور جميلة جدا، مثل أخته فوزية، لها وجه مستدير وشعر كستنائي غزير يسترسل بعيدا وراء الكتفين، وعينان ملونتان كزيتونين لامعتين ورشما هو وأخته.

واعتماد الباشكاتب توفيق أن يصحب معه حفيده منذ الصغر لكي يصليا الجمعة في مسجد السيدة زينب، وعلمه من وقتها أشياء: أن يذهب إلى المسجد من طريق وأن يرجع من طريق آخر لأن هذا يزيد الثواب. وأن يشتري أشياء صغيرة بعد الصلاة، ليموت أو بعض الفاكهة أو البخور. وكانت فوزية تخرج أحيانا وتقول إن البيت أصبح مكتسا بالليمون والبخور. فبعد الباشكاتب استمسا وهو برئت على خداه: أهدى الزيادة للجيران. ثم يشير بإصبعه للسما وهو يفر. شراء بعد صلاة الجمعة ثوابه هناك.

كان الباشكاتب يحب حفيدته كثيرا. هي الوحيدة المسموح لها بأن تتكلم غرلته حتى في حالة وجود شغالة في البيت. ترتب الملفات القديمة والكتب التي تعلق المكتب وتنفض التراب. ولكن لم يكن من حقها أن تغير ترتيب هذه الملفات أو أن تفتح الأدراج التي يحتفظ هو وحده بمفاتيحها.

واعتماد أيضا أن يدخل معها المطبخ. يعطيها تصانيع وينوق الطعام. يقترح زيادة الملح أو الاكتفاء عند هذا الحد في تحضير البصل، ويردد أشعارا وأمثالا عن معظم أنواع الطعام. ففي يوم طبخ القلقاس يضع يده على صدره ويردد: «إذا سألوكم عن قلمي فقل قاسي وقل قاسي» وعندما تطبخ فوزية الوجبة الخضراء يتظاهر بأنه يعرج وهو يقول: «العاقل لا يأكل وجله». أما في يوم الملوخية التي

كان يعيها كثيرا فكان يغرد يديه على أصاصيها ويقول بلهجة فخمة: «طعام الملوك يا ملوكية». وكانت عنده عبارات كثيرة من هذا النوع تجعل فوزية وسالم يضحكان دائما. مع أن العبارات والحركات أيضا، لم تكن تتغير في أغلب الأحيان.

ولكن كانت هناك أشياء اختص بها الباشكاتب حفيده منذ الصغر ولا يشارك فيها أحده. كانا يجلسان معا فوق السطح ويتسامران، في الشمس شتاء وفي الأسيات صيفا. يكلف اليد حفيده بشراء كميات كبيرة من الترمس توضع بينهما في طبق. ويعصر الباشكاتب عليها كثيرا من الليمون قائلا لحفيده ليمما يشبه الأمر «كل.. هذا ينقي الدم» ثم يكمل بضحكته الطلقة: «لكن لا يصفر وجهك مثل أبيك».

في يوم الخميس الوحيدة من كل أسبوع تنقطع هذه الجلسات. إذ يخرج الباشكاتب قبل الظهر ويروح متأخرا في الليل. يرتدي في الغالب (جاكتة) واسعة قديمة من الكتان الأبيض. لكنها نظيفة ومكوية باستمرار ويضع فوقها - في الشتاء فقط - عباءة من الصوف البني. ولم يكن أحد في الأسرة يعرف أين يذهب.

وكان خروجه - باستثناء ذلك - نادرا في الليل، حين يذهب في أمسيات متباعدة وغالبا في المواسم الدينية، إلى حلقات للذكر.

وحافظ الباشكاتب على عادات ورثها عن المرحوم والده. فكان هناك قارئة ضرير يأتي صباح كل يوم جمعة ليترنل آيات من القرآن الكريم مترجعا على (كتبة) في الصلاة الواسعة، بينما تطوف فوزية بالبخور في حجرات البيت المظلم، وواصل لسنوات طويلة التقليد الذي استنته الحاج السعدي بتفريق ذبيحة في المولد النبوي الشريف واستضافة مشبهين يرتلون بردة البوصيري فوق سطح البيت مع دعوة الجيران والأصدقاء إلى الوليمة والاستماع للبردة.

ولكن بعد إحالة الباشكاتب إلى المعاش لم تعد امكانياته تسمح بذلك.  
فاكتفى في هذه المناسبة وغيرها باستئجار عدد محدود من الفارين يقيمون  
المصحف بتلاوة آرماع أجزاء القرآن الكريم فوق السطح أو في صالة  
البيت الكبيرة - وكان يحضر هذه (الرابعة) ويتطوع بالمشاركة فيها من شاء من  
الجيران - وفي ذلك اليوم كان سالم يتوجه مع أبوزيد البواب محمدين بالأرغفة  
المحشوة بالفول النابت لتوزيعها على المسئولين والمحتاجين المتطعين حول مسجد  
أم العواجز.

## ( ٢ )

في جلسات السطح شبه اليومية استمع سالم منذ صغره إلى كثير من  
قصص جده وذكرياته ، وكان كثير من هذه القصص يدور حول مقلعه وصديق  
شبابه ، الباشكاتب السيد السنابري ، الذي غلب عليه لقب «أبوخطوة» وكان  
الباشكاتب المحب للضحك والمرح يشهدج صوته وتعيم عيناه عندما يتحدث عن  
صديقه ، الذي لم يكن في العادة يذكره أمام أحد رغم أنه لا يغيب عن باله ، ولكنه  
لسبب ما اعتاد أن يحكى عنه لسالم منذ طفولته . ففي الوقت الذي كان فيه الجد  
كاتباً يحدث الكثير في محكمة (أسيوط) في مطلع العشرينات من القرن العشرين  
- سمع عن الكثير من كرامات هذا الرجل المبارك - بل وشاهد بعضها ، لكنه لم  
يصدق ما كان يروي له من كرامة الرئيسة التي أعلمته لقبه : أي أن السنابري قد شوهد في  
وقت واحد ذات يوم وهو يؤدي صلاة العصر في مسجد سيدنا الحسين في  
القاهرة ويحشى مشملاً في سوق أسيوط يصافح أصدقاءه ويتحدث إلى غيرهم .  
أقسم على ذلك أناس صالحون لا يرقى إلى شهادتهم أي شك : رآه بعضهم في  
العاصمة وكلهم البعض الآخر في أسيوط وجزموا بأن ذلك كان في الساعة  
الرابعة .

سأل سالم - الذي كان وقتها في التاسعة من عمره - في شيء من الانبهار  
والحيرة : كيف يمكن أن يحدث ذلك يا جدي؟  
فرد جده في خشوع : يمكن يا ولدي . يمكن لمن صفت نفسه وتطهرت روحه أن  
يفعل ذلك وأكثر منه بأمر ربه .

قال سالم وحيرته تزداد : ولكن كيف يصبح شخصين في الوقت نفسه . واحد في أسبوط وواحد في القاهرة ؟

انفعل الباشكاتب قليلا وهو يقول : وإن فما الفرق بين أبو خطوة وبقية الناس ؟ أنت الآن طفل ولكن عندما تكبر سنتهم .

سكت سالم ولكن جده شرد لحظة واستغرق في التفكير ثم قال في شيء من التردد : معك حق مع ذلك . لا يمكن أن يصبح شخصين . المقصود بالطبع أنه قطع المسافة من أسبوط للقاهرة في خطوة وصلى هناك ثم خطف رجله عائدا إلى أسبوط في وقت صلاة العصر أيضا .

وبعد ذلك ضم الباشكاتب حفيده إليه وقال بشيء من الفخر : كيف انتبهت إلى هذا في مثل سنك ؟ أنا نفسي لم أفكر في المسألة أبدا بهذه الطريقة . بالفعل طبعاً لا بد يكون قد ذهب ورجع . أنت ذكي ولك مستقبل كبير يا ولدي مادمك تستخدم عقلك .

فرح سالم لذلك كثيراً . ولكن الباشكاتب أصبح بعد ما حريصاً على ألا يجرح حفيده الطفل بالحديث عن الكرامات الكبرى المشهورة التي لا يستوعبها عقل . لم يحك مثلاً قصة إيقاف القطار المتحرك من أسبوط إلى القاهرة الذي كان يقل قاضياً أراد إيذاء أبو خطوة . وأهم من ذلك أنه عرف أن الوقت لم يحن بعد لحدث حفيده عما يخصهما معاً من قصص أبو خطوة . فاقتمرص في تلك الفترة على حكايات صغيرة كانت تعيب سالم ويضحك لها في كل مرة . منها عندما طلب أحد الحضورين فتجاناً من القهوة في مكتبة والباشمحضر في طرف القاعة الآخر وكلاهما مستغرق في عمله . إذ أخذ المحضر رشقة من القهوة ولكن لما مد يده ليأخذ الرشقة الثانية لم يجد الفئجان أمامه . وفي طرف القاعة البعيد كان أبو خطوة يقول متذمراً والفئجان في يده «فهو لك مسكرة أكثر من اللازم يا أخينا» .

ومنها أيضاً حكاية وكيل النيابة المتغطرس الذي (شخط) مرة في أبو خطوة . وحين خرج من عهده اكتشف بعد فترة أنه يسير في أزقة المحكمة حافي القدمين . فرجع إلى أبو خطوة يقبل رأسه ويستسمحه .

وكان سالم يستمتع بهذه الحكايات . ويستاء كثيراً عندما ينتقل جده منها ليمتحنه في دروس المحفوظات والقواعد .

لم يكن الباشكاتب قد رأى هذه الوقائع بعينيه . ولكنه رأى ما هو أهم منها . كما أن الكرامات لم تكن هي التي يهتف في شبابه . بل الرجل . عجز عن أن يفهم لماذا اصطفاه هو من بين الكثير من محبيه من موظفي المحكمة . علنه وهو موظف جديد كل تفاصيل العمل وأسراره . وفي أوقات الفراغ من العمل كان يحب أن يصحبه ويتجاذب معه . ولم يكن السنانيري يتخذ سمع الأولياء المسبلي العينين الذين يستغلون قسماً ويكثرون في أحاديثهم من الوعد والإرشاد . بل كان رجلاً بشوشاً يحب أن يصطحب وأن يمارح من حوله . ومع ذلك ظلت هناك هيبة تحيط به . هيبة لم تصنعها قصص الكرامات التي تروى عنه وإنما شيء غير محدد في عينه وفي حضوره .

وعندما منح توفيق محبته وثقته شعر الكاتب الجديد بأنه يخرع الباشمحضر عن حقيقة نفسه . وصمم ذات يوم على أن يبوح له بالحقيقة . قال له إنه كاتب وحيد لوالده الثري نشأ مبدلاً يجري في يده المال فلم يبخل على نفسه بأى لغة من اللغات . واعترف لأبو خطوة بأنه حتى بعد أن بدأ العمل في الوظيفة وانتهت سنوات الفراغ والطيش لم يستطع أن يكتبح نفسه .

ظل جسده العفى أقوى دائماً من عزمه . قال للرجل الصالح لا تتذرع بمظهري فأنا لست أهلاً لصحبة الأنقياء .

استمع أبو خطوة إلى اعترافاته في هدوء كأنه قد سمع هذا الكلام من قبل

وقال :

- ولكنك تندم على ما فعل يا توفيق أفندي، أليس كذلك ؟

فرد في أسف :

- بلى .. أندم ثم أعود كما كنت .

- التندم باب الحياة والحياة باب التوبة .

- ولكني قلت لك يا مولانا إنني أندم ثم أعود ؟

- لا .. أنت لا تعود لأن الزمن لا يعود . أنت لا ترجع إلى ما ندمت عليه لأنه

انتهى ولن يرجع .

- إذن فلما أرجع إلى ذنب جديد ، فما الفرق ؟ وما فائدة الندم ؟ قل لي كيف

أجد الطريق .

سكت السنانيري لحظة وبدا أنه يفكر قبل أن يقول :

- أراك تبتسم يا توفيق أفندي وأنت تعمل .. أرى زغلاط يصيوتك والناس

الذين يتكون للعمل يصيوتك . أراك لا تفكر في قضاء مصالح الناس بين الفقير

والغني . بل أراك تتجز مصالح الضعيف قبل القوى . كنت أضحك في سوري وأنا

أراك تفتح ملفات الدعوى التي يقدمها لك أصحاب القضايا لرفع قضائهم فتقول

لهم إنهم نسوا بدخلها نقودا ثم تردعا إليهم . لم يخطر ببالك حتى أن هذه

رشاوى وأنهم يدعشون لأنك تردعا ثم تقضى لهم مصالحهم بعد ذلك .

- وما علاقة ذلك بما نحن فيه ؟ قلت لك إنني أنتقل من ذنب إلى ذنب !

- فكر معي . إن أنت أحببت وتعذبت في الحب وصبرت طويلا على ذلك

العذاب ثم فزت بعد ذلك بمن تحبها . ألا يكون شعورك بهذا الفوز أكبر مما لو نلت

الوصال بسرعة ؟

- لا أفهيك شاميا يا مولانا وأرجوك أن تحدثني عن التوبة لا عن الحب . فإنا لم

يشقني ويضيعني غير هذا الحب !

قال أبوخطوة وكأنه يزينه :

- أخطأت هنا يا توفيق . الحب يقرب ولا يبعد .

- ولكن متى ؟

- سيأتي الوقت . ولكن تعلم يا ولدي ألا تطلب من الوقت إلا ما يأتين به ريثك

ورب الوقت .

عشرات السنين مرت على ذلك الحوار ومازال توفيق ينتظر الوعد .

ومع ذلك فليعترف بأن الحب أنقذه طويلا . وبأن الحياة بعد زواجه من سمية

لم تكن تشبه ما قبلها .

\*\*\*

اهتم الباشكاتب اهتماما كبيرا بدراسة حفيده سالم الذي تنبأ له بمستقبل

باهر . ولم يتوان في إرجاع طعم المواد التي يعرفها منذ المرحلة الابتدائية وحتى

شبه المرحلة الثانوية التي وصل سالم إلى سنها الأخيرة في عام ١٩٧٥ . كان

الباشكاتب الحاصل على شهادة «الكفاءة» الخديمة متضلعا في اللغة العربية .

يعرف أيضا التاريخ والجغرافيا . ولم يبخل على حفيده بتدريس في اللغة

الإنجليزية رغم إقامه بها بحكم دراسته ولعله فترة أثناء توظيفه في إحدى المحاكم

المختلطة التي كانت تستخدم الإنجليزية والفرنسية . وكان يغضب إذا ما رآه يهمل

في الاستذكار ويحذره : لو اهتم أبوك بمذاكرته لكان في حال غير الحال .

وكان سالم يعرف أن آياه لم يتقدم في التعليم بعد السنة الأولى الثانوية من

النظام القديم فاضطر الجد أن يوجهه للتجارة . وساعده في إعادة فتح «محل

السعدى لتجارة الأقمشة والمانيفاتورة» بالقرب من شارع السد المجاور للبيت

والمزدهم ببغلات الأقمشة ولكن تجارة شعبان السعدى لم تزدهم مثل تجارة

جده . كان المحل يدر دخلا معقولاً في أوقات حصص التموين التي يروج فيها

البيع وأثناء مولد الست الطاهرة الذي تكثر فيه الرجل في الحى . ولكنه كان يغطي

مصاريفه بصعوبة فيما عدا ذلك. ونقل الياشكانب رغم هذا يشجع ابنه ويساعده بالأموال ولم يفقد الأمل في أن المحل سيأتي من ورائه خير كثير ذات يوم. عُول على عودة بركة الوالد وأيامه القديمة، وسافر مرة إلى أسيوط ملتصقا نصيحة السانيرى بدعاه لولده. وكانت هي آخر مرة رأى فيها أبوخطة قبل أن ينتقل إلى رحمة الله.

ولم يكن سالم يتبادل كثيرا من الحديث مع والده أو يقضى معه وقتا كالذي يقضيه مع جده. كان شعبان مختفيا من البيت معظم الوقت وشبه مقيم في محل الأقمشة. وبعد وفاة زوجته المبكرة ترك شؤون البيت وتربية ابنه وابنته لجدعهما. ومع ذلك فإن شعبان كان صارما مع ابنه في شيء واحد هو منعه متعا بانا من اللعب في الحارة التي يقع البيت على ناصيتها. ضربه ضربا قاسيا ذات يوم عندما رآه يلعب الكرة مع الأطفال هناك. قال له: «هل هؤلاء الغبيس من مستوانا؟»

عرك إذن سالم وحذره من العودة إلى اللعب مع هؤلاء الأولاد. وحذره أيضا بصفة خاصة من أن يحتضنه أحد أو يلعب مؤخرته سواء في الحارة أو الشارع أو المدرسة قائلا بشيء من الغضب عبارة لم يفهمها سالم في وقتها «أنت جميل كالبنات فحاسب على نفسك».

ولم يفسد سالم كثيرا لامتناعه عن اللعب في الحارة. كان يحب لعب الكرة ولكنه يتسابق من مشاجرات الأولاد وسبابهم الفاحش للأب والأم أثناء الشجار. وكانوا هم يسخرون منه وراء ظهره ويتندرون على أدبه وإن لم يجزؤوا على إيدائه بسبب مكانة جده في الحي. ولسبب آخر أهم وهو أن سالم منذ صغره كان طويلا وعريضا بالنسبة لسنة وكانوا يحتاجون إليه دائما كهارس مرمى لفريق الحارة لاسيما عند اللعب مع فرق الحارات الأخرى. ثم أنه عندما تشاجر معه ولد مشاعب ذات مرة وجرب قبضته القوية لم يفكر هو أو غيره في إعادة المحاولة.

وكان سالم بطبعه يكره الشجار والعنف بالحركات أو الكلام. لهذا استجاب لأمر والده.

وهكذا فقد شب بون أن يكون له أصدقاء من سنه، سواء من جيرانه أو من زملاء دراسته. ظلت صديقته الوحيدة الحقيقية القريبة من قلبه هي أخته فوزية. فمع أنها لم تكن تكبره إلا بأربع سنوات، إلا أنها حتى وهي طفلة في الثامنة من عمرها كانت تعامله كأنه بعد وفاة والديهما. اعتادت أن تطعمه بيدها وأن تغير له ثيابه وتأخذه إلى الحمام. وعندما بدأ يذهب إلى المدرسة كانت تصحبه حتى بابها قبل أن تذهب هي إلى مدرستها، أما في العودة فكان أبوه أو جده هما اللذان يصلحانه إلى أن تعلم العودة بمفرده. وبمجرد رجوع فوزية من المدرسة كانت تعد له ولجدها الفيا. ولعب لهما ألعابها المفضلة التي علمته إياها: «الكرتشة» و«السلو» و«الغبان» و«أحيات» و«المنغماية». وكانت تساهل عما حدث في المدرسة في يومه فيحكى لها وتراجع بنفسها كإريس وأحياته قبل أن يتولى جده هذه المسؤولية قائلا ما دبت بينهما المشاجرات الصغيرة المأقوفة بين الأخوة. ولم يخلت أبدا أن اشتكى أحدهما من الآخر إلى والدهما أو جدعهما. بل كانا يبيكان معا في خلوة إذا ما تعرض أحدهما لأي عتاب.

وعندما بلغت فوزية سن الخامسة عشرة اضطرت إلى أن تتفرغ تماما للبيت. كانت قد أصبحت امرأة حقيقية طويلة. ذات قوام ناضج كامل الاستدارة، ووجه صبور تنيره عيناها الزيتونيتان ومحيطه كامها شعر كستنائي ناعم ومسترسل. وبدأت المشاكل عندما سُمع في البيت أن شبانا يلاحقونها ويعاكسونها منذ خروجها من باب المدرسة. وجروا أحدهم ذات مرة أن يشيعها حتى باب البيت. وكان من سوء حظها أن رآه سالم من الشرفة فهبط بسرعة البرق وفي يده عصا جده الثقيلة وأتتال بها ضربا على العاشق الذي اضطر إلى الهرب جرياً. وسالم

الصبي بالإحقة حتى اختفى من الأنظار . وبعد تلك الحادثة أمر والدها بأن تبقى فوزية في البيت ، لم تكن قد أنهت السنة الثانية الثانوية فاعترض جدها قائلاً : انتظر يا شعبيان علي الأقل حتى تحصل على الشهادة ، فرد شعبيان : البنت مصيرها للزواج يا والدي ، قال والده : ولكن الشهادة سلاح في يدها ، فقال شعبيان : لن أزوجها لشخص تحتاج معه إلى أي سلاح . ثم أضاف فيما يشبه الضراعة : لا نتقختنا المشاكل يا حضرة الباشكاتب ، البنت بتيمعة وفي سن خطرة .

رأى الجد أنه لا يستطيع المجادلة في قرار يصير عليه الأب . أما فوزية نفسها فلم تهتم فالت باستهانة «ومن التي تيكلي على (العلام)» . البيت أحسن ألف مرة .

كانت تعي تماماً أنها جميلة وأن الزواج لن يتأخر . فمذ وقت كانت تبادل جوارها (فراج) الطالب الصبي والمعلمين أن يغير بذلك أحد في الأسرة ، بدأت الغرفة من شباك الطيع الذي يطل على منزل فراج في الحارة ، وكانت تنتظر معه أن ينتهي من الدراسة في الجامعة ليتم الزواج .

\*\*\*

وفي تلك الفترة عندما كان سالم في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره حدث شيء غير متوقع .

قبلها لم يكن سالم يشير إلى مشكلة في البيت ، كان طفلاً عادياً ، محبوباً في أسرته ، ناجحاً في مدرسته ، صديقاً مقرباً لجدته وأخته . وإن ظل صموتا معظم الوقت ما لم يكلمه أحد . غير أن تلك لم تكن مشكلة ، بل اعتبرها جده ميزة وأسماه «عبادة بن الصامت» تيمناً بالصحابي الجليل . ولم يكن أحد في البيت يعرف من هو عبادة ، ولكنهم كانوا يضحكون عندما يطلق اللقب على سالم المزوى في صمته الطويل ، بل كان سالم نفسه يشترك أحياناً في الضحك .

- ٢٠ -

حدثت المشكلة الحفيفة ذات مساء شتوي ، والأسرة كلها مجمعة في البيت بعد العشاء في الصلاة . وقل سالم بعيداً عنهم بجوار حائط وكان يهتز للصين واليسار بحركة بسيطة منتظمة ويده خلف ظهره وكأنه يلعب وحيداً ثم فجأة انطلق يقول بصوت مرتفع «يا عجب ! .. يا ثامة !»

التفتوا نحوه في دهول وكان هو يصوب نحو جده وأبيه وأخته نظرة ثابتة لا يطرف له فيها جفن . وبعد تلك البداية اكتمل بنفس الصوت المرتفع والنظرة المركزة أنهم «حوش وتربية حوارى وأولاد مستين» ثم راح يسهب في شتائم جنسية بذينة لا تخطر على بال أحد في هذه الأسرة .

ظلوا ينظرون نحوه مبهوتين وهم لا يصدقون أذانهم ، وعندما بدأت الشتائم الجنسية أفلتت من فوزية ضحكة عالية بالرغم منها فنظر لها أبوها نظرة قاسية ثم نفخ في الخمال والبال على ابنه بالضربات واللكمات وهو يأمره أن يفرس فلم يفلح في إيقاف سبل الشتائم المتدفق ، ثم سد فمه بيده بينما راح سالم يتململ منه وتطلق من فمه أنصاف الشتائم كلما استطاع الإلتفات من قبضة أبيه .

قامت فوزية أيضاً وكانت تحاول أحياناً أن تنقذ أخاها من الضرب وتتلفاه على جسمها بدلاً منه . وأحياناً أخرى تشارك في ضربه عندما تجد أن بذاته قد زادت على الحد . ولكن شيئاً لم ينفع في إيقافه لا الضرب من أبيه ولا الملاينة من أخته إلى أن هدأ أخيراً من تلقاء نفسه وجلس على الأرض وهو يلثث .

كان أبوه وأخته يقفان فوق رأسه ، وقل شعبيان ينظر له في غضب هائل ثم قال بعد فترة :

- من علمك هذا الكلام الفلن يا ولد؟

فقال سالم بصوت مهجد ودهشة شديدة:

- أنا يا أبى ؟ أي كلام قتر ؟

- ٢١ -



وبدا واضحا أنه لا يذكر أى شيء مما حدث .

وطوال هذا الوقت ظل الجدة جالسا في مكانه وهو يكرر بصوت متهدج «سلام قولة من رب رحيم .. سلام قولة من رب رحيم» يعلو صوته ويشتعل مع إبتاعات عاربات حفيد .

تجابت أخت الأسرة ما حدث بعد ذلك ولم يتطرق إليه أحد . ظل جده يراجع له دروسه ويصاحبه إلى صلاة الجمعة كالعتاد . ويرقيه بين الحين والآخر وهو يضع يده على رأسه ويظل الموعظتين ثم إنه علق حجابا قديما في صدره وتصحبه بشدة ألا يتزعزع من مكانه . وعندما كانت فوزية تطوف بالمبخرة في البيت صباح الجمعة كانت تبتلع ، يتذكرها حامي ، هي تدبرها حول رأسه وهو له في سرها . ولكن هذه الغيبة من القديان تكررت بعد ظهوري أو ثلاثة بالطريقة العادية نفسها .

كانت الأسرة مجتمعمة بعد العشاء في الصالة ودار حديث غابر عن أن تاجرا ثريا في السوق تقدم إلى شعلان بطلب يد فوزية فرد غلبه شعبان بما يعرفه وما أكدته فوزية فكثر من مرة وهو أنها لن تفكر في الزواج قبل أن ينتهي محال من الثانوية العامة . وقال الجدة ضاحكا : وكنت تستطيع أن ترد عليه بذلك يمكن أن تسأل السن لو زوجت فوزية قبل بلوغها السن القبلية . فقال شعبان : لا يسمع هذا من عند الخطوبة إلى أن تبلغ السن . لوحت فوزية بيدها وقالت سحابة ضحكات جدها : لا سجين ولا خطوبة ولا زواج قبل أن أزوجهكم أتم الثلاثة . . . لابد أن أطمئن عليكم جميعا أولا في بيت العدل . ثم ذهبت بفهجة جادة وحاسمة ليس قبل أن أطمئن على سالم في الجامعة . وبعد أحاديث أخرى عابرة قاموا جميعا لمشاهدة المسلسل الكوميدى في التلفزيون الذى اشتراه الجدة حديثا وعلت ضحكاتهم . لكن سالم انتبه بهم وذهب إلى جوار الحائط وبدأ اعتزازه الثقيل المنظم ثم بدأ سيل الشائعات من جديد . بعد تلك المرة أصبر أبوه على أن يصحبه

إلى طبيب نفسي رغم أن الجدة لم يخصص أبدا لهذه الفكرة . كان يرى أن هذه مشكلة عابرة ستنتهي مع الوقت ومع الدعاء الصادق بأن يكشف الله عن محال الكرب . لكن شعبان أصبر على وأيه .

كان الطبيب النفسى الذى سمع عن مهارته عجوزا يبنو على وجهه الإرهاق وتعبير لفت نظر شعبان . كفته نقاد الصور أو الاستعداد للانفجار في أى لحظة . لكن على العكس مما تصوره فقد قضى الطبيب وقتا طويلا مع الأب على انفراد واهتم بأن يسمع ويأن يعرف أوضاع الأسرة والطريقة التى يقضى بها سالم وقته ثم سأل عن حاله في الدراسة .

قال الأب إن سالم تلميذ عاды لم يرسب في أى مادة وإن لم يكن أبدا من الأولاد . سمع من ماريان الطبيب طول له سافوي في ماله . وهو يحصل بالفعل على درجات مرتفعة . بل على المرحلات الدراسية في بعض التخصصات . ويحبها في مدرسته يستقل كبير في شوم الرياضة .

وفي المرات ٧

لا .. درجاته عادية

سأل الطبيب إن كان مستواء الدراسي قد تكرر بعد هذه الثوابت فقال شعبان إن جده الذى يشرف على دراسته . لم يلاحظ أن مستواه تغير . كما أنهم لم يتلقوا أى شكوى من المدرسة .

سأله أيضا إن كان قد لاحظ عليه أى شيء غير عاды قيل هذه الثوابت أو بعدها . هل تصيبه حالة من التشنج مثلا أو الإغماء ؟

لم يلاحظ شيئا من ذلك ولكن أخته تقول إنه تأتيه أحلام وكوابيس في الليل .

يشم الطبيب : أخته تقول وجده يذاكر له . أنا أسألك أنت!

هو ، لم يستطع أن يقبض شيئا غير أنه قال إن عيلى سالم كانتا تغيمان  
أثناء الثوبية ، ويسمى أنه لا يشعر بأى شىء حولوه وحين تنتهي يمدو عليه إرهابا  
شديدا ولا يذكر شيئا مما حدث .

ولكنه تذكر شيئا فقال إن سالم ظل يبول في فراشه حتى سن السادسة أو  
السابعة .

أشاح الطبيب بيده قائلا: عاды! ألم تقل إنه فقد أمه في الثالثة من عمره؟  
لمحس الطبيب العجوز سالم بعد ذلك بدقة ، أجرى عليه كشفا بالأجهزة ووجه  
إليه أسئلة وأعطاه أعلايا مفككة من الكرتون ليعد تركيبها وعرض عليه مسورا  
غريبة الأشكال طلب منه أن يحدث عنها براء فيها .

وأخيرا اختفى الطبيب بأدب مرة أخرى وعاد يسأله فيما يشبه السبيل  
في المسئلة ؟

أسرع الأب من جديد حكايته التوبيز التي أصبحنا سالم والتمساح التي  
بطلتها .

قال الطبيب وهو يحول وجهه المحتفل عن الأب والله أنه شخصيا أفعل ذلك  
في سرى طوال اليوم وليستنى أيوح بهذه التسميات مثل إبتك ما اكشتم من  
يستحقونها !

أشكت دفتة الأب وبدا ذلك في تنفثته فعاجله الطبيب في صمم .

« الولد طفل عاды فافركوه في حاله »

قال شعبان مسمحا :

« ولكن يا دكتور الأطفال العاديون لا يشعرون بأياهم !

« بل كثيرا ما يشعرونهم في سرهم .

« أنا لم أشم أبى في سرى أبدا .

« أنت حري »

ثم غير الطبيب الموضوع : اسمع ، كنت أستطيع أن أجعلك تذهب وتجيء إلى  
العيادة دون داع كما يفعل عيوى ، ولكنى لمحضب الولد وأجده سقلا أدكى من  
الموسط وأنت تقول إن سمواته في المدرسة لم يتغير ، وسؤركه عاды باستثناء هذه  
الحالة التي لا تأتيه إلا في البيت ووسط أسوته فمعا هو الخطر ؟ هل تعرف ؟  
عندما كنت أنا في من إبتك كنت طفلا متطوبا على نفسي وكانت تأتينى حالات  
تزيق من الأنف وإغواء التزعج لها أهلى ولم يستطع الأشباء علاجها ولكنها ترفقت  
من تلقاء نفسها بعد من المواقفة .

لم يستطع شعبان أن يلهم العلاقة بين تزيق أتب الطبيب الطفل وحالة والده  
ولكنه قال وهو تخير كلماته ولكن ربما يمكن يا دكتور أن تتطور هذه الحالة وتأتيه

خارج البيت أيضا .

قال الطبيب في صمم : « ممكن جدا إذا استمرت حياته كما هي وكما فهمت  
من كلامك ، يجب أن يتزده هذا الولد خارج البيت أكثر مما يفعل الآن .

ورغم إلحاح الأب فإنه لم يكتب براء ، ولم ينصح بنى علاج آخر .

لم يفتأ شعبان بتشخيص هذا الطبيب ، ومحب سالم بعد أباء . وبعد أن  
استشار أكثر من شخص - إلى طبيب آخر مشهور عيادته في باب اللوق ،

لم تخفف أسئلة هذا الطبيب ولا طويته في الكشف عن الطبيب الأول إلا أنه  
كان أسرع منه في كل شىء ، ولم يقل للأب أى عبارات مطمئنة بل طلب إجراء

رسم مخ لسالم . كان يشك في احتمال إصابة الطفل بالصرع ،

ومع أن نتيجة هذا الرسم لم تكشف أى شىء غير عاды لم يخف سالم ، مما  
خير الطبيب إلى حد ما ، لقد كتب (روشة) طويلة فيها كثير من العقاقير ، على أن

يعود لرؤية الطبيب مرة أخرى بعد انتهائه من تعاطى الأدوية .

وبعد أيام قليلة من هذا العلاج أصبح سالم يقضي تباركه كله في المراض  
وعندما يصحو كان يسير في البيت مترنحا ويرطم بالأثاث ويسقط أحيانا في

الأرض ، وانقطع بضيعة الحال عن المدرسة .

كان سالم في نهاية السنة الثانية الثانوية - قبل عام تقريبا من حصوله على الشهادة التي انتشرتها قوزية طويلا - عندما تقدم جازهم فراج ليطلب يد أخته .

استقبله رجال الأسرة الثلاثة في حجرة (الباتون) . وشكر سالم أنه وآه عدة مرات في الطريق خارجا من الحارة أو داخلها إليها، وأنه كان في بعض الأحيان يرفع له يده بالضمية فيردها له سالم بالمثل ولكنهما لم يتبادلا أي كلام . جساء مرتبلا قسيما آبيش جديا وينظونا وعاديا . وكان شاكيا ومسيما . طويلا ومقول العسل . حياجا عجبا . أليس شعر غرس فاحم السواد يمتدحه بفرق في جاذبه وكانت عينا السوداء ان تلمعان حين يركزهما على مسدوده قيتيش وجيهه كنه مدموية . ويرسم على ملامحه انتماة ضيعة دامة .

ومع شاول الشراب وعبارات البروجيب والجملة قال فراج إنه جاز لهم مدة ويعرف الكثير عن سمعة أسرة حضرة الباشكاتب الطيبة والذائعة في الحي . كنه . وأنه يشرفه كثيرا أن ينتسب إلى هذه الأسرة الكريمة . كان يتكلم بلهجة شديدة التهذيب ولكن مع ثقة واضحة في النفس .

سأل شعبان - الذي استلزه أن يحضر فراج لطلب يد ابنته زين أن يكفه تلكه عذا الرضاء بذلة كاملة - سأل بعضي من الفتور فإذا لم يتشرفوا بمقابلة السيد الزائد في هذه المناسبة؟ فاعتذر زين والديه الثقيلين في القربة عجوزان لا يحتلان مشقة السفر ولكنهما سيحضران بالتأكيد إذا ما تم الله بخير .

سأل شعبان ، بالهجة نفسها ، عن اسم هذه الفتوة ومكانها . لكن الباشكاتب فاطم استرسل هذا الاستجواب وخاطب فراج مع ضحكة صغيرة : «سألتني أنا يا

بكت فوزية كثيرا» وهي ترى سالم في هذه الحالة وقالت لجدتها : «دعوه يشتم كما يشاء يا جدي . لن يموت أحد من الشقيقة ولكن أخى سيموت من هذا العلاج : كم أبي .

وبعد ظهر أحد الأيام دخل الجد إلى غرفة سالم فلم يجده هناك . بحث عنه في كل الغرف الأخرى وفي المطبخ والحمام بن جدي . وأخيرا عاد الباشكاتب إلى غرفته هو وفشش جيدا فوجد سالم يتام على الأرض منكورا أسفل سرير جده . فحمله برفق إلى غرفته ووضعه على فراشه . شعر به سالم ففتح عينيه بصعوبة وقال لجدته بصوت واهن : «قال لي يا جدي ، هل أنا مجنون ؟

فأنتحي جده وهو يعضضه في صدره بقوة وقال بصوت جفشق : لا يا ولدي ، بل نحن المجانين .

ثم إنه جمع كل العقاقير والأدوية التي اشتراها الأب ونقى بها في الإناء وأدخله ولفل شيئا تادرا ما يلفله إذ وقع صوته وقال لاينه في غضبه : ابعده يا شعبان عن الولد وأتركه في حاله .

اجتمع الأب باسم الطبيب المشهور والمبلغ الكبير الذي لمعه من ربح الكسفر والأدوية . وقال إن العلاج لم يثن جده حتى يحكموا على قاتله . لكن غضبه الجده اكتسبت كل الاعتراضات واضطر شعبان إلى أن يترك سالم في حاله بالفعل .

تحدروا بعدها على التزام العنت وتحويل أظفارهم بعيدا . متدما تتابه تلك الحالة التي أحشهم . وأراحهم أيضا . أنها لا تكتفي خارج البيت . وكما تنبأ الجد فقدم تلك الثوبت مع امر البشيين وأصبحت فائدة الصدوت حتى أوشكت أن تختل . ثم بدا للجميع بعد سن الترافلة أنها قد أخذت بالفعل .

ابني عن مشقة السفر، حتى مشاور القليلة أصبحت أعتبره في سنى هذه سفرا بعيدا، ودهش شعبان لأن هذا لم يكن صحيحا، إذ كان الياشكايب يخرج ويمشي كثيرا كل يوم. ومضى الجد يسأل فراج بامسأ عن نوع تراسمه وعطه فقال إنه يخرج في كبة التجارة قبل شهور وكان مصنوفاً إن صبه الحوى العاطلة في شركة قطاع عام الجعابن في حلوان. والعطى للأخ سالم إن شاء الله.

تدخل شعبان مرة أخرى ليسأل عن مرتبه في هذه الشركة، وعندما سمع المبلغ أصمابه الذبول وسأل: وكيف تنوي يا ابني أن تفتح بيتاً بهذا المربأ؟ رد فراج بأنه والعهد له مرتب كبير بالفعل يزيد عن مرتب زملائه الذين عينهم القوي العاملة في الحكومة. ثم إنه عندما كان في الجامعة كان يدرس ويحصل بأقل من نصف هذا المبلغ. فكيف لا يكفي بئسكه الآن لاثنين؟ قال الأب: وعندما تثجب أولاداً بإذن الله؟

فرد الشاب: سيكون المرتب فدراراً. فقد لاحظت أن هذه الشركة عديدة ومستقبلها كبير، ستكون الثروات فيها أسرع من غيرها، بل هناك لا تحصى كلام عن احتمال بطري في بعثة إلى ألمانيا الشرقية، لأننا بعد أن انتصرنا في حرب أكتوبر بعدد الله ستلتفت الحكومة أكثر إلى الاقتصاد وستركز على الصناعة بالذات. ولو فرجها ريتا بهذه البعثة إلى ألمانيا قريباً فستتمكن من ادخار مبلغ كبير والشركة.

سأله الجد: وبمناحية الحرب ماذا عن فترة تجديك؟

لقال فراج: أنا معلى لأني وحيد والدتي ليس لي سوى أخت واحدة متزوجة في البلد. ولكني كنت أعتنى مع ذلك لو شاركت في حرب أكتوبر، إيتسم الجد قائلاً: إذن فلي هذه الفرصة أربعة معقبون من التجنيد للسبب

نفسه

لكن هذه المقاطعة من الياشكايب للمرة الثانية لم تعجب شعبان الذي عاد يسأل

- تعنى يا أستاذ فراج أن مبلغ المهر والشبكة غير جافز؟

فرد ببساطة: بالطبع لا. من أين؟ تعب والذي الزواج حتى بهر مصاريق تملين. وألآن يجب ألا أطلب منه شيئاً بعد أن توفقت. بل جاء دورى لأرد له الجميل.

مضى شعبان وهو لا يصدق نفسه: إذن فبببببببب الأسرة في البلد أيضاً من مرتبك؟

غابت ابتسامة فراج لأول مرة وتصلب وجهه وهو يكرر: بالطبع. يجب أن أود لأبى وأمى الذين

شغلوا عني منذ مولدتي من الحوار: هكنا يتصرف أولاد الأصول. مبارك عليك يرك بوالديك يا أستاذ فراج ولكن أين تنوي أن تسكن عندما تزوج إن شاء

الله؟

في شقتي.

ارتفعت صيحة سالم حادة ورفيعة: في الحارة؟

فتفكر له جده نظرة صارمة. كان قد حطره قبل زيارة فراج من أن يفتح قبة بكية. قال له هذا موضوع يتكلم فيه الكبار فقط.

أخلى سالم رأسه على مضض وهو يكر على أسنانه لكن فراج رد وهو يعاود الاستمارة.

- نعم يا أخ سالم، في البداية على الأقل، إلى أن تدخر مبلغاً يكفي للسكن في مكان أفضل. وسيمعدت هذا صدقتي. ربما بعد البعثة ببببببب.

ثم اتسعت ابتسامته وأشرق وجهه مرة أخرى وقال: أنا يا حضرة الياشكايب ويا عني شعبان ويا أخ سالم إنسان متفائل ورائق من المستقبل بغضيل الله.

شاركوكي في التنازل وستكون أيتكم في غيري

أنتك شعبان أن يقول فراج إن انفال في هذه الظروف يكاد يكون وقاحة.  
لكنه مضط على نفسه وقال :

- ولكن لماذا لا تنتظر يا ابني حتى تكون مستهلك قبل أن..

فاستمرت مقاطعات الباشكاتب لشعبان وقال مخاطباً فراج :

- أنا أيضا يا أستاذ فراج متقاعد مثلك دائما وأحب المتقاعدين.

ثم أكمل بلمحة من بريد انتهاء المقابلة : وإذن فعلى خيرة الله. أترك لنا قرصة  
للتشاور ولكني سأل ابتداء عن رأيها وسيكون الرد خيراً بإذن الله.

ثم نهض وصالح الخاطب وسط نظرات الدهشة من الابن والحفيد . وبعد أن  
ودعوه حتى الباب وانصرف الفجر شعبان مدهماً :

كف وقتك الجواز إذا جرى لشبان هذه الأيام

غير أن الباشكاتب قال : خال يا حبيب . أريدك في كاهن .

ودخلا من جديد حجرة الجلوس ، أما سالم فلقد توجه بنقله إلى حجرة الخنة  
التي كانت تجلس على السرير مستعدة بمرافقتها إلى الحاج وتبدو مسعدة في  
الفكر . وعند فتح الباب من صف جاست على الفور ما يور في راحة

فواجهته باهتمامة مختصة عندها قال :

- هل رأيت ؟ - جدي بدلاً من أن يطرد.

- لماذا تريد أن يطرده يا سالم ؟

- فلاح ومثل وسكن في المدينة ومعلم أن تملك فينا نعد . تصدري ؟

سكنت فوزية فاستحطها سالم وهو يشعر بالخوف : ستولقمن بالطبع ؟

أحدث فوزية وأسميا وقالت لست أنا التي تقبل أو ترفض يا سالم . الرأي لأبيك  
وجداك.

صحيح مستنكرا ولكن غضبت أكثر من مرة ولم تسمعي كلام أبيك أو

جداك فما معنى ..

ثم صرخ فجاء في البيت .

قامت فوزية واحتضنت أخاها بشدة وراحت تقبله وهي تقول :

- أمنت الآن يا سالم . أرجوك انتظر ما سيؤول أبي.

وكان أبيها وقتها يردد كلاماً مشابهاً في مواجهة الباشكاتب بكاد بلونه لأنه  
لم يترك له الفرصة ليرفض هذا الخاطب على الفور . كانا يجلسان على مقعدين  
متقابلين وتكن الباشكاتب ظل محتفظاً بهدونه وهو يسمع إثني أنه الثائر بكيل  
الشاتم للجار الواقع الذي تجرأ...

غير الباشكاتب مكانه رجلي على مقعد مجاور لولده وتكلم بصوت خفيض :

- نعم . معك حق يا شعبان . أنا أيضا مثلك أتمنى مستقبل أفضل لفوزية.

يعرف أن هذا الشاب لا يفتأ ملياً غير واثق . وأعرف أن تسكن الذي سرت من  
تعمل في فوزية . لا يرب على حذر من صبرتي .

- بالطبع لن تعيش فيه ! إن أوافق أبداً.

ثم انه لقي . في حديث والده فاستدرك ولكن كيف عرفت محسناً أن منزله  
من حجرتي .

وأد صوت الجت خفوتاً حتى كاد يهسي

- فوزية هي التي قالت لي .

- وما أراها هي ؟

- هي ثوري .

- كيف ؟

سكت الجد وهو ينظر في عيني ولده . فارتاع شعبان وهي واقفا وظل يقنطر

لديه صامتاً الخوف من أن يهسي بدوره

- تقصد .. ؟

نعالجيه الجذ : لا أقصد شيئا يا شعبان!

ثم أحضر رأسه وكأته بكم نفسه : تمنيت لو مرت هذه الليلة على خير . تمنيت على الله أن تقبل هذا الشاب لأن ابنتك شريفة ، تمنيت ألا تسكني من شيء . ولكن . . . سأنت مرة أخرى ثم خمس وفي صوته لحنه : ذروني ابنتك بسرعة يا شعبان .

ظل شعبان يثقل في مكانه يقامته الطويلة النحيلة مبتلا على أبيه بوجه متعثر

وعينين مغمورتين تحسبان الدموع ، ثم قال بصوت مرتجف

- أنت أفسدت حياتي يا أبي !

وقف الماشكاتب بدموعه وعفلات وجهه ترتعش

- أنا الذي أفسدت حياتك يا شعبان ! كيف؟

- أتخيلت مني أولادي وضعيتهم كما ضعيتني !

كان جسد الماشكاتب كله الآن يرمف ويبض بعضه وهو الذي كان يحدق

أعداء ويندهل إلى عصفه عين مصدبه

منى : كيف ؟ . . . . . شرفي يا . . . . . منى . . . . . أنت تعرف شيئا أنتي . . . . .

إن أعرف شيئا؟ هي ابنتك . . . . . لماذا بعد أن صنعت على أن تطيعي أمك أنتي . . . . .

ترافقها؟ أنا متعنت يا شعبان؟ وكيف كذا؟ يمكن أن أعرف؟ هي بالأسفل

كملت وأنت التي حدثت شباب الموضع عندما جئت في أشغال .

كيف . . . . . حتى كان يمكن أن أتكلم ، ومائة كلمة سأقول لك .

ثم نفذ القفزة على السجينة على نفسه فارفع صوته : خذ أولادك يا شعبان

واترك هذا البيت لتربيهم كما تشاء متى . . . . . فل هي متى فمتك أنا من أن أغترب

منهما أو من أن تربيهما؟ متى أفسدت حياتك؟ قل . . . . . لماذا لا تتكلم ؟ كل شيء

حارله معك ولكن . . . . .

ماذا كنت تريدني أن أفعل ؟

كان شعبان يثقل مستغرقا في حبة لا يكاد يفقه ما يقوله أبوه أو أن يتابع توبته . . . . . غمره إحساسه بالاعمال والغضب والهزيمة . . . . . فترك أباه وألقا وسط العرقلة والتدفع خارجا ليجد سالم وفوزية يتفان مذعورين في الصلاة لا يرتفع صوت أبيهما إلى وجه الماشكاتب لأول مرة . في حياته . . . . . حديجها أبوهما ينظره غاضبة ، فكان تكون كارثة . قبل أن يخرج من البيت ويصطف الثياب وراءه .

\*\*\*

وفي تلك الليلة غزت سالم أحلام وكوابيس كثيرة . في البدء وأوتة أمه . التزمت

منه واحتفتلته وألقته شيئا الترضع . فقال أنا كبرت يا أمي ولكن مع ذلك راح

يوضع في نيم شديد قبل أن تفرغ لديها فجأة وتقول كيف؟ ألم تصبح رجلا يا

سالم ؟ قال ولكن يا أمي . . . . . وهو بعد يده في يده لشعبان الذي يشر منه اللين نور

إن سمعته صوته يصرخ يا سالم . . . . . وعينيك في فمك في عند الكوبري وسط الترس . . . . .

و لا . . . . . فليت . . . . . هل يسري وراءها وهو يقدري لكن يا أمي . . . . . لكن يا أمي : فجاء

شعبان فمعصكا بعضا الماشكاتب التي أصبحت فجأة أطول من أبيه نفسه وراح

يتلمس كسالم على بطنه وهو يقول أخرجني ؟ أخرجني يا ولدي ! وهو يمدل وسط

شعبان نفسه ما الذي أخرجني؟ خذ كل شيء . . . . . واتركني . . . . . غير أن العصا صارت

خنجرا مشرعا في وجهه ولم يكن الشقمين الذي يفصل الخنجر أباه فارتعب وراح

يصرخ . . . . .

ولم يشعر سالم باليد التي جاءت تصيح جبينه وتهدهده وشجفده عرقه وتعديل

وضيحه في الفراش إلى أن دنت ارتجافه وشجيحه . . . . .

لكنه في الصباح كان مجنونا وكان شاحيا . لم تعاوده توبة البهتان كالمعتاد

بعد الكوابيس . بل فوق في صمت عتيق . . . . . حدث في تلك الليلة شيء . . . . . كان قد لوفف

منذ فترة طويلة . إذ يال في فراشه . . . . .

\*\*\*



تجاء الباحثين إلى شرفته وبقي فيها طويلاً، جالساً يقتلع معهم إلى الطريق الذي دائماً ما تسري عنه حركته وعابروه ولكنه ظل يفكر لول أن يرى أو يسمع. كيف استطاع شعبان أن يقول ما قاله؟ ضيقه وضيق ولديه مرة والحقيقة ماذا كان يوسعه أن يفعل لهم أكثر مما فعل؟ أعطاهم عمره وماله وحبّه، فهل يستطيع الحب؟ ماذا يقول أبو عثوة في هذا وفي الحب الذي يتقرب ولا يبعد؟ هناك لحظة ما، فما هي؟

أي أب كان يستطيع أن يفعل أكثر مما يذل هو لشعبان؟ أصعب قبل أن يولد بقدر حبه لسمية، أخيه كجور، من الغالية التي ماتت حياته قبل أن يكون ولده، ولكن حتى في طقوسه الباكورة وقبل أن تمت أمه كان بعيداً وثانياً. يجب أن يلعب وحده ولا يريد الاختلاف بغيره من أطفال الجيران. بعد أن ماتت سمية عسى له أباً راضياً، يطعمه ويلبسه ويذاكره دروسه ويكاد، بلازمة طول الوقت، ومع ذلك لم يلب شعبان مصيبتاً ووحيداً. رواده الأمل في أن يغير ولده بعد انتقاله إلى محكمة في القاهرة فبيل وفاة سمية. كان شعبان وقتها في العاشرة من عمره، وكان البيت كليم يعيشون كمنسوبة واحدة، نعى أن يشجعهم ذلك على الخروج من البيت والتعب مع أولاد الجيران لكنه لم يفعل. أراد دائماً أن يبقى وحده ولم يعرف هو أبداً ما الذي يدور في رأس ولده، أم أنه في الحقيقة لا يوجد أي شيء يدور في رأسه؟

يفكر دهشته حين كان يذاكر له دروسه في المرحلة الابتدائية، يذكر عجزه عن أن يكتب ولو سطراً قليلاً في أي موضوع للإتشاء، اعتاد أن يشرح له الموضوع، ويزوده بالعناصر التي يمكن أن يكتب عنها، ويعطيه ما يسمى بالجمل المفيدة لكي يستعين بها في كتابة موضوعه، فلم يكن يفعل غير أن يعيد كتابة هذه الجمل، كان محروماً من أي خيال، وأحزنه كذب في آخر الأمر أن يسلم بأن ولده لا يملك أي

ذكاء. لم تكن مسألة الدروس الخصوصية معروفة أيامها في مطلع الأربعينات ولكنه جاء له مدرس من لكل المواد فاشتكو جميعاً من بقاء فهمه.

بالكاد استطاع أن يعبر به مرحلة الدراسة الابتدائية ثم تعسر بعدها، ظل يربص في أول سنة من المرحلة الثانوية ويعيدها المرة بعد الأخرى إلى أن فصلوه من المدرسة الحكومية، أدخله مدرسة أهلية ظل يطلع لها وللمدرسين الخصوصيين معلّم مرتبه ومع ذلك لم يتقن شيء. وأخيراً، بعد أن أصبح له شارب كح وأشرف على العشرين من عمره اضطر أن يسلم وأن يقطع دراسته. أعاد فتح محل الحاج السعدى على أمل أن يعطى السوق أية ما قضت فيه الدراسة، لكن شعبان لم يكن هو الحاج السعدى الذي عاش عمره صديقاً لكل وجيرانه في السوق يضمهم ويخدمونه، يطلب لهم الزبائن ويجلبون له، بحبه زبائنه ويحبون معاملته لهم رسالته عن أخبارهم وعن أحوال أولادهم فيرجعون إليه باستمرار. لم يستطع شعبان أن يفعل شيئاً من ذلك، عجز عن أن يصادق أحداً في السوق بعد أن عجز قبل ذلك في البيت.

أين كانت غلطة إن وأين كان قصيره؟ أو لم يستجب بعد ذلك لطلبه بالزواج بعد أن فتح له المحل؟ ليته ما فعل! فليستغفر الله. كيف كان له أن يعرف ما يقينه القدر؟ فعل أيضاً أقصى ما يوسعه. زوجته فتاة مهذبة من فتيات سمية ومن قريبتها، وكانت سعاد جميلة ووريفة، تسعد سبكرة قبل أي إنسان وتقوم بعفورها بكل الأعمال في البيت. نضو عليه وعلى الأسرة كلها يجب لا تكلف فيه، لم يسمح يوماً تشكو أو تذمر من زوجها أو من مناصب طفلها، عليها أن تكون السبب ماتته في صمت، نون أن تصرخ وتون أن يسمع أحد صوته أو تطلب المساعدة، عندما لُزمت غرفتها يومين وبخل اليسال عن صحتها حاله شحوب وجهها، ولما سمع من شعبان أنها تشكو عن التزييف من يومين سلك لماذا لم ينقلها إلى

المستشفى على الفور؟ لماذا لم يخبره بحالتها من قبل؟ رد وهو يرتجف خائفا بأنه يعتقد أن هذه الأشياء طبيعية لدى النساء، وأنها تستلزم من تلقاء نفسها، وعندما نقلوها بعد ذلك إلى المستشفى كان الوقت قد فات، فكلها بإيعاذه، بسذاجته، أو قبيحتها، بغيائه: لا - فليستقر الله من جديد! حان أجلها هذا كل ما في الأمر، نعم - حان ولكن على يد شعبان؟ متى إذن تسيع شعبان؟ حين ضمهم على أن يتعلم؟ حين ساعده على فتح محل جده؟ حين زوجه من سعاد؟

أهدأ - أهدأ يا حضرة الباشكاتب!

نعم - كانت نيته حسنة في كل ما لمجاشه، لكن كل شيء انقلب إلى عكس بفهمك، فلماذا إذن بدلا من أن يلوم شعبان لا تحاول أن تفهم السبب! هل في عقوبة من الله؟ إن تكن كذلك فهو يستحقها - يستحقها من جداوه، عاش عمره كله بطبع يتراته، ألا يستحق عقابا على ذلك؟ ألا يستحق عقابا على ما فعله؟ إن بغيائه؟

فواضع يا حضرة الباشكاتب، فواضع قليلا قبل أن ترمي ابنك بالثقل، ربما تكون أنت أغبي منه، فكر في أن شعبان لم يقصر عمداً في أي شيء، فليعلم أنه حتى في المدرسة لم يكن يهمل دروسه كما اتهمته أمام سالم، كان يقضي ساعات طويلة في الاستكثار وحمل الواجبات ولم يكن ثقله أنه عجز عن المنحارج، ثم أنت لا تستطيع أن تنكر أنه ابن بار، ربما كانت هذه أول مرة في حياته يرفع يدها صوته أمامك، له عذره، فليحمد الله أنه لم يتجهز وصول المسألة إلى قضيحة، لا يفتقر الفضائح! لمزية فعل ذلك! أسكت! أسكت تماماً، لمزية حفيدك!

ولكن أيوها؟ يستطيع أن يتهم نفسه كما يشاء، غير أنه لا يمكن أن يتهم شعبان، منذ صفوه لم يكن يقوته فخرى ولا ستة، فهل يستطيع أن يقول إنه بخارى ابنه في ذلك؟ هو يبيته في الصلاة فقط في شهر رمضان وهو أمام الجميع وتلوته بعد ذلك قرائن كثيرة، فلما عذره؟

فليسامح ابنه إذن على ثوبته، لا! فليسامح ابنه! فليسامح به! ومع ذلك يقول أبوخطوة إن الندم سيصيبه والحب! فلماذا لم يتبع هذا ولا ذلك من قبل؟

ومتى وقد قربت ساعته كثيرا سيأتيه الترح الذي ثبأ به هديته الصالح، ومائة لو عرفت أسرته ما يخطيه لو لو عاش أبوخطوة ليعرف ما صار إليه صديقه النادم؟ ومن في هذه الدنيا يتغير حقا؟

الشيء الباشكاتب على صوت تعقبة إغلاق الباب العذى لأحد الدكاكين، كانت محال كثيرة قد أغلقت أبوابها ومع ذلك ظل الشارع صاحبا وحيا باليلة الذين يترشون الأوصاف ويتأدون على بضائعهم، ويترشون القادمين التي لا تطفئ من حياة الحزان، هو الآن لم يبق ليوم يمشي بانصونهم لتسك صبرته ولكنه عرف أنه قد حان له أن يدخل غرقته عندما سيع الصوت المنهم يقرب قادماً من الميدان، كان يهرأكل ليل في الموعد نفسه، هل يبدأ جركته أم يهتف؟

وعرفه جيدا، يبيس دائما جنبه غضيف، بعض فوخه اجانكا، ومادية، انغمسى عليه ثفارة سوداء، ويقوده فتاة ملايسها نظيفة أيضا، وهو يردد مرة بعد أخرى بلا انقطاع، ببته، ويصوت شجي.

تركك على الله ربى وخالفى، وأيقن أن الله لا شك رازلى إن كان لي رزق فيس يقوتى، ورحمة الرحمن ملجا المزم كان يمر بخطواته البسيطة لا يتوقف في الطريق ولا يسأل أحدا، تأخذ الفتاة ما يوجد به المستور وتضعه صامتة في جيب جلبابها.

ظل الباشكاتب يتابع الصوت الجميل وهو يبتعد ثم همس لنفسه وهو يتعثر: لو تداني كيف تمشي الخروب!

لم تكت بعثة ألمانيا الشرقية وأزدهار الصناعة بعد الحرب بسرعة كما توقع فراج، ولكن زواج فوزية هو الذي تم بسرعة.

قال فراج إنه لا يريد شيئاً من الأسرة لأنه لم يدفع شيئاً. كل ما يريد هو امرأته وأن تشاركه حياته كما هي . على أن يبنيا مستقبلهما خطوة خطوة كلما تحسنت الأحوال . لكن الباشكاتب أصم على تجديد طلاء شفته الصغيرة وأن يفرشها من جديد على حسابها وظل فراج يعارض في غدا أن يدخل شفته شيء، لا يدفع شيء. حاول الباشكاتب أن يشرح بأن العرف جرى على أن تجهز أسرة العروس بيئتها ، قرر فراج بأن المجتمع تغير وينبغي نبذ التقاليد البالية. لكن الباشكاتب نجح في النهاية في إقناعه بأن يتقاسما التكاليف باعتبار نصف المبلغ هدية الأسرة لابتنتها والنصف الآخر قرضاً يسرده فراج عندما يتوفر له المال. فوافق على مضمض بشرط أن يكتب إيصالات بالمبلغ لتكون التزاماً عليه يرد الدين. وأجمل في مبلغ الدين (الشيك) التي اشترأها الجد ليقدمها فراج إلى عروسه.

ثم فرح فوزية حسب الأصول ودفع تكاليفه الباشكاتب الذي نظف على جماعة فراج هذه المرة بأن قال له ضاحكاً : يا أخ فراج لا تحضر أنت إن كان لا يعجبك . ولكن نحن نريد أن نفرح بابتنتنا وهكذا فقد علق زينات كهربائية ملونة في مدخل البيت وفوق السطح الذي أقيم فيه شاور ورحست مقاعد خشبي لكل الجيران والمعوين. وعلق مكبر صوت ليصيح فيه المطرب ولتقدم الفرقة الحانها لأهل الحي.

حضر والد فراج مع أخته وزوجها وأولادها، وكانوا يلبسون ثياباً رفيعة من خلابيب جديدة ويجلسون متزوين في ركن السطح، وكانوا يتمتعون كلما قدم لهم شراب أو طعام، ولا يتناولون بعد الإفصاح سوى القليل، على عكس بقية المدعوين القاهريين. حاول الباشكاتب أن يثقل على إحساسهم بالفقرية بالجلوس معهم والمبالغة في الترحيب بهم ولكن حياءهم كان أقوى من كل محاولات الجد ومداعباته. ولم تنفع أيضاً جهود فراج الذي كان يترك مكانه إلى جوار عروسه في (الكوشة) ويقوم ليجلس مع أسرته مقبلاً المرة بعد المرة يد والده ورأس أمه. ولكن الزاقصة تجحت في خلق جو آخر عندما تميلت في وقصتها أمام الباشكاتب ووالد العريس وراحت تميل عليهما في دلال، فحالا صغير الشياطين وضحكهم. وأخذ الباشكاتب يضحك ويميل بجسمه، ولم يشاركه نسبيته في ذلك، بل أطرق رأسه ومشمسا في إرضاء وإن له دشت أن يضع يده في جيبه ليعطي الزاقصة وطباليا (النفطة). ورحب شعبان بتسبباته في حيود الواجب ولكنه اختفى معظم الوقت محملاً بالنسبالة في تنظيم الفرح (المسوية) والترحيب ببقية المدعوين. أما سالم فاحتل مقعداً أمام الكوشة لازمه طوال الفرح تقريباً، وكان الجميع يعرفون مسالة قلة كلامه فلم ينتظروا منه أكثر من التحية الموجهة قبل أن يعود إلى مكانه وصمته .

وفي نهاية الفرح قدمت والد فراج (كرداتها) هدية لفوزية وهي تقول بصوت خافت : تمليت يا بنتي لو كان عندى مال قارون . فقبلتها العروس التي كانت في قمة جمالها وسعادتها وقالت : بكفتنى عاؤك يا أمى .

وعندما شيك فراج ذراعه في ذراع فوزية ورفقتهما الزاقصة حتى سلم البيت وسط طبول عالية وزغاريد أعلى صوتاً أطلقتها جارات فوزية وحبيباتها. تبع المدعون جميعاً الزفة التي استمرت لفترة طويلة على السلم .

خلا الشارب والمطبخ إلا من التصحيح الملونة المعلقة التي كانت أغربها تبتل  
اعتزازه خفيفاً.

وبوسط المقاعد الشاغرة والمداخلة وقفت شعبان رسائم متبايعين.

\*\*\*

بعد زواج فوزية تغيرت الحياة في البيت .

أصبح من الضروري الاستعانة بشغالة ، كانت تأتي مرتين في الأسبوع  
لتنظيف البيت والتفحيف . وتكن الماشكاتب لم بعد بلنصر بزيادة في دخول المطبخ  
واعطاء تعليماته لهذه الشغالة . غير أن فوزية ظلت تقود على البيت بالنظام من  
شغلها القريبة وتحاول تنظيم الأمور قدر الإمكان : تراجع أعمال الشغالة وتنقصي  
وعنا طريقا مع سالم ومع جدتها التي لم يتغير لها علاقتها بالأسرة ،  
كما أنها لم تفقد امتياز ترتيب غرفة جدتها التي كانت محرومة على الضعالة وكانت  
تأتي أحيانا سرفدا منتقار معهم العدا أو غفلة ، ولكن أم آج الذي أصبح الجد  
كثيرا وأزواج أصبحت لم يكن يستطيع أن يزوره إلا في يوم الجمعة . كان يسلم  
في الشركة في فترتين صباحية ومساءلية ، ولم يعد لديه أي فراغ .

وهكذا أصبح سالم وحده يقضيان معظم الوقت بمفردهما . لم يكن شعبان  
يظهر إلا عند العشاء ، يحد عليه الإرفاق دائما ويرد بالتحضاب وأدب على أسئلة  
والده عن أحوال العمل ، التي لم تكن جيدة في معظم الأحيان ، كان يعد ثورته  
الوحيدة والغصيرة الأجل فـ قبل رأس والده طالما الصفيح فأنلا أنه لا يستطيع أن  
يعيش يوم رفضه عنه ، وقال الماشكاتب إنه تسمى ما حدث وإنه ربما لو كان مكانه  
للعمل ما فعله والده ، رجعت أحوال شعبان وقياحه عما يدور في البيت مسلما كانت  
من قبل ، ولكنه اعتاد ليل أن يدخل غرفته ليصلي العشاء ويأمن أن يسأل سالم عن  
دراسته . فبعد الجد بأنها على ما يرام ، فيما عدا ذلك كان الجد والعفيد يثبأن لأن  
الحديث والسمر بحرية في البيت ولحق المطبخ على السراء .

وفي تلك الأيام وفي إحدى جلسات المطبخ طلب سالم من جدته أن يحكي له  
عن جدته التي لم يرها ، فسمع منه قصة زواجه ، وكان زواج حب .

كان يوسف الذي قد انتقل من أمميوط كاتبا في محكمة المحصورة ورأى  
(سعيداً) وهي تزوره مع والدتها على المحكمة فلمحبها من أول نظرة ، كانت بيقا ،  
ومستقلة اعتلاء حسنا ، ولم يهتم بأنها تصغره كثيراً في السن أو بأنها لم تتجاوز  
السابعة عشرة ، ففي ذلك الوقت في مطلع الثلاثينات ، كانت هذه بسا معقولة جداً  
لزوج البيت ، وكان مرتبة كبيراً في حينها ولديه إيراد هذا البيت الذي ورثه عن  
والده ، أي أنه كان مستعداً ومكتمل الرجولة فلم يتردد ، ثم إنه تبه سالم إلى درس  
مهم جداً ليفهمه في الحياة : ملناح أي بنت في الدنيا هو أمها ، وهكذا فقد سلك  
الطريق الشهير وتكسب نعمة الله . ساعدها في إيلتها في مراعاتها مع الاعضاء على  
الطريق ، لم يكن قد مضى ليلته الكثير بعد تزويج الأقارب منها وبين الأصدقاء ولكن  
حضي بالنصبة لهذا القليل الذي كان يكفيلهما بالكاد ، بدأ أعضاها يرفعون قضايا  
ويقدمون أوصالات فدية وتوكيلات مدعومة من الأب المتزوجة بقية الأرض ، وعين  
راجع ترميم ملحات القنبايا في المحكمة حس مضرة أن هناك تزويجاً وفلاصا في  
المستندات وسأورة الشك في أن الحجابي الذي وكلناه يعمل لصالح الأسماء ،  
فمنصع بتغييره وبالطعن في المستندات ، وأمكن بالفعل بفضل نصائحه استنقاذ  
القليل الذي بقي لهما من قبضة الأقرباء ، وفي تلك الفترة بدأ يتردد بنفسه على  
البيت لينال الأخبار والبرشد الأم إلى ما ينبغي أن تفعله ، ولما كان قصده شرحنا  
لما لم يتردد أثناء زيارته إليه في استخدام لغة التلغرات مع سعيدة ، فسقطت  
الجدة كاشرة الناحية .

قال سالم : كان فرق السن بيني وبينها يزيد على خمس عشرة سنة ، أتقن  
أني شعرت بذلك أو أنها شعرت به ؟ الحب يا ولدي اللقاء ورحمة والأرواح لا عمر

لها وحده ضمننا في النهاية بيت كنت أستهجل الوقت الذي أرجع فيه من المحكمة، أكار أجري في الطريق فتفتح لي الباب قبل أن أطرقه وشوقها مالي شوقى.. ظهرت كأنها هي التي صعدت السلم وثبات أنا.. ناسرا ما كنا نخرج من البيت، لم يكن فحننا يحتاج غير الآخر، الآن أسأل نفسي من أين كنا نبقى بكل هذا الكلام؟ ولم كان كل كلام يهيجك من أين كان يأتينا ذلك الفرح ونحن معاً؟ لماذا كانت كل أيامنا ولياليها يوماً واحداً معتداً من التعميم ولماذا سارت الأيام بعدها خويلة كالدهور؟

قال الجد ويومع في عينيه إنه عرف معها سعادة لا شعورية عنها نساء الدنيا، ثم شرده طويلاً وحول نظره عن حفيده في اتجاه بيوت الحارة المتلاصقة حتى دنا سالم أنه نسيه، لكنه عاد يقول بصوت أكثر خلوفاً: «أنا ينظر في اتجاه حفيده»  
- لما أنجبتنا أياك فخرجنا بالطبيع، أحبهنا ورعيناها، كنت أقول إنى أراها فيه نقول إنها تراثى أنا، حتى ملقنا لم يكن ثالثاً في البيت، بل كنا كلانا فيه معاً، لم يكن في بيتنا غيرها وبغيرى.

ثم تنهد طويلاً وهو يلتفت من جديد إلى حفيده قائلاً:  
- كنت أفكر دائماً أنى سيموت قبلها فاجاول أن أحملها مرفق عما نطك، عن هذا البيت وعن تقويم كنت أذكرها وعن المعاش الذى سيقبضه بعد أن أرحل.. ففرد: «بذلك أنت لا حياة لي ولا له، ولكن انظر.. ما أننا قد عشت كل هذه السنين الطويلة بعد أن رحلت هي»

كانت اليموع تغطي وجه الجد وهو يتحدث عن زوجته الراحلة، غير أنه لم يكن يطبق الحزن طويلاً لمسح خده وقال متساجلاً:  
- عانت! قريباً تكافأها وتلقى الأحبة..

ولكن سالم لم يسمع هذه العبارة الأخيرة، كان هو الذى شرده الآن بعيداً ثم قال فجأة:

- ولكن ما الذى فعله قبي لثموت أمي وأمي؟

انتفض الجد في قزع:

- استنقر الله! جنتك وأهلك ماتتا ميتة ويا.. الله وحده يأك،

- لكن أمي ماتت، صغيرة جداً.

- هذا أمر الله، حكمه وحكمته.

ثم بدا يلى اليأس كآب شيء، من المتوجس فقال لحفيده:

ولكن لماذا أسبيل من ذلك الآن؟ هل سمعت شمتاً؟ قل قال لك أحد شمتاً

ما؟

فانطلق سالم في سرعة وغضب لا تكذب يا جدى... لماذا يهوب أمي منى، لماذا يهوب من كل إنسان ومن فوزية ومنذ لماذا ليس له أصحاب؟ لماذا لا يزوره أحد ولا يزور هو أحداً؟ لماذا يحول وجهه بعيداً كلما كلمته أنا ولماذا ينظر في الأرض حين تكلمه أنت؟ ما الذى فعله قبي؟

قام الجد من مكانه وتقدم من حفيده بخطوات مهددة وهو يوجه نحوه سبابته في غضب: أياك أن تتكلم عن أبيك هكذا!

ثم تمالك نفسه وقال وهو يضع يديه على كتفى سالم: أهذا يا سالم وينا

بهديف

لكن سالم لم يسمع ضحك جده ولا دعاءه، بل واصل ثورته وهو ينتفض:

- أمير! فعل شيئاً يفتيه هو وشقيقه أنت، أمي لا يحبنا، كان يريد أن يقتلنى منذ زمن مع المجانين، وزوج فوزية لرجل فلاح في الحارة لأنه يريد أن يتخلص منها ويريد أن يعاقبنا لأننا نحبهها ولا نحب، لا تكذب يا جدى! أنت لا تحبه وأنا لا أحبه ولا أحد يحبه ولهذا لا يتيه زيارتى في المحلة، ولهذا يعاقبه ربنا..

حاولوا الياسكاكتب أن يتغلب على انفعال سالم بالثألة في الهدوء:

- لا يا ولدي أنت تخطئ، أبوك رجل طيب ياسالم ويعرف ريتاء هو أكثر من سلاحا متى ومث فلما أنا بعاليه ريتاء؟ أنت لاتعرف الآن ما تقول - أبوك بعينه وأنا لم أكرهه أبدا، ولا أنت أيضا يا ولدي لأننا نعرف أن حيله قليل، سانت أمك وكانت سته أصغر مني بكثير عندما فقدت جدك، كنت أنا رجلا كبيرة فاحتملت أما هو فكان في يده شيابه، هل فهمت؟ إهدأ ياسالم -

ظل الجد يربط على كنفى حفيده ويصبر رأسه وينحصر بين الدين والآخر مدبره في موضع الحجاب إلى أن هدأ سالم وعاد إلى حسنة وإن ظل جسده يرنفخ، فعاد الجد يجلس في مكانه، فحبت عليه من جديد تكللت سالم أنباء كثيرة يحاول أن يسمها، فزعم بدوره السمعت،

كانت الشمس قد غابت، وظل طوق الترمس بينهما دون أن يعمه أحدهما فانتشار له الجد دون حدس: كل ياسالم،

- كآزيد، عن إنك، سنزل إلى البيت،

قال الجد في سروره: ابق قليلا ياسالم،

فرد باقتضاب: أشعر بالبرد،

بقي الياسكاكتب يملأه فرق السطح ولم يكن يكره شيئا قدر كراهيته للوحدة

والصمت،

في شبابه لم يكن هناك مجال لهما، كان منشغولا بمغامراته وعطش ورفاقه، وفي كهولته ابتداء أن يذهب إلى مغربي قريب من البيت ليشتري بالخمرة والأصمحاب، يتجاذلون الأحاديث والتكزيات والضحكات، ثم بدأ رفاق التمرير يحلون واحدا بعد الآخر، ولم يعد يرى في القهفي حرج يذهب إليه رجوة من بقي منهم - وإنما صغر من رجولة، فاعتكف في بيته معظم الوقت وشغلته صحبة ولده وحليديه.

كان يعرف أنه يخاف في شيقوخته أن ينتقل إلى نفسه وأن يحاسبها، يكرر لنفسه دائما قات الوقت ولكن سالم أبقت من جديد الأشياء التي يجب أن تنقل بانه.

سأله أبوخولة في شبابه لماذا تهرب من نفسك بالتوقيف أنتوي؟

فرد عليه بصراحة: لأنني لا أرى فيها ماسرا، فقال له: ولكن كيف يمكن أن أراك أنا ولاترى أنت نفسك؟

لم يلهم ترفيق في كثير من الأحيان ما يعنيه أبوخولة بحديثه وتجنب التعمق في السؤال، بل أخذ يتهرب منه بالتعلل بعد أن اعترف له بحقيقة حاله، غير أنه آمن بعد أن التقى بسمية بأن الحب قد أنقذه بالفعل، لم تشبه حياته معها أي شيء، عرفت من النساء، شيئا، كانت كما من سالم كعب من الرمية، لم تكن تجعل من عمره من النساء، ولا أكثر من لفتة كأمراة، ومع ذلك لمهو لم يعرف في حياته منة في ممارسة الحب كالتي عرقها مع سمية، كان هو الذي طالما يعتيه بقوة جسده، ينسك لك الشعة بملام في كثير من الأحيان، طوال حياتهم معا لم يكن سمية زوجة مثله، فاشي شيء، كان ذلك الجسد كان يستجيبها ويشغف قلب ويريد أن يجمعها من الدنيا ويردفا في أن يحبه في حضنها وأن ترعاه هو الكهل كمثل، فإن جاء الغفاء الجسمين فكانا هو استمرار لذلك كله، كان الحب معها امتلاء ورحمة.

- سأل الياسكاكتب نفسه وهو يشعر بلغة البرد فوق السطح لمتادا إذن وقد

عرف الحب الحقيقي لم يتقده ذلك الحب حتى نهاية الرحلة؟

وآين يغتر على إجابة للأسئلة التي عنيته من مطلع العمر؟

فنهض ترفيق ورفع رأسه للسماء التي ازدحمت بالنجوم وكرر لنفسه:

- هانت،



استعصى النوم على الباشكاتب في تلك الليلة - بقي في غرفته بسبب البرد  
والأزمة في فراشه التفكير الذي طلقا حاول أن يهرب منها، ومع ذلك فقد كان  
يعرف، بل كان واقفا في قرارة نفسه أن ذلك الهم لن يستمر معه سوى يومين أو  
ثلاثة ثم يرجع بعدها إلى طبيعته. اكتشف منذ زمن طويل أن الإنسان مهما  
يصادف في الدنيا من مشكلات أو حتى من مأسى فهو لا يستطيع أن يكون غير  
نفسه، لم يصدق أبدا أن أحدا يمكن أن يتغير تغييرا حقيقيا، لا هو نفسه ولا غيره،  
سيفي سالم ذو سالم بضمته القوي، ونوبات الهياج التي تأتيه بين الحين والحين،  
وسبقي سامان ذلك الكائن المصمت الذي لا يفهم أبدا ولا يفهم ما يدور في رأسه،  
وستبقى فوزية على حنانها وجها للضحك أيا كان ما يحدث لها من الحياة، سمر  
هذه السنة أن جاره الأسطى حميد الكهربائي العجوز قد هدد الحزن بعد أن  
ماتت زوجته، وأن جارتهم الست إنصاف قد ألزمت السبب لتكف عن البكاء. منذ  
أصاب شلل تصفى زوجها إبراهيم النجد، لكنه كان واقفا في قرارة نفسه  
أن الحقنة لن تغير أيا منهما، وطلب من الله أن يسامحه على ظفه. وبالفعل فإنه  
بعد أسابيع من مرض زوجها رجعت الست إنصاف لتساور الياسة الجائدين  
كعادتها وتتمسح معهم بممرتها العالي من شرفتها في الطابق الثامن دون أن  
يردعها الحزن. ورجعت إلى هواياتها الأخرى التي يعرفها تماما، تذق الباب في  
الظهيرة في حضور فوزية لتشرب معها القهوة وتنقل لها أخبار السكان. ثم تحاول  
وغم مرارعات حفيدته أن تعرفه أيضا ما يدور في بيت الباشكاتب. رجعت كذلك  
إلى هواياتها الأخرى، إذ لم تكن تفزع أبدا بخاوية المدين. بل تطلب من فوزية ومن  
غيرها من الجارات وتجمع - حتى من الشارع - كل الأشياء القديمة التي لاتلح

منها الثياب المهترئة، والأحذية الممزقة الجلود والتعال، والصناديق الورقية  
والزجاجات الصغيرة الفارغة، وتفعل بصفة خاصة الأشياء المعدنية: الأقفال  
والمزاحج الصدنة. عند موافد الكيوسين الثالفة، مقابض الأبواب المكسورة، إلخ،  
ويعرف الجميع أنها تخزن هذه الأشياء في - السحارة - الخشبية المضطمة التي  
تشمل كل مساحة شرفتها. قل يعتقد لفترة طويلة أنها تستفيد بشكل ما من هذه  
الأشياء القديمة، ولكنها بعد إصابة زوجها بالشلل استطعت بائع الروبايكيا لتبيع  
بعض مقتنياتها، فقال البائع إن الشيء الوحيد الذي يصلح للشراء من هذه  
الغايات هو (السحارة) نفسها ونزل متوجعا يتقائم الست إنصاف حتى الدرجة  
الأخيرة من السلم ثم لاحظته بسماها من الشرفة إلى أن اختفى بحرته من  
الأنظار. منذ ذلك اليوم قلل من أيزيد البواب أن يعطيها الإيصال في أول كل  
شهر دون أن يأخذ منها الإيصال. قال إنه سيعمله بنفسه من الحاج إبراهيم بعد  
أن يقوم بالسلامة، شكرته الست إنصاف ودعت له كثيرا وطويلا ولكنها ظلت تدق  
الباب في الظهيرة ولا تفزع أبدا إلا وفي يد ما شيء.

انتهى منذ مدة طويلة إلى أنه كلما كانت العادات غريبة وغير مفهومة استحال  
التخلص منها، واعتقد لفترة أنه أخطأ في الحكم على جاره الأسطى حميد الوحيد  
من السكان الذي يقاربه في السن. نقل الكهربائي بالفعل مهموما وعندما بعد وفاة  
زوجته، كان يعيش في جنازتها وهو يسند يده من ناحية وجار آخر يستند من  
الناحية الأخرى، وهما يحملانه تقريبا بينهما بجورجر بالكاد قديمه، واعتكف في بيته  
أسابيع طويلة بعدها، واعتاد أن يفرض معه أمسيات كثيرة يحث على الرجوع إلى  
عمله والتسليم بقضاء الله. وعندما فتح الكهربائي مكانه أخيرا رجع بعد قليل  
سلما كان من قبل بالضببط، يستوقفه على السلم حين يلقاه ليهمس في أذنه بأمر  
المكات المكتشفة التي قلل الأسطى حميد عمره كله بسبب الاستماع إليها وروايتها

وهو يضحك من قلبه في الحاليتين، لم يدهشه ذلك كثيرا ولم يدهشه أيضا أن الكهربائي ثم يغير مكانه القريبة الأخرى، إذ دخل دائما آخر من يدفع الإيجار من المكان بعد أن ينقضي من الشهر معطيه، ويقول لليواب يجب يحل له الإيجال أن يتغير بضعة أيام إلى أن يفرجها رينا، ويؤكد أبو زيد الذي لم يعد يستضيف احتمال صعود السلم ونزوله، كان البواب قد فقد أمتانته كلها وأصبح يتكلم لغة غريبة لا يفهم منها غير عبارة: «الأنطلي حمر»، فيقول له ألا يتأمله مرة أخرى لأنه سيضع من تلقا، نفسه حين يريد. كان يعرف أن حشد لانداني أي مشكلة عابدة، بل ويثق أنه ليس بخيلا، فهو يتفرد دائما في المناسبات بتركيب الزمان الكهربائي في البيت على حسابه ويصلح الأعطال لزملائه بالهناج. ولكنه لسبب ما يكره أن يصرح نقودا من جيبه ويرجي. ذلك مهاد يستطيع، ولم يعبر مناسبه شيئا من ذلك.

نعم، هو يعرف حدود أحزان البشر، ويعرف أن هذا من رحمة الله بعباده ولكن يفهم أيضا، بمعنى ذلك، لا أحد يتغير بسبب الحزن، وأقل من ذلك بكثير بسبب شجار مع واحد أو نفاش مع حفيده أو تكريات من أمه التي تفتقد لهاذا يريد أن يكون هو الاستثناء، يستثنى هذه الحالة بعد يومين أو ثلاثة أيام.

مع ذلك قضى الباشكاتب معظم ليلته مؤرقا، تزوده وجوه أحبائه الذين دخلوا حين تغفل عنه، ثم فسحا مجهدا على غير عادته في الصباح، لكن أحزانه لم تفل حتى يومين أو ثلاثة كما نية نفسه.

في الصباح كان يتلقى فورية في أحضانه وكنا بضحاكنا معا. بدأت تظهر عليها أعراض الحمل وكانت تدخل البيت لائحة من طفرع السلم وهي تنسك واضعة يدها على بطنها وسال: «لماذا اختبرت النور الثالث يا حبي؟» ومتى تركب مصعدا للبيت؟ لسنا، جنيعة شبايا مثلك.

وكانت تعرف أنه طلب مستحيل في بيت لا يكاو يبقى من إيجار مساكنه شيء.

بعد دفع العوائد وإتارة السلم وصرتي البواب، لكنها كانت ترغم جدها على الاعتذار وهو يحتضنها ويبسدها إلى أقرب مقعد في المصانة.

اعتادت أن تأتي أكثر من مرة في الأسبوع خلال النهار، ترتب غرفة جدها وتختل به قليلا، تحدد للشغالة أصناف الطعام التي تطبخها، وتجلس مع سالم كثيرا إن كان في البيت لتحدث معه عن أحواله وعن دراسته، تتناول أيضا أن تذيب نفوره من فراج الذي خدمته منذ البدء، لم يقل لها سالم أي شيء، بعد احتجاجة الأول على خطبتها ولكن صغته كان يصبح أعق وأطول عندما تأتي بصحبة زوجها، بل بدأ بعد الزواج يتقاعد عنها كأنه يعاقبها، وحاولت طويلا كثيرا، غمرته بحبيها واهتمامها أكثر مما كانت تفعل من قبل، واعتادت أن تقضي معه أوقانا ضوئية دون أن تعلم أنه كما كانت تفعل مع جدها، بأنها يجب أن تنصرف لتتزوج الأبطال في بيتها.

ولم تكن تتكلم هذا كله إذ كان جيبها لأخيها كبيرا، اعتادت ألا تشير كثيرا إلى فراج أمام سالم في بداية زواجها، وبدأت بعد فترة تعود بشكل عابر إتتها تعتقد أن عرق (العبط) الموجود فيها يرجع إلى أن أمها وجنتها فلاحنان، وقالت إن فراج أيضا (عبيط) مثلها يصدق كل مايسمع، بشي مستحيله كله على كفة سمعها عن أنه سيسافر إلى بعثة، ولما انتهى أمر هذه البعثة جاءت في رأسه فكرة الدراسة ليحصل على شهادة عالية فيزيه مرتبه، لوحث بيديها أمام أخيها وهي تقبض «وحلتي ياسيدي»، وقالت إنها تعتقد أن من أسباب عبطه أنه عندما كان طالبا في الجامعة أدخلوه في معهد اسمه المعهد الاشتراكي وهناك علموه أن كل الأمور (تمام) وهو مازال يصدق هذا الكلام. تصور: يقضي في تلك ساعات أكثر من ثلاثة لكن «يزيد الإنتاج» ولكن سواء زاد إنتاج المصنع أو قل فيستظل مرتبه كما هو لايزيد ولايقلص اليس كذلك باسمك؟ لماذا لايفعل مثل زملائه العقلاء.

لماذا يهلك نفسه في العبث؟ ولماذا يصمم على أن يخضع من مرتبة الصغير كل شهر ليرد إلى جملة قضاة دين لم يطالب به، بتمتلك كل طفل هذا أحد سوى العبط؟

كانت مقاومة سالم أعمق بكثير من كل محاولات فوزية. ولكنه أراد أن يرضى أخيه فحاول أن يقشرب قليلا من فراج. وعندما كان يرى سماعتها وهو يربح بزوجها قليلا أو يتبادل معه الحديث أو يشاركه التسلط كان يرجع إلى صسته على الفور. وفيهست فوزية ذلك أيضا فبدأت تتجاهل وجودهما معا. ثم إنها بدأ الحمل انشغلت بهما.

وساعدت ظروف سالم في تلك الأيام فوزية. كان مستغرقا تماما في دراسته واستعداده للثانوية العامة، اختار أولا قسم الرياضة بناء على نصيحة أستاذه الذي رأى مستقبله في كلية الهندسة ولكن عندما رأى في وجه جده العجز وخيبة الأمل عدل اختياره وبخل القسم الأدبي. ولم يكن الباشكاتب قد قال شيئا قط عندما علم باختياره قسم الرياضة غير أنه احتضنه في فرج بعد أن غير اختياره. قال إنه واثق - ويكاد يقسم - أن سالم سيصبح وكيلًا للكتابة وربما قاضيا. كان يشق في ذلك، حفيده وفي نبوة سمعها من أبوظولة وإن لم يدرك معناها تماما، ومع ذلك تضرع على أن يستعين سالم بمدرس من خصوصيين في التاريخ والجغرافيا واللغة الإنجليزية، وأشرف بنفسه مضاعفة على مقرر اللغة العربية.

ولكن كيف إذن حدث الخصام في تلك الأيام العاسمة؟ وفي عز المذاكرة، فبينما كان الباشكاتب يتابع سالم ولا يكف عن تشجيعه ليكون منذ البدء من الأوائل في كلية الحقوق - غضب على حفيده فجأة غضبا شديدا دون سبب واضح، كان في العادة سريع الصلح إذا ما آسأ سالم التصرف. لا تشير بكلمة واحدة إلى ما يسمعه من إسائة له أو القيره في نوبات التهذيان التي تصيب حفيده، أما

في هذه المرة فلم تحدث نوبة من هذا النوع. ولم يستطع سالم أن يعرف سر تحول جده الذي قل أياما يكلمه بشريقة جالمة وفي الأمور المهمة وحدها وامتنع عن الصعود منه إلى السطح وعن دخول غرفته. حاول مرات عديدة أن يسترضي جده وأن يبرهنه سبب غضبه فلم يفلح أبدا.

لما سالم إلى أبيه وهو في غاية الحزن، وكانت تلك إحدى الوات المأدبة التي تحدث فيها مع أبيه عن جده أو عن أي موضوع آخر، غير أن شعبان قال لأبيه بلهجة تأنيب صارمة

« أنت أضعفت حضرة الباشكاتب فقبل يده ورأسه حتى يرضى عليك، إن نلجج في الشهادة بالم يرضى عليك.

لكن سالم اكتشف أن حال أبيه كجده وأنه لا يعرف أي شيء عن سبب انقلاق جده المفاجئ. وكنتما يحاولان مع ذلك أن يعمل بالنصيحة. لم يسمح له الباشكاتب أن يلمس يده تاهيك من أن يقبضا، نظر نحو حفيده في غضب وهو يتقدم منه ماذا يده أن يرفع سالم على الفور.

أول مرة وخدعا على التي استماعت فيما يبدو أن تفعل شيئا لمساعدة سالم في تلك الأيام الصعبة، ففي أول زيارة لها بعد ذلك التقصم الكتيب حكى لها شقيقها عما يجري لمفكرت لحظة ثم قالت باهتسامة

« هل حدثت مثلا عن خروج يوم الخميس؟ هل سألته أين يذهب؟

« لا بالطبع. ما شئت بذلك؟

« فهل تعرف أنت إذن أين يذهب؟ هل ذهبت مرة؟

« أنت مجنونة يا فوزية؟ كيف يمكن أن أتجسس على جدى؟

« أنا مستعدة أن أتجسس لو استطعت! ادفع نصف عمري وأعرف أين يذهب

يوم الخميس.

ثم أضافت وهي تضطج: ماذا يفعل جنتا المكار؟

قال سالم تألف الصبور: يا فوزية ليس هذا هو موضوعنا، هو جن يقول مايتبا..  
ولكن لماذا..

نجية استكتمت فوزية بصركة من بدءا، وبدا أن فكرة طواف على بالية، ثم  
انطلقت في حبكة عالية وقالت: فهدت أظن أن جدي يعتقد أنك تسرق المجلات  
من الأراج، لا يمكن أن يكون هناك سبب آخر.

سأل سالم في حيرة: أية مجلات؟

قالت وهي تنظر في عيني شقيفا مباشرة وإشمامة عابئة على شفتيها:

ال م ج لي 111 في الصورة.

لم يلهم أيضا فقلت أنظر إليه من أعلى إلى أسفل، ثم حدثتته بنظرة فيها  
شيء من الإشفاق وهي تقول:

«معقول أنك لا تعرف بالسالم» مع كل هذا الطول والعرض، «دع هذا صيد أو  
استعياف».

قال ولهيته تشي يلقه على وشك الانفجار: عن أي شيء تتكلمين يا فوزية؟ أنا  
لا أنهم أي شيء، مما تقولين، أي مجلات؟ أنا لا أفكر في أن أمد يدي على أوراق  
جدي.

فرغمت فوزية بدءا مرة أخرى تسكت أخاها وقالت:

«إنس، سأنتقم أنا مع جدي وسأعرف منه كل شيء» لا تلتقي من لجدك فترك  
في هذا البيت؟ لو صبرت قليلا لن يستمر هذا الخصام.

ثم انصرف عنه إلى جدها المعتكف في غرفته، ولا يعرف سالم ما الذي فعلته  
فوزية أو ما الذي قالته لجدها، ولكن في عصر ذلك اليوم حدث شيطان، صمم  
الباشيكاتي على طرد الشغالة الجنيبة، وهش في وجه حفيده من جديد وهو يساه.

«هل اشتريت القوس».

ثم إنهما رجعا صاحبين.

عندما كان الباشيكاتي ينزل السلم يوم الخميس طرا على ذمته أنه بعد أيام  
مبيلة الخامسة والسبعين، لم ينعهد أن يحتفل بعيد ميلاده ولا حتى أن يذكره!  
بعد أن يتقضى بعدة، غير أنه توقف لحظة عندما تذكر وقال لنفسه

«ها أنذا أبلغ الخامسة والسبعين ومازلت ميتي بالصحة والعافية» ولدت في  
أول سنة من القرن قبل سيكتب على أن أحمله على كتفي حتى نهاية».

بدا ينزل الدرجات بطيئا على غير عادته، تمنى لو يقابل أحدا من الجيران  
ليخف صده قليلا ويحدثه إليه، ولكن في ذلك الوقت من انتظار يكون التباو في  
اصالهم والمصارف في مدارسهم، كان هناك انحصار الذي ينفقه ويحاول أن يهرب  
حتى بالعاء، مسكت بفلق السلم والعسيرة كغيبا، ثقيلًا وسحبًا يوحى بالفرة  
والوحشة، يؤكد وقع خطواته وإيقاع عصاه.

توقف على بسطة السلم وحدث نفسه مرة أخرى، صمت الخلل من ذلك  
سيجي، عما قريب، فكيف ستواجهه؟ لا ياسيدي، لا تخدع نفسك، لانتهاية القرن  
وربما حتى ولانتهاء العام.

أسرعت خطواته على الدرج الخالي كأن هناك من يطارد. وتنفس بعمق حين  
خرج إلى الطريق المؤرخم، اتجه كالعادة نحو محطة (الأتوبيس)، لكنه حاد فجأة  
عن طريقه وجلس على مطهى كان يتراءى عليه من قبل في بعض الأحيان، جلس  
يطل على ميدان السيدة زينب الواسع، يقرؤ سمعه صليل عربات الترام المتتابعة  
وبدايات باعة السبح والمضور، وبداية التافكة الجاهلن وصيحة مجنوب السيد  
الطاهرة التلنحي الذي يلبس فوق الجلباب مشرة صفراء، ويصيح أمام يانها  
«مداا» وهو يلوح بعصاه الطويلة، وأشعرته هذه الضجة المكونة بالطمسية، ركز

حصره على قبة المسجد البيضاء، وقال لنفسه إنه ملزم الآن أن يفكر في مصيره بطريقة أخرى.

في المواقف الضخمة الأخيرة قبل جمع الأوراق تذكر أبوخطوة وزيارته الأخيرة له قبل خمسة عشر عاما، هو الذي أنه لو أجهد نفسه ليعلم معنى ماحدث في هذه الزيارة لمسيجد خلا لكل مايزوقه، لكن في تلك اللحظة جاء جرسون المقهى العجوز الذي - يبريش - بجلتيه ورحب به بحرارة وهو يهتف: عاش من شئت ياحضرة الباشكاتب، ثم أقام بلهجة تعشيقية: «أين أنت وأين أيامك الحلوة؟ شايك الرووس وأصبحت عجوزين».

تألمت على الباشكاتب طبعته: أنت الذي أصبحت عجوزا وحيدك ياخاير، أنا كالحصان حيا ليس شبابه هذه صيفة.

انصرف الجرسون ضاحكا لبعضر له انقبوه التي ظلمها وعاد الباشكاتب يفكر: نعم، هو لم يكتب، مازال بالفعل كالحصان ولكن حتى متى؟

وكيف انقضت سنوات عمره الطويلة دون أن يشعر بالمرس؟ لو كان أبوخطوة حيا لسافر إليه مرة أخرى ليسانه عن الميزي، بل لسافر إليه العاشية لأنه لم يده مباشرة على الطريق بدلا من أن يتركه مائلا فيها هو فيه بكلام غامض عن الحب وعن الدم وعن الحياة الذي هو باب لياب آخر.

لم تفده كثيرا أيضا تلك الكتب التي أعطاها له أبوخطوة لكي يقرأها، لم تكن كتباً مبتة بالسيطة، بل كتباً عن سير الصالحين وطرائق السالكين، أحب قراحتها كثيرا كما كان يحب في شبابه قراءة الشعر، وجد فيها كلاما جديلا مازال يذكره. بل مازال يحفظه: «سوابق الهمم لاتشرق أسوار القدر» ودرج عمر اتصعت أمامه وقتت أمداده» وإن قل ماتلوح به قل ماتلوح عليه.

لكن وهو يمشي لتفسيه: هو يحفظ هذه العبارات لأنها تلخص حياته

بالسيطة، ليس تماما، فهو في الواقع طمع في الفرح الكثير، لا، ليكن صريحا هو مازال حتى الآن بطبع، ربما لهذا أنته الأحران الكبيرة منذ فقد سمعة.

جاء الجرسون بالقهوة وقال بلهجة الاستعراضية وهو يصحبها أمامه في الفتجان:

«ما أنت ذا ترى ياحضرة الباشكاتب، خاير أيضا ليس عجوزا، لم أنت شوال هذه المدة قبوتك، فاي ذي: «على الزيدة».

ابسم الباشكاتب بالرقم منه وهو يقول: قضعت نفسك ياخاير؟ أنا أشربها طول عمري (زيادة).

أراد خاير أن يرفع الفتجان معثرا: غبت عنا أطول من اللازم يا أمسان.

لكن الباشكاتب أراح عنه قائلا: أتركه، زيادة أو ناقص كلها سموم، لا تفرو.

فل إلى خاير، كيف حال أياك؟

«انتها يا أمسان، الدنيا غيرت والزمان تغيروا.

«حقا؟ قل لي كيف يتغير الناس، أحب أن أعرف.

قال ياخاير وهو يضرب كفا على كفا: ستعرفين بسرعة الزمان القديم اختلوا، يتكلم الآن في أشياء شيا، وعواجيل لايتحدثون إلا عن السيفر إلى بيوت وتعمير البضاعة من الجفرك وتغيير البولات، حتى زياتن وأمال المقطوعون مثل حضرة بعضهم الآن يا أمسان يشتغلون تجار شطة، (يسمبون) شعورهم ويلبسون تنقارات سوداء على عز البيل ولا أعرف لماذا؟، والكل الآن يشتري الرضا ويبنى بيوتا مشر الأرض الذي كان يسهر التراب في خدوى السيدة أصبح الآن يباع بالشيء الفلاني.

لم تكن هذه الأخبار تهم الباشكاتب في شيء فقال وهو يأخذ رشقة من فتجان فبوت

«ذكرتني ياخاير فمشكرا الله، جاءني خطاب قبل أيام من تنظيم الحى يان

ليركب قارصة من جديد ووصل إلى غايته.

ولكن كم مرة عاود هو اختطاف الفرس دون أن يصل إلى أي مكان.

أزاح فتيجان القهوة من أمامه في شرف من الضيق وهو يزحف لماذا يظلم نفسه؟ هو ليس إنسانا سيئا إلى هذا الحد. أكو لنفسه: أنا لم أؤذ إنسانا في حياتي. أحببت الناس جميعا. ولم يعرف اليقظ طريقه إلى قلبي ضد إنسان حتى ولو أساء إلي.

وبعد أن ماتت سميرة أتم أبى وأخيا لشكرها عشرين سنتين. سميت هذا الجسد الذي ابتلاني به الله وكبرت حياتي الولدي ولولديه من بعده. حتى عندما زرت أبرقشوة أضر مرة لم يكن هذا من أجل نفسي. بل من أجل شحبات. ومرة أخرى جبرني الترابيل الطبي بما قال وبما فعل.

ولكن ربما تكون حال في اللحظة التي مستكشف كل شيء. ربما تكون في لحظة النداء. فلنحاول الآن استعادة كل شيء. كلمة كلمة. خطوة خطوة. كان قد أصبح عجوزا جدا عندما زرت. كنت أنا نفسي قد خرجت إلى العاش وخارج هو قبل تكثير لكنني وجدته مع ذلك في مكتبته القديم نفسه. تعلوا في المحكمة بأغمار دائمة للإبقاء عليه في الخدمة. للاستفادة من خبرته. حتى ولو لم يفعل شيئا على الإطلاق. أوادوا فقط أن يخل معهم لشعروا بأن (البركة) باقية في المكان. احتفنتني حين رآني وقال: كنت أعرف أنه لن تفوتك الفاسية. وأنت ستبقى المدعوة. لم أفهم معنى ذلك في حينها ولكني اختلفت به وحدثته عن شعبان. إنني استخفرت الله وأعدت فتح محل جده لكن أحواله في العمل ليست على مايرام. قلت إنني جئت ألتحق الضمع والهاء. استمع إلى يائشياء وحين انتهيت سالتني باهتمام: ما اسم حفيدك الصغير يا أخ توفيق؟ ثم أخرج ففكرة من جيبه وكتب فيها اسم سالم. خشيت أن يكون قد أساء الفهم فقلت له يا مولانا ولدي اسمه

هناك شرحا في جانب البيت.

سأل جابر شهلة وجلفاء (بيريشان) بمروعة فكير. سئهم البيت يا أستاذ؟

رد الياشكاتب غي دهشة:

- لماذا أجده يا جابر؟ - سارمة طيعا.

فكلم بليجة الشفق على زبونه القديم:

- غورك يا أستاذ بدفع أموالا ليحصل على هذا الخطاب. كل البلاد يتخون

الآن قدم بيوت. الإيجار القديم ليكن بنوا عمارات لتعليق.

من الياشكاتب وأسه دون الاكثارات. وسكند لكي يفهم جابر أنه لا يريد مواجهة التحدث. ولكن جابر قل سكند إلى جواره وأجيرا ننصح وقال ولم يتبع بوجبه فيلا.

- قل لي يا مفسرة. الياشكاتب. بالأسر أخموي أحمد الزباني أن الحكومة تسمح الآن بتقييم الدولارات في السوق السوداء. فقول هذا صحيح الزبون يريد أن اعترض في تغيير الدولارات ويعلمني عولة تكني خائف.

- ديك حق يا جابر. تغيير العملات خارج البنوك جريمة عقوبتها الشدي.

- يا سائر يارب. الله الغني.

ولكن عندما انصرف جابر متظاهرا بالغير تسام الياشكاتب إن كان يستاه النصيحة بالفعل أم يعرف عليه الدولارات لم يتغير جابر. من قبل كان يحرض على زبائنه (الكبف) في ورق (السيولوقان). لعله ما زال يفعل ولعله الآن يجمع بين المستعين. ماله هو وذلك؟ المهم الآن أن يتغير هو نفسه لو استطاع.

اوتسم حين تذكر عبارة أبو خطوة المهر لا تبال من الاستقامة إن وقع منك ذنب فقد يكون هو آخر ذنب كتب عليك. إن يمتد يا توفيق أفندي كنت كشخص سقط من فوق فارس. فإن ظل ساخطا على الأرض مات بلوغ بتعمده وإن جاهد



شعبان وهو الذي من أجله جئت، لكنه أكمل وكأنه لم يسمعي. أمهنتي حتى الغد  
 يا أخى توفيق، غدا سجد ما تطلبه جاضرا بإذن الله، ثم غام بصره قليلا وهو  
 يتطلع نحو السقف قبل أن يقول - معك حق يا أخى - أحيانا بكون أحيانا أحلى  
 بنا من أحيانا الذين هم أحيانا أيضا بكونون أبا لنا من أن تدرى،  
 لم أجرب على مراتبته لأقول له إني عاشقت بشيء من ذلك كله، لكنني ضعفت  
 - سالم صغير يا مولانا، لم يدخل المدرسة بعد، أما أبوه فيحتاج حقا أن تدعوله -  
 فرد - ومن منة لا يحتاج إلى الدواء - والى رحمة ربه يا حضرة الباشكاتب - خير أن  
 الطريق طويل وعظما التي نحسبها شغبي بنا على الطريق بقودنا أحيانا إلى  
 عكس الطريق، سعيد من نهضت خطاه فلا يمشى، ولا تصعب يا توفيق أن عملك أو  
 عملي هو المنجي وإنما هي رحمة مولانا.

لا بد أن يكون قد رأى في وجهي وقتها المزن لانه قد وضعها على كتفي  
 كأنه يضمنني إليه ونظر إلى بعض كفة يمشى إلى شغل صغير وقال - لا تخش شيئا  
 يا حضرة الباشكاتب - أنت رجل صالح وسنحل بك وبمسلك البركة بإذن الله -  
 شجاشيت من أول اللقاء أن أحدثه عن نفسي ولكنه حين تكلم عن صلاح  
 طمرت من بعني الدموع وقلت بصوت مختلق - أنت تلزم لي ذلك وأنت أدري الناس  
 بحيانى - فرد - والأخى أدري أننا أنكم - الأرواح وحدها هي التي تظلمت يا أخى  
 توفيق وأنت روحك أصلى من البلور - من أدراك بحدتي أنا أو بنوحي - أنا كنت  
 أبوا مما يمكن كتابك أن تصور، اتحسب أن الصالحين بولور ملائكة؟ الم تعلم  
 أنه كان منهم النوراني والصوص - قلت - وتكلم تابوا في الوقت الصالح  
 فاصبحوا من الصالحين، أما أنا كما ترى فقد مرت بين السجون وسمعت شيئا  
 شبيها - فقال - لا يباس من الوقت إلا من بجيل أن الرحمة تسبق الوقت ولا يسبقها  
 الوقت، وأنت كاتب وستكابد أكثر قادم لي يا أخى توفيق - وحين قال ذلك نظر

نصوى يعين من معروفتين بالدمع ثم رفع يدي فلقبها، هو الذي كان يبنى على  
 الآخرين أن يتبلا يده ويحزمهم إن حاولوا ذلك، سألته في ذهل وسط دموعي  
 - أنت تفعل ذلك، وأنا الذي أبعرك يا مولانا؟ -

فهز رأسه وقال بصوت خافت: نعم، فكم أحتاج إلى دعاك.

ليتها لم أكن أعرف النوم في غرفة المذلق الصغير في أسبوطه أنتنى في  
 الشام سمعة ورايت وجهها يشبه وجه أبي خطوة أو ربما كان أبو خطوة يقف إلى  
 جانبيها وسط زحام كتبه فاستيقظت من النوم وأنا أنشج وأرتجف، ثم أصبحت  
 الوضوء وصليت وأنا أطلب المغفرة وأدعو لأبو خطوة طويلا وكثيرا كمن تنظيد  
 وصيته تلك سيفتح لي باب النجاة.

وفي الصباح الباكر ذهبت إلى المكتب القديم ابنه في أحد السعفة وقالت

مولانا لا يجزى من مثل هذا أم قد تكلم.

فكأن أبو خطوة أتى بيكرا لي ذلك الصباح.

أختصني بوجه ياش وهو يقول - رأيت لك الليلة رزيا ومشمري - فقلت - وأنا  
 أرفه رأيت في البار - ثم سألته شغفة - ما هي المشمري - فهز رأسه ووبى أن  
 تغارق الابتسامة شفيعه وقال - لنا - ماثونين بالروح، ولكن هي خير - ثم وضع يده  
 في جيبه وأخرج ورقة مطوية أعطاها لي وهو يقول - هذه لحفيدك سالم يا سيد  
 توفيق، عندما يأتي الوقت لاتدعها تغارق صدره، فلتكن دائما قرب قلبه - أمسكت  
 الصجاب المطوي بين يدي ورجحت أجليه وأتظر إليه فتوصلت ابتسامة أبو خطوة إلى  
 ضحكة خفيفة وهو يقول - لا تخف يا حضرة الباشكاتب - نحن لأنصبع سحرا  
 ولأنكفب شائم ولا خرافات، هي أدعية كتبناها من قلبى وأرجو أن يقبلها الله -  
 فغمضت أعرف ذلك بالطبع يا مولانا ولكني أردت أن أسأل عما طغيت منك لوادي  
 فرد ياقتضاب - سيكون يخبر بإذن الله - سألته بالحاج - دعوت له يا مولانا أن

يبيّن له الله: "لنقال: كثيرا يا ولدي، وأدع له أمت أيضا دون أن تتفقد الأمل، وأعلم أن الآخر كما قال أسيافنا، فقد يفتح للمرة باب الخلافة دون أن يفتح عليه بالقبول، وربما يقضى عليه بالثب فبكون سبب الوصول".

\*\*\*

ظل الياشكاتب في المهجر مستغرقا في التفكير - راج لثمرة الألف يستعيد التفاصيل والعبارات التي حفظها ليذكر معانيها. وهناك ذا هي الترويع الأخير من العمر بآزال متخيرا كما كان في اليد: "قال لنفسه: ألهم بالطبع أنه حدى أن يسالم سيكون في حاجة إلى المساعدة أكثر من غيره. أما كيف حدى ذلك فلا أدري. وألهم بالطبع أنه شيئا لم يحسن التنازل. ولكن متى وتعل الآن بالفعل في التنازل".

ثم تسأل الياشكاتب سائلا: ولماذا لا تلهم أنه كان يشجعك على أن تغير طريقك في الحياة؟ البريفل إن خطاها تقربنا أحيانا دون أن ندري أنه يمكن الطريق. وأن السعيد من تهدي خطاها؟ فما الذي يشل خطاها؟ أنت يا سيدي تعرف كل شيء وتقيم كل شيء. إن شئت أن تبدأ اليوم فتن يمتك أجده. وإن شئت أن تنزل كما أنت فإن يمتك مائة أبوخشوة ولو مسا لجندك من القبور، نعم، ولكن شيئا في نفس يقول مع ذلك إن هناك رسالة خفية وراء ذلك الواضح والمفهوم، ليكن، حتى لو كان هذا جميعا فهو ليس عذرا للإرجاء ولا التهاوى.

مرة أخرى زهر الياشكاتب وقال وهو يستعد للترويع: "ها أنت،

نادى على جابر ليرفع له الحساب فقال له: بدري يا استاذ،

فرد الياشكاتب وهو يضحك: بل متأخر جدا يا جابر!

ولكن جابر كان مشغولا بالتحدث عن شيء في جيوبه وأخيرة أخرج بطاقة

زيادة مصفرة ومتجعدة وقدمها للياشكاتب الذي نظر إليها في دهشة وهو يسرق بها هذا يا جابر!

- عنوان السمسار الذي حدثت عنه يا حضرة الياشكاتب،

- أي سمسار؟

- إن شئت حضرتك أن تهتم البيت أو تبعه.

سأل في ذهول:

- أنا حدثك يا جابر عن عدم البيت أو بيعه، أنا قلت لك يا إني إني سألهم،

فقال وهو عازا زل يضع البطاقة تحت أنف الياشكاتب:

- هو يعمل أيضا في التبريد.

انظر، حضرت، إنه قد وجد تحت جناح إليه.

ابتعد الياشكاتب عنه وهو يقول: إن احتجت إليه فسنعود إليك، شكرا.

ثم انصرف من الخبز وقل قلب فثرة في الطريق، ففكر للحظة أن يرجع إلى

البيت، ولكن خطاه قادته إلى محطة الآتوبيس وهو يقول لنفسه:

- تأخرنا على التنازل.

\*\*\*

عندما رجع الياشكاتب إلى البيت متأخرا في الليل كالعادة وجد سامم

مستغرقا في الاستفكار، فجلس إلى جواره يراجع معه ما أكمل من دروس. لكن

سالم قال له:

- قيل أن أُنسى، فوزية كانت هنا.

- في الليل؟ هل كانت تريد شيئا؟

- نعم، قالت كلاما غريبا، صدمت إن كان من الممكن أن ينسى مكان (البيضة)

بعض الدكاكين ويخرجها بالإيجارات الجديرة.

هب الجد واقفا وهو يهتقد

« يذئنا! »

ومضى سالم يقول:

« لا أبين أن هذه الفكرة السخيفة من عندها، اعتقد أن هذه من أنكار الأستاذ

فراج! »

لكن جده كان يفكر في شيء آخر، فقال بصوت أكثر خفوتا:

« أو ربما تكون انشيتا! »

(٢)

عرف سالم اليات لأول مرة وهو في السنة الثانية الثانوية، كان يقف عند سور  
السطح وفي يده كتاب يذكر فيه بعد زواج فورية وانتقالها من البيت فرأى بها من  
التجبران خشكا فوق السطح المقابل وتقطع نحوه بين مقتره وأخرى وعلى شفتيها  
شبح ابتسامة. حول بصره على الفور وانهمك في كتابه، وعندما رأت البنت ذلك  
نأثت بأصمعه بصوت خافت مرمرين فالتفت نحوه. ابتسمت ابتسامة كبيرة وهي  
تستطعم بيديها لغة الإشارات وأعطته جوابا.

كانت شيا غريبة أيضا في مدرسة الستة، انتظروا بعد خروجها من المدرسة  
وساروا معا بخلجان إعجاب القب التقيقة. انتهى إلى أنها أصغر منا بكثير وإلى أن  
هناك (سما) في وجهها. «مارا معا صامتين، وأخرى انفجرت هي بالضحك وقالت  
« أنت صبيحة! » نازدا. أربابك ولم يبق شيئا. بدأت تسأله أسئلة « هل يتابع مشعل  
معلم صبحي في التليفزيون؟ » « هل يذكر أنها سلمت عليه يوم فرح فوزية؟ » « هل  
يقوى أن يدخل القسم العلمي؟ »

ومن كل تلك الأسئلة كان سالم يحب بنعم أو لا دون زيادة، فبدأت هي تتكلم،  
فأثت أنها تحب سعاد حسنى جدا وراحت فيلمها الأخير أربع مرات، وتتمنى أن  
تصبح في الثانوية العامة بمجدوع لكي تدخل كلية الإعلام وتشتغل بعد التخرج  
مذيعة في التليفزيون. والمشكلة أنهم في الإعلام يطلبون «مجاميع» كبيرة وهي  
لا تحب المذاكرة، وقالت إن أبيها يملك محلا وورشة لصناعة المفاتيح والأقفال وأنه  
صاحب جده الباشكاتب ولكن لو رآها أبوها شمسى معه الآن نسوف بفلمها، وقالت  
إن لها أخا أصغر منها في الابتدائية (إشقي) جدا ويتعمد إغاضتها يعمل نجبة

ومصر في أثناء مشاهدتها للمجسم ولكن أحنيتها تضربه لأنها هي أيضا تتابع التشكيلات.

ثم سألت سالم في جر مغرور جدا أو أنها بحساسة لا تعجبه ولهذا لا يريد أن يتكلم.

فقال وهو يشعر حذرا وأحذاه: تخذله أنه ليس مغرورا ولكنه في العادة لا يفكر كثيرا.

قالت ثريا: لاحظت هذا يوم خرج قوزية.

ثم أضافت وهي تضحك: ومع ذلك لا تكلم.

لم تعرف أن معجزة هي التي جعلت سالم متأن للقاء في الموعد. ولا شعرت بالحنين التي بعينها وهو يسير إلى جوارها في الطريق. كان كلامها يصل إلى سمعها مكتوبا ومقطعا كأنه يأتي من دور بعد. وعندما تتكلم لا تكن آهه يصعد إلى رأسه ويصعد برفه فلا يكاد يستطيع تحريك لسانه. ولم تعرف أنه كان يحاول باستماتة أن يبحث عن كلام يرد به على كلامها فلا يجد في رأسه عيون القرد والنيض المتلاحق. لم يدرك أن ذلك ليس غرورا ولا حنى حجابا وإنما مساطة أن الكلام قد هرب منه سلمة اعتاد أن يهرب عندما يلتقي بالغير.

وبعد أن انفردا راح يسأل نفسه في غضب لماذا كان خائفا إلى هذا الحد لماذا تستطيع ثريا أن تفكر ولا يستمتع هو ما الذي يشل لسانه؟ ماذا يمكنه أن يتكلم مع جده ومع قوزية عن أشياء كثيرة لأن ضاع كل الأفكار والانسداد. ولماذا لم يعالجه الطبيب الذي أخذته أبوه إليه قبل سنوات لكن يعالجه من ماذا؟ هو ليس مذنوبا. أستاذ الرياضيات يقول إنه باع. يستطيع أن يحل أي مسألة أو معادلة قبل أن يلمح أخضر. فما الذي يمنع من أن يتكلم مع ثريا؟ ولماذا كان بخاف من جفائنها والفرح معها؟ لولا مشاجرتهم مع

الطالب الذي قال له إنه ليس رجلا ما دام لا يعرف نبات ما استجاب لموعدها من الأكل والآن ما العمل.

حاول سالم من جديد. التقى مع ثريا موقفا بعد ذلك. مشية معا على شاطئ النيل ناحية قصر العيني. رأى سالم أزواجا كثيرة من الأولاد والبنات في ذلك المكان الذي تحجب الأشجار من مصابيحها المعلقة باللون الأزرق منذ أيام الحرب. كان المجهول يشعرون هناك بالأمن ليس الأولاد يتأذى البنات ويتهاجرون. ترفع أي صوت. إن لم يسمع الجرس. ولكن سالم جمل صامتا وهو يسمع إلى حكايات ثريا. كان لم أجد كلاما يقوله لها لكنه عندما غشى عة في رأسه لم يجده. حاول أن يشرح السمع لثوب عن أي شيء. ولكنه الشبان إلى صاحبائهم ووجد ذلك معها. لم يجد. لم يسمع غير ضحكات خافتة وكلمات متفرقة ليس فيها شيء من العزل الذي يوحى. فقلت لمن صلتها... ولكن أنا رفضت... منجع اللب في فرنسا في الإجازة... بعد سنة السعيد... اتج. وإذا ما اقتراب سالم أو شكا كثيرا من اللزوم كانوا يمشون. يمشونهم ويضربون نصوص صامتين إلى أن تنهد.

في المرة الثانية حكى له ثريا بالفعال أنها من يومين وجدت قطعة ولودة أمام البيت لأنها مشمشي وكانت نصوص. ونكاد نعت لأن أسما تركتها. قالت إنها أحببت الفطة جدا وأخذتها ونحتم أن الفطة أيضا أحنيتها لأنها ترفض أن تشرب اللبن إلا إذا قدمته لها ثريا نفسها. ثم سألت ما الاسم الذي يفضل الفطة مشمشية أو قاضي.

قال:

قالت هي غصن: وخلاص: هذا كل ما عندنا.

لم طلبت في تفاد حبيب وما يشبه الأمر: إنك أنت حكاية.

كما لو كان يقتلع من لبنة الخس حكي لها بإيجاز شديد حكاية مخطوطة  
وزميل يده الذي الخفى فمجان القهوه من أسامة، كان يريد أن تفسد مثما  
بسطه هو عندما سمعها، لكن ثريا فلتت تتابعه بطلوة ثابتة ولما انتهى بلغت ريقا  
وقالت:

- إسماعيل أنا أخاف من حكايات العقارب والذئب، فل تريد أن أموت من  
الترعب بالتليل، ثم ضحكك فجأة واكلت في عصبية  
- يديك هذا كلام بقوله لصاحبتك؟  
سألتها في يأسها ماذا أقول.

لوجت سيدة في اتجاه الشبان الآخرين، كما يقول كل الناس،  
وكان ذلك هو اللقاء الأخير، لم تعد تظهر في السطح، وعندما ماتها مرة  
بالتصادفة في الطريق تجاهته، وتم يخزي سالم لذلك أبداً، بل شعر براحة كبيرة  
ولكنه عرف بعد ذلك في الإجازة التي سمقت سنة الثانوية العامة أوله من  
قروبيات أبيه من بعيد، ظلي أبوه أن يساعدها في إنهاء أوراق لها في بعض  
المصالح الحكومية لأنه ليس لها رجل يفق بجانبها، كانت عنايات كبيرة شخص  
عشرة سنة على الأقل وكانت امرأة ذات حسن باضخ وعينين ملونتين، وكانت تقول  
له ضاحكة إنها عندما تنظر إلى عينيها هو يشعر كأنها تنظر إلى مراء، أخذ  
أوراقها إلى مصلحة المعاشات فطلبوا أوراقا ومستندات أخرى لاحتضار لها، زارها  
في بيتها أكثر من مرة أيام الإجازة الصيفية، وكانا يجلسان في مجالس بيتها  
مقابلين وهي ترتدي ثيابها اللينة الضيقة، أحبانا كانت تأتي للجلس إلى جواره  
على (الكنبة) لكن تطلعه على الأوراق التي تريد تقديمها، كان جسده كله يلتصق  
حين تلمسه زراعها العارية أو حين تتلاصق كتفاهما ويشعر بضيق صدرها عليه،  
يترواح مبتعدا عنها وعرق غزير يتعر من جبينه، وفي تحتها نخس الكلمات

أبداً في طلعته ونهرب من رأسه، يبقى كل شيء، عبه مشغولا معوي هذه الذي  
نفس في عند يكاد يصنع طيبة، في الزيرة الثالثة وهي تودعه عند الباب كان  
وجهها مصفيا جدا وقالت بصوت خافت منضوج إلى حمدا  
- سأكمل الأوراق ثم اتصل بك مع الصلابة.

أغلقت الباب شيء من العنف ولم تحصل به بعدها أبدا - ومرة أخرى نضع  
سالم بكه قد نجا وعاهد نفسه على أن يتجنب أي علاقة من أي نوع مع اليك أو  
النساء، وحين سألته أبوه ذات مرة عما تم بالنسبة لأوراق «الست عليات» أجابه  
بالتعصب: إن موضوعها انتهى.

\*\*\*

كان هناك على كل حال مايشعه، أبعثت ثانيا في الثانوية العامة، ثم  
إن قوزية وضعت طفلا، بعد أقل من سنة من زواجها، رجعت البيت القروية بقر  
مروحة، اعتادت أن تأتي بصحبة طفلها كل يوم تقريبا بعد أن يذهب زوجها إلى  
عمله مبكرا جدا في الصباح، أراد فراج أن يسمى ابنه سمعد على اسم أبيه  
«سمعد قوزية» على تسميته بسالم، وأخيرا أضموه في شهادة الميلاد (عاطف)  
ولكن قوزية تناديه باستمرار (سالم الصغير) أو سلوم.

كانت تأتي في الصباح قبل أن ينزل أخوها إلى صيربته وأبوها إلى مكانه  
وهي تحفل الصغير الذي تعلق به الجميع، ثم تكن قد ظهرت له في صباح عمر  
شعر أسود غزير كطعم أبيه ودين قسنيين مضمومتين بضرب بهما الهواء غير  
أن الجميع كانوا يقنلون حمله ويكسبون فيه جسدا غير عادي، كانت قوزية  
صن بأن شوكه فوملا مع أي منه إذ بعد بدنها بسرعة وهي تقول ضاحكة  
مغارة لأمه الطائفة، صبح ياسلوم، أمك خابية قياياك أن تتلع خاطبا مثها، ذكر  
ياولك والصح واشتغل، أريد أن أراك (باشكافي) قد الدنيا.

ترفعه نحو حدها وتساؤل ألا يتعدى ذلكا بالحيوى ؟ ألا يتفقد (بالشكائب) ؟  
 فيرد جوابا بمتسما (بالشكائب) واحد عليهم بالقوزية حتى لقبهم لم يجدوا  
 إلا أن وجوده ، بمعنى بلان من ذلك أن يصبح ابتك ضابطا .  
 ثم تلوته حثا مرة بالفرع ، من قول لاك وأحسب : جبال لا يقعد ،  
 وهذا كان فراج يأتى أيضا مع قوزية في المساء . كان يبدو على وجهه  
 الإفاق من كثرة العمل ، لكنه لم يفقد شيئا من عاداته ، ظل يقتطع من حربه في  
 أول كل شهر مينا صغيرا لم يمدد من الشكائب . ثم انبطر للتوقف فيزولادة  
 قوزية وبعد بمناياها بعد الوقت بين مصوره لا ينظام في الدمام عظاما يقطن  
 شكائبه بجمعية طلبه له راسه وبمنفرا . . . . . فقال له الشكائب لا  
 يهتم بأنه لم يضاهيه بنى . . . . . الأصل لكن فراج رويش النيل بين وراح مود  
 في إحدى زياراته المسائية قال سائما بطريقته عابرة مود أن ووجهه الدماء  
 لأحد :  
 - تنظيم القوي رضى محروا (الشكائب) .  
 تظل فراج ينظر إليه ميتسما وهو يسأل في دهشة : أي شكائب ؟  
 - شكائب الجنينة .  
 لم يلهم فراج أيضا وقتل ينقل يصوره بين سائما وشعبان فزوجه والشكائب  
 ولكن قوزية سمرت إلى أخبها مضطرب الوجه . . . . . فالحاجة مضطرة .  
 - فراج لا يعرف شيئا عن النوصع بجدام هذه كانت فكرى أما  
 وحين صرف فراج الحكاية فقال بدعشة : شكائب في هذه (الزينة) مود  
 عرض الجنينة مود ونصف أو متران ؟ أي بضاعة يمكن وضعها في هذه  
 المساحة ؟ أين يلفد المانع ؟ على الرصيف .  
 قال شعبان : ربما يمكن أن تستعملها كمخزن .

قال أبوهم في يأس : لتخزين أي شيء ؟ ما هذا ؟  
 . . . . . يمكن فراج لحظة بسب صوته شيء من الخزان وهو يقول  
 - ومع ذلك قوزية معها حق ، كل الناس الآن يفكرون في طريقة تزايد من مظهره  
 أو من مشهوره يجب مالا ، ما هذا العمل ، محصورة الشكائب . كيف يمكن  
 التوفيق الناس مع هذه الملاءمة ؟  
 ظل ينظر في حيرة إلى الجرد الذي كان مستغفرا في فكرة أخرى وقال  
 مائسا  
 - إن ربما يكون جابر على حق .  
 لم يبعد أحد من تصوير لهذه العبارة وقال شعبان : بما حتى فكرة ، يمكن أن  
 تصبح ثلاثة مائة مائة في الحقيقة مودى اسم فراج عم أبو زيد الواسع . هناك الآن  
 كتب من الشكائب الأحملة . . . . . إن تعطى الملائكة مائلا أو بالنقص .  
 عدل الشكائب : وفي هذه الحالة تصبح ثلاثين أم ثلاثة أبوزيد ؟  
 - نعم نعمه يمزاة وهو يقول  
 - أبوزيد يمكن أن يموت وهو ماضى .  
 ثم سكت ولم يتكلم أحد .  
 كان ماله يشعر بالهجل من نفسه ماضى . . . . . وأضربت قوزية  
 رأسها في حزن . وقتل الشكائب وفراج يشعر كى مودا التي أخرج دور أن مود  
 دافقة . وما طال الصحة وأحد قوزية مثل مصرها . . . . . كانت حربه وعذبه  
 لكن شعورا أقوى من ذلك غلبها وهي تنظر تحذ وجالها المارقين في التفكير  
 فشكيب وهي تقول  
 - هالكم شكائب ؟ بسببنا بنى الشكائب مود الشكيب .  
 فشكروا أيضا ، ولكن بلا روح .

ترفعه نحو جدّها وتسال: ألا بينو نكيا يا جدتي؟ ألا ينفع (الباشكاتب)؟  
فيرد جدّها مبتسما: (أناشكيتي) راحت عليهم باقوزية؟ حتى لهم لم يعد له  
الآن وجود - نثنى بدلا من ذلك أن يصبح ابنك ضابطا!

تضيقه متفاهرة بالفزع وهي تقول: لا تيك يا حبيبي! جدك لا يتصد.  
أحيانا كان قراج ينسى أيضا مع قوزية في المساء، كان بينو على وجهه  
الإرهاق من كثرة العمل، لكنه لم يفقد شيئا من عاداته، ظل يقطع من مرتبه في  
أول كل شهر مبلغا صغيرا ليستد دين الباشكاتب - ثم اضطر التوقف قبل ولادة  
لقوزية وبعد إجتماعها، وعند الجند يأن ويصوره للانتظام في السداد عندما يقبض  
مكافآت شجاعة فطلب له رسمه ويذكرها عند مساره - هل له الباشكاتب ألا  
ينته ويده لم يسأله شيء من الأصل، لكن قراج ولد في نفس اليوم، وكانت مرة  
من إحدى زياراته السبعة قال سالم بطريقه عارضة دون أن يوجه إليه الخطاب  
أحد.

- تسفيه الذي وهو مشروع (الاشككتي)  
فقال قراج ينتشر إليه مبتسما وهو يمدد في وحشة أي فكاكيزه،  
- تذكير السنت

لم يلهم قراج أيضا، وظل يتل بصره بين سالم وشعبيان وزوجته والباشكاتب  
ولكن قوزية نظرت إلى أخوها مقبلة الجبين وقالت بلهجة معاتبة:  
- قراج لا يعرف شيئا من الترموع يا سالم، هذه كانت فكرتي أنا.  
وحين عرف قراج الحكاية قال بدعيبة: فكاكيزي في هذه (الزئقة)؟ ما هو  
عرض الجنيبة؟ ستر ونصف أو متران؟ أي بقماصة يمكن وضعها في هذه  
المساحة، وأين يقف البائع؟ على الترهيفه،  
قال شعبيان: وبما يمكن أن تستعمله كعقرون.

قال أبوه في نفس: لتخزين أي شيء يا شعبيان،  
وسكت قراج لحظة وشاب صوته شيء من الحزن وهو يقول:

- ومع ذلك لقوزية معها حق، كل الناس الآن يفكرون في طريقة تزيد من دخلهم  
أو في مشروع يجب ماله، ما هذا اتغلاء يا حبيبة الباشكاتب؟ وكيف تكفى  
المرتبات الناس مع هذا الفلوس.

ظل ينظر في حبيبة إلى الجند الذي كان مستغرقا في فكرة أخرى وقال  
ساعدا  
- إذن وبما يكون جابر على حق.

لم يحدث أحد من نفس هذه العيارة، وقال شعبيان: جاسقي فكرة، يمكن أن  
تبيع بلاطة ساخنة في السوق، يطوئ البيع فيها عم أبوزيد الباب، هناك الآن  
كثر من الشرائح الخمسة وبما إنها تعطي البلاطات مجانا أو بالتسليم.

جاء الباشكاتب وفي هذه الحالة نصبح ساجنا، بلاطة تمرر.  
- تسفيه المرواة وهو يقول

- أبوزيد يمكن أن يموت وهو يفتح واجابة،  
ثم سكت ولم يتكلم أحد.

كان سالم يشعر بالظلم من نفسه فانسحب إلى صمته، وأطوقت قوزية  
برأسها في حزن، وظل الباشكاتب وقراج ينظر كل منهما إلى الآخر دون أن يجد  
مابقوه، ولما حال الصمت راحت قوزية لتقل بصرها بينهم، كانت حزينة وغاضبة  
تكن شعبرا أقوى من ذلك عليها وهي تنظر نحو وجائها الغاردين في التفكير  
تسحب وفي القرا.

- فالكلم سأكتره بسيطة: نثنى الحكاكي فوق السطح،  
فضحكة أيضا، ولكن بلا روح.

قال الياسكاث إنه قسم عسرا بنويلا يبعث عن سر تلك الأساليب الشفوية  
الجريمة فلم يوصل إلى شيء، يضمن إليه، ثمنى لو يكتب كتابا عن هذا الموضوع  
ولكن الوقت متأخر ومستور لسالم هذه الميزة بعد أن ينتهي من دراسته للقانون.  
قال سالم وسوسة الشيطان هي السبب.

فرد جده: وسوسة الشيطان وراء كل الجرائم يا سالم والشيطان يوحى  
للإنسان طوال الوقت ففما في عمل هذه التلات مآلات لاستعجب الناس إلا  
الوسوسة الشيطانية.

- فلما رأيت أنت واجدي؟

- لو كان لي رأى لما خيوت ولوضعت الكتاب عند رأس طويل.

ثم بدأ يسأل في حيرة قد أشد قليلا وهو يقول: ما الذي يجعل خطائنا تقودنا  
إلى عكس الطريق ومنظور تعرف أنه عكس الطريق؟

- لا أفهم يا جدي أن من يرتكبون هذه الجرائم التي منكده عليها جنونهم  
يكونون جميعهم في لحظة الجريمة.

- بالتحديد، لماذا؟ إلى بعيد العقل وتسيطر الظلمة؟

- لماذا؟

- سألني أنت بعد أن تدرس.

- وهذه الكتب القديمة التي تقرأها حضرتك والموجودة جنب الملعن لا تساعد  
على فهم الأمر؟

تهدد الجيد وسكت طويلا قبل أن يرد:

- هذه كتب تتحدث عن الشر، لا شأن لها بقلمة النفس.

\*\*\*

بعد أن دخل سالم الكلية، وبدأت الدراسة لم يتوكله جده في حاله، هل يسأل  
كل يوم عن المحاضرات التي يلقاها، ويضيف - بطعم - إلى المعلومات النظرية

بالزخم من كل شيء، فقد كانت تلك أياما سعيدة للابرة. ميلات فوزية وسالم  
التصغير البيت بالحركة والنشاط. وانهمك سالم الكبير في مذاكرته ولم تعارده  
التفالة في تلك الأيام العاصية، واستغل الياسكاث مع حفيده يوما بيوم كما لو  
كان هو الذي يستعد للامتحان. فحسب أيضا كثيرا مما كان يفتقه. وكانت فرحة  
عمره عندما احضار سالم الثانوية العامة بالمجموع الذي يكفي ليحقق حلمه ويلحق  
بكلية الحقوق بجامعة القاهرة.

وكافة الياسكاث حفيده على نجاحه بإطلاعه على سر الملفات الموضوعة فوق  
مكتبه، شرح له أنها تضم القضايا التي حيرته دائما (سليم قرا المياض). قرا في  
حياته وسمع الكثير عن أسباب الجرائم والانحرافات. قرا عن الفقر ونفك الأسر  
والأمراض النفسية والجشع وأشول الإجرامية العريضة وكثير غير ذلك. ولكن  
شيء من هذه الدوافع تجريرة كلها يجعل رجلا مشهورا له بالبطية في الناس أن  
يسكنه بقتل جارا له لأن أبه البائع خمس سنين من العمر شاجر مع ابن جاره  
المثقل؟

وتابا يقدم مرافق معروف بالأمانة لمشورات السنن على اختلاس خيرية  
الحكومة ليقضى أسبوعا في الأسكندرية يعرف أنه سيتضي بعده سموات في  
السجن ولماذا يقتل زوج زوجته التي عاش معها سنوات طويلة لأن طعام العشاء  
لم يعجبه؟

وتابا غير ذلك كله من الظفافات التي تصحبها الملفات كلها جرافيم ليس  
لأصحابها تاريخ سابق في الإحرام ومع ذلك فهم جميعها في لحظة ما والسبب  
شديد الكفاية يرتكبون الجريمة التي قضيتهم وتضيق عليهم.



التي تعلّمها حفيد خيرات عملية مستعدة من عمله في المحاكاة. وبني عليه بعض  
الهيئة الأتباع عن إجراءات المحاكمات أو عن دقائق القانون ونحن يعجز سالم  
عن الرد يقول له:

— أرايت؟ ليس كل العلم في المحاضرات ولا في الكتب.

وحين يدافع سالم عن نفسه مستحيا، ولكن بأجدي أنا مازلت في أول السنة  
الأولى:

يود الباحث كاتب في جسم: لا يهيم أنت است كبقية الطلبة، أنت يجب أن تتفوق  
من أول السنة الأولى.

ولكن ذات خميس بعد أسابيع من بدء الدراسة وبعد أن رجع الجسد من جولته  
الأسبوعية التي لا يعرف حفيده عن جسمها، ظهر آثاره على أني برفق سالم وهو  
راجع بعض المواد وجلس قبله صامتا، ثم في وقت متأخر من العصر  
المحاضرات نهر أنه اكفى هذه المرة بأن أسد بالكلام الذي يروى سالم والذي  
يليه نظره ثم وضعه جانباً.

أحكم العناية حول جسده وظل يطلع نحو حفيده صامتا نظره على أن يسلط  
بهر.

— قل لي يا ولدي، أنت جميل حقاً وفي عز الشباب، ألم تلت نظراً واحدة في  
الحى أو في الكلية؟ أقصد ألم تحب؟

أخفى سالم رأسه وخرج صوته مبحوحاً بعد نظرة وهو يقول:

— نعم يا جدي، أنا أحب.

ظل الباحث كاتب صامتا وهو يقلب في الكتاب دون هدف، ثم رفع وجهه إلى  
حفيده وهو يتسم ابتسامة عريضة.

— هل تعرف أني رأيت نكهة في وجهك منذ مدة؟ رأيت بها قبل أن تعرف أنت  
ولكن أردت أن أؤكد.

ثم قام وهو يمزج عبارته الصوفية وقال لحفيده: ينس من الفرد وهو يفلح عند  
الهاب:

— لا أريد أن أعرف أسرارك ولكن تجتنب المعصية يا سالم.

ثم خرج قبل أن يسمع رداً من حفيده الذي ظل ينظر نحو آتيا المغلق ضاربة  
وهو يتصالح على هذا صحيح؟ هل عرف جده قبل أن يحرف هو نفسه؟ ربما، ظل  
يقاوم طويلاً الاعتراف بقله يمين يميني، كان لها في الكلية أصحاب ومصاصات  
وكثيراً ما راحا وسط مجموعات من الطلبة أما هو فلم يكن له في الكلية أصدقاء،  
قلّة من زملاءه كان يتبادل معهم التسمية في المدرج وربما أسئلة جائرة عن  
الاستاذة والمحاضرات وتنتهي علاقته بهم عند هذا الحد، وعندما كانت بعض  
البنيات ينظرن نحوه وهن عيونهن إعجاب وفضة كان يبدل كل جده لبيته  
ويغتن عن النظر.

لم ينس سالم أبداً تجربته مع الأطباء في صفوه ولا بما كان يصعبه من غص  
وبن فورية وجده عن حالته، وقهم إصوار الجد على أن يعلق الصباب على صدره  
والأصعية التي كان يمس بها حين يضع يده على رأسه، عرف أنه عندما تكتيه  
الصالة يقول أشياء سيئة ثم ينساها وأن الأفضل له أن يلزم الصمت ويتجنب  
الناس قدر الإمكان.

أحياناً كان يثر على نفسه، يود لو يصبح مثل بقية الأولاد من سنه.

وعندما قال له تلميذ في المدرسة إنه ليس رجلاً ما دام لا يعرف أي نبات تشاجر  
مع هذا التلميذ، لكنه يكن وحيداً في البيت، وجاءت دعوة ثريا بعدياً لتلقاه من  
إحسانه بالفور والعجز، أراد أن يقاوم خوفه ويثبت أنه مثل غيره، ولكن حكايته  
مع جارتة الفتنة بالآ يكرر المحاولة.

ابتعد في الكلية عن لبثي بالذات، لم تكن هي أجمل البنات لكنها لفت نظره  
مئة راحا.

كانت تلبس بامتصراع (بلوزة) بيضاء قصيرة الكمين و (خوذة) واسعة، تضع  
 يدها في جيبيها وتمشي وسط حمرات الكلية كما لو كانت مصرة إلى هدف ما.  
 لكنها تتوقف بين حين وآخر وتثقل حولها ويبدو عليها أنها غير رافقة من وجهتها.  
 أو تميل بنصف جسمها إلى الخلف دفعه واحدة كأنها ستعود أوراها بالسرعة  
 نفسها لكنها تغمض في عيونها، عندما تنكم أيضا كانت تسلم برأسها قليلا إلى  
 جانب وتخرج الكلمات من فمها مقطعة ومتقطعة.

ظل سالم يراقبها من بعيد عريضا ألا تنبيه إليه، أحب عينيها العسلية  
 وشعرها الغمطاني المخصوص الذي يصنع دائرة حول وجهها، وتدلني منه  
 خصلتان صغيرتان كعلامتي استعظام صاحب الأذن. أحب أكثر من ذلك شبا  
 مالي عينيها وطريقة كلامها، لكنه كان يراها مع اصحابه وساحباتها في الكلية  
 يفتون في (شغل) ويتكلمون بصوت عال.

فقال سالم لنفسه هم جميعا أتبع مني مع الفات ومن أتذكر أن واحدا منهم  
 بحبيها، أراد أن يقول لجدته: إن تكن قد رايت في وجهي الصب، قبل رايت وجه  
 أنتي لم أبع بهذا الصب.

\*\*\*

مر شعرا أو أكثر على يده الدراسة دون أن يفزع سالم من وحدته.

وفي مرة في التاصل بين مصافرتين كان يقف وحده في ركن مزدحم بمجلات  
 التناشد التي يعورها الكلية، كانت هناك مجلات كثيرة داخل إطار رجاحية  
 تنظير كلاما مع الرئيس السادات ومجلدات أخرى بعشبة مشينة إلى الحائط  
 مياطرة بدنايس وقد شذفت أجزاء منها وتكتب كلاما حس الرئيس، وفي الجرد  
 أن يضميع الوقت في قراءة واحدة من هذه المجلات المصرفة لكن الكلام بدا له  
 كالأغصان فهز رأسه وهو يرمع بالانصراف، تذكر حمرات جدته العارضة، السباب

مستفزع لا شأن ألقى به، من يخوض فيه بشيخ، لم يهين الاستكثار أرا  
 بالسياسة وأعاد أن يطلق الراديو أو التلفزيون عندما تبدأ نشرة الأخبار، علمه  
 عنه في الوشيطه من صبحه الضم واشتغفه وأكدت له تطورات الأمور في البلد  
 صواب وأنه قورث حفيد التطور من السياسة.

لكن بينما كان سالم يرمع بالانصراف سمع صوتا خلفه وجين التفت وجد لبني  
 ومعهما طائف آخر يذكر شيئا تماما، كان متوسط الطول عريض العينين مفرق  
 شعره الأسود ميوشا وقميصه مفتوحا عند الصدر، وكانت له شفتان غليستان  
 مميزتان.

سمع لبني تقول بصوت خافت ضارح: ابتعد عني يا مرتضى! قلت لك أن تبتعد  
 عني.

نظر مرتضى في الحاج والكذب وعدت.

ودت بعصية، وجعلت في كلامي يا أخي، اوتحت.

لا، لآل أن اعرف السب.

قالت وصوتها يرتفع قليلا وكأنها على وشك أن تصرخ، يا أخي أنت مصيب.

قلت لك أتركتني في حالي!

توجه سالم نحوهما وكأنه سمع استغاثة ولم يقل غير كلمة واحدة.

« ممكن؟ »

فرمطه الآخر ينظرة كارهة واستدار مبتعدا، أوشك هو أيضا أن يغمض في  
 طريقة ولكن لبني قالت له بلهجة منبهة: أشكر.

قال: وماذا فعلت؟

ثم أكمل بشيء من التردد: أنا أعرف هذا الطالب.

سألته باستغراب: كيف أعرفه؟

مرة اصطدم بين عتدياب المروج فاعتذرت أنا له لكنه قال لي أن أنشبه في المرة التالية.

ضحكت أنني بمسبوبة. نعم. هذا بانضبط هو مرتضى. تعطيني يدك فبريد في تأخذ ذراعتك.

ثم لوحث بينهما: دعنا نمت وأنت اقرأ المجلات. جارك في الكلام.  
رفع يده هذه الخالية من الكتب أمام صدره كأنه يدفع تهمة وقال: أنا في السياسة صفراء.

فهزت رأسها: هذا أفضل شيء.  
كانتا يسيران جنباً إلى جنب بخطوات خفيفة وأراد سالم أن يسألها عن سبب شجارها مع مرتضى لكن شيئاً في داخله قدّر له أن يسكت. كانت هي التي وأمنت الحديث.  
أواك من أول السنة في المحاضرات لكنني حتى الآن لا أعرف اسمك.  
قال لها عن اسمه وكان هو يعرف اسمها منذ زمن طويل لكنه سأل لأنه يجهله.

ظلا يسيران معاً وكانت هي التي تنقل الحديث من موضوع إلى آخر ولحظة وجد سالم الكلمات التي كانت تحبب في طلقه تطرح دون عاء لا يذكر حتى عن أي شيء. لكنهما بعد أن تبادلوا الأسماء. لكنهما ظلا يسيران جنباً إلى جنب.  
تركنا المحاضرة التي كانت نرسل أن نبدأ وخرجنا معاً من الكلية كان بينهما موعداً. واتجهتا دون اتفاق نحو كلية الآداب القليلة. وكانت على عاتقها حقائب لحظتها وهما يسيران وتلفتت فجأة إلى الخلف فبعض سالم عليها. لكن أحدا لم يكن يتبعهما. ودخلت كلية الآداب وشئياً معاً في ممرات وصعدوا الدرجات الضيقة وهبطا أكثر من مرة وهما يشتركان دون هدف عن الزلا. والمواصلات والأمانات وعن أي شيء يخطر على البال. وجلسا على إفريز حجري في أحد الممرات وراحا

يكملان الحديث الذي استغرقا فيه. بهمساً أحياناً يضحكان كثيراً. يصفان عندما يهمل طالب أو طالبة بجريان ليدخلا مدججاً بدأت فيه المحاضرات لكنهما لا يوقعا من مكاتبتها. عندما يحل أي صمت كانت لتي تد أصابعها لتحبب بخصلة الشعر المتدلية بجانب أنفها. أو تلتفت ضوء فجأة يعينها العسلين وهما يشكلمان فتري ارتعاشة أقدامه لحظتها ويتفجج وجهها وهي تضي رأسها على الفور. يحدث في كسرها لحماً ثم يعود لتتألم بحر السقف تلتبها الأصوات مكتومة ورثية من فاعات المحاضرات المظلمة فيشعرا في عزلتهما بسلام. بهمساً وتزيد فترات الصمت. ولون أن يتعمد وضع يده على يدها وهو يحكي شيئاً لمسحبها على الفور وتطرد تدوه بعتاب. أوتك وتمتم باعتذار وهو يتزحزح ستعرا ظمناً. لكنهما توسعت بعد ذلك ساعات سريعة لنسب ولسار في الممرات الخالية لم يمسح بهما. ألسكت بيده دون أن تنظر إليه ووضعتهما يده فوق يدها كما كانت من قبل. كانت تجلس إلى جواره متعمدة كالمح وتكلمها حين وتسمع من الساحة فوق يدها المتدلية ألسنت ظهرياً للحائط وفي شتهد بعض أرواح هو بهمساً يدها يرفق وكان أنامله تكبل تلك اليد. غير أنها يطرحان معاً ويتبصقان حين يفتح باب إحدى القاعات ويخرج منه الطلاب بضجيجهم المألوف. يذهبان إلى ممرات أخرى. إلى كليات أخرى في الجامعة. تمالك أيديهما حين يشعرا بالآمان ويتصللان مسرعين حين يروح أي شخص أو يسمعان أي صوت. ثم انصاعت دون أن يدريا بالوقت وهما يتفقدان من مبنى إلى آخر في الجامعة الراضية.

قرب الغروب قالت: يا، نحن تأخرنا. ولكنهما ظلا يسيران تانهين حتى وهما قرب الصور الثقلى للجامعة. وروا أحد المباني سقطت الكتب من يدها فأتحت لتلتفتها وأبصت هي في اللحظة تلسها وتلاص الجسدان وهما ينهضان معاً لوجد وجهها قرب وجهه تماماً متوردا بلون الشمس الغاربة فمس خديها بلسنته

برقة وسمرى تلقى بشورتها الباعة من فمه إلى جسده كله.  
ابتعدت لبنى وراحت تتطلع إلى الأمام والخلف في قرع ثم قالت: كان يمكن أن  
يطردونا معنا لو رأوا؟ فقال سالم وقد عاوده القرع أيضا: لم أخصد صدقيتي. لا  
أعرف كيف.

لكنها لم تكن تسمعه، ضحككت ضحكة صغيرة وهي تقول: كل هذه البراءة:  
طعنا؟ إذن ظلمت من أول السنة تنشر إلى دون أن نكلمني؟ وكيف لم تقم لها؟  
أنظر أنا إليه؟

ثم فجأة طويحت بكل الكتب التي ناولها لها يامشاه نراعيها وقالت بشرة لمرسة  
ملعون الضويرة، ملعونة الد... الد...، ولم تكلم لبنى ليعرف ما الذي تلعبه لكتبها  
جذيت من يده وقالت: تعال... تعال لجميع هذه الكتب مرة أخرى.

\*\*\*

لمس سالم دول أن عدى حتى وصل إلى البيت مبين الانقار.

سأله جده في دهشة:

- ماذا لك، لماذا لم يمت هكذا؟ كنت في الجامعة أو كنت تلعب...  
لماذا لم يمت هكذا؟

تأخرت حتى الآن.

لم يرد سالم على أي من هذه الأسئلة، ألقى على جده السلام ثم دخل إلى  
غرفته، جلس إلى المكتب وأغمض رأسه بين يديه، لم يكن يفكر في شيء، لم  
يسترجع حتى لحظات اللعنة التي عاشها، كان يرثيل وهو يمسح بينه ويصل  
نفسه في دهشة: هل حدث لي هذا بالفعل؟ هل كان هذا أنا؟ ولم يخرج من  
الدوامة غير طرقات جده على الباب وهو يسأل في ندم:

- ويعد؟ ألن نعيش في ليلتنا هذه؟

فتح سالم الباب وقال لوجهه بابتسامة:

- سامعتي يا جدي، الليلة لا أريد.

القسم الثاني

لبنى

نحسب لبني باب الثقة فواجهها التلاطم ، وعندما كست القفاح غمر نور النحلة الكبيرة الأثاث الثقيل الذي تكزه في روعة الاستقبال الراضية : المقاعد الذهبية بيضاءها اللطيفة ، والمائدة الرخامية النعومة التي زلزلها سريره الكربيدال البيضاوية المضطربة والخالبة من الزهور ، ودولاب الثكنة الزجاجية الذي يضم وماء الكنتيس ، ساندل غصبي .

وقفت لحظة تنظري إلى تلك الأشياء وانقسمت لنفسها : ماذا كانت تنظر ؟ ان تدخل فجدد هذا منها بسند ثريا بسع فـ . تسألني ولم لا ؟ إن تغيرنا نحن فلماذا لا يتغير ما حولنا ؟ ولماذا حمل دعيت جامدا ؟ فإذا لا يمكن أن نعدية بفرحتنا قيصيح أجمل وأرق . استارت سرا إلى يمين الردهة ورفضت اسمها ذات غرمة معلقة وأدركت أنها سببه .

أناها صوت ناعم : تعريه لبني ؟

نظمت شحكة خافتة : أنا سعيدة به دادة .

فأكمل صوت الدادة الناعم : الصباح رياح يا لبني .

خلت واقفة للحننة ثم رجعت فواجهها في السر وقطعت الردهة العلوية وذهبت إلى غرفتها في الطرف الآخر من البيت . وقفت أمام المرأة تنظري إلى وجهها المتسرح وكثرت برؤاها :

- أنا سعيدة -

ثم أفرقت في الضحك وقالت : كيف يعبر السعداء عن فرحتهم ؟ برقصون ؟ بدأت تدور حول نفسها أمام المرأة حتى أصابها الدوار ثم جلست على طرف سريرها وهي تلهث وتفسيت بصوت مسروح : وقيلة أيضا ؟ وفي الجامعة ؟ من يصدق ؟ أحكر لن ؟ من يمكن أن يسمعي في هذا البيت الخالي ؟ من يمكن أن يسمعي في هذه القفا ؟ ولماذا تنام دادة نية الآن ؟ .. حسن أنها نامت على كل حال . احتاج أن أبقى وحدي . احتاج أن أفهم . احتفظت كتفها بذراعها ذراعتك تطلع لنفسها في المرأة وقالت : يتنى من يحبون حبيبهم ؟ تسببها بالغل . تسببها كتبها لم تكن .

وقعت إصبعها الساية ووجهها إلى نفسها في المرأة ما إذا الآن أفقت . هناك شيء لا شيء لوكن بالمرحى بالفعل سعيدة : أين أخرج برحما وأخر ربحي أخرج فجدد هذا منها بسند ثريا بسع فـ . تسألني ولم لا ؟ إن تغيرنا نحن فلماذا لا يتغير ما حولنا ؟ ولماذا حمل دعيت جامدا ؟ فإذا لا يمكن أن نعدية بفرحتنا قيصيح أجمل وأرق . استارت سرا إلى يمين الردهة ورفضت اسمها ذات غرمة معلقة وأدركت أنها سببه .

نظمت شحكة خافتة : أنا سعيدة به دادة . فأكمل صوت الدادة الناعم : الصباح رياح يا لبني . خلت واقفة للحننة ثم رجعت فواجهها في السر وقطعت الردهة العلوية وذهبت إلى غرفتها في الطرف الآخر من البيت . وقفت أمام المرأة تنظري إلى وجهها المتسرح وكثرت برؤاها :

نظمت شحكة خافتة : أنا سعيدة به دادة . فأكمل صوت الدادة الناعم : الصباح رياح يا لبني . خلت واقفة للحننة ثم رجعت فواجهها في السر وقطعت الردهة العلوية وذهبت إلى غرفتها في الطرف الآخر من البيت . وقفت أمام المرأة تنظري إلى وجهها المتسرح وكثرت برؤاها :

نظمت شحكة خافتة : أنا سعيدة به دادة . فأكمل صوت الدادة الناعم : الصباح رياح يا لبني . خلت واقفة للحننة ثم رجعت فواجهها في السر وقطعت الردهة العلوية وذهبت إلى غرفتها في الطرف الآخر من البيت . وقفت أمام المرأة تنظري إلى وجهها المتسرح وكثرت برؤاها :

وقفت مرة أخرى أمام المرأة ولوحبت بيدها :

لا - لا داعي لمناقشة . لن نظروني - مستخدم ابتسامة كبيرة وترفع حاجباً مستغنياً «حبيبتي» عما الذي فكرت به ؟ صحبت أنك تسميتي ؟ هذا إن كانت لم تخرج مع زوجة إلى السينما أو إلى المسرح أو إلى عشاء في فندق من الفنادق الكبيرة التي يجانبها حلاً .

ثم ما الذي يمكن أن نقوله أنها عن الحب أي شيء ؟ تعرفه الدكتورة صفاء عن الحب ؟

وبإية ؟

سيرجيو الدكتور العظيم متأثراً جداً . ثم يغضب مباشرة إلى غرفته حتى لو كنت صاحبة . يخشى أن أقسم على قمة رائحة الويسكي ؟

كانت لا أعرف . كان ما يفعله يهمني في شيء ولكن بابا سرى على أصوله القريبة !

انتهت لبتي إلى مكتبتي في ركن الغرفة . أمسكت بموازين الشعر . كانت تمسك ديواناً ثم تضعه في مكانه . عبد العصور وتارة وتزاي وشوقس وإيليس وريشان . يمكن أن تسألهم أيضاً . لكنها تكتب صفحات الدواوين دون أن تفتح واحدا منها . شيء في داخلها قال لها إنها ليس في هذه اللحظة يمكن أن تقرأ شعراً . إنها الآن يمكن أن تكتب شعراً لو كانت تستطيع . أعادت الدواوين إلى مكانها .

تذكرت ما حدث قبل شهر عندما دخل والدها الدكتور شركت إلى غرفتها بعد أن تحدث في الثانوية العامة . لبثتها لم تكن تلوح بته رائحة الويسكي ولكن كالعادة . رائحة عطر امرأة . وقف هو قلب الدواوين والروايات . دون أن يملك نفسه حتى قراءة العناوين . وقال بلهجة حازمة : تويت على كلية الآداب شيعاً ؟

لمرت على الفور : لا . الحقوق طبعاً .

نظروا إليها بعفوية : ولكنك منذ المدرسة الابتدائية وأنت يتشاركون دائماً لإلقاء الشعر . وكانت درجاتك في اللغات شبه نهائية . حتى في الثانوية العامة عرجاك ..

فكرت في تصميم : الحقوق طبعاً !

لو لم يسألها ويصحب بالنيابة عنها فهل كانت ستفكر في كلية الحقوق ذات يوم ؟

ثم فكرت : ولو لم يسألها ويدخل الحقوق فهل كانت ستقابل سالم ؟ هل كانت ستعرف هذا الرجل ؟

وتسأل وهي تسخه سم فراشها بنطى بطبنة . وهل الحب أيضاً هو كل هذا التبع ؟ هل يلا الروح والجسد تصبح أكبر من أن تحملنا الأقدام ؟

\*\*\*

قالت لنفسها وهي تعتمد على فراشها بشياها : وأين كان الحب في حكاية زواج أمها وأمه ؟ تستطيع أن تفهم أنه كانت بينهما حسابات العقل . تستطيع أن تفهم لماذا تزوجت الدكتورة صفاء من الدكتور شوكت : كان منذ شياها الطبيب التابع . وفيما بعد . أشهر طبيب نساء في البلد . لابد إذن أنه كانت له كثير من المحبات من زميلات المهنة . حتى الآن مازالت له كثيرات من المحبات من المهنة وخارج المهنة . ربما المحبات الآن أكثر بعد أن تحرر بالطلاق ! ثم إنه لا يبدو أي اعتماد بالنساء ولا بالرجال ! هو مشغول طوال النهار والليل في عياداته وفي مستشفى . لم تعرف له أي أصدقاء غير الأشياء الذين يعملون معه في المستشفى . ولكن هؤلاء جميعاً مرسومون له : العلاقة ثقافت عند حد . سيكون هذا التباين عن الآخرين هو الذي استهوى الدكتورة صفاء العتيبة ؟ صحبت أن تلوح به ؟ وهل هذا أيضاً هو ما استهواها هي في سالم ؟ أنه جميل وبعيد وصعب ؟

ولكن يمكن أيضا أن تكون المسألة عكس ذلك بالقيس - يمكن أن يكون الدكتور شوكت هو الذي سعى وراء الدكتور صفاء - كانت جميلة الجميلات - طارأت جميلة الجميلات - لو رشت نصف جمالها - لو رشت شك الظامة المشرفة - هاتين العنبتين السوداوين الواسعتين - هاتين الشفوفين الشبهتين - شك الشفة اليسرى المثلثة والشفة اليمنى المربعة برونًا خفيفة في وسطها بما - ومن تنطبق على الشفة السفلى - أي وجهه لا ينبغي شغل من الفم الكامل - تلك البشاعة البيضاء الخالصة التي كانت في أفواهها لعب أن تلمسها بيدها وضعا وأن تلمسها .

التفت بجانب وجهه إلى الرأفة - رأته ووجهها - رأته عينها العنبتين - أمها المستقيم - بشرتها القمحية - شفها العنبتين - ليست قسيحة - كل إنسان يقول إنها جذابة - ولكن جذابة في دويشة في - أمها في الجميلة حق - وما أعمية الجمال يا من فرأت كثيرا ! ألم يقل أنت كل شعرات إن الجمال في عين الرائي ؟

هاها ! فليقولوا ما يشاءون ! لو لم يكن مدام جميلة - جميلة حقا - فهل كانت ستفكر فيه - ذلك الأنطوائى الذي لا يحسن أن ينظم - كم من ليل قضتها ووجهه يراهم كل الوجوه التي تراها وكل السطور التي تقرأها ؟

ولعل كانت تلك القراءة ضرورية ؟ هل كان ضروريا ألا توارثها الدكتور صفاء - جمالها وأن نورثها حمد الفرامة ؟ وكيف استطاعت الدكتور أن تجمع بين هذين الشيتين الغربيين - حب القراءة وقشها بجسدها ؟ تقضى ساعات طويلة في التزين أمام المرآة - وساعات أطول في الضيق واختيار ثيابها الجميلة وأثامها وتآكل باستمتاع - نواقة حفيظة - وبعد ذلك كله تقرأ الكتب في نهم - ما زالت حتى الآن تسأل أختها عن آخر كتاب قرأته ونهر رأسها حين تصعب الدوا - تكون قد قرأته

من ضمن ! من أين تجد الوقت لتتعل ذلك كله ؟ وكيف تزوجت من هذا البطل - أتكلم صدقي ؟ هو لا يطيق القراءة ولكنه يتول الدكتور في حالها حين تقرأ - يحب الأكل عجلها مع ذلك !

لكن لابد أن لديه مواهب أخرى غير ذلك وغير كونه ماكينته فلوس يضمتها من شركائه للاستيراد والتصدير - بالطبع يحتاج هذا الجسد الجميل أن يعيش به ! ولكن الدكتور شوكت يبدو جيدا أيضا من هذه الناحية لا تمر شهور إلا وتتغير راحة عطر النساء في شيا .

تصالحات ليني : إذن سيكون هذا هو السبب لمي أنها تركته ؟ هل كان يخونها مع لورا ؟ هل كان ينشغل عنها كثيرا يعلمه ؟ كيف ستعرف ؟ كنت صغيرة جدا عندما حدثت الامور في العاشرة من عمرا - تركب أمها لينا دون أي حياء - دون أي حياء كيف تعرف أن كان قد صبحها ؟ لا أحد سحما بكنكم أيها لا ينكر أمها أبدا - وأنها تكفى باتشكم حين تأتي سيوتيه وتسال ليني : كيف حال عيني القلب وبخلنا الوطني ؟

تعرف بالطبع بغير هذه العبارة : أنه كان لينا ماض سياسي - قضى في شبابه شهورا في السجن لأنه كان عضوا في تنظيم شيوعي - ترك السياسة مبكرا بعد أن بدأ العمل بسروق كل وقت - ولكنها تذكر قبل الطلاق مشاجرات لم تفهم معناها في حينها - تذكر أمها وقد انقلبت سحبتها الجميلة وتضرب وجهها وهي تصرخ - غلظتها بالمبرالية والبروليتاريا - لماذا لا تعالج مويصاك مجانا يا دكتور شوكت ؟ لماذا لا يفر من مثل الدكتور شفايرز - تذهب إلى غابات أوروبا وتربعا - تذكر ليني جيدا تلك المشاهدات بين أمها وأبيها التي كانت تلاعبها وهي توليف - هل بدأ من أيام الخوف الذي تلاعبها حتى الآن في كل خنود - هل بدأ الخوف عندما كانت تسبح في فراشها أصوات شجار أبيها فيملأها الرعب

وتضع الثلاثة فوق رؤسها والخدعة فوق أذنهما لا ، هذه مبالغة . الحرف معها من زمن أمد . الخوف رفيقها منذ عهد علي الدنيا وربما من قبل أن تعي . ولكنها تذكر مع ذلك رعبها حين كانت تلك الألفاظ التي لا تفهمها تصل إلى سمعها . الإمبريالية .. الدكتور شفايتزر .. والنرجسية . تلك الكلمة التي كان أبوها يكررها دائماً في المناجزة بصوته الرقيق الحاد . وفي وسط تلك الألفاظ كلها تسمع اسمها على لسان أبيها أو أمها . لا بهم " الآن يمكنك أن تظنني نادماً يا دكتورة صفاء !

لم تعد لديها في البيت إمبريالية ولا بروليتارية بينما الآن مليء بلوحات غالية وتحت غالية يشترها بابا لأنها عالية . ربما يكون بابا الآن أخيراً من أنكل مدفي والبركة في المستشفى لم يعد لديه وقت حتى لمرافقة الجوالد . يسرع الراديو في الصباح على الإغمار حين اغنياء . تدهش الحمار موت عليها أساليب وشعور فسألتني ياد خيدو في المستشفى " وأضبط أنا في مرمى كيف أصبح خافلاً بأخبار الرفاق إلى هذا الحد ؟

في الواقع أصبح خافلاً بكل شيء . عدا المال طبعاً . والشرب أيضاً . والسيارة طبعاً . شيئاً ولكن لا تهني يا دكتورة مارك أنا هنا لا إمبريالية ولا بروليتارية . نحن الآن ننهض للرجل الذي كنتم تلعنونه بابا لأنه البطل السوري الذي أوقف السجن . وأنت الآن مثلية الشد والظرف الدكتورة صفاء منذ الدكتور عبد العظيم بك .

جلست لثني ووضعت يدها في حجرها وهي تنظر في المرأة إلى وجهها المظلم وتسماعل بالأمسة هذه أفكار سعيدة ثم أقل إنني سعيدة لماذا لأن شعوب السعادة بسرعة وفاتي هذه الأفكار ؟ لماذا أحوم دائماً حول حكاية التلاق ؟ ما لي أنا الآن وبابا وماما وأثورة العالوية والمحبة ؟ ألا أستطيع أن أركز على سنام وجهه ؟ أن أظل سعيدة ليلة واحدة ؟

ما الذي يفعله الناس ليعيشوا السرور ويتسوا أي شيء غيره ؟

هاتك لنفسها وهي تحول عينها عن المرأة هذا الشرج ليس منبئاً جدياً : استخراج الآن كل الأشياء التي أدركت أن أذنها فيه . أعرف أنها مستخرج . لا لأنني أهتم حقيقة لما حدث . لا لأنني أعتبره نهاية العالم . ولكن لأن الإهانة ترفض أن تزول ولأنني لا أعرف طريقة أريد بها هذه الإهانة .

لحانت عيناً وشمرت قليلاً ثم تذهبت وذهبت وأنها تستكمل المفكرة التي سيطرت عليها . بالطبع لو سألتني سالم سأقول كل شيء .

لا تستحق حكاية مرتضى أي اهتمام . لا توجد أي حكاية أصلاً . لو سألتها سالم عنه ستخرج من أموره في دقيقتين . مرتضى نفسه لا يستحق من الحياة أكثر من دقيقتين . ولكن ماذا لو سأل عن الحكاية الأخرى ؟ وحتى لو لم يسأل فلماذا أت أقول الحقيقة . أنا لا أختلف ولكن من الذي يستحق الاستماع إلى الحقيقة . الأبرياء وحدهم هم الأداة شبيبة . أنا لم أقل شيئاً لبابا ولا لماما لا لأنني خفت منها ولكن لأنهما لا يستحقان الاستماع إلى الحقيقة .

ولم ذلك فهي حقيقة بسيطة جداً . ليست معقدة ولا غريبة . أستطيع أن أكتبها بدون تعقيلات ولا مبالغات . سأقول كنا في غرفة المكتب مثل ظهر كل يوم . كان حمري ١٦ سنة وكنت في السنة الأولى الثانوية . كان يجلس أمامي على المكتب . يعطيني درس الرياضيات . سأقول كان مدرساً عادياً . ربما في الخامسة والإربعين من عمره . ربما أكثر . قلت للبنات في المدرسة إنه يشبه توبج الزحاني في فيلم نزل البنات . وكان يشبه بالفعل . اسميها فيما بيننا الأستاذ حمام . لم يكن يصنع في الأحلام لأي بنت . كان أكبر من أبي . ومع ذلك فسأقول الحقيقة . لن أقول إنه اختصني . سأقول إنني لا أذكر اللحظة . سأقول لا أذكر كيف قام من مكانه أمامي وكيف جاء بمفكرته إلى جوارتي . هل قلت شيئاً أو فعلت ما شجعه على ذلك أم كان هو الذي فعل كل شيء ؟ أذكر أن جسمي كله كان يتنفض وأن شعوري مسخون كالخمس وهو يبحث بيده في جسمي . ولكن بعد ذلك أيضاً .



من كان هو الذي نادى إلى الكنية أم أنا التي صممت من بدء إتيانها . سأقول لا  
أدري ولكني سأقول إنني أنكر ما بعد ذلك بكل وضوح . سأقول إنه ذهب إلى باب  
الفرقة اقتنوح وأنطقه شافت كمن يفسح فجأة من النوم . كنت أعرف أن ثوب في  
العبادة وأن يم حسن الظلي في خارج البيت وأن دابة سنية في غرفتيا السجدة لا  
تسمع أي شيء . خلفت . كنت راغبة على الكنية ففست وزرعت وحلتي في الأرض  
وسألت بصوت عال . لكنني لم أعثر . ماذا أفعل يا حيران . سأقول إنه رجيع ودفعني  
بيده على الكنية وهو يحد ثيابه . قلت سأصرخ ولكن صوئتي أصبح ضعيفا جدا .  
وأخلفت الحصى التي كانت شبيه جسمي مكانها البرودة كالشبح في أطرافتي . كان  
يدفعني بيده لأرعد وكنت أنا أدمعه لأبعده عنى لكني لم أصرخ ثم أجد صوئتي .  
سأقول إنه صفعتي وإنني أصبحت خائفة منه جدا . فكرت وأنا أنظر إلى وجهه  
الشده بالشهوة أنه سيقبطني وشعرت وأنا أرعد بأصبي . كالاعمال . وعندما جاءته  
الآلم أقبيرا وصرخت قلنا فجأة ووقف فوقني وراح يلطم إلى رجليه مستغفرا وخائفا  
وهو يسألني . ماذا لم تلوئي إبت بفتة لم تكن أفسوس . ثم وجه نحوي صمات  
وهو يطم ثيابه بيده الأخرى . أنا لن أنروح . أنا رجل متزوج . سأقول إلى فجأة  
تهضمت رغم الآلم والألم . وكنت أصرخ : إمتى ؟ أخرج يا كلب يا ابن الفناء .  
فأخذت نحوه كذا وكذا . أخرى ثقيلة كانت على الكتف وحزبت وراءه وهو يعدل  
ثيابه ويجري متفاديا سقوط الأشياء عني إلى أن خرج من البيت ولكني ظلت  
أصرخ . ونادت دابة سنية من غارفتها في زهر الحورج إليها وحكيت لها كل شيء .  
وبومها يكره .

وتمتعت لبني لنفسها في المرأة . سأقول إذن إلى يكره . وسأقول إلى من  
لوظتها كرهت الرجال . كل الرجال . إلى أن جفت أنت يا سالم . قليل مثاقيل  
الحقيقة كما كانت ؟ قل أنت بزيء بالفعل  
وكانت الآن ترفع رأسها كعابتها لتمتع بدوعها ففانت صورتها في المرأة .

أصبحت تقابل سالم كل يوم تقريبا . يلتقيان في الكنية وبخروجان معا أو  
يتفقان سلفا على لقاء خارج الجامعة . فركا كثيرا من المحاضرات واكتشفا معا  
مخابئ العشاق في القاهرة : الشوارع الجانبية تصف المظلمة في وسط البلد .  
الكلاب تهافت المتشامرة على النهر والتي تضع مظلات مائلة يخشى طفنها  
المحبون . الأوراق النيلة التي تتبع الخلوة .

ولم تقترح كبنى أبدا الذهاب إلى أي من الفنادق الكبيرة التي كانت تلتقي فيها  
بأمها وأبيها .

ولكنني أتت بسمي اللغة بالساعات . بدءا في بدء . بجمعهما الكلام وجمعهما  
العسل . ولم يتسببا مرة واحدة من الحب . لم يكن أي منهما خبيرا بكمات  
القول .

وكانت نسأل نفسي أحيانا ما جدوى كل الشعر الذي قرأته وكل الأدب الذي  
أومضه إن كانت لا تستطيع أن تغفل له بالكلمات كيف تحبه . وما جدوى ما كان  
يقوله أبوها وأمه ومدرسه عن أنها ذكية جدا وأنها أكبر من سنها بكثير . وما  
جدوى أنها ظلت طوال عمرها الأثر في مدرسة اللغات وكانت تحضر هذه المدرسة .  
بفرضونها على الشغلين كذا بعرضون البضاعة القاهرة . الرداء مطبوعات الشعر  
الغربي والإنجليزي . ولكني تجيب عن الأسئلة الأهم عن ماضية نابلاند وثانيه  
عيلاد طه حسين ومبركة وأرلو . لماذا أقبلنا هذا العلم وهذا الذكاء . وفي ثم  
تعرف المسود الطيفي أبدأ من المسود ترتيب نفسها . واكتشف أخيرا . لم  
تفكرها . ثم اعتقدت أنها هي السبب في طلاق أبيها وأمي . وإن لم تستطيع أن  
تقدم كيف ؟ حين كانت تسمع اسمها يتردد وهما يتشاجران في غرفتهما بصوت

بما كان قد تبنى أنهما يتماجران بسببها ولم تستطع أبدا أن تغلب على نوبات  
الخوف الكاسحة التي تغزوها وبشل تفكيرها . وماذا نفعية أنها الأولى والأدنى  
والأكبر من سنها عندما اغتصبها حمام؟ وهل كانت هذه القراءة وخطوتها بالكتابة  
في شرفها للهروب من العالم الذي يرعبها؟ شك على كل حال في هدبة أنها  
الوحيدة لتجسيها من الدنيا فشكرها لها . ومادة كانت سنفعل نفسها في أيدي  
الوحدة والوقوف لو لم تكن الكتب هناك ؟

إن تحدثت معالي من ذلك الخوف . إن تحدثت عن قواها فمن الواضح أنه لا  
بقرة شيئا . إن تحدثت عن حمام ولا عن مرتضى . إن تفعل أي شيء بعده عنها .  
إن تحدثت عن السياسة . هي نفسها لا تعرف ما الذي أدخلها في هذه الحكاية  
الضخمة من الأصل . لا معنى لأن ننظم نفسها . ليست عذبة وبسحرة . هي  
لم تدخل تنظيما ثوريا سويا كالذي دخله الدكتور شوكت . كانوا مجرد مجموعة  
من الطلبة والطالبات التفت بهم نور دخولها إلى الجامعة ووجدت أنهم يفكرون  
ب طريقة أعجبها . تحسبهم التغيرات العجيبة التي تحدث في البلد . تحار . التهرب  
وتجار العملة والغلاء . البيع ويداة الأغنياء الجدد وفقدان الكرامة وغياب فكرة  
الوطن ونسيان تفصيلات الحرب القوية وظهور بقاء في السياسة يستعرجون  
جمالهم وأزياءهم على شبكات التلفزيون ويتاجرون بظهورهم مع مشاهير الحرب  
على مفاهيم المتحركة . وذلك في الوقت الذي ظهر فيه في الجامعة عشرات من  
الطلبة بجلايب بيضاء . ولم يعرفون مجلات الصائغ التي تكتب هذا الكلام  
ويضربون رمالهم الذين يكتبون بينما يجلسهم حرس الجامعة حتى يعرفون وحين  
يضيرون . أحببت ليس رمالها الفاضلين الذين يحنون إلى أيام لم يكن فيها شيء  
من ذلك . ويحنون إلى الإعيم الذي أحببت صورته وصوته وهي طفلة . وكانت  
تغضب عندما تسمع أنها وأنها بسانه كلما أظلت صورته من شاشة التلفزيون .

وجدت نفسها وسط هؤلاء الطلبة المثلثين بالحساس وأحس أنها تختفي بهم من  
وحدها ومخاوفها . شاركت في اجتماعاتهم في مدرجات الجامعة وفي كتابة  
المجلات لمجلات الحائط . وعندما عرف أنها ذات مرة أنها تكتب مقال عن الرجل  
الذي يكره من كل قلبه غيب بشدة وأفهمها بالساذجة وبأنها لا تفهم شيئا من  
«الطاعة» الذي ضيع البلد . وقال إنها تدافع عنه ليجرد أنه يكرهه . ولو قرأت بما  
فيه الكفاية عن عقدة أوديب لكنت عن هذه الملامة . أمرها وهو يعزق المقال  
بأنفاس لا تعود أبدا إلى مثل هذه الطفلة فذالت وهي يتنعم «حاضر يا بابا» .  
كانت واثقة من أنه لن ينسر له وقت لينابع ما تفعله أو ما تتركه . ولكنها تساءلت  
إن كانت عندي عقدة أوديب فما هي العقدة التي تجعل الدكتور شوكت يعتقد أنه  
محور الدنيا وأن كل شيء أفعله لابد أن يكون بسببه؟ وهل طلقته أنها لهذا  
السبب .

كنت ليس نشاوا زملاها ولم يفسد عليها محبتهم إلا وجود مرتضى  
وسليم . لم يكن يكتفي بالوجود معهم . بل أراد أن يكون زعيما لهم . وبدأ  
بشغل القلبية على هواه ويستقدم مصطلحات لا يعرفون معنيها : الطفولة  
البشرية . الهلال الحبيب . الخلاف الجعشي القومي . الماركسية التروتسكية .  
وكلام كثير من هذا النوع . يستعجب أنه ضاعها أول الأمر اعتقدت أنه أكثرهم  
علما وحساسا للفكرة . سمحت له أن يقرئ منها على أمل أن تتلم منه . كان علي  
عكسها يعرف أن يتكلم بفصاحة ويهاجم الحكومة والطفلة الجديدة التي سرقت  
الثورة . فبهرما بكلامه وجرائه . ووافقت للمرة الأولى منذ تجربة الدرس على أن  
تقابل خارج الجامعة لكنها ظلت توجي . ذلك الموضع باستمرار .

لم تكن المسألة مجرد اتباعها لسلالم الذي أسست في سرها (أبولو) والمفتت  
به منذ شعرت بتفرائه الحشرة الحبية . لم يكن هناك لغور يتصاعد في داخلها من

مرتضى ، لاحظت الانتقادات التي بدأت في المجموعة بسببه ، واكتشفت أن حقده لا يقتصر على الحكومة وأمريكا والبطبة الجديدة بل يشمل الجميع . لم يكن الحق النقابي الذي صدورها بالحدث عنه بل الحق الذي السيطر على كل من يملك شيئاً لا يمتلكه هو . وبفضل مرتضى استطاعت لبنى أخيراً أن يفهم شخصية ياديو عند شكسبير التي طالما حيرها أمورها . فوهت أنه لم يكن هناك سبب حقيقي لتكراهيته لطويل ومعينه لتدمير حياته غير أن اللغوي كان يملك حب وديمونة : كلاك مرتضى ! لم يكن يحتمل أن يملك أحد شيئاً لا يملكه هو . سواء كان هذا الشيء هو المال أو المركز أو الشكل أو السمعة أو أي شيء آخر . كان يعتبر امتلاك غيره لهذه الأشياء إهانة شخصية له . هو الذي قال عن سالم إنه ضاع عندما اتخذ إعجاب البنات به . لاحظت لبنى أنه لم يكن دقيق بالذات الأستاذ لأن بحبه الطلبة . يد هي كل منهم مريباً عنك . قيدا الأستاذ سؤل الإمضاء ومصاص دم الفلاحين ، والأخر يسرق محتاجاته من كتب الدكتور المنهوي (التي كانت لبنى واثقة أن مرتضى لم يقرأ منها حرفاً) وهذا الدكتور الثالث عميل للحكومة ، لأجبره . ومع ذلك فقد انتهى أمره بالهزيمة . حين ضيخته ذات مرة وهو يشتق هذا الأستاذ العليل ويثقل له لكي ينسجه إلى الأسرة الشبابة التي كان يكونها في الكلية . وأنه قلب متكشا أمام الأستاذ حين بعد . وبدأ لها أن جسده أصبح أكثر حساسة وصوته مرتعشاً وضائفاً . ولم تكن هي وحدها التي اكتشفت أمره وبدأت تتحرب منه . بل عرف حقيقته بسرعة معظم زملائها وزميلاتها وصاروا سجنين وجوده في وسبهم . لم يبق على علاقة به إلا من كانوا يتحاربون من قدرته على جرح الآخرين وإيذائهم .

ومع ذلك ألا ينبغي لها أن تتفكر مرتضى ؟ من كانت دون مقارنته وواقعته ستعرف فجرة هذا الإقتراب الذي ملا حياتها ؟

\*\*\*

وكانت تسير مع سالم في ليلة شتوية باردة في شارع الفلكي الضيق الذي تحفه الأشجار وتكسر نور مصابيحها اللطيفة العالقة ، عندما انزعجت يدها فجأة من يده والتذلت خلفها . لم يكن هناك أحد فقام يحضن يدها وهما يسيران صامتين وحسناً في همس :

- هم ثقافون يا لبنى ؟

- من كل شيء ؟

اقتطعت منها العبارة دون توير فسألها وهو يضم يدها بقوة : ولكن لماذا ؟

- لا أعرف . أحياناً أصحو في الصباح فيخيلني كل شيء . أصوات الشارع .

جدران البيت . صوت الراديو . ضجكات اشتغالات على السلم . كل الأصوات وكل الأكران والبرق . أشتغل أن كل شيء فيه حشر . وحين أخرج من البيت في هذه الأوقات أشعر أنني في حبيماً . وبالليل أضيء النور حين أنام . أخاف بالذات من الظلام .

هو سالم راسه وقاد . أنا لا أخاف من ظلام ولكن أخاف من نفسي . وأشتد بعد فترة صمت : عندما كنت صغيراً اعتقد أنني مجنون .

ومكناً حكى للبنى ما لم يقله قط لها أحد . اعترف أنه تائه حالات لا يعرف فيها هو نفسه إن كان مجنوناً أو عاقلاً . وأن الكوابيس كثيراً ما تخزعه من النوم فيصحو مجهداً وعاجزاً عن الكلام .

كان سالم يتكلم بمعاملة شديدة وبهذوء وشعر براحة تغمره لأنه تكلم أخيراً عما ظل يثقله في نفسه . صفطت لبنى بتورخ على يده . وقالت :

- لا تهتم لذلك ، أنا شخصياً أعتقد أنك عاقل أكثر من اللازم .

ثم أكمشت وهي تتسكك : أتدري . عندما كنت أراك في الكلية تمشي ثابتاً كالعنقاء . لا تخصص مجهول الجسمين نبيذ كما يفعل بقية الطلبة كنت أقول

لنفس في رأس لماذا لا تتعطف على يا أبولو بنقرة ؟

- من .. من هو أبولو ؟

- هو إله ال .. هو شخص جميل مثلك والاسلام ..

تقلص وجه سالم وابتعد من لبتي ووفقاً منواجهين في الغمة وهو يقول بصوت

خشن :

- لا أحد أن يقول أحد إني جميل

- لماذا ؟

- لا أحب .. البنات فقط جميلات .. أنا رجل ..

- وما العيب أن يكون الرجل جميلاً ؟

قال بصوته ينفر بالهيب : قلبك لا أحب ذلك .. ألا تفهمين ؟

كانت شفتها ترتعش .. كان جسدها يرتعش :

- نعم .. أنا لا أفهم .. أنا غبية .. سامحني ..

عندما بدا من صوتها أنها على وشك البكاء أصابه هو أيضاً الفزع ثم تصالح

نفسه وقال بصوت يتحشرج : أنا أنسى ..

من بدء بسنن يدها مرة أخرى فكانت باردة كالثلج .. سارا فترة طويلة أن ينكم

أحدهما .. وأخيراً سألها :

- عن أي شيء كنا نتكلم من قبل ؟

- عن الخوف :

- نعم .. الخوف هو الذي منعني من أن أنكث .. منذ رأيتك في الكلية لم أفكر

إلا بك أنت .. ولكنني لم أستطيع ..

فقالك شاردة : وبما حديث خوفاً .. وبما ترأسل النفوس الضائقة بإشارات

خفية .. ثم هزت رأسها وقالت : لا .. لن أسمع ! لن أسمع لنفسي بأن أخاف بعد

اليوم ولن أسمع لك .. وإلا فما فائدة الحب ؟ قلت إنك تفكر في .. هل تجبني جميلة ؟

- بالطبع ..

- ولكن أنا أعرف أنني لست جميلة .. لا يهم ! معك حق يا سالم .. أنت

لست جميلة ولا أنا جميلة .. الحب وحده هو الجميل والحب وحده يربط الجمال ..

أخبرت لبتي إلى ظلال الأشجار النورية الزجاجية التي تصنعها مصابيح الطريق

العالية وقالت لنفسها نعم : لو لم يكن سالم معي لأخافتي هذه الظلال .. تجر إلى

زهر عذرات الأفكار المكتبة التي لا أستطيع الخروج منها وتجعلني منقبضة

طوال الليل .. أما الآن فانا أراها ظلالاً لا غير .. ظلالاً كجسائط تأعم بطرش طريقاً

نحشي فوقه .. ويفرشه من أجلباً لأننا نحب .. قالت وهي تضغط على يده من جديد :

معك يا سالم لا أشعر بالخوف !

انتقلت إلى سالم عذري انفعالها ولكنها لم يكن يستطيع أن يعبر عن نفسه

سكناً .. خفق له أنه هو أيضاً لم يستطيع في حياته أن يتكلم مع أي بنت غيرهما

وأما هل يدل عمود يضرب فيمنعه الخوف من الكلام .. يضرب أن ينفذ .. أو أن

يقول شيئاً لا ينبغي قوله فيلزم الصمت .. معها وحدها يستطيع .. ولكن ليس

تماماً : إذ قال فينة :

- الآن أيضاً أخاف أن اقول شيئاً يفضيك ..

- ولكن أنا يستحيل أن أغضب منك .. كيف ؟ لأنني سامحني أنت إن أنا

أخطأت ؟

تردد قليلاً ثم قال : نعم .. إلا إن تركتني ..

أيست : الآن يا سالم أنت سجنون بالفعل !

تخلعت إلى جانب وجهه في الطريق المظلم وكانت تقاوم دعوها بصعوبة حزن

استطاعت أن تتلوى لأول مرة :

- كيف ؟ ألا ترى كم أحبك ؟

ولكنها كانت سعيدة .. الآن كانت خائفة من سعادتها ..

\*\*\*

عاشت لبني فرحاً لم تعرفه في حياتها من قبل ولم تتقبل مجده وجوده في هذه الدنيا . أن تنسى نفسها تماماً أن تكون وحيدة في فراشها بالليل تسمع الموسيقى فلا تلتفتها الوسائد والخافوف بل يحيط بها ويحجبها من كل جانب ، طيف عينيه الرمادية ، شجره الخيزر الشوش الذي لا يعرف أبداً كيف يمشطه ، حاجباه الكثيفان ، كل تفاصيل الوجه . طمس ذائقة الطويلة ، نبرة صوته وبارائه تحيط بها وتغروها في الراسيق في وقت واحد ، وهي وحيدة في الليل وهو يعيش بداخلها ، لم تكن الذموج التي تصاحب بون إرادتها تكفي لتخفف وطأة ذلك الامتلاء الذي تنطيط به وتنمى في الوقت نفسه وهي تنقلب في فراشها لو تتخلف منه . تقول لنفسها لا يحتمل الجسم كل ذلك الامتلاء بالفرح :

كيف كانت دون سالم ستعرف ذلك كله كيف كانت ستعرف الدور المحذور وضيق القلب حين تلفاه والده في الأديرة والفقر في الأطلال والوعاء في تلامس الشقاء ورغبتها في التحليق بعيداً لأن الأرض أصغر من أن تسع هذه الشهوة والجسم أضيق من أن يستوعبها ؟

كيف كانت ستعرف ما يحدث لجسمها حين يضمها إليه فتعمر في الجسم كله رعدة وغرق خفيف كالذي وتفتح الصمام كزخوار تنثر عطر ووحدها وجسدنا . وتعود جيلنا ، وتعلم مغمضة العين أن يفتتح هو أيضاً رحماً يحتويها فلا يفلتها إلى الأبد ؟

كيف كانت ستعرف هذا كله ؟

( ٢ )

عاش سالم أيضاً أياماً وأسابيع سعيدة ، كان يطوف بخاطره أحياناً ويقلقه أن لبني تنسى إلى حياة غير حسنة . فليس يعرف لغات ولا تحد أي مشكلة في دروس العربية في الكلية . فك سعى أن يراها فحسب مشييراً ، ليس أبداً أن تكون غيباً . أمضى منه بالتمكيد . ولكنه لم يفكر في ذلك كثيراً ، رضى بالتأويل الذي يعرفه عن لبني وبذمة السكنى التي وجدها معها . وكان جده يتركه في حالة ، لا يلح على أن يسيرا معاً ولا على أن يستترا فوق السطح ، وعندما يطرخ سالم في بعض الأحياء بأن يحكي له شيئاً عن لبني كان يستمع إليه صامتاً وعلى شفاه ابتسامة ثم يقول في النهاية :

أهم ألا يصرفك هذا عن المذاكرة .

ولم يهتم سالم أيامها كثيراً بمسألة المذاكرة ، مادراً ما كان هو أو لبني ويذهبان إلى المحاضرات حتى يهدما بذهبان إلى الجامعة . ولكن الطفل الذي كان يفرقه في تلك القناتين أو يسمعه في المحاضرات كان يثبت في ذهنه على الفور . بل وكان يشرحه لبني عندما يفلح منه . وسار جده يدور في بعض الأحيان من إجاباته على الأسئلة القانونية التي يطرحها عليه ، من جعلته لدرسه يقول معنيها . كنت متأكد أنك ستفهم في القانون . دعك رجعة الله عليه في آخر مرة رأسه فيها وأنت طفل صغير . عرف سالم بالطبع أنه يعني أبو خلوته . كما كان يعرف كثيراً من تفاصيل هذه الزيارة الأخيرة التي تركت بنهايتها القوية بصمة لا تمحى عن جده . ولم تكن لديه في هذه الأيام رغبة في استعادة قصص جده الملوثة . ولا كان الجيد أحياناً يستر رغبته في الإفاضة . فعلى القنطرة الأخيرة بدأ الباشكاتب ويميل إلى الصمت والتأمل على قير عائلته .

ولكن فوزية سألته مرة بالانتماء وهي تجلس قبالته ترضع طفلها مسالم الصغير :

- قل لي يا مسالم ، من هي التي (الحقيقت) أختي العاقل ؟  
تصرخ وجهه وراح يداعب سبابته الرضيع الذي ترك ثدي أمه ودخل عينيه نحو خاله وقال : ألا تريد أن سلوي يتعبني بالفعل أنا أعشق أبتك يا فوزية ،  
لكن فوزية أصبرت : هل هي واحدة أعرقها ؟ واحدة من الجيران ؟  
فرد متظاهرا بالالام : لماذا تسألين ؟ ومن أباك أن هناك واحدة ؟  
وسعت سبابتها في جاني رأسها وقالت : أظن أن أختك لا تفهم ؟ صحيح  
أنت في الجامعة وأنتى لم اتعلم منك . ولكن لى عينى وعادى هذا مع ؟  
انهك مسالم فى مداعبة الصغير الذي بدأ الآن ينسجم له ولكن حين بدأ به  
ليحمله حول رأسه فجأة وعاد يلطم ثدي أمه ،  
قالت فوزية وهي تربت على رأس طفلها ببط : أنت كدوم طول سمكة . لا أحد  
يعرف منك الحق ولا الباطل . ولكن لو كانت واحدة من الجيران لعرفت . أنظر أناها  
زينة لك فى الجامعة :

كان يلطم أمامها وهي تجلس فى الصالة على الكتبة منهكة فى الإرضاع  
لكنها تسحكت فجأة ودفعت نواحيها فيجذبت مسالم نحوها وقبلته فى خده قبله حارة  
وهي تقول :

- المفل ما جد لك يا مسالم ، المهم أن تكون سعيدا ، ستخرج لك ما تحت  
سعيدا .

جلس إلى جوار أخته وسألها :

- وأنت ؟ هل أنت سعيدة يا فوزية ؟

قالت دون أن تنظر فى وجه أختها : الحمد لله ، فراح رجل طيب وسلوم يملا  
عينها البيت .

ثم سكنت وهي تتسأل : هل تستطيع أن تحكى لىسالم عن مشاكلها  
الحقيقية ؟

هل يمكن أن نكلمه عن فراح الذي تعرفه رغم كل ما فعلت أن أخاها ؟ يجب  
هل سيفهمها ويفهمه ؟ كيف يمكن أن تحكى له عن التقبر السريع الذى أصاب  
زوجها خلال سنة واحدة ؟ غاضت الانتماء من وجهه وأصبح عصيبا يثور لآفته  
شئ ، ويخلق شجارا فى البيت ، ويحاول تهدئته ويقول له إنها لا تقصر فى  
واجبها وإنها تخدم فى البيت كالجارية برء بدى فمه فعمل فى بيتها استعاف ما  
تعمله فوزية دون أن تشكو ويون أن تطلق بكلمة واحدة هي تعرف مع ذلك صيب  
ذلك كته . فراح لم يصبح سينا لكنه يرهق نفسه فى الشغل أكثر من اللازم وكل  
الأنشأ التي توقعها لم تحدث . لا البهجة ولا المكافأة التشجيعية ولا الوقت الذى  
يسمح له بالدراسة العليا التى حلم بها . والمغرب الذى كان يكفى تماما قبل سنتين  
أنسج الآن يتغير قبل آخر الشهر بكثير . رغم كل ما نفعت للتبوير أهور المعيشة  
فى البيت ورغم ما يعطيه لها جداه .

أخيرا وقعت فوزية رأسها وقالت لأختها بصوت متردد :

- أريد أن أخذ وقتك فى موضوع يا مسالم .

جلس إلى جوارها على الكتبة وهي تحمل طفلها على كتفها وراحت تربت على  
ظهره ، ثم سكنت لحظة ويدا أنها قد عدلت عسا فريد قوله وسبكت أخاها  
بانتماء :

- على فكرة ، هل عرفت يا مسالم أين يذهب جدك يوم الخميس ؟

- لا . قلت لك إنتى حتى لم تحاول . هل عرفت أنت ؟

« لماذا إذن أسألك ؟ »

ثم أكتفت بضحكة مفتحة : « مصيبة يا سالم أن يكون جدك متزوجاً في السر !  
تؤخره مبعدا عنها وقد في ارتياح : جدي ! لا يمكن ! »

قالت وهي توصل التريبت على الصغير : « ولم لا يا صاحبي ! شئت كثيراً  
وتكتشف الحكاية بعد .. بعد فوات الأوان .. »

ثم أمسكت بابتها وأبعدته عنها قليلاً وراحت تزججه : « لكن أنت لن تكون  
كذلك يا سلوم ! أنت ستقول الحقيقة دائماً ، لن تصدم أولادك عندما تكبر لأنهم  
أخوة لا يعرفونهم .. كما أن أمك وطاقت قد يكون لهما أفعام ومعات لا يعرفانهم !  
ابتعد سالم عن أخته لينظر في عينها مباشرة وفي صوته علم .. »

« فوزية ! ليس هذا موضوعاً للزواج ! إلا جدي .. »

فواصلت حديثها لابنها : « لا جد يا سلوم ! هناك طبيب وعلى ذات في منزل  
أن جده رجل كريمة الرجال ! »

لكن فوزية شعرت أنها ذهبت بعيداً في الكلام بعدت عن نفسها فبشها وسررت  
في عين أخيها وهي تقول بهنو : « لا تطلق يا سالم ! أنا أخرج بالحق .. أقسم لك  
إنني لا أعرف شيئاً وأنا مثلك تماماً يمكن أن أشك في كل الرجال إلا جدي ، أنت  
تري كم بعيداً .. أنتنن لو كانت له زوجة وأولاد فسيكتفي بأن يراهم يوم الخميس ؟  
ثم قالت بضحكة عابرة وهي تنهش : ومع ذلك كما قلت لك .. أوقع نصف  
عمري وأعرف أين يذهب يوم الخميس ! »

سار سالم خلفها نحو الباب وهو يداعب الصغير بالصيحة في خده مستجدياً  
منه استجابة أخرى ، لكن فوزية توقفت لحظة .. ثم بدا أنها تغلبت على ترددها :  
« اسمع يا سالم .. ما رأيك في حكاية البيت ؟ »

قبل أن تنتظر رده شادت تجلس على الكتبة فجلس سالم إلى جوارها وهو

يسأل :

« أي حكاية ؟ »

« أنت سمعت بحكاية الطرخ الذي في جانب البيت ؟ »

« نعم وجدي ينوي أن يرممه .. لكن السكان لا يريدون المشاركة في التكاليف ..  
فقال فوزية وكنتها شئزع كلماتها : « سمعت يا سالم أن الأرض في حينها  
ارتفع شتياً : سمعت أنها يمكن أن تبيع نصف الأرض بشئ كبير تبني به عمارة  
جديدة في النصف الآخر ثم تبيع شققها بالشئ الغلاتي .. يمكن .. فاطمها سالم  
وهو يسأل بدعشة : « نهدم ونبني ؟ لماذا ؟ هذا بيتنا يا فوزية ! »

ثم استدرك : « لا ، في الحقيقة هو بيت جدي ، ولا يمكن لجدي أن يقرض قيمه  
بهدم ! هل هذا معقول ؟ »

« كان سالم الصغير قد قام على حجرها فتكلمت بصوت خالط .. »

« نعم يا جدي .. أعرف أن جدك لن يرممه .. »

« إذن أنت تكلمت معه بالعدل ؟ »

« لمحت له قبضتي .. قال مثلك : هل هذا معقول ؟ وأين تذهب نحن وأين  
سندعي الجوان .. »

ثم أكتفت بغيظ مكتوم : « كان هؤلاء الجيران يفكرون حينها ! يدفعون سلاتهم  
للجيران ويستصعرون حتى أن يدفعوا نور السلم ! نحن الذين توقع كل شيء ..  
رفع سياجته : جسدك هو الذي يدفع كل شيء .. لا نحن .. وهو .. »

نظرت في عين أخيها مباشرة وقالت بلهجة بالثرة دون أن ترفع صوتها : « أنا  
بحاجة إلى فلوس يا سالم ! مررت فراج لا يكتفي البيت .. وأنا لا أشغل ولا أسمع  
في المصاريف .. »

قال متعجيباً : « ولكنكما كنتمما تعرفان ذلك من قبل الزواج .. كان يعرف جدي  
أنك لا تشغلين .. »

ثم استدرك بصوت خافت : « وأظن أن جدي يساعدك .. »

قالت وهي تنظر شاردة إلى مقلها التام : نعم .

ثم واصلت بوزن أن ترفع رأسها : جدى يدفع ما يقدر عليه ولكنه لا يكفى .

كيف يكون عندما هذا الكثر ونعيش فقرا ؟

نهض سالم وقال وقد بدأ يتملكه الغضب : هذا الكثر ليس ملك فراج ولا ملكك

ولا ملكي هذا بيت جدى وبنا بعطيه طول العمر .

مدت فوزية يدها فلم تكسب بيد أخيها وجذبت له ليجلس إلى جوارها حيث كان :

- أهذا يا سالم - أهذا - أنا أيضا أدع له بطول العمر . أنا لا أحب أهدأ فى

البيت كما أحبه . ثم اغرقت عينها بالدموع وهي تسأل :

- قل لى ماذا أفعل ؟ فراج أختنى وخيصة ، والواحدة منا يا سالم لابد أن

تكون عزيرة فى بيتها . كيف تكون لى قيمة وأنا لا أعمل ولا أملك شيئا : الرجل

الآن يوزن زوجته بما تدفعه البيت .

قال مغتاظا : والحب يا فوزية ؟ ألا يوزن الرجل زوجته بالحب ؟ ألا تكون عزيزة

لأن يحبها ؟

قالت ودموعها تنساب بلا انقطاع : فى الحكايات فقط يا سالم \* عند الحب

جلى وسلك . أنا لست عزيرة على فراج لأنه لم يتحب فى زواجى . هو وعلق آتسى

أنا التى اشتريته ولكنى لم أفعل كل الشئ الذى يستحقه . ومعنى حق لأن الفيلة

غلطتى .

أقلت شيئا العبارة الأخيرة بوزن تعدد فعات تكرر .

- قل لى ماذا أفعل يا سالم .

نظر سالم إلى أخته الباكية فى حيرة وميؤء . ثم مد يده إلى كتفها وضمها

إليه يرفق وهو يقول بصوت مرهف .

- ولكن .. ولكنك عزيزة جدا يا فوزية :

ثم أختلق صوته وسكت .

( ٤ )

بعد تلميحاته جابر جاءت فوزية ، وسأل الباشكاتب نفسه : من عليه الكثر

بعد هذا ؟ شعبان الذى جاء قبل أيام يشكو له من مظالمه الكسرات البليظة ؟ أو

ربما سالم الذى وقع فى حب بنت غنية ؟ أو فراج الذى تبخر كل ثغاوره مع نخبز

مرشه ؟

كأن الباشكاتب يجلس وحيدا فى شرفته فى الليل ، يراقب الشارع الذى بدأ

يزدهم لتقارب مولد السيدة وأصبحت أرسفته سوى لزوار البيت . كما بدأ

أصبحت المحال يملؤن أفرد المصاييح الثمة بعروض التواجيات . ولكن أنسيه .

كثيرة كانت تستعمل بدل الباشكاتب .

لم يكف عن محاسبته نفسه منذ جلست وحيدا فى القهى ، ولاحتفته أمور

تأخره من نفسه . فاعده أولا اقتراح فوزية بناء المحلات فى مدخل العمارة .

ولكنه بعد تفكير قال ولم لا ؟ هو عليه أنه سيفقد شجرة العمر حنة التى كان

عمرها من عمره ثم سأل : وكفى بقى من هذا العمر على أى حالة .. كان يعرف

جدة الحالة التى تعيشها فريدة وفراج ويعلم أن ما بعطيه لحفيدته خفية لا يساعد

كثيرا على تغيير هذه الحالة . ثم بدأ هو أيضا يشعر بالخلا ، الذى يحدث عنه

الجميع . أعاد ألا يفكر أبدا فى المال . كان معاشه وأجاره وإيراد قطعة الأرض

الصغيرة التى ورثها هو وشعبان عن جمعية نفيس عن احتياجه الفيلة ويكفى

لحاجة أسرة كلها . ونوف من زمن بعيد عن الاعتماد على إيراد البيت

الذى لم تعد إيجارات مساكنه تغطى مصروفاته . والأين يدأ يسحب من مخزونه

لمصروفات الشهر العادية ، واكتشف أن هذه التحويلات ستضيق كلها فى تكاليف



الثوميم الذي اعتكز السكان عن المشاركة فيه لأنه ليس ملكهم كما قالت الست إنصاف وكلئها تراج قبل أن تضيف في أسى حقيقى من أين ونحن تلتزم لمصاريف علاج الناج إبراهيم؟ فذا العمل .. يهدم البيت بالفعل وليكن ما يكون؟ بقدر البيت والجيران معا؟ هو يصدهم .. أن لكل واحد منهم غيره بالفعل .. تربي في هذا البيت مع أبنائهم الذين أجز لهم الناج السعدى الساكن .. وظل الأبناء الذين ظلنهم يحفظون له الولد ويستأونه النصح .

كان يعشرون مثل ابنة شعبان .. وأهم أطفالا يكتبون ويترجون ويحبون .. يقولون له يا عمي وأطفالهم يقولون يا جدى ترفيق .. لم يعد يعرف أبيهم هو ابن من ولا على أى ضابط يسكن لكنه يحلف ويؤمهم ويخرج بهم حين يلقاهم على السب أو أمام باب البيت .. يفقه تسليمهم عن حالة الأسرة وحالة المدرسة فسرور عليه فى خجل وبرد .

أحزنه أن شعبان تم أيضا أن يكون له من هؤلاء الصغار أصدقاء .. وأنه رفض أيضا أن يخلط سالم بولادهم ويصادفهم .. ليكن .. شعبان حر .. أباه هو ليدون هؤلاء الجيران سيفقد حياته ضعيفا .. سئلنا لكل مكانه حتى للعت إحصاف مساحة الصوت العالي والشجرات التي لا تنتهي مع الحياة .

يود أن يعيش حتى آخر عمره في البيت الذي تربي فيه ويعرفه ناسه والذي شهد أيضا آخر أيام سمية .. يشعر منذ يوم التقى أن صفته الأخيرة قد دلت ويريد أن تطوى بسلام .. لم يكذب حين قال إن سمته كالحصان .. حالته مازالت أفضل مما يشعر أى إنسان في سنه أو حتى أصغر منه .. عذيقه هذه الصحة كثيرا منذ شبابه .. ومازال جسده .. المدوك .. ووجهه العريض المتناسق القسمات والثوبه بالدماء .. يوحيان بالقدرة والعافية ورغم الشيخايد الطويلة العميقة ولسنر الأشيب فهو يبدو أصغر من سنه بكثير .. لم يشك في حياته من المرض باستثناء

ومكات البرد وحالات طارئة من عسر الهضم لم تكن غريبة .. وهو الذي يعرف دائما ويعجزه عن مقاومة إغراء الطعام البارد ويأته لا يعرف متى يفيض عليه أن يتوقف .. تجاوزوه حتى ألم الأسنان الذي أرغم كل أصحابه في مراحل من أعمالهم على استخدام الأنظم الصناعية وشل يذته على فستقته التي عجز عن الصبر عليها في شبابه وفي شيوخته .. ولكنه يعلم أيضا بأنثاء القبل الذي بشره به أبو خطوة منذ مطلع الشباب .. بدا له بعد موت سمية الجكر أنه كان لابد من وقوع النكاح لكي يجد الطريق .. غير أن رغبات جسده لم تكن وحدها هي التي ماتت طوال السنوات التي أعقبت وحيل سمية .. بل ماتت تطلعات روحه أيضا .. عاش يزدى ما عليه من (أحاديث) أخو ولد ونحو ذلك من بعد .. يسمى الرغبات طوارى من الحسنى .. لكن روحه لم تلتجأ بعيدا .

في .. أجازها الكتب التي أعطاهها له أبو خطوة .. لمراها حويلا وأحبها كثيرا .. وجد الفكرة في كل هذه الكتب بسيطة وجسيمة : أن يتعلم بالتفاني معبنة تصل به إلى الزهد الذي يعينه الدنيا في قلبه فسزدهر حنة في نفسه ويتبين على المعجزات .. ورأى أنه لا توجد أى مشكلة في ممارسة الحياة كما توصي الكتب .. كان يعمل بذلك الوصايا بشكل طبيعي حتى وهو في عز شبابه وانطلاقه وراء نوات .. بدا له أنه قد ولد بهذه الأخلاق .. كان متواضعا دون التفتال لم هو أنه في منه .. بعيدا كل البعد عن تعلق من هو أقوى منه بجاهه أو ماله .. يبتذل من ماله ورده دون من ولا استعلاء .. يكره انتقار الدج للغطاء ويشي بحق إساءة المسرة إليه .. ينسأها لا بل ينظرها فحسب .. بل بمعنى أنه إن غضب لها في حينها فإنه لا يذكر بعدها فيم كان غضبه .. يحب من قلبه أن يساعد الناس وأن يقضى حوائجهم .. كل تلك السجايا وغيرها مما أوصت به الكتب لم تكن غريبة عليه .. غير أن الخطوة التالية التي قصت عليها بعد ذلك لم تكن لها علاقة بأخلاقه ولا بآرائه .

وإنما بنور محل عليه ويشرح له صفوه قبلك طريق الصالحين وتجري على يديه  
الكراميات . أبطأ عليه النور ولكنه لم يفتقد الأمل حتى في هذا الهزيع المأخوذ من  
عصوه . غير أنه أتراك عن يقين أن الرباء لن يقوده إلى الطريق . حين يحضر  
حلقات الذكر يدور في الحلقة أطول من غيره فينبئك جسمه تماماً ولكن روحه لم  
تكن تستيقظ . شعر بأنه يخدع نفسه ويخدع أولئك الناس الطيبين من حوله الذين  
تطلق منهم بعد طول الطلوع آفات الخسوع وبموع الزجاء .

وسمع ذلك فقد ظل واقفاً من أن هذا لا يعني وقوعه في قبضة الشيطان . كان  
إيمانه بسيطاً وعميقاً مثل إيمان أبيه الحاج السعدي . وكان ندمه على خطاياه  
صارفاً كما شعر بذلك صتيقه الصالح . وظل يكرر سينظر في الوقت ما يؤذن به  
الوقت . وظل عليه يقول له إن الوقوع في الدنيا معسبة تفوق ما سواها .

أخذ يجاهد مع ذلك منذ موت سمية مقتنعاً بأفتراف الدنيا والفرق بعد أن  
جمع جسده حتى تمسحه . انشغل تماماً بيهوم حياته مع ولده وحظيلته . ولم يفكر  
في امرأة أخرى . الأصح أنه نجح في إخفاء شهوة النساء التي لم تظفر . تماماً  
رغم ما حوله . ظل طوال تلك السنين يرى في عمله وفي حيرته تسماً من كل نوع .  
بعضهم يلمن وأخريات يرفقن بالفتنات التي يعرفها جيداً كأنهن يقرأن بخيلة  
نفسه . لماذا تكتب يا يوسف ؟ وجهك يفتش النداء الذي تخفيه خلف قناع الزهد  
وحسبك يكاد يمزق جلده كي ينطلق . لماذا تكتب ؟

ولكنه ظل صامداً . ونجح غير المستين في أن يكبل نفسه إذا ما هو هم شيء  
أكثر من النظر .

فحين ذين جاعه تلك العاصفة المأخوذة التي اجتاحت كل مسوده ومقاومته  
دهسته في الشهور الأخيرة التي كان يلطم فيها أوراكه لكي يخرج إلى المعاشي ..  
لينقذ مثل مجنون تيب أدنى ما عليه في العمل وفي الحياة عندها ظهرت هي .  
لا . الأصح أنها ظهرت بعد أن بدأ يستبد به شوق غريب إلى الحياة وحين جارف

إلى السماء كأنها هو في بدء حياته لا في نهايتها . حاول أن يتغلب على ذلك  
الإغراء المأخوذ الذي غزا جسده كالشمس . لكن يؤتبه نفسه على نظراته التي  
نفسه لزميلاته في الكتب وللمعاملات معه . راح يسأل نفسه : ما الذي جرى له ؟  
يخرج من عمله ويمشي في الممرات إلى أن يهده القعب . ولكن الشوارع كانت  
تعديه السماء أجمل مما راهن في عهده كله . شجوه عينه مباشرة بقوة قاهرة نحو  
السيقان المظفرة والصخور النافرة والشغاف المسطحة والعيون الجميلة . لا يقوته  
أصغر تفصيل وهو يمشي مع ذلك بشموله المسرعة كاله يهرب .

يقول لنفسه ومادا في ذلك كله ؟ السيقان أمضاء القمش والعيون للنظر  
والصور للوضاعة . لكل انسان في الدنيا سيقان لا ينتيه إليها . ولكنه إذ يمشي  
في الطريق يرى امرأة تتطلع إلى أزياء في واجهة محل . ترفع قدمها تلعب صفت  
الحذاء وتبش مسافها انشاداً بسيطاً فتجمل فكره رغم كل محافلاته . هاتان  
السيقان تلك المرأة المشوقة الغامضة . سيقان قويتان تتسابان من استلاء مستدير  
موجب عند السمانة إلى أن تنسجيا ويخرج وتومة نحو الببضة المرمية المساء  
للأحمر القدم .. يرى نفسه يكاد يلمس هذه الساق بتأمله . يتحسس نغماتها  
اللبضة . يرى شفوية تسنان تلك السمانة الشبية . ويشعر أنه يصعد بنفسه في  
تلك التومة . فيتوقف في حلق وهو يلمس عينه . يزفر ويستنفر . يرق الأرض  
يقدمه غاضباً على نفسه ومن نفسه . ويعاود المشي لكنه يحس يوم أن يفتقر حوله .  
ولكن لا فائدة . السيقان اللامعتان هناك وهما ليسا عضوين للمشي وإنما  
لتعذيبه وهلاكه .

وفي جولاته المعمومة تلك مثل جبالاً للكتب القليلة وراح يقب في الكتب ليجرد  
أن يهرب من خيالاته وأفكاره . ظل الياح يهجم حوله دون أن يتكلم وهو يتأمله من  
بعيد بنظرة فاحصة . وأخيراً اقنرب منه وقال يايتسامة مأكرة - عبرى شي . لا  
يوجد فوق الأرفك . تحب أن تراءى ؟ وعندما عرض عليه التجليات أوشك أن يرميها

في وجهه ويخرج من المحل، لكنه لم يفعل. بل قلب قلب فيها وهو يشعر بنفسه  
سريع في صدقه وجبينه وبرعته في يديه. كانت الصور التوتة تدب إلى ما لم  
أبعد من خيالاته الجاذبة التي تهرب منها ولم يستطع أن يتوقف عن التقلب فيها  
رغم شعوره بضجول ويأثت يقتضاه أمام نفسه. لم يخرج من الكتلة إلا بعد أن  
اشترى تلك الجلات ثم بدأ بعد ذلك يبحث عن غيرها وهو يلحق نفسه في  
تلك الشهور التي استبدت به خلالها شهوة العودة إلى النساء. بأن ما يقوله هو  
الشر الأعمى. بأن هذه التوتة تعصمه من زلة الزنا الحقيقية. أجهد في جمع  
الجلات وأجهد في إخفائها عن أنظار أهل البيت. اشكر له صانع الماتنج  
مفاتيح خاصة عالية الثمن للمكتب وقال له إنه يستحيل تنبدها أو فتح أبواب  
الكتب بدونها. وظل هو يحتفظ معه بتلك المفاتيح باسمرار. لا يفارقه لحظة.  
كان يشعر بالعار إذ يفعل شيئاً كهذا في كنفه فكيف لم ينجح أبداً في  
التخلص من تلك البراية التي تعلبها في شجنه. ثم ينقطع تنبذ النظر أبداً  
ولم يطلع في الإقلاع أبداً. يمر لنفسه الجلات موجودة. لا يستطيع أن  
يركتها. وإذا لا أودى أحداً ولا ارتكب شراً. ولكن علكه كان يقول له غير ذلك.

وفي تلك الأيام ظهرت ناراني ماثم. ترددت على مكتبه أياماً متعاقبة. كانت  
تنزعه من استيقاظه. أوراقه وإجراءاته الخاصة بالمعاش لكي ينجز لها مهامها.  
كان معروف بأنه يخدم كل أصحاب القضايا على السواء. وأن مكتبه مفتوح لهم  
جميعاً وإن حاول أن يتخلف من هذا العمل قبل المعاش فأركا بصرف الأجر  
لروسيه. لكن ناراني كانت تدخل مكتبه دون استئذان. تقدم أوراقا ومستندات  
لقضايا عديدة لإنابات المحكمة والمحاكمات القانونية مع شوكا. تزوجها الراحل. كنت  
تفتقر من التخصيص من عمرها بالتكليف لكنها تعنى كثيراً بظهورها وعلبيتها فلا  
تبدو ستمها الحقيقية. ومع أنها لم تكن تصنع شعرها. أو ربما تصفف وتنعقد  
تكون خصلات بيضاء. فقد كان جسدها قديماً.

واعلمت أن تزدى دافئة الملابس والألوان الفاتحة. وتعرف كيف تبرز أنوثتها  
الباطنية. كانت تتجاوز معدونه وتدخل إلى مكتبه ثم تجلس مباشرة على القدر  
الجلدي المواجه له وتقول بتهجئة شديدة التهذيب. فيها شيء آخر مع ذلك «يا  
حضرة الباشكاتب سيادتكم بالأمر». «ليترك كل ما بيده ويستدعي مروسية  
ليتابع بنفسه ما تطلبه. ومرة كانت تجلس أمامه واضحة ساعداً على ساق فراس  
تدور وهي يتطلع إلى جمال وتناسق ساقيهما البيضاوين. وضبطت نفسه بعزيمة  
يعتقده من ثوبها الرمادي المحبوك حول رجليها المستبرزين المماسكين ويتخيلها  
في صورة عن تلك الصور التي أتمتها. فصعد الدم إلى وجهه. وارتاع من  
الخلل تفكيره ثم كتمها حنست هي في لحظتها ما يفكر فيه فتصرج وجهها وهي  
تدور في حاستها وتطرق برأسها على القدر.

ولكن وبما هي قد توافقت حدث بينهما تعاهد ما. اتفاق مفسر على أن شيئاً  
أهم غير الأوراق بدأ يجمع بينهما. وجد الباشكاتب نفسه ينتظر حضورها إلى  
مكتبه بلهلة وصارته هي ملكاً في الانتصارات بعد انتهب. أيسالها. وأخذت  
الباشكاتب رتبة جديدة بسيطة حول عيبتها وحمرة خفيفة فوق شفها. لم يعد  
الحديث يدور عن العمل وحده. بل صار يتطرق إلى مشاكل الحياة. وإلى  
مقارنات بين أحوال الحاضر والماضي الذي كان يصل بكثير أيام الشباب.  
شبابها وشبابه.

ولدت ضحكات الباشكاتب المشرف على التقاعد وأدعشت معاونيه الذين لم  
يعتادوا منه الاهتمام الخاص بإحدى القضايا مع المحكمة. بدأوا يشاورون  
وبهمسون. ولا حظ الباشكاتب قصور زملائه لكنه لم يهتم مطلقاً. أخذت تكثر في  
داخله موجة من الاستهانة بكل شيء. كلما اقتراب موعد خروجه إلى التقاعد.  
وكانت ناراني أول امرأة من لحم ودم تقسم حياته منذ رجل سمية. وعلمها ثغيت

وبعد أن ثلاثة من المشور إلى مكتبة فصبح قلقا وعصبيا . ومنع نفسه بالكاد من أن يتصل بها ليمسك « ما الأخير » . قال لنفسه « البيت يا حضرة الباشكاتب ، لم تصبح مرافقين إلى هذا الحد » .

ولما أعلنت عليه في اليوم الثالث أو الرابع وجد نفسه يقوم من مكانه ليستقبلها عند الباب مرحبا بعبارة كثيرة لا معنى لها وهو يصفقها بيده الإنشيد ويضبط على يدها . وكانت هي أيضا تتنفس متوردة الوجه والتماعة في عينها . فادها عبر الحجرة الواسعة إلى مقعدها المتوفى أمام المكتب وهو يقول « أوحشتنا » فقالت بصوتها الناعم الهامس « وأنتم أيضا » فأكمل ضاحكا وهو ينحدر إلى مقعده خلف المكتب « إن لا لا لا تجمع الضلع » .

لم يكن هي نبته أن يقول شيئا من هذا النوع . لا يرى في الحقيقة كيف نزلت منه العبارة . لكن نازلي قالت وهي تتأمله دون دهشة « بهذه السرعة » أيت لا نضجع وقت يا حضرة الباشكاتب » .

وعندما وجته ينظر إليها متحيرا وقد فاجأه ردها الذي يعني أيضا المرافقة بسرعة ضحكك بدورها ضحكة خافته وقالت :

« أنت أربكتني كنت قد أعدت كلاما في رأسي ولكنه طار » .

صالحا وصوته يرتجف قليلا : « إن قلت توافقين ؟ »

رعدت إليه وجها باسما وهي تقول : « أين نكاد يا حضرة الباشكاتب ؟ لم لم

تتكم أنت اليوم لتكلمتنا . لماذا ينبغي أن يبدد الرجال دائما ؟ »

عقدت الدهشة لسانه وراحت هي تترنن إليها بمعيتها المتصراوين المتسيتين وقد

ارشم على وجهها تغيير جاز تماما وأكملت بتيرة واضحة :

« سألتك عنك وعرفت كل شيء » . أنت أول من سألني .

ثم قالت ببساطة بصوتها الهادي : « ولكن لي شروطي » .

ولم يستطع توفيق أن يحسم لنفسه أيامها وهو يتكلم ويتصرف كالنوم إن كان ما يحدث قد جرى ضد إرادته أو لأنه يريد حقا . كان يعرف بالطبع من متابعة فضايها وفراقها في الملفات أنها امرأة شديدة الثراء . تلك أراضي وعقارات وشركات وتمكن في فيلا في شارع سنسي . يعرفها جميع السادة والكتبة والمحامين في المحكمة ويتأدونها جميعا « نازلي هاتم » . وعرف أيضا أنها في ثنائيين أحدهما وكول للنياية والأخر طبيب كما أن لها ابنة متزوجة ولديها منها طفل . وأدهشه قليلا أنها تعرف هذه المعلومات المهمة : أسرته والبيت الذي يملكه والمحل الذي يديره ابنة والأرض التي ورثها هو وشعيان عن سميرة والأماكن التي عمل فيها قيل أن يأتي إلى هذه المحكمة . وكل التفاصيل الأخرى في حياته .

ولكن ما أدهشه حقا هو شروطها : سينزوجان عرتيا حتى لا تتركه ولا يرثها . لن تقيم معه في بيته ولن يقيم معها في الفيلا ولكنهما سيسكنان شقة صغيرة في وسط البلد ، ولن يلتقا كل يوم وإنما في الأيام التي يحددها .

اعترض الباشكاتب على الفور على فكرة الزواج العرفي . فقالت نازلي لماذا ؟ صالحة الإجابة يعني ؟ عن نفسي أنا بالطبع مستقولة لأولادي وتستطيع أنت أن شئت أن تقول لأسرتك . نحن لا نفعل شيئا محرما .

وهل سيقبل أولادها هذا الوضع ؟

ضحكت وهي تقول : « سيرفضون فقط لو عرفوا أن الزواج يمكن أن يحرمهم من الميراث أو أنه يمكن أن يضيع أموالهم . ولكن قلت لك إنني سألتك عنك وإنني أعرفك » .

ثم أكملت بصوتها الخافت : « وأظن أن هذا الشرط يناسبك أنت أيضا يا أستاذ توفيق يناسبك تماما ! »

كانت نازلي هاتم تعرف كل شيء وتحمي كل شيء . فقبل عرفت أنه سيظل يرجى « الإشهار » لأسرته ولغير أسرته باستثناء الشاهدين اللذين جلبتهما هي ؟

لم يستمع أن يقول حتى لأبو خضوة ولكنه أدرك من نظره وجه صديقه المذنب بن يعرف ، شدة نفسه : زواج شرعي وظهور فلانة إذن لو كان مقتنعا بذلك حقا في امرأة قلبه يتصرف كغير يخفى ما يسرق ؟ ولأنه لم يشعر طوال هذه السنين بطمأنينة النفس التي عرفها مع سمية ؟ سمية ، أي مجال للمقارنة ؟ ولكن ليعقل الآن ما يقول ، في حينها كان الترتيب مناسباً وكان العلاج ناجحاً ، لن يجديه لأن الإنكار ولن ينفذه الرياء .

لم يعرف نازلي هانم على حقيقتها إلا في تلك الشقة الصغيرة التي استأجرها بناء على نصيحته في عبارة مودة معادات الأطباء ، ولم يكن ذلك متفقاً تماماً مع الإتيان ولكنه كان ترتيباً مناسباً للعنف ، والأفضى إلى مكان آخر ، غير تلك العبارة المليئة بالقصص ، في السلاسل والغيادات ، كانت نازلي مسخرة لنفسها بين الأصوات والخرخات التي أزعجت في ليلتها الأولى في فراش الزوجية ، لكن تلك المرأة الشائقة الصوت الناعمة والهادئة ، التي توقع أن يتودعا ويفلحها من نبرته المتكسبة منذ النساء كانت تتحول لمعناها دون فاصل ، وفي الأوقات والصرخات من أميرة متحركة تنقلب إلى جارية خاضعة تنذل ومن اللبنة الماسية إلى الحما والشفقة ومن نعمة إلى نسيء . غير أنها كانت تساق بالآفات في دور الحارة الخاضعة التي تصب أن تومر وأن يعاقبها جسدها وأن تصحبه في ذلك فيستطيع ذلك كله السيد ليعطي أحسن ما عنده ، وقامت له مرة بصوت مخنق فيستطيع ذلك كله السيد ليعطي أحسن ما عنده ، وقامت له مرة بصوت مخنق وهي في حفسه ، هذه الأرض ملك جرداء ، طويلاً وتريد الآن أن ترتوي ، لم تكن وحدها ، فليعترف ، كان السيد أيضاً يريد أن يعرض كل ما فات في السنين الطويلة التي قمع فيها جسده ويريد أن يخفى من الحمى التي اجتاحت في الشهور الأخيرة .

راح يتعامل مع كل مرة في جسمها ، وكأنه يريد أن يستغل منها كل ما يمكن للجسم أن يعطيه ، كأنه يريد أن يرشف مرة والتي ألبس خلاصة المرأة

خلاصة كل نساء الأرض ، في تعبه وتلفه نازلي ، وفي اجتياح عاصف نازلي أخرى .

اتفقا في بدء الزواج على أن يلتقيا مرتين في الأسبوع في الظهيرة ليعقبا الوقت معا حتى المساء ، ولكن في الشهر الأول التي سبقت خروجه إلى المعاش والتي أعقبته كان ذلك اللقاء يتم أربع أو خمس مرات في الأسبوع لم تستد الأرض المودع من نقص الرز ولا انتهى العاشق الذي طال حرمانه من اكتشافه لأعناقها ، فأبصارها كان اللقاء الذي اتفقا على إنهائه في المساء يستد أحباتنا إلى عمق الليل ، وذلك قبل أن تتظم أمورهما بالفرح ، قبل أن تبدأ الثورة وينها كل منهما الآخر بما يتجاوز قدرة جسديهما ، حتى ولو كانا جسدين عظيمين ومشوقين للفتن ، شهد المساء إلى هذا اللقاء الأسبوعي الواحد يوم الخميس ، وفي كرهنا بيومي سبعة

بعد كل لقاء كانت نازلي الجارية تأخذ وقتاً طويلاً أمام المرأة لتضع زيتها المسك ، الرسوم مع ذلك بكل دقة ، لكن ترجع قبل الخروج نازلي هانم بكل كبرياتها وشموخها ، ولفت نظر الباشاكتيب ، ولكن فيما بعد ، أنه لم يكن يدور بينه وبين نازلي ، خارج العشق ، أي حديث له معناه ، أحياناً حين كانا يجلسان معاً في هدوء ، قبل الخروج من بيتهما فيشربا الشاي وينكلا الحصى ، كانت تساه عن رأيه في بعض قضاياها التي لا تنتهي ، أو تحسب بصفة أرقام إيرادات مستحصلها أو مصاريف مستوفعها وترجوه أن يراجعها معها ، أو تشكو له أحياناً من أن أولادها يتركون كل الحب عليها وتك ما بهمهم أن يجيدوا التقود جيداً مرة في النهاية ، أحياناً أيضاً كانت تنقد زوجها الراحل لأنه قبل أن يموت لم يرتب أمور الثروة والفرقة ترتيباً مناسباً ،

وحين كان توفيق يحدثها عن قلقه أو عن ندمه لأنه يعيش حياة مزعوجة أو لأنه  
يؤمن ثقة أسرته التي تحبه كانت تقول له بصوتها الناعم وكنتها لم تسمع ما قاله .  
يا توفيق . نحن كبرنا على هذه الأشياء !

ولفت نظره أن نازلي التي كانت تمارس العشق يجنون لم تتحدث مرة واحدة  
عن الحب . ولا هو أيضا .

ولفت نظره أنه لم يحدثها مرة واحدة عن سمية ولا عن أبوخطوة .

لكنه اعتصر مع ذلك في «الفتيت» لأنه كان يحتاج إليه وكان يناسيه .

وعاد المياشكاتب يسأل نفسه ، للمرة الألف أيضا ، وهو جالس في شرفته هل

كانت نازلي هي التي أخذت روحه أم أنه وقع عليها لأن روحه خامدة بالثقل ولا  
تبل له ؟

هل يجب عليه أن يعلم بأنه انتهى ؟

أغلقت المكتورة صفاء عيادتها مبكرة عن موعدها في الظهيرة وتوجهت إلى  
فندق (شبرد) لتقابل ليني التي طلبتها وقالت إنها تريد أن تراها اليوم . اقترحت  
صفاء أن تتلقاها في العيادة أو عندها في البيت ولكن ليني أجبرت على أن يكون  
اللقاء في الخارج .

جلسا في الحديقة التي تعلو على جبل . على مقعدين متقابلين يجزار الحاجز  
الزجاجي . ولم يكن هناك غير بضعة رواد متناثرين في المكان . راحت صفاء  
تتأمل ابتهاجاً بابتسامة ونظرة مستفهمة قبل تسألها «خبيراً يا ليني . ما الذي نذكر  
في ذلك الوقت عندما لم يكن يورغا لعبارة أسماء التوقف وقالت «انتهت لك وأريد أن  
أحدثك عن مسألة ...

كانت المكتورة صفاء كعادتها تترك شعرها الأسود الطويل مسترسلاً ومرجلاً  
بعذبة حتى منتصف ظهرها . ونسجده زينة كالنحل حول عينيها الراسعتين  
وتصيح شغفها الجسديين برفقة وإحكام . وكانت تلبس (تايبير) أزرق و(بلوزة)  
سميوية اللون . كان كل شيء فيها جميلاً . وارتدت ليني بلوزتها البيضاء العادية  
وقومها (بلوفر) من الصوف الأزرق أيضا . راحت تتأمل أسماء وتفكر بلن مجرّد  
النظر إليها متعة .

عندما طال الصمت بدأت صفاء الكلام : كيف حال دادة سمية ؟

هزت ليني رأسها وقالت : بخير . ثم أطرقت وعادت إلى الصمت .

شعرت صفاء بشوق حقيقي إلى مريبتها القديمة ولكنها شعرت أيضا بحرج  
من الطريق للحديث عنها . بقاها مع ليني جزء من اتفاق الطلاق . تعلقت بها منذ

الصغير أكثر من تعلقها بأبها . ومع أنها تعرف أن شوكت لا يحبها . إلا أنه لهم أن يفاها ضرورى مع لى بعد خروج أمها من البيت . واعتادت الدادة سنية أن تزور صفا مرة على الأسبوع وأن تبيت عندها أحيانا بعد أن تستيقظ لى . ثم تكن المربية كثيرة الكلام . فى الواقع أمها نادوا ما ننكم . لكنها تسمع لصدا . وكان هذا وكثيرا . ثم تصحبا أو نأسها بل كانت تسمع قدمه وكانت تحبها . انكم تنقلها الآن بعد أن أصبحت عاجزة عن الخروج والحركة : صوته المرتعش فى التليفون يزيد خوفها إليها وخوفها عليها . أحيانا تنكر فيها بالبل وتعلم ما لم تحسب وهي تبنى . هل سلفك حتى صوته عما قريب ؟ ما علاقتها الآن بلى ؟ هل تحكى لها فى الأخرى أمراوها ؟ وهل حازلت الدادة قادرة على أن تسمع وتفهم ومن أين لها كل تلك الطاقة على العنان والحب وهو الذى ظلمتها الدت ؟ نظرت صفا عارضة عبر الواجهة الزجاجية إلى القيل . كانت صفا بيضاء كثيفة فى السماء . وكان النهر رماديا . أخيرا تكلمت لى وهي معلقة وقالت لأبها أريد أن أسالك عن شىء . كيف يكون الإنسان سعيدا ؟ ضحك صفا ضحكة خائفة ثم قالت لايتها : أنت تعرفين كثير يا لى . لم تجدى إجابة عن هذا السؤال فى الكتب ؟ - لا أريد إجابات الكتب . أريد أن أسمع منك أنت . - أنا بليدة فى الأبيسة النظرية ! وبما لكل إنسان سعادته التى تختلف عن سعادة غيره . - ولكنى أريد أن أكون سعيدة . ابشمت صفا : الإنسان لا يريد أن يكون سعيدا يا حبيبى . هو إما أن يكون سعيدا أو لا يكون . إرادته لا دخل لها بالموضوع .

« وأنت . هل وجدت السعادة ؟

سكنت صفا . وهي تفكر : هل هذا فع ؟ ربما تكون لى قد جاءت الآن لتعاسبها . لم تعد اللقطة التى انقضت علاقتها بها على أن تعدها بالندابة . وعلى الشررة المارغة فى لفاتها القليلة . الآن جاء وقت الأسئلة الصعبة : ومن يدري ! ربما يكون شوكت قد علا وأسها بكلام عنها فقالت صفا : مشيرة من الرد : هل تعرفين كلمة دادة سنية التقليدية . الرضا ؟ أن يرضى الإنسان بما يجده . هى مثلا لم تجد فى حياتها سوى القليل . فرمت فى شياها دون أن تتعب ولكنها رضيت بى ولك أحياتا وأحيانا .

وفكرت لحظة قبل أن تقول : وربما أيضا أن يرضى الإنسان بنفسه . ألا يطلب من نفسه غير ما يمكن أن تحب . أن يرضى حتى يضعفه الذى لا يستطيع أن يفهم .

قالت لى مشيرة : يا أمى يا حبيبى أنا لم أسالك اليوم لاستمع إلى حكم ومواظ . أنا أريد أن تكلمنى عن حياتك . هل وجدت السعادة وكيف ؟

كثرت صفا إلى ساعة وتكلمت بهو . لنفى فعالها . لا أستطيع عدم على كذا ساعة فى الحياة أن أدخل امتحانها فى .. ولكن عموما ما السبب فى هذه الأسئلة .

قالت لى وهي لا تزال عسفرة : لانى أحب .

أشرق وجه صفا . وبدا فيه فرح حقيقى : أخيرا ! مبروك ! كنت أظن أنك أنت . ثم وضعت يدها على يد ابنتها وقالت : أترين ؟ الآن أنا سعيدة بحق . سعيدة بك ومن أهلك .

لم تهتز لى لاتفعال أمها وقالت وهي تحاول وجهها نحو زجاج الواجهة فلانها أنا لست سعيدة ؟

- كيف ؟ أه ! أنت تحببته وهو لا يحبك ، أو ربما لا يعرف أنك تحببته ؟  
- لا ، أنا أحبه وهو يحبني ، أو يقول إنه يحبني ، لا أعرف . أظن أنه بالفعل  
يحبني .

- إذن ما هي المشكلة ؟ هل هو شخص صعب ؟  
وأوشكت أن تغلق منها عبارة « مثل أبيك » لكنها توقفت في اللحظة المناسبة  
وكانت ابني تقول :  
- لا ، هو لطيف إنسان في العالم ، وأنا أحبه جدا وأكون سعيدة معه ،  
المشكلة ..

وضعت يدها على جبينها وصفا . تنظر إليها لكي تكلم فقالت ابني : أريد أن  
تساعدني .

المشكلة التي أخاف من كل شيء ؟  
لا يمكن أن يكون هذا بدون سبب يا ابني . لو فأت واحدة غيرك هذه الكلام  
سأقال إنه ببساطة أن ترى طبيبا نفسيا . ولكن أنت ذكائك - أنت حتى الآن  
هني بكثير . لو فكرت ..  
وتسألت صفا : إن كانت ابنتها ، قد عرفت بالفعل الشك بسبب تجربة  
انفصالها عن أبيها . عادت ابني تتكلم بطريقة طيبة يشبه والدها : لا أعرف  
السبب . أو أعرف أسبابا كثيرة . ولكن هذه لا تساعدني في ...

ثم نظرت إلى أمها بما يشبه من التحدي وقالت : أتريدن أن تعرفي ؟ الخوف  
أعيش معه منذ صغري . بعد أن كنت تصحني في الفراش وتطحن النور . كنت  
أفهم وأفهم من جذب غير خروجي على أكثر الثباتي لم يكن هذا يساعدني . كنت  
أخرج وأنا أرتجف من الوباء لأنام في حضانة دادة سنية . وكانت هي تصحني  
بعد ذلك ناعمة إلى الفراش .

- وكيف لم تقل لي هي ولم تقول أنت ؟ .. ولكن هذا طبيعي دادة سنية لا  
تتكلم وأنت .. ثم سكنت لحظة قبل أن تكلم : عندما كنت في مدرسة الراهبات كن  
يضوقتنا من الشيطان الذي يوجد في كل شيء حتى في أظافر أصابعنا . وأذكر  
جيدا أنني كنت أخاف بالفعل ، هل كن يخلوكن أنت أيضا ؟  
قالت ابني باقعة الحسرة : يا أمي القبول يعيش معي من قبل أن أدخل  
المدرسة . أنا ولدت بالخوف . أنا عازلت حتى الآن .. !

- ولماذا لم تكلميني عن هذا من قبل يا ابني ؟ ربما لم تحدثنا صفا .. ثم  
استدركت : أنا لا أكون الآن ولكني أقوم تلمي .

عبر وجه صفا بالهميل حزني حقيقي وهي تنظر إلى ابنتها . أرايت أن تقول  
لها « سأحضر » وكما كانت تكرر العبارات العاطفية ويعرف أن ابني أيضا لا  
تطبقها ، وبالمذاكطور شجرت على اختيار الدموع والكلام العاطفي ضحكا لا  
يؤذي حتى وهي مثله كان عاتية إذا ما كنت « ولم تدور » أن تدخل صفا . هي  
التي كانت تربية ابني لتكون قوية . ولكن لماذا استسلمت لذلك ؟ لماذا قلت  
أن ترى ابنتها الصغيرة تتسارع تحبس دموعها وتشمع بالعار إذا ما بكيت ؟ كيف  
سيرت على هذه القصة ؟

لحقتها فاجتبتها ابني مرة أخرى حين سالتها وهي تنظر عبر الزجاج إلى  
النهر :

- هناك مسافة حبراني منذ الصغر . لماذا كان الطلاق بينك وبين أبي ؟ هل  
كان لي أنا علاقة بالوضع ؟ هل كنت من بين أسباب الطلاق ؟  
تراجعت صفا في مقعدنا وقالت باستغراب : كيف تكونين أنت السبب ؟  
بالعكس ربما كنت أنت السبب في تأجيل الطلاق . لا يوجد أي شيء « مشترك بيني



وبين أيك من أنا نحن الاثنين تحيك ! .. كيف ينظر بذلك !

وحولت صفاء وجهها أليها نحو الشجر وهي تفكر : بالفعل ، كيف ينظر ببال  
لبنى شي . كهذا ! وما الذي يمكن أن يقولته لهذه الطفلة ، التي ما زالت طفلة رغم  
زكائها وفراحتها . عن أبيها العظيم : علمتها الأولى والتسرى بالطبع أنها لم  
تكتشفه على حقيقته قبل الزواج . لو تكتشف أن شفته بنفسه التي أعجبها  
وجذبها إليه لم تكن سوى غرور أعصى يجعله يرى نفسه محبور الكون - غرور  
بعضه ، وبنجاحه ، وبرسامته . ومذائبة الثوري . ثم يتذكره للأخرة ويبتكاره  
العملية الجديدة . يجد في كل ما فعله أو يفعله في حياته قصيرا للنباي ودرسا  
يجب أن يتعلم منه الآخرون . غرور يجعله لا يرى من أمامه ولا حتى من تشاركه  
فراشه ! في اليد ، كانت تنعذب في صمت . تخيل أن تقول له تسبنا وهي تراء  
بمصرف عنها فور أن يرضى رغبته . تنقلب من نفسه إلى أن تنهى  
توترها بنفسها خفية . ولما لم تجد تحتل صاوحته . وجدت صعوبة في العمل على  
ضجلها وتكلمت بتورده ، بأنصاف جمال وبتميمات مبهمه . وكانت تنظر منه بعدا  
أي شيء غير ما سمعته أذنها . قال شوكت وهو ينظر إليها : **الفتوة دون أي**  
**الفعال إنه يقهر مؤامرتها لتسلمه !** قال إنه يتجمع مع كل النساء غير ما قلنا  
تتعهد هي ألا تضبط نفسها معه ؟ هي بالبيع ثمار منه ومن نجاحه ومن تفوقه في  
الطلب وتحويل عن اللحاق به ولهذا تريد إزالته بهذه الحقايق : لكنه لن يسمح لها  
بأن تهزم شفته هي نفسها أو أن تعطله . إن كان عندها مرود فلتعالج نفسها دون أن  
تحملة مشاغلها ! أضاف إلى عذاب الثور إشعارها بالذنب دون أن تهتز فيه  
شعرة .

جاد : كل تلك السنين من التعاسة التي عاشتها مع هذا الجنون !  
انفثت إلى لبنى السامة وقات لها . حدث الطلاق كما يحدث أي طلاق . لم  
تنفق ولا ذنب لك فيما حدث بالبيع . بل الذنب أتبنا . نحن أخطأنا في حلك . أنا  
أشعر الآن بالذنب لأنني لم أعرف بحقيقة متخالف شعورك ولكن أنت تعرفي

بالبتي من قراءاتك أن الإنسان لا يعيش بمخاوف الطفولة ولا حتى بالمشاغل  
الحقيقية التي يمر بها في طفولته وشبابه . وكل إنسان يصنع نفسه بالبتي . وفي  
الغالب يصنع نفسه ضد ماضيه ..

لوحث البتي بيدها وهي تقول : لا داعي لهذا الكلام يا أمي . قلت لك من البدء  
إنني لا أحتاج إلى مواظبة . أريد أن أسمع كلاما جديدا . قولي مثلا ماذا أفعل في  
حكاية الأسبان حمام ؟

بدأت تحكي لاسها بهمس مسجدا شامعا . دون الضلال وسون غمدج . ولكن حتى  
أشبهت كانت ترفع رأسها كعادتها لتقاوم التسرع الذي تريد أن تظفر . أما صفاء  
فتركت دموعها لتساق في صمت . لم تسألها هذه المرة لماذا لم تقول لي من قبل .  
كانت تعلم أنها لم تقرب إلا حقيقته من بينها وأنها مسئولة بشكل ما عما  
أصابها .

أصكت يدي لبنى الموضوحتين على المنقصة دون أن تقول أي شيء . ثم  
سألتها : **ما قصة أيضا :**

- هل حدثت أحدا بخبري عن ذلك ؟

- دادة سنية .

- أقصد حدثت أحدا غيرها ؟

- لا . ولكن لا بد أن أقول لسالم . من حقه أن يعرف .

فعلقت صفاء بيضاء وبشرة حساسة دون أن ترفع صوتها : ولا كلمة ! لا هو ولا  
أي إنسان غيره . هذا شيء يمكن علاجه .

- بالخداع ؟

تركت صفاء يدي ابتها وسألتها : هل تريد أن تتقويه ؟

فأدارت لبني رأسها مرة أخرى : لا تريد أن أعيش في الكذب .

قالت صفاء بون أن تنظر في وجه ابنتها : لا أنت ولا غيرها . لا أحد يريد أن

يعيش في الكذب ولكن ما العمل بحياتنا نفسها كذبة كبيرة ؟

ثم فتحت حقيبة يدها وأخرجت مرآة صغيرة وراحت تصلح زينة ابنتها التي نقيتها الدموع . استغرقت وقتا طويلا لأنها كانت تبتلع في رأسها عن كلام آخر بقوله لبني الفارقة في البيت . ولكنها شعرت أن ابنتها قد أصبحت داخل نفسها من جديد . وأنها قد أصبحت الآن بعيدة عنها تماما .

ومع ذلك لم تشك صفاء لبني إلا بعد أن انشغرت منها وبدا يلا شيوخ لأحد بقصة المرس قبل أن يسكن مرة أخرى . وبعد أن غلبت بها في الرد بعد أن فكر جيدا في الموضوع لم تنسها بها ونحو صلا التلازم .

لم تتابع لبني أمها بتركيك . أخذت تبرز رأسها ويقول نعم - بالفتح - غدا . ولكنها كانت تفكر في شيء آخر كانت تقول لنفسها : أين لا حل سوى الاستمرار أو أن أتزل سالم . ولكنها كانت تعرف أنها آجبن من أن تفعل هذا أو ذلك .

وخارج القطار كان الجو باردا ، عرضت البكتورة صفاء على لبني أن توصلها بسيارتها إلى أي مكان تريد ولكنها قالت إنها تحب أن تمشي . سألتها أمها تمشي في هذا الجو العليل؟ رأسها وقالت صفاء : يايتسامة منكفة وهي تصعد إلى سيارتها : مجنونة مثل أمك : لا تمشي موعنا غدا .

مرت لبني رأسها مرة أخرى وتكررت وهي تلوح لأبها بالتحية : لم أقل لها حتى لماذا أدبت خفيفة مقابلتها اليوم ؟

\*\*\*

سارت لبني على شاطئ النيل في اتجاه جزيرة الروضة لكي تقابل سالم في انزع . كان الجو باردا بالفعل فتمسكت (بالكرسي) على جسدها وأسرعت خلتها .

لكنها توقفت فجأة أمام حاجز الكورنيش البحري . فكرت وهي تنظر إلى الأماح الوعادية المتوازية : ومع ذلك فسوف أفقدها شئت أم أبيت فسوف أفقده . رأت في الصباح مرتضى فتشاهت ولم تكن مقلقة .

شيكيت يديها أمام صدرها وراحت تنقل بصرها بين السحب البيضاء في السماء وشراع مركب كبير ممتنع بالهواء يتجه نحو الجنوب . كان الشراع مشدودا ومتوترا قيدا (المراكبية) يستقون الصاري ويطوفون الشراع . واقبعتهم وهي تحاول كالعادة أن تمنع الدموع من عيشها وفكرة واحدة تتكرر في رأسها . كل شيء الآن سيهر . كل ذات الشراع الضخم العم . كل شيء البحري من الأماح . كلها منضعب .

سارت لبني بيدها في بيده الشريو الذي منطه فيه .

تسرع إلى الصفيحة القديمة . تسرع إلى التلطف للواء في خوفه والحد من الصوت والهروب من الفراء وأربع من الناس والآنسة . تسرع إلى البيت . أنت يفتل الوقت ويمعني معا .

وتفرض أنها قالت له عن قصتها مع حمام وأنه فهم وفكر . (كيف؟ بنية مبعثرة؟ لا تلوي) فهل سيفخر لها أنها أخفت عنه حكاية المقالات والمشرقات والمظاهرات؟ فهل سيفهم أنها كذبت عليه لكي لا يفقدها هل سيفهم؟ هل سيفهم ؟

وتفرض أنها سكنت وأن المسألة مرت بسلام فهل سيفهم مرتضى الفرصة؟ عرف رغم كل محاولاتها للتخفي أن هناك شيئا بينها وبين سالم . ونحن يتصادف أن يراها معا يرقها يايتسامة فيضة ونظرة كارفة . إنه سيب للحد أكثر من (إجانب) على أي حال ! يعتبر أن سالم سرقها منه . تعتمد المجموعة ألا تشركه في أي شيء . لا في الاجتماعات ولا في تحرير المقالات لكنه جاءها مع ذلك في

الصباح بابتسامته التي تغنتها وقال لها سعة خوة باجميل ! إن سنعطيك غذا  
وتنسى المشجرات ؟ غذا ؟ ١٥ يناير؟ ليس كذلك

ابتعدت عنه وجاها الحوار على القور، خافت منه وكانت خائفة من الأصل.  
نادا ثم نزل لهم الحقيقة وهم يوزعون التهابة لماذا لم نزل على الأقل أنا جمانة  
وأرجوكم أن نطوف من هذا العمل خافت حتى أن يقول ذلك جاء غسان النوف  
والعزى الميارد لكنها لم تملق، وشعرت بالعار وهي ترى زملاها وزميلاتها يقبلون  
انطواب منهم ببساطة وحتى محاسن كان يجب أن تتسحب لا في تلك اللحظة  
وإنما قبلها بكثير. كان يجب أن تعترف لنفسها بأن هذه اللعبة ليست لعبتها.  
ستعترف بهذا لسالم. ستكون أصرح مع نفسها. ستقول إنها خشي وهي في قلب  
اللعبة لم تفسح نداما بما فعلته، حدثت نفسها على ذلك. اللعبة القوية بدأت  
بالفعل عن محاسنهم. أما هي فعن أي شيء. ماذا؟ المكنون شوكت سعة كل  
الأمرال ويعطيها كل ما تطلب.

هل أراحت نفسها عندما امتدحت عن أن يوصلها سافرة سجاونة الي  
الجائعة؟ عندما سمعت ألا تلبس الثياب الغالية مثل الدكتور صفاة أبدا. هي  
ليست منهم. أكثر من ذلك، يعرف بأنها كانت هي وسط اجتماعهم تدعو بغور  
وتفرز من روايتهم أحيانا تبتعد خطوات عن يقرب منها ليكلمها واحدة فاه  
وجسمه وثيابه تصيبها بالقرار. نسأل نفسها لماذا لا يستحرمون يارس؟ لا يوجد  
في عصر أكثر من الماء ولا أرحم منه. لماذا لا يغسلون ملابسهم ليؤلو رائحة  
العرق على الأقل؟ كيف لا يستحرمون مغذراتهم؟ كيف لا يستغزون من روائح  
أجسادهم وهم طلبة جامعة؟ المفروض أن يكون أحد قد علمهم شيئا عن النظافة  
وأهم يفهمون هذه الكلمة. فلماذا ياربى كل هذا الاستهتار؟ لو كانت لديها ذرة من  
الشجاعة لصرخت ففهم أنهم قبل أن يثوروا على السياسة يجب أن يثوروا على

قدارة أجسامهم! لكنها لم تفعل. لم تقل رأيها في أي شيء. بل كانت تشعر  
بالذنب حين تاتيها هذه الأفكار. وإن لم تستطع التخلص منها أبدا.

أقم من ذلك أنها كان يجب أن تعترف بأن حبها لسالم يشغل كل حياتها.  
لكنها لم تفعل. تركت نفسها لعمل لا تستطيع تحمله وأخلفت أمره عن سالم. أقنعت  
نفسها ببيت من الشعر لشكسبير يقول «لا تدخل معركة ولكن إذا دخلت فائت» .  
برافو! ولكن ماذا وهي لا تستطيع أن تثبت حقيقة لا تستطيع.

بدا وذا خفيف في السقوط. تأسرت لبس خطواتها ولكن ساقها عادتا  
ترتجبان أكثر من المعتاد.

سعدت إلى الكازينو فتجد أن سالم عرف كل شيء. من مرتضى، صبيحتها  
بها ختومة. تخلى عنه أفعاليا. سيكون في غرف مكتبة الأستاذ حماد. ليس  
بعيدا أن تكون قد رأيتهم بمزونه ما. سستنها. سيضربها. يسبقه إلى الأند  
الأفضل لا تقاله. الأفضل أن تموت الآن حالا! لماذا لا يأتى اثر عندما يتعاد

لكنها وجدت نفسها رغم كل شيء. من الكازينو. لم تكن سافدا وحدها  
ثريعتان بل شغافا ولها .

وحين رآها سالم مقيمة عليه وقت وقاي مزاجيا: ماذا بك بالشيء ؟  
فلمست قاتله دون أن تسبق بكلمة.  
قال لها : تحبين أن تدخل في الصالة؟ الدنيا برد وشفتاك وزواوان .  
هزت رأسها وبشمت : لا يأس .  
لكنها ظلت في مكانها . وكرو سالم في قلل: ماذا حدث ؟  
فربت شاردة : قايلت أسي .

ثم استجمعت نفسها بيهود خارق وقالت: عليك حق، فلندخل إلى الصالة.

قامت وتبعها . كانت المسألة الزاجية للكارينو التي يخلونها في الشتاء أشد  
برودة من المكان المفتوح . يتسرب إليها هواء بارد من فوهات الزجاج . لم يكن  
عندنا عبرهما في المكان وعدد من الجرسمات في سترات بيضاء لاحظت أنهم  
جديفة بوزنهم أنظارهم عليها فكانت لسانهم مسرب السدى ونمسي .

ولكنها استغرقت قليلا وهي تسرب السدى الساخن وسالده بنظر إليها صامتا .  
راحت تنظير إلى هاتين العينين اللطيفتين وكانت تريد أن تعرفهما في ذهنها .  
كانت أن تراهما مرة أخرى . وراح هو أيضا ينظر في وجهها مشغلا ثم قال

بصوت خفيض

- هناك شيء يعرفك .

- نعم .

سمعت مرة أخرى قل أن يقول في شيء من العزلة ثمنت من أجله بالتي لو

كانت أحسن منا أنا .

صاحته في قلق : ماذا تقصده ؟

- من جهة أفكر .. نحاول أن ننسى ولكن لا نستطيع . أنت ذكية وتقرئين كثيرا

لا تعرفها بلغات لا أعرفها - وأنت جميلة ولغوية وأنا .. كان يمكن أن يجدى إنسانا  
أفضل مني بكثير .

قالت ليلى في بأس : أنت تريد أن تتركني - هل هذا ما تقصده ؟

- لا . كيف تفكرين في ذلك ؟ أنا أريد فقط أن تعرفني .. ربما تعتقدون أنني

التي أو لا التي كنت .. لأنه كانت تاتيني الحالة التي جعلت أبي يعتقد أنني مجنون ..  
ربما تسمعين أنني لا أعرف .. ولكن أنا أعرف الفرق .. أعرف أني لا أستطيعك ..

ولكن لو تركتني .. أشك أني .. ربما بالفعل ..

تفرقت ليلى إلى وجهه المعبود . تأملت محاولاته لكي يتقزع الكلمات بصعوبة  
ففرها إحسان حواف أسودا كشيء آخر غير أن سالم بقدم . وإن بدلت من  
أجلها ففالت بئيرة فيها شيء من الاستسلام :

وكيف يمكن لي أنا أن أتركك؟ ألم أقل لك أكثر من مرة إنك أحسن شيء  
حدث في حياتي ؟ ثم إنني لست جملتك ولا ذكية . لست أدركي منك . أنتبت أنت  
أنت التي تشرح لي مسائل القانون الصعبة التي لا أفهمها وأنا أحب لك أنت  
كلما أنت . أحب جدك الذي لم أقابله وأحب أختك وأبنتها عندما نعدت جميعا لأنك  
أنت نحمها . لو كنت تحسن فهمي نفسي كشيء أنا كما أنا ..

أشرف وجه سالم قليلا وهو يفكر شيئا جدي أيضا يقول ذلك . عندما حدثت  
فكك غاي لي إن الحب الحقيقي انقاء وحنن والأرواح لا تنافس في الجسد ولا  
في النقاء لأن كل الأرواح جميلة وذكية .

فأله ليس . لو كان جدك معنا لست لأن يقول هذا الكلام .

ولكنها ابتسمت لنفسها حين قرأت على ذهنها ما يمكن أن يحدث لو سمع  
الأكبر شيوكت أو الأكثورة صغفاء هذا الكلام عن الأرواح . ليس طمعية على  
الإطلاق .

وقالت لسالم في هشة ضعيفة : لو نبغى معا ياساتو هكذا إلى الأبد ففهم  
هكذا ' ولو في هذا المكان . في هذا الجرد عندما جئت قلت لي إن هناك حسنا  
بحراني . نعم . هناك أشد . نعيش ولكن بعد أسامنا . وأريدك ألا تسكني اليوم  
عن العزلة .

وأفككت لنفسها سيرا في موعده قدعنا على الأقل نسياء في هذه اللحظة . ثم

حككت خبيثنا بيدها وقالت

- لكن أسامنا إلى الأبد . فلابد أن تبلى معي إلى الأبد ! لا تتركني لحظة ..

- ولكن أنا أحدثك عن كل شيء ، ولا أعرف منك إلا القليل ،

سأنت في توجس وقد عاودها ما تُعرب منه ، ما أتى تريد أن تعرفه ؟

- عندما سألتك قلت إنك فأبثت أنك ، جل حدث شيء ، عندما قابلتها ؟

تلهفت بشيء من الارتياح وهي تقول : نعم قلت لك من قبل أنت لك جد تحبه

رأسرة تحبها وأنا ليس لي أحد أيدا - أرى أمي قتيلا ، أما أبي الذي أعيش معه

قريبا أراه أقل مما أرى أمي ، هو طوال الوقت في العيادة أو في المستشفى ، لو

وادة سنية لا تشعرت !

قال في النزاع شديد : تتعبرين ! كيف تفكرين في ذلك ؟

أبتسمت بالرقم منها : لا تفهم هكذا ! أنا أجيب من أن أنتشر !

سكت لحظة قبل أن يجيبها عن حينئذ : لا تشعري !

رجعت في كرسيها وولعت رأسها وهي تقول : لا تصد نعم ، بعد ، يا أشع

أحبتي . هو أبي ، ولكننا لسنا صاحين ، إلا ما ذات هذه الحكاية من الأصل ، ما

أنت في كل هذه الأسطة ؟

- كنت أقول ، كنت أريد .. أردت أن أعرف عليك ، على حياتك وعلى أسرتك !

تفالت دون تفكير : هذا سهل جدا يا سالم !

عندما دخل العمارة توقف لحظة في المدخل - كان فسيحا ، من رخام أبيض  
على جانبيه رسوم فسيفسائية ملونة لفرانز نومي وستة حشاشين ، ونصفية من  
الناجيتين اصطناعية بيضاء أرواحية خضراء - لامعة ، ومن الصنف قتلى ثريات حشنة  
باهرة الضوء من الكريستال ، وفوق دخولها هي واحد من حراس الأمن  
الجانبيين إلى مكتب في الزاوية الزرقاء ، وجها تني في أدب شديد ثم  
أسرع قبلها لمصباح باب المصعد - وأبته جانبا إلى أن لم يلم ينظر نحو الحارس  
وأنها لم تشكره .

انتبه أيضا إلى فخامة الشقة عندما واجهته المصالة الواسعة التي ترتكز أن  
تكون في مساحة ضخم ككها - بهر كل شيء - قطع الآلات وطريقة ترتيبه والكنة  
الجميلة بسببها الزوارف فقل وهو ينتظر حوله  
- بيتك جميل يا حبيبي .

شكرا ، هو بيت أبي .

أراد أن يسألها وهل هناك فرق ، ولكنه لزم الصمت ، منذ رافعا هذا المساء  
وهي تنسرد كثيرا ولا بد أنها تسبح ما يقوله ، تبدأ كلاما وتوقف قبل أن  
تتكلم ، ينتفض وجهها أحيانا وتضخم صمحات عصبية في أحيانا أخرى - وعندما  
عرضت عليه أن يأتي معها لم تترك له فرصة للتفكير .

قالت : ما دمت تريد أن أعرف كيف أعيش لماذا لا تأتي وتري بنفسك ؟

سأعرفك على وادة سنية ولو أسعدنا الحظ فسأعرفك على الدكتور شيوكت ؟  
هيا !

فأبته وحذيت من يده ، وفي الطريق أشارت إلى ناكسي ثم خلال دقائق كانا  
أمام العمارة الشاهقة التي تطل على نيل الجيزة في الضفة الأخرى ،

ضفت على الجرس قبل أن تفتح الباب بفتاحها فاستقبلها في الزودة

خادم يلبس سترة بيضاء مثل الجرسونات، سألته فور دخولها :

- الدكتور هنا ؟

- لا ، الدكتور اتصل وقال إنه لن يأتي للعشاء .

وأشار بيده لسالم في اتجاه الصالون المختفى في آخر اللابلاطة التاسعة وهو يقول : تفضل يا أساتذ .

لكن لبتي جذبت سالم من يده قاعلة : تعال ! أنت تحب النيل فاحضن الورد !

جلسا في الشرفة العالية على مقعدين مبطنين بقماش اسفينجي . وكانت الشمس القارية قد بددت بعض السحب وصيقتها بلون وردي ينعكس على سطح النهر أطرافها ذهبية متقاطعة . توتلمها الأبراج ثم تظلم على السطح في الخضم.

استغرق سالم في متابعة تلك الالتصاقات الزجاجية في الماء . قبل أن تنجذب الشمس سحباً كبيرة فتختفي هذه الأظفار وتصل النهر إلى مجرى وادي . وأكن مستطيل يشق كتل المباني على جانبيه ويضار السور التي قرعها العربات . ثم يسبق له أن رأى السيارات من هذا الارتفاع صليبية الحجم وضحتها تنفي من بعيد خافتة كالصدى . لكن النهر العذب أمامه صمد كالأر . هو الشيء الوحيد الهادي الذي يوحى بالسكون حين يركز نظره عليه .

التفت إلى لبتي التي كانت تنظر مثله صامتة إلى النيل وقال : معك حق عندما تنتظر إلى النيل من بعيد ..

ثم سكنت فتكلمت هي : يكون النيل وحده هو الجميل . ليس كذلك .  
- هذا ما أردت أن أقوله .

ظلت تنظر نحو النهر وقالت بصوت خافت : أحب أيضاً تصيدية النهر الخالد . مليئة بالصورة الجميلة - معافى زاده الخيال . - وطمأن والكأس في يدي . - ولم يزال ينمط النهر ويسأل الليل والجنات . - أحب بالذات البعيد الذي يقول : لبتي خروجة فأتكني إلى لياليك ما شجاني وأغشى للرياح نجارا . أي هروب أجعل من

هذا الهروب ؟ أن تصبح موجة في النيل وأن تهبط للريح بشكوك . لا مشاكل على الإطلاق !

قال وفي صوته نبرة من الأسى : أنا لا أقرأ الشعر مثلك يا لبتي .

ضجكت ضحكة خافتة وهي تحول وجهها نحوه : أي قراءة يا سالم ؟ هذه أفضية بلعبها الرابع كل يوم تقريباً . ألم تسمعها يوماً ؟

- سمعتها . ولكنها لم تقرأ الآن على - لي ولم أفكر فيها كما فكرت أنت .

أنت فكرت بكثرة لأنك تقرأين كثيراً . لبتي أستطيع أن أصبح مثلك !

قالت متناغمة باللامبالاة . نعم قيل أن أعزلك كنت أقرأ . عذري وقت كثير لا أعرف ما أفعله به . قلت لك أنت عذاك أسيرة تحبها وتشغلك . أما أنا فلبس لي أحد . أعطني هذه الأسرة يا سيدي وخذ كل القراءة التي قرأتها !

ثم أتت في وقت متأخر . لبتي لم تقرأ شيئاً . بقية ما جازم تحدثت . لكن الثالث عما يعرف لبتي .

جاءت بدوء مجذوب في مقعدتها وجذبت قراعه ثم قبلته قبله بسرعة في جبينها وأبهرت عنه بالسرعة نفسها .

لبتي أتت اللبنة سمعا صوت خطوات بطيئة تقترب . ثم ظهرت بالباب سيده عجموز تستند إلى الجدار وهي تغلق خطواتها بصعوبة . لم يتحقق سالم من ملامحها جيداً في غممة الخروب التي حلت . رأى لفتها أنها تبس جلياباً من قماش مشجر وتضع على رأسها طرحة بيضاء تحيط بوجهها كله .

ميت لبتي من مكانها وقالت وفي صوتها انزعاج : دادة ؟ لماذا تركت غرفتي ؟ ما أتدري جعلك تفرمين وتخرجين إلى هنا في هذا البرد ؟ ماذا متى تفعلين ذلك ؟

احتضنها لبتي وهي تضيء نور الغرفة فرأى سالم وجهها المتضخم ياتجاههيد مثل إسفنجية متكونة تفل من حيطان كايستان . لم يبد أنها رأت سالم لأنها قالت بصوت ضحيف : متى رجعت يا لبتي ؟ ولماذا تأخورت ؟ لبتي ياكمنى عليك طول النهار .

رأدة سنية . تعال نطخل ..

ظل يقف مكانه وسألها دون أن يصوي وجهه نحوها : مائة ثلث لرأدة سنة عسى :

فردت ببساطة : كل شيء - أنا لا أخفي عني أي شيء .

فقال وتيرة التوتر شخصاً في صوته : ولكن مائة ثلث لها بالضبط نظير نقراء ولكننا لا نسكن في جاز :

قالت في ذهنية : وماذا لو كنت تسكن في خازنة ؟ ما أهمية ذلك يا سالم ؟ ألم يقل جدك ..

ثم نطقت فجأة وراحت تمشي على دراهمه برقع وهي تقول : لا يا سالم . ثم انزل لها عنك أي شيء غير أنك زميلي وأنتني أحبك وكانت هي سعيدة لأنها تحبني ، واليوم أنت تطلب الحب عليك أنت أيضاً . تعال .. تعال نطخل ..

\*\*\*

كانت غرفة المكتب واسعة ورافعة تحف بجوانبها كلها مكتبة من خشب أبيش حبيب في وفوقها كتب ومجلدات منقطة . ويتصدرها مكتب من الخشب يلعبه زكريا غالي الظهر . وفي ركن من المغرفة منفذة صغيرة حولها مفعدان وبالقرب منها كتبة من الجلد اللامع اللون .

قال سمرود مدول وسد المكتب هذه معشها كتب علمية وكتب في التاريخ قدس في ذلك تقريظاً وروايات ولكن لا يرى أي روايات هنا .

فأثارت لبني التي كانت تسير وراءه متابعة خطواته : هذه كتب أبي ويعني كتب أبي التي تركها . مكتبي الصغيرة في غرفتني .

ثم أضافت وهي تبسم : ولا تقلق . كلها روايات ويمكن أن أعبرك منها لو كان عندك وقت لقراءة الروايات .

فقال سمرود : بعد أريد أن أعرف أن ما تعرفين . أريد أن أصبح مثلك . فهربت لبني رأسها وهي تقول لنفسها : ليتك لا تصبح مثلي :

قالت لبني وهي تقيها : مساء الخير يا رأدة . أنا . أنا بحث منذ قليل وكنت سافر عليك الآن في لغزتي ..

ثم أشارت بيدها إلى الشرفة وهي ما زالت تحتضن مربيها : هذا زميلي سالم الذي كلمتك عنه . سنأكل الآن معا .

راحت العجوز تنفضه من بعيد يمينها الكليتين وهي تستد بدنها إلى باب الشرفة قالت : مساء الخير يا لبني . وبالتحاج إن شاء الله .

نهض من مكانه ورد عليها بن يعيد بارتياك فقامت وهي لا تزال تنفضه - أنت إنسان طيب -

أشرق وجه لبني حين سمعت هذا وقالت لسالم بخيرة فقامه . أرادت طمأنينة المربية بصوت يدا لسالم حزينا : وأنت أيضاً طيبة يا لبني .

غير أن لبني فاطمتها وهي تضع يدها جوار كتفها وتقول : يا سمرود .

الشرفة : تنكفي هذه الشفاوة - يارأدة - لأن نوجع إلى نوجعنا وأخذت الشرفة قالت العجوز وهي تبتعد مسندة إلى لبني : ولكن لماذا تجلسان في النهار سيمسك البرد ..

فردت لبني : لا تقلقي أنت يا رأدة . سأقول لهم حسن أن يعلنا فنجاني من الشتاء . وسنفرهما في غرفة المكتب ونحن نأكل ..

عادت لبني بعد فترة فوجدت سالم يلقف مستنداً إلى سياج الشرفة وهو ينشعب إلى البحر . كانت أنوار الشوارع والإعلانات اللثة قد أوسجت وانعكست على صفحة النيل . رفعت لبني إلى جانب سالم وكان إعلان في أعلى عمارة بالحصة

المقابلة يتوهج بنور أحمر ينطفئ . وينسر . بانتظام . وكان يلقي على النيل أشعة حمراء متوازية وفجأة . وقالت لسالم إنها تكره هذا الإعلان لأن يعطى ليل لونا كاذبا مثل وجه مهرج المبركة .

لم يرد سالم . شعرت به يقف مبتوتاً رغم أنه كان يرتوي ارتجافاً ثقيلة . مدت يدها وأمسكت بيده : وقامت يدك باردة بالفعل وستصاب بالبرد كما قالت





كانت تجلس وحيدة على الأرض في المكان نفسه، قد ساقطها وتشتد عليها  
وموقفها إلى الكتبة الجلدية، لا تريد أن تفكر في شيء، تشغل فقط ما تحتها من  
البدة، أن تأتي، أن يستحيل الهمود الذي حل بها إلى نوم طويل تنسى فيه كل  
شيء، لكنها فجأة خطبت جبينها بيدها وغمست لنفسها وهي تغدال في جليستها:  
- يا ربى! كل هذه القضية عن الحب تنتهي هذه النهاية؟

كل أفراح الأسابيع والشهور لم تكن سوى أكاذيب؟ كل حياتنا كذب كما قالت  
الدكتورة صبيحة؟ وأهلامنا نحنها بانفسنا لا نفهم وفي النهاية لا فرق بين سائر  
الرجال والأنثى حياء والانتصاب؟

لا أمل إذن أبدا في أن يتخرج الجسم من حصار جلده؟ لا أمل في الحب  
الغيبى ولا في تلك المسرود للعودة التي كتب بها عليها الشعراء، والموسيقى؟  
لا أمل في تلك الحشرات؟

موجودة ولكن لا يمكن الحصول عليها؟  
البعض يصلون إليها ولهذا يسهر الحياة؟  
كيف يمكن أن تعرف؟

هناك بأن تقوم من مكانها وهي تسند يدها إلى الكتبة الجلدية لكنها شعرت  
بتعب شديد وثقل في أطرافها فطلعت جالسة كما هي، كان رأسها محمورا ولكن  
جسدها ظل خائرا، راحت تهرز رأسها وهي تقول لنفسها نعم، لا فرق بين سالم  
وعام.

ها هي مرة أخرى لا تعرف إن كانت هي التي ظابت أم هو الذي قادها، هل  
ينتهيها حتى جسدها؟ ولكن السجدة هي نفسها، تحور وجهه وتشرده وهو يعمل

يساعد طفلا على النوم. ولم يكن يدرك تماما ما الذي يفعله ولا ما الذي يريد.  
لكن تبني كفت عن ارتعادها بعد فجرة ورفعت رأسها فاستندتها إلى ذراعها  
الرجولة على المتفردة ونظرت له بعينها التحقن وفالت في نفس تكاد بين  
كانما لتسليها، كأنها تحاول أن تقوم: وكل هذا لأنى فأيلك أنت ..

قامت ذراعها برق وساعدها على أن تنهض وتقف على قدميها وانحنضتها  
إليه واستقر يده برق على كتفيها وذراعها وهي مستسلمة له كأنها هي التي  
يرفعها بيديه القويين من أن تسقط في الأرض. وضعت رأسها في صدره وهي  
عائدة تماما. وظلا واخفين من سكن كامل وهو يضمها إليه فتمتعت وهي بمنصة  
اتبعين تسلمن إلى نفس قلبه انتظم: لو بنى النوم هكذا: لو بنى نوم طويل  
ونسيان!

ولكنها أحسست وهي في حضنه بصدور - هو ويوسط وهو بنفسه بصحبه  
وبنفسه التي تنحسده برق نرداء سرعة وهي نهية من كتفيها إلى ذراعها  
ووجدت نفسها بقل صدره فيلات صغيرة ممتدة وهي تدور بين يديها أريد  
أن الميت. وكانت تجمع يدها تحت الطوق السمسك الذي لم يكن له أن يترك  
فمضيه بيد أخرى مرتكة وتسلل لكس صدره بأصابعها المرتعشة وتجدف برق  
فمضرات ماعمة وجدها هناك لم تزيج الطوق والشمس كثة واحدة التي تشي  
وتفرض بيجيها كله في صدره وهي تستلشق بعمق راحة جسده وتستر  
غميمات متقلعة وسط أنفاسها اللاهثة: نعم هذا هو أنت؟ هذا مسالم .. هذا  
جسده وهذه راحته.

وكان هو يتنفس بصوت مسموع كأجاث متقلعة بينما يدفع يديه الكبيرتين من  
كفي يلوذتها اللذين لمزقا وجسدها يرتجف في صدره وكان يقول بصوت  
متحطرج وهما يتولقان معا فوق السجادة: هذا لايمي، لايمي ..  
ولكن كل شيء كان بلول غير ذلك.

ثيابه ويقف فوقها. ولكن هناك فرق مع ذلك. حمام كان مدعورا، استضافته أن  
تستلمه وأن تقربه. أما حمام فشرهته يشتمها دون أن رد. من أين أمكن أن يأتي  
بكل هذه اللبسات؟ أين كان يختزن كل هذه اللبسات التي لم تعلم حتى بأنه يمكن  
أن يعرفها؟

تفكرت وهي تفكر: لم يكن ينقص شي ليكون مثل حمام سوى أن يسألها وهو  
يقف فوقها: لماذا لم تقولي إنك كنت يتقا؟ غريب أنه لم يذكر ذلك. هل اكتفى إذن  
باللبسات ليرى عن رآته؟

وهل تكون هذه هي (الحالة) التي حدثت عنها؟ البتة الذي يأتيه ويخافه وما  
الفرق؟ فلتعترف، كان هناك شيء يختلف. مع حمام لم يكن شيء غير الذعر  
والاستمزاز والتم. هذا حتى أنها في الد. سلام ولكن لم يعرفها في معرفها  
وهي في حقيقته تعلم لو يستمر هذا الهدوء إلى الأبد. كان السيد آخر ما فكر  
فيه. فدهما كان مشوشا من مكانة د. د. مدعورا بالمثل التي يجب أن تعلمها  
والاستياء. التي لابد أن تستلخص منها. ولكن كل شيء انتهى من الاستياء فجاءه  
يبقى غير أنها هنا مع سالم. بدءا جسمها بتصرف وحده. بدأها لتلمسه وتفتاتها  
تقبله وهي تلتصق به أكثر فأكثرت كأنها تريد من تصبح وإياه جسدا واحدا. ثم  
بدأت دون فاهل تعلق معه في نشوة أخذتها بعيدا عن الأرض وهي ترى مفعضة  
العيشين نجوما لم تر مثل يريقها وأنوارا لم تعلم بمنزل جمالها وجسدها يتكلم في  
ذلك القضماء الثور إلى أن أطلقت أفع الفرج وهي ترفع ذراعها ويدها وتقبض  
أخيرا. أخيرا. على تلك النجوم المستحيلة وتدور معها في عاصفة دوامتها  
الأسية.

وفي اللحظة التي تغير فيها كل ذلك الفرج وهي تخلق عالمها ويعيد اهورى  
سالم على رأسها بطريقة تعيدها إلى الأرض إلى باطن الأرض إلى الذعر

المعبد. فلتك في مكانها على الأرض منكسرة على نفسها وهو يعمل عليها بوجهه  
الذي فقد كل جماله فجأة وهو بين يدي عبارات لم تلمسها على الفور إلى أن فهمت  
أنه يشتمها ويشتم أبانها وأنها رداة متينة وعم حسن عبارات فاحشة. ويقول  
كلما غريبا أخر عن أبيه وعن أخوته لم تفهمه أيضا وقد أصابها الخرس والشلل.  
كان يفتر تحوها بكرامية وتقرز وهي تنظر إليه ضارعة لا يصبر حتى أن تطلب  
منه أن يشتم بصوت خافت. ومع ذلك كانت تظنوا الحشرات في قلب ذلك الذعر  
يجتاحها فيها إشتاق غريب عليه. تود لو تقول سالم هذا ليس أنت! هذا ليس  
صحيحا! هو كابوس مستطيل منه لتجده مرة أخرى إلى جوارها تحتس به من  
خوفها ويحميها من نفسها. ولكنها لم تستطع أن تخرج صرلة أو أن ترفع أصبعها  
نحوه إلى أن دفع من طاقا يسد فمها كنه يفرقه.

فكده خالدا. هي لا تستطيع أن تنفذ نفسها من حالاتها!

من يمكن أن يشرح لها ما يحدث؟ من يمكن أن يساعدها؟

فأولت كاسعوية وبدأت تتحرك بيضا. توقفت لحظة أمام امرأة جاذبية لموجبت  
شعرها مبيضا وشاحها مبدلة وممزقة التكماء ورات وجهها شاحبا ومسنفا  
حاولت أن ترقب نفسها قليلا. بدأت تزور يقرتها ثم هدأت. عن ذلك وسارت نحو  
الباب ببطء. فطقت الصالة والحدوفت إلى اليسار وهي تفس في طريقها كل  
الأنوار في البيت وطرفت الباب وهي تقول في نفس

دادة سيدة أنت صاحبة.

فجاءها الصوت المتعب: ادخلي يا ليش. أنا أنظرك.

توجهت نحو العجوز الجالسة على فراشها وهي تستند إلى وسادة وجلست

إلى جوارها وهي تقول: دادة. أريت أن أحكي لك...

لمعدت الحربية يدها المتقشرة تبحث عن يدها وقالت:

- لا تنكح شيئا يا لبتى -

مالت على صدر مربيقتها فراححت تروث على شعرها وهى تقول:

- لا تحكى شيئا يا بنت صفاء - أنا أعرف من كائن شديدا -

وكان النعاس يتسلل إلى عيني لبتى ومربيقتها شهودهما -

وقالت دادة سنية لنفسها قلبى جشش منذ الصباح - لم يكذب على أبواى -

أصغروا منقبضة فاعرف أن شيئا سيحدث لصفاء - أو لايتها - أقول لبتى ظنى يقيى

فلا يخيب - يا حسرتى! وهما نصيبان من الدنيا - لو كانت واحدة منهما بنت بشرى

لا أحببتها أكثر مما أحبهما - حكمتك يارب! صفاء كانت كالقطرة المفضضة العتيق

حتى تزوجت - بكتوبه قد الدنيا ولا تعرف شيئا من هذه الدنيا أكثر ما تعرفه

ملقة - كنت أفسدك على عيبتها وهى تبنى لتبكي فى حضنى لأن واحدة منهن

خاومتها أو لأن واحدة فى كتاب تفرزه ماتت أصابته فى سرى محراب صفاء

وأقول لها (معلمش) يا صفاء! ولا أتركك حتى تهذا - ولكن شوكت عنيها - وغدا

كانت غائى لتبكي أو لتبكي لم تكن أعرف ماذا أقول! هذا كان يملك من أولاد

كان شوكت يكلمنى مثل صفاء لتصفته - ولكنه لم يكن ينظر حتى فى أوجع - هو

حتى الآن لا ينظر فى وجهى ولا يكلمنى - لولا لبتى لشركت له البيت من زمن -

تزوجت صفاء - من سيده - ورضي ربة عنها - ولكن هل سيقطر لها ريتا ما فعلت؟

يارب! هذه الأسيرة بنت الناس! لماذا يقع أولاد الناس على أولاد الصرام؟ لماذا

وقعت صفاء فى شوكت ووقعت لبتى فى الدرس! لبتى أخيب حتى من أمها ولهذا

يلكنى قلبى عليها أكثر أنا لا أخاف الآن على صفاء ولكنى أخاف على لبتى - هذا

التلميذ الذى تحبه ابن حرام ثان؟ يارب! تجها يارب!

كانت لبتى قد نامت فراححت العجوز تعبد وضعتها فى الفراش بجهد شديد - لم

تشأ أن ترقظها لتعود إلى غرفتھا قالت لنفسها النوم رحمة -

\*\*\*

لا يذكر سالم كيف رجع إلى البيت -

لا يذكر إن كان قد ركب أو مشى لا يذكر أى شئ يسبق وجوده فى صالة

البيت بعده يلقو فى شئ من المزعج -

- ماذا حدث يا ولدى؟ وجهك كاشفة البيضاء! هل حدث شئ؟ شككت -

قال سالم وألقا ينظر إلى جده فى صمت وتكلم مجددا: حدث شئ - أريد أن

أنتكم معك يا جدى حدث شئ - أنا لا أذكر - لا أعرف - ولكن وبعاء يا جدى فتكون

قد رجعت الحالة - أنا - سأستحم أولا ثم نتكلم - يجب أن تسمع لبتى - يجب أن

تتكلرو -

قال الياسمكايب موجعا: كنت مع لبتى؟

- نعم - بعد ذلك شيئا - ولكن أين كنت بعد ذلك؟ أنا خائف - يجب أن سركم -

فام البيت من شجرة فى ماء وقال يتهو وهو يحنى رأسه:

- أنت متعب الآن - وأنا كذلك - سأدخل الآن -

- ولكن يجب -

فلما جده فى حضم وهو يشبه إلى غرقه: فى الصباح يا سالم - حاول الآن

أن تنام -

ولكن بعد الغمام - بعد أن دعا سالم جسمه تحت الماء حتى كاد يدميه - كان

يرقد فى فراشه وعناء مفتوحان وهو يتسائل ماذا حدث -

كانا يشعنان - يذكر هذا جيدا - يذكره تماما يرى نفسه يقبل وجهها

وشفتيها لورقتها وكل قبلة تبعث فى جسده رجلة لم يعر لها من قبله - ولا حتى حين

كان يقبليها خلسة فى الكازينو أو وهما يسيران فى شريق مثلم - كانت تشوة فراج

جسده كنه ولبنى أيضا ترتجف وهى تقبل صدره وتتلقى بصوت مسموع وتلتزع

يده بعنف لتقبل راحته بلطفة وعمق كما لو كانت ترفشف منها ثم تمسح بها وجهها

الذي لم يره أبداً. هل هذه الاحتمالات من قبل، ويذكر كيف قبضة جمع على السجادة  
وهما يتحتمان بكميات غير مسبوقة ويذكر كيف كانت هناك يد جبارة تلوح به  
بعيدا في الفضاء وتدور به وتغوص به في باطن الأرض في اللحظة ذاتها. ويذكر  
الصبيحة التي أفلتت منه وكيف وضعت يدها على قمه لتكتسبها، كل ذلك يذكره  
ولكن ماذا بعد؟

يذكر أنه كان سعيدا جدا، ثم ماذا؟  
كيف تركها وكيف خرج من الشقة؟ أجيد ذهنه فلم يكن هناك سوى ظلام  
كامل. هل ظلمت منه مرة ثانية أن يخرج كما ظننت من قبل؟ هل خرج من شقة،  
بعضه؟ هل فنته وبوصته بنفسها حتى استطاع أن يهرب من يد السيدة على سبعة أمركب  
انصرفت بعد مضيا على رأسه في ركبة لا تسمى في ذلك وقتا مستطابا بل وقتا  
ذهبه تماما، انتهت، فما معنى ذلك يا سالم؟

لا تحاول أن تهوب - ليس له سوى معنى واحد - رجعت الحالة - فمنازلة نعل  
انتقاما بعد - فنته؟  
جلس في الفراش وجسده يفيض، ولكن الحالة انتهت من زمن - فقد سبقت  
لم أخطئ معها ولا أخطأت في البيت مرة واحدة - أراقب كلامي جيدا وأراقب ما  
أفعله - أراقب النصيب عند ما أقصص أن أخطئ في الكلام ولكن ماذا إذن لو  
كانت الحالة التي جعلتهم يعتبروني مجنوناً قد رجعت؟ هل شققت لثقتي؟ هل  
خسرتها؟

نزول من سريريه وبدأ يرتدي ثيابه بسرعة سيكتسبها في الطيفون لأبداً لا بد  
ولكن ماذا سيقول لها؟ هل سيقول من فضلك أنا مجنون تذكريني ما الذي  
حدث بيننا؟ وهل ستصدقني لو كان بالفعل قد أمساك البها؟  
عاد يبتلى على قرائنه بعد أن ارتدى القميص والبنطلون.

لا لن تصدق ضيعة مما يقول - هل يأخذها إلى الطبيب الذي كان يعالجه؟  
يطلعها على حجاب جديد؟ يستشيد بفوزية ويأبى؟ وماذا سيقول لو صدقت؟  
سأقول أنا وقعت في مجنون حقيقي ويجب أن أعرب عنه، لا فائدة خسرنا  
والسوء الآخر.

ولماذا قالت في أول الليل ستخسرنا؟ لماذا لم تقل ستخسرني؟ لا أعرف أنه  
لن يحتفل أن يخسرنا؟ هذا بالفعل هو الشيء الأسوأ من البشر ومن المرات نفسه  
هو يعرف بالتسليم أن ما فعله معيا خطيئة عظيمة. ولكنه سيكفر عنها على الفور.  
سيقول لجدته وسواها على أن يزوجها له، سيعترف لأبيها وسيقبل أي عذاب  
ينزله به وبنا.

سمع سالم لحظة هزات الجرس - ثم سمع بعده صوت المفاتيح ولتفتح الباب  
وجاءت السيدة برفوف يدور في دهممة : فائدة الشقة كلها مظلمة؟

ثم نادى : يا سالم! وخفت صوته وهو يقسم: هل نام الجميع؟  
قام سالم وأعطى ضلع ثيابه مرة أخرى دون أن يحدث صوتا ثم رفع في فراشه  
فخلعت الأغطية التي تتوافر في رأسه مكشاة لخواه كامل وكانت كلمة واحدة تتكرر  
في ذهنه معنصرها... ستخسرنا... ثم جاءت صرخاء واسعة باستمداد البصر  
وكان ظمان وزاج وتفت حوله في دهر وهو يبعد عن شيء ما يعرف أنه ضاع منه  
فجاءته غزالة تعوي وتلهث ولفت إلى جانيه وراحت تتنصع به وتكتم بصوت يعرفه  
ولا يستطيع أن يحدده وقالت لو فككت سحري سأعطيك ما تبحث عنه، فقال أنا  
أخافك من الساحرة التي رمتني في الصحراء - وأخذت البيت من جدتي وسحرت  
قروية - ثم أخذت بجري وأغتراة تعوي خلفه وهو يريد أن يهرب منها ولكنه يقع على  
الأرض فخلعت الغزالة فوقه ودموع تنزل من عينيها الواسعتين مثل مطر غزير ثم  
ترفع سافها وليسبل من خلفها ما، غير وجهه ولكنه خاف أن يشرب من هذا الماء.

كان يعرف أنه لن تنصب إلى الجامعة في مثل هذا الوقت المبكر من الصباح، فطلبها من التليفون من مكتب تليستون قرب البيت . وبجهد رفع الجماعة قال في لهفة: أيتها؟ فرد الصوت : لا أنا الشغالة، اليس؟ ليتي..

ثم ترددت وسكت.

قال يلين من الأوتار: يمكن أن أكلمها؟ أنا سالم . أنا زميلة.

فكرت التليفاتلة بتردها نفسه: اليس ليتي.. (ثم سمع صوتا بجوارها يقول شيئا لم تسمع) . أكلمت الشغالة بعدة في حميم . غير موجودة، ثم وضعت الهاتف.

ثم رجع سالم في دخول الجامعة عندما وصلها، وأى مظاهرات ومظاهرات تم داخلها ورأى التوفيس عناصر الطلبة المتظاهرين داخل الجامعة وينزع التوفيرين خارجيا من الدخول . فوجد سالم بما يحدث لكن فكره كان في مكان آخر . وتقدم أمام حصة (الأرومان) قبالة الجامعة ينتظر . قال لنفسه لا يمكن أن تكون ليتي داخل الجامعة، ستصل بعد قليل وسأكون هنا وسأفزع لها كل شيء .

قال الطلبة المحتشون بالقرب منه يتناقشون مع الجنود والشرطة بصوت عال ويشتد جريون معهم وهم يدافعون ليعبروا المصبار ويدخلوا الجامعة . وكان الضباط الذين يلبسون نقارات شمس سودا ، مكثفون بكلمة واحدة - منع - دون أن يلتفتوا بوجعهم للطلبة وراى الجنود المترامسون يدفعون الطلبة والشابان بحصيتهم إلى الخلف.

ظل سالم بعيدا عنهم وهو يتطلع في كل اتجاه بحثا عن ليتي لم يجدها وسط هؤلاء المتدافعين لعبور المصبار . وبينما كان واقفا يفتش بصره بين القادمين من

أو ضده التمدد فاضطرب منه وسده بيده ثم قام واند بحرى من حديد والغزاة وراءه وشب حريق في مكان ما وكانت الحسنة كبيرة جدا عن اللهب فتدرب منه فاصرع من عدم وصوله في حبل في أعلاه خضرة وراى المرأة هربا بها . لم يفت من فراع يسمح شعر رقبتها وينبأها وراحت الترس تحت أيضا وقتلها بالسلود إن سمعت الجبل يمكن أن تلك السحر لقال ولكنني عطشان..

وكانت شغلها جافة وألانه في فيه كقطعة من الخشب عندما صعدا وهو يلثث، لقام وشرب . لكن تشباهه لم تفارقه طول الليل.

\*\*\*

في الصباح لم يذكر سالم جده باليلة الثانية ولم يترك منه ان بكلمة كما ألت عليه بالنس.

تفكر جده إلى وجهه الكدوم وحسب التابذين بعد ليلة الأولى وعلمه وأدركت في نهاية كاملة سألة:

- عذوك مضاعفات اليوم في الصباح ؟ فقال نعم.

سألة مرة أخرى بلهجة عابرة توت أن ينتظر في وجهه : السجات التي أصعبته

لك يا سالم . أما زال معلقة؟

- نعم يا جدي.

- أين هو؟

- في جيبي في الحقلة باستمرار.

فقال جده بلهجة حزينة. فكت لك يا سالم أن يكون دائما في رقبك وأن يمسك

تلك قلم تنسى؟

فرد سالم شاردا : حاضرا يا جدي

\*\*\*

ناحية فقال التهضة اقتربت منه فتاة سمراء كثيرة ما رآها مع ابنتي وحيثه يهزأ  
من رأسها ثم وثقت إلى جواره وقالت في همس:  
- أنا دعاء - حذيفة لبني..

قال باوتياك : أهلا .. هل تعرفين أين هي ؟ هي ليست في البيت...  
- أعرف .. (ثم أكملت في همس وهي تثقت حولها) فيضوا عليها في الفجر  
مثل الآخرين..

ظل سالم واقفا يتطلع إلىها دون فهم كانه لم يسمع شيئا فكانت وهي تحاول  
وحيثها عنه  
- أعرف انه لا تعرف اي شيء .. كانت لبني حريصا على الا تعرف - ثقاف

منك أكثر مما ثقاف من البوليس..  
ثقاف من البوليس يعني أنا .. مع كانت ثقاف : أنا ..  
فردت دعاء وهي تجلس راسها نحو الأيمن.. كانت ثقاف أن تعرف عليها في

الجامعة.. قالت لي لو عرف سالم مصيبتهم لم أهم أبدا مع ذلك.. كانت  
ثقاف إلى هذا اليوم.. هل أنت ضد الناصريين .. كانت والفقه ناسا بها  
ستصرون لو عرفت.. انه نطلع إليه وهي تبتسم شاكك إقطاع على كل حال..

- أنا .. أنا ضد من ؟ ثم احتجيت الكلمات في حلقه ووقف ينتظر إلى دعاء  
عاجزا عن النطق..  
سيسرنا مع ذات أن المقامرة تجحت (ولوحث بيدها) يعني ؟

أخيرا وجد سالم جسده فقال لدعاء بهمس شديد الخفوت : ولكن ماذا ؟ لماذا  
قبضوا على لبني ؟  
جديته وفي صربها عصب منصر الكلب أبلغ عن الجميع .. ولكن من المؤكد  
أنهم سيفرجون عنها .. لا يوجد أي دليل ضدها .. أنا جازتها في الوقت المناسب

فكانت إنها مستخلص من .. من الدليل..

- وفي أي سجن هي ؟

- وماذا يبيدك أن تعرفه ؟ لن نؤزها.. أنت زوجة ولا قريبها.

لم يفهم سالم ما كانته .. ظل مطرقا وهو يقف في مكانه مشلول القدمين وقد  
غابت كل الأصوات من حوله وبدأ شئين غريب في أنفذه.. وحين رفع رأسه أخيرا لم  
يجد دعاء إلى جانبته.. بدأ يهزى هنا وهناك بحثا عنها وسط تجمعات الطلبة.. لكن  
ثم يستلح أن يعثر عليها.

واصل الهزى بعيدا عن الجامعة وكان يتكلم نفسه : يجب أن أسألها يجب أن  
أراها.. يجب أن أعرف لماذا قبضوا عليها.. يجب أن أفهم ما حدث ليلة أمس.. لماذا  
كانت تخفي عني .. وما الذي أخطته عني .. وما معنى أنني ضد الناصريين وما هو

الذليل الذي تكلمت به دعاء .. دليل على ما؟ .. ما الذي فعله بالقسط وما الذي  
كانت تريد مني ..

وجد سالم نفسه في عيادة الدكتور شوكت الذي استقبله في غضب وكان  
سالم يحد مرة أخرى صعوبة في الكلام.

كان الدكتور شوكت أشقر - شعوره ناعم ومرجل.. أخذت منه لبني ثوب العينين  
العسلتين الغاتحين والألف الشقيقين.. وكان يتكلم برحابة رغم غضبه.. يصوت  
بكا يخرج من أنفه.. وفي وجهه الأبيض الشاهم البشرة تعبير من الاستعلاء نفور  
منه سالم أكثر من نفوره من نفسه وهو يتكلم بشيرته الرخوة

- ما معنى راسيها؟.. ومادمت راسيها وأنت بهذا الطول والعرض فلماذا لم  
تطيع أنت المشهورات وتوزعها بدلا من أن تترك بنتا تحتفظ بمشهورات ؟  
- مشهورات ؟ أي مشهورات ؟ أنا لا أعرف أي .. أنا ..

- أنت ماذا ؟ من أدخل في محبواكم لعب العيال الذي تصلونه الآن ؟ كنتم  
تريدون - العرب - والحمد لله جاربنا وانضمونا .. البطل بالكاد شمع نفسها وأنتم تريدون  
أن ترجع إلى أيام الخراب..

- يادكتور أنا لا ألهيك ... أنا لا علاقة لي بهذا كله ، أنا لست رئيسها في السياسة ولا أعرف أي شيء في السياسة ...

ظل الدكتور شوكت صامتا لفترة وهو ينظر نحوه بوجهه المحترق ، ثم قال :- إذن من تكون؟

- أنا رئيسها في الكلية ،

- وماذا تريد الآن؟ لماذا جئت إلى هنا؟

تورد سالم لحظة ثم قال باندهاش:

- أريد أن أراها ، أريد أن أعثر لها على شيء حدث بالأمس ...

ظل الدكتور شوكت ينظر نحوه في دهشة وفناء صبر قبل أن يقول:

- تريد أن نعتبر لها الآن وهي في السجن عن شيء بالأسفل؟ هل هذا

كلام عاقل؟ إنذهب إلى مدير السجن واطلب ملائمتها لتعتبر "لماذا جئت إلى هنا؟

- لاني أحبها!

أفلتت منه العبارة فالتفت الدكتور شوكت ، وكان قد قرر أن يطرده ولكنه بدأ

ينظر نحوه بتركيز شديد منتظرا أن يكمل كلامه ... ولما وجدته ساكنا ومطرفا قال

- ما شاء الله ! وهل جئت الآن لتخطبها؟

لم يتكلم سالم ووقف أمام الدكتور ينقل كتبها من يد إلى أخرى وقد بدأ

عرق يتلصص من جبينه وراح ينظر حوله دون تركيز ثم بدأ بلوح بيده بجوار أنه

كما لو كان يهيمس دباية ، فقال الدكتور شوكت بتيرة أعدا ليسمعده على الكلام

- ولبيتي .. هل هي تحبها؟

- هي تحب دادة سنية!

ضحك الدكتور شوكت ضحكة عصبية بالرغم منه:

- إذن فانت تعرفها حقلا أنتظر .. أنت .. ما اسمك ؟ تعال-

وتكن سالم كائن قد استدار وخروج من الغرفة بخطواته الواسعة وهو مستمر في التلويح بجانب أنه ووقف الدكتور شوكت خلف مكتبه ينظر في اتجاه الباب ففكر أن يخرج ورائه ويطلب منه العودة ليعده معا بينه وبين لبيتي ، لكنه لم يتحرك من مكانه ، وبعد فترة استدعى الممرضة وطلب ألا يتدخل عليه أحد.

خسر وهو يفكر إذن فهي أيضا لها قصة ؟ لا تكفي حكاية السجن ولكن هناك غوام أيضا: لا يكفي الغوام ولكن هناك سجين ! كان يجب أن يتوقع كل شيء من بنت صفاء فاجأته حين عرفت أنها تهتم بالسياسة ، كانت تبدو فائقة بالدراسة والفوق وقراءة كتب الأدب الفارغة مثل أمها ، لم يلاحظ أحد أنها تهتم بشيء آخر ، لم تنتكس اهتماما عن السياسة لكن يشرح لها ما يجعلها تفهم قليلا ، ونحن أيضا للأيام السوداء تحب الرجل الذي لم يكره في حياته أحدا كما كرهه ؟ وتدخل من أجله السجن رغم تحذيراته لها؟ صباح الخير يا عم قرويد! هي تتحداه لا أكثر ، تعود عليه ، سيعرف كيف يعيد إليها عطلها- ولكن لماذا لا تعود أيضا على أمها؟ لماذا لا تكرهها وهي التي تستحق بعضها ، على العموم لحسن الحظ أنه هنا ، عندما نكلم صديقة الكبير في الداخلية بعد أن جاءوا إلى البيت وقبضوا عليها في الفجر قال له ألا يهتم - قال إنه سيبرد - ترسي انن- وإهمم سيقربون عنها خلال أيام ، ولكن أي سداجة وغباء ، يبقينان شامسا بتفكارها السياسية ؟ نحتفظ بالتشبهات في غمرة اليوم لو كان يمثل هذا الغباء أيام عمله في السياسة لظل في السجن حتى الآن ، نعم ، من حسن حظ لبيتي أنه هذا وأنه يستطيع أن يكلم أحدا في الداخلية وأن يطمئن عليها ، عندما قبضوا عليه في أول أيام ثورتهم لم يستطع أحد أن يعرفه حتى مكانه ، والآن فإن الأسرة لبيتي نحن إلى هذه الحرية ! نحن إلى التزعم الخالد الذي لا يأتيها من روات إلا السجن حيا وميتا! خائف قعدا!

ومن الذي تريد بالضغط تريد مع مجموعة من العقول أن يغيروا التاريخ؟  
 لم يعرف أنه كان مباحيا مثلها في شبابه. ولكن عقله عاد إليه منذ زمن طويل.  
 أصحابه وزملائه الذين ظفروا يعيشون بالثبات لا يعرفون غير السجن والفقر -  
 يخرجون من السجن لينظروا من جديد. أما الفكر الوطني العام الذي كانوا  
 يملكون بتغييره فمزال كما هو وسيفل كما هو. هكذا كانت الدنيا وهكذا سوف  
 تبقى. لم يفهم هذا جيدا في شبابه. كان يصدق خرافة المساواة بين الناس.  
 ولكنه فكر كثيرا وهو في السجن واكتشف الحقيقة. الناس متفاوتون في الذكاء.  
 ومن الطبيعي أن متفاوت قدرتهم أيضا. يخصصون طاقته من الدنيا. بعد ذلك عندما  
 سافر للخارج أدرك في رحلاته أن الفقر موجود في كل مكان. في البلاد التي  
 ترفع الشعارات والبلاد التي تعيش بلا شعارات. الفقر هنا وهناك على السواء  
 والفرق في البرجة لا أكثر. ومع ذلك فقد استمر هو نفسه يكرر الشعارات  
 القديمة لفترة حتى بعد أن ترك التنظيم. كانت هناك حاجة عامة لاستراتيجية لمنفردة  
 بتفكارها المتخلفة. لكنه كف عن ذلك مع الوقت أيضا. بعد أن ركن كل جهده على  
 عمله. العاقل من يدرك أنه إذا استطاع أن ينفذ نفسه فليعمل.

من ينفذ فشراء العالم أن يضاف إليه فليسبب آخر. ولكن لا ينفذ ليسبب  
 وأصحابها يريدون الآن أن يستقر الفقر للجميع. من حسن الحظ أنه لم يستمر  
 كل شيء في البلاد. قد تستجيب الحكومة تطامعات هؤلاء العقول ونظم المصالح من  
 جديد. من حسن الحظ أن لديه مبلقا لا يأمن به في الخارج وأنه يرسل المخدرات  
 إلى هناك أولا بأول. ولكن مع بخلاف لا يمس أحد المستشفيات. طالما بقي  
 الإنسان مستيقظا الأميراض ويستبقى الحاجة المستشفيات. ومع ذلك يا صاحبي  
 الخارج أضحت!

نعم، الخارج!  
 نزل وتطلع فشرة إلى صورة لبني في إطارها على المكتب وقال هذه إحصائيات

صياغة سيادة اللواء وأطرح عليه الفكرة. من السجن إلى الخارج؟ كيف فانت  
 هذه الفكرة تبقى في السجن يربح ليروح لها عقابا ويكون هو خلاصا قد انفق  
 مع اللواء واحد التوازن والتشديد وبعدا ذهب إلى إيطاليا ونقيم هناك مع عمتي.  
 ثم إن من يريد أن يدرس القانون عليه أن يدرس في إيطاليا. تدرس هناك  
 القانون الروماني. نعم. الحب في أشتاتنا والقانون في إيطاليا هذا هو الصواب!  
 يضرب عصفورين ببعضهما من لعب العقول في السياسة وفي الحب. لأنه من هو  
 في النهاية هذا الآلة الذي يحبها؟

ما الذي يذريه أنه آية؟ قد يكون آية ما يظهر عليه وربما يطمح في أموال  
 ليس. في أمواله هو! وشكك بصراخه. جذاب فليعطه حقه أكثر من ذلك قليلا يا  
 دكتور! هو جميل بالفعل. عندما نوقشني

إن كان منها نوقش فشرورته من وتورثه عن أمها التي تقع على اختياره  
 أصحاب الكروش. ولكن هل ورثت من أمها شيئا آخر؟ هل هذه الأشياء تورث  
 أيضا؟ لا أظن. هي لم ترث الحسن الخط جسم أمها الحيوان. بل ورثت عقلها  
 لها وجسمها يكاد يكون غلاميا. ولكن ما الذي يحثه هذا الجسد وهذا العقل؟ هل  
 شككت أنا لحظة واحدة في صفاء؟ أعترفنا ساذجة منذ عرفتها في الكلية. وبعد  
 الزواج كانت تدعو منهنكا طول الوقت في البيت وفي العيادة وفي القراءة الهينة  
 حتى في الفراش كانت تقرأ وتنام وانتساب في بها. الهانم مثقفة. لم يكن  
 سيصرف شيئا أبدا فولا ذلك الطبيب الصديق الذي همس له. شتمه وطرده لكنه  
 كان يحن. أراد مع ذلك أن يقطع النك باليقين. عمل كالأفلام البوليسية. تابع  
 سيراتها بسيارته. وأما دخل العمارة فانتظر قليلا ثم دخل وراعا أراح بيده  
 الباب التي جرى وراءه فيقول له إن صدقي بك شمس في شفتي. التفتير كان  
 صديقه. لا. بل مجرد معرفة. مع ذلك فقد سمح له بدخول بيته وبينه يتعرف على



صفاء ، عندما فتح له الباب نظر إليه في دهول وتعمق في أوتيكال : تفضل ..  
تفضل يا دكتور .

تكرم بهموه دون أن يدخل من الباب : قل لها ألا ترجع إلى البيت . ثم  
انصرف .  
ولكن هل هذا يكفي ؟ ألم يكن من الواجب أن يشره ويضربها بالرضاض مثل  
أولاد البلد ؟

ويضيع من أجل ساقطة وخنازير ؟ لا ، لا . هكذا أفضل لأفصاح . بل ولا كلمة ،  
من أجل لبي وبن أنفساً تقور ؟ ربما يقتلها صدقي الخنزير نفسه ذات  
يوم ، في داهية هي وهو ! ثم تجادل بالطبع في مسألة حضنة لبي ولكن لم  
يستطع أن يمنعها من ولبتها . كيف كان سيفسر المسألة لبي القلعة كيف  
يستطيع أن يفسرها لها حتى الآن ؟ لم يستطع أبداً أن يمنع لبي من تشبهه  
بهذه الدابة اللعونة . مجرد وجودها في البيت يذكره بصفاء الساقطة . أما الآن  
فثلاثة محالفين ! لا ، بل أربعة ! شافر لبي ، تبع من السياسة وعن هذه الولد  
وعن صفاء وعن الدابة . بعد سطرها تخلف صفاء لم شاع هذه الدابة البتة  
وثرية من بقائها في بيته .  
نعم ، عملية ناجحة !

\*\*\*

( ٩ )

رجع سالم في المساء فرأى جده حالته أسوأ من البارحة . وجهه الشاحب  
والنظرة المطفئة من عينيه وضياء البطينة وهو يقطع المسافة من باب النخلة إلى  
غرفته . سلكه الباشكاتب مشغلاً : لماذا تأخرت يا ولدي ؟ أين كنت يا سالم ؟  
فهو رأسه وغيمه بشئ لم يشينه جده وهو يدخل إلى غرفته .

ظل الباشكاتب متردداً أمام غرفة سالم بعد أن بقي فيها فترة طويلة دون أن  
يلد عنه صوت ولا حركة . وأخيراً طرق الباب بقوة ثم دخل ليجد سالم مستلقياً  
على فراشه بتيابيح النكاسة وهو يحرق في السقف ، تارة وهو يهرق برفق فالتفت  
نحوه . نظر إلى جده كئيفاً لا براء وقال بصوت عميق : رأيتهم بجيني . كانوا  
يركبون الآتوبيس معي ويمشون في الشارع معي وضربوا السلم معي ..  
قال جده بقليل : من هم ؟

ولكن سالم رفع أصبعه إلى سقف الغرفة وراح بدور يعينته من اليمين إلى  
اليسار . ورفع الجذ رأسه أنقباً بصورة شقائية وراح ينظر إلى جث بشير حفيده  
وهو يهضم :

- لا يا سالم ، بيتنا طاهر لا تدخله الشياطين . اهدأ يا ولدي ، لماذا لا تقوم  
الآن فتوضأ وتصلي معاً وكنتين ؟

أخذ يمسح بيده على رأس حفيده وهو يتكر في موه أدمية بيتنا كان سالم  
يفضحك فصحكات خافتة متقطعة وهو يحول رأسه ببطء من اليمين إلى اليسار  
وبالعكس يتابع حركة تدور هناك ، ثم نظر إلى جده وقال :

- أعرف ؟ أنا لا أعرف ! أنا كشتهم ! أنا أخاف الآن منهم ...

قال الياشكاتب بلهجة مشجعة : بالطبع يا سالم أنت لا تخاف لأنه لا يوجد ما تخاف منه .

فأكمل سالم دون أن يتحرك من مكانه : يتوّن أحيانا كالأراجوزات وأحيانا يمشون فساقين وعساكر «وليس ومخالف بيضاء» وأحيانا يكونون غزلاناً وخيلاً ولكن اكتشفهم حتى لو كانوا الصغار أو العجائز . يعرفون اني اكنضمهم ولهذا لم يتركوني اليوم لحظة ، وركبوا معي الأتوبيس ويعملون ضجة كبيرة جداً . حتى هنا .

أطوار بالصبيحة السقف ثم أقسمت رأسه بتكلم بديه تسد أذنيه وهو يقول : لو تتوقف هذه الضجة : رأسي يوجعني ، يكاف يعضر .. رأى حده جيبته يفتدي بالعرق وعندما مسحه وجدته عروما بارداً . تلفت سالم على جيبه وراح يرتعش ارتعاشة هينة ومتخللة . وكان جفناه يرتعشان على عيني الذابش وهو يقول بصوت خافت متعجب : لا تخف منهم يا جدي . في الصباح سأهضرهم معهم ولكن الآن اريد أن انام .

فقال الجد : نعم يا سالم . نه . اهدأ . كل شيء سينتهي في الصباح إن شاء الله .

وكان يثبتم وهو يضع يده على صدر سالم ويقتل في صلابته لم تبد عن حليده أي مقاومة ولم يبد أنه يشعر بما يلعبه جده .

لكن الياشكاتب شتم أخيراً في رأس : أين ذهب يا سالم ؟ وميت ؟ ضاع ؟ ألا تعرف أنك إن تركته تركنا ؟

غير أن سالم كان قد أغلق عينيه وراح في النوم دون أن تكلف انتفاضة

جمدة .

\*\*\*

جلس الياشكاتب وحيداً في الصالة المظلمة دون أن يضيء المصباح وراح يتسأل مبهوماً ما الذي يحدث لهذه الأسرة ؟ لماذا وقع سالم في هذه الحفة ولماذا لم تسعد فوزية في ذواجه ولماذا لا يفلح أبني في تجارتها ؟ أتكون الحفة مرة أخرى غطيت فمنا وحدي ؟ قال شعبان إنني أقسمت حياته ولكنه لم يشرح لي كيف أقسمتها . ولكن فليكن أنني تعمرت مع شعبان فهاهي غطيت مع فوزية وسالم ؟ ما الذي كنت أستهتبه لفوزية مثلاً ؟ لم أعرف يسرها إلا بعد أن وقعت الفأس في الرأس فهاذا كنت أملك لها غير أن أحاول إنقاذها ؟

كفى ! لماذا تهوب يا حضرة الياشكاتب ؟ ليست المشكلة الآن شعبان ولا فوزية . المشكلة هي سالم . فإذا سكنت عنه حتى سقط وضاع ؟ لماذا كنت له منذ الجدة لم أرح له الحب .

كنت أقسم الله . ألعاب البري قن دم في مثل سنة . يحبها ثم يتزوجها بعد أن يتخرجها في الجامعة . هكذا تحدث الأمور . ثميت له أن يعيش حياة عادية كالعشيقان فتمت أن هذا سيساعد على شفاؤه وعلى أن يصبح عادياً مثل بقية زملائه . وبالفعل تمتت أحواله كثيراً بعد أن أحب . لم تعود الحالة قبل هذه الحسية الأخيرة . قبل أن يخطو هو ممسكاً بسفط أنت من قبل . وكيف كان في أن أعرف أن هذا سيحدث . وأن الحب بدلاً من أن يطفئ سيجرجع به إلى أسوأ مما كان عليه ؟

كان يجب أن تعرف ؟ قبل أن تشجع على البدايات كان يجب أن تعلم أنك لا تستطيع أن ترسم النهايات . كان يجب أن تعلمت تماماً . أن تعلم من تجربة حياتك أنك لست أهلاً لأن تصبح غيرك بعد أن عجزت عن نصيح نفسك . لذلك خفت على سالم أن يصبح مثل أبيه ! ما عيبه أبوه ؟ شعبان أفضل منك بكثير يا حضرة الياشكاتب ؟ على الأقل هو لا يغطي أسراراً مشبهة في حياته .

ثم يقول الله: أيع خطوة إنك تكاذب وإن المكابدة يستغفرك !  
أي شيء يكابده أنا الآن سوى الكذب ؟

حتى في شبابي لم أكن بهذا السوء ، لم أكذب على الناس ولا على نفسي كنت  
أخطئ فأعترف بذنبي وأعزم في كل مرة على التوبة وعلى أن تكون هذه آخر مرة  
لكي لا أظاهر بالتقوى ، لا أمام أبي ولا حتى أمام أبو خطوة . وعندما أحببت  
سبية لم يكن هناك عشق في حبي لها ولم أختبئ ولا حتى يفتكرى . ولما وهبت وقضى  
وحيداني بعد ذلك لشعبان وأولاده لم يحرفني شيء . فكيف إذن قباء كل هذا  
الصدق إلى كذبة تازلي ؟

أعرف أنني لم أكن ملائكة في أي يوم . ظلمت عدوي ككاهن آخر معين للدنيا ويعين  
للآخره دون أن استغفر على حال . ولكن لماذا نزلت إلى هذا البلد ؟ أفضى عن  
الجميع سري مثل لمن يخفي ما سرق . نحن ندين المرأة نحب بذيئ طويلة من  
أن يخفي سرقة . هم طويل آخر وأنا أكذب على الناس وعلى نفسي . ونسأل  
بعد ذلك لماذا يحدث لئالم ولاسرته ما يحدث ؟ لا يمكن لذلك بالطبع إلا أن يفسد  
حياة من حوله . شعبان على حق ؟ والألم تنفثت التوبة . وثقوت كثيرة في جيب  
توفيق .

اجتاحت الياشكاتب ، من جديد ، موجة من الغضب على نفسه وقال لا ، في  
هذه المرة إن لم يأت التغيير حالا فهو الهلاك إلى الأبد . حالا ؟  
سمع الياشكاتب المشاح يدور في الباب . ونحن دخل شعبان وأضاء النور  
فوجدوا بوجود والده فقال في دهشة :

- لماذا تجلس في الظلام يا حضرة الياشكاتب ؟ ماذا حدث ؟  
نظر إلى والده نظرة مدنية وهو يتعمق - لاشر - ، لاحظ أن وجه شعبان مشرق  
على غير العادة . جاء يجلس قبالة والده وهو يقول

- عندي أخبار جيدة يا حضرة الياشكاتب ؟

جرت وجه توفيق المستغرق في أفكاره نظرة استفهام وهو يتطلع إلى شعبان  
الذي أكمل - كنت قد حدثت حضرتك عن مطالبة الضرائب . الحمد لله استطعت  
أن أخلصها كثيرا جدا .

قال الياشكاتب وهو يترنم عني : وكيف حدث ذلك يا شعبان ؟

بدأ على شعبان بعض الإخراج وهو يتفادى نظرة والده قائلا :

- لي صاحب في السرق يلهم في هذه الأشياء - ساعدني على تسوية المسألة .

- كيف ؟ ثم يا شعبان منذ أيام جدك المرحوم تسوى كل أمورنا بالأمانة

والقانون - واظم يا ولدي أنني لو اخترت طريقا آخر لكأن عدنا بدل هذه العبارة  
التي بناها جدك عصابات كثيرة . بعض الموظفين كانوا يعتبروني سادجا أو أبلا  
لأنني لم أمد يدي إلى طيم خارج دبري ولهذا يبارك لنا الله طيما نملك وتعيش  
مستورين وعم كل شيء . فقل لي كيف سوى صاحبك هذه المسألة مع الضرائب ؟

تراجع شعبان قليلا في مقعده وقال : بالقانون طبعاً يا حضرة الياشكاتب .  
القانون : وأجفنا معا نظرات الحسابات وخصمنا من الإيرادات خسروقات لم تكن  
مقصومة . بالقانون - ولكني كنت أريد رأي حضرتك في موضوع آخر . صاحب  
هذا يتاجر في السجائر المستوردة ويريد أن أؤجر له زاوية من المحل ليبيع  
سجائره - سنكسب في شهر واحد من الإيجار أكثر من مكسبنا الصافي في شهر  
لما رأي حضرتك ؟

- وهذه السجائر مستوردة فعلا أو مهربة ؟ إن تكن ..

ثم عدل الياشكاتب عن إكمال ما بدأ : وقال وهو يحك جيبه : أسمع يا  
شعبان : أفعَل ما بدأ لك . أنت تخطي وتعرف رشا وأنت أدري بمصلحتك . أنت  
أدري متى - تنهد شعبان يارتياح وهو يقول : على خير الله !

أراد أن يقيم ولكن والده استبقاه بإشارة من يده :

- اجلس يا شعبان ، تمنيت أن تكون غدى أنا أيضا أخيار طيبة ولكن ..

بدأ القلق في وجه الابن وهو ينظر إلى أبيه الذي كان من الواضح أنه لا يعرف من أين يبدأ ، وأخيرا ، حكى لولده بكلمات موجزة حالة سالم والوفاة التي حلت به وسأله في لقل : « ما العمل ؟ »

قال شعبان بلهجة صاعدة ولكنه يخفي مسؤوليته

« وأبي من زمن أن هذا الولد غير طبيعي وأنه يحتاج إلى علاج -

قال الياسكاكتب دون انقطاع : « للتشتر حتى الصباح ، قد يأتي انه بالفوج كما حدث من قبل -

- كما تشاء يا والدي -

ثم قام شعبان ودخل إلى غرفته -

ولكن في الصباح عندما وصلت فوزية تحمل ابنها الرضيع لم يكن سالم قد خرج من غرفته ، وراة جدنا ، الذي ترك زنت الفاتنة دون حراسة على حجر الحديقة يجلس مستهلا على مقعد في الصالة . وقد بدأ انه شاخ قبيحة ، حكى لسفينة سيارات متعثرة ما حدث لسالم ، طرقت فوزية باب غرفة أخيها برفق ، ثم طرقت بشدة فلم تسمع أي رد . فتحت الباب بيد وهي تحمل ابنها باليد الأخرى . لم تنق فذاك طويلا .. صرخت وبن وجيها فرح وهي تسأل جدنا :

- ما الذي جرى له ؟ كانه لا يعرفني . كانه لا يعرف سلوم ..

ثم قالت وبموعها تنساب دون إراعتها : انقل يا جدي وانظر بنفسك -

قام الياسكاكتب بجوجور قديمة متوددة نحو فوزية حفيده . لم يكن يريد أن يعرف ما الذي جرى . ونحن دخل فاجأة منظر سالم وهو يجلس بلباس الأفس ويكتب بسرعة فائقة أشياء ، على ورقة فولسكاب وأمامه على المكتب أكوام أخرى

من الورق وأجزاء ملككة من جهاز الراديو القرايزستور . كانت هناك أيضا أوراق مبعثرة على الأرض وفوق السجير . ووقع الجد ورقة من الأرض فوجدتها مزججة بأرقام كثيرة ومعادلات رياضية مكتوبة بخط صغير .

سأل الياسكاكتب حفيده مهده : « ماذا تفعل يا سالم ؟

نظر سالم إلى جده وعلى شفاهه ابتسامة لطيفة وقال : « أوشكت أن ابنس ، تتخلى من صاذا يا ولدي ؟

« من حساب الذبذبات ! هم يعملون نبذيات في الجو ويحدثون بها هذه القضية الشدية .

قال سالم وهو يضع يدا على أذنيه دون أن يتوقف عن الكتابة : « سأواصل بالحساب إلى موجات هذه الذبذبات . هي متادلة بسطلة جدا . سين وصفا الطيم أين السين وأين الخصار ؟ عندما أعرف سيمسكون تماما . سمنصيح أخفيا وسنعيش في بيت كبير لأن اكتشافي سيربيع العالم منهم . لن نسمع أبدا أي صوت . مثل هذا . هل تسمع صوته ؟

وأشار سالم بيده إلى الأجزاء المبعثرة من جهاز الراديو الذي فكه إلى شمع صغيرة .

وقفت فوزية بالباب وهي تحمل طفلها وقالت وفي صوتها أثر الحكة : « هل أكلت شيئا يا سالم ؟

رد جده قبيحة عنه : لا . لم يتكلم شيئا منذ الأمس .

- ساعمل كوبا من الشاي وأى لقمة -

فصاح سالم في غضب : « اخرجوا من فضلكم . أنتم سخطولوني -

وانكب ثانية على أوراقه يتش فيها بسرعة وعصبية ويلفط بين الحدين والآخر لدقة من يداها الراديو بفريقها من اذنه ويضرب باصبعه .

تبادل الياشكاكاتب البقر مع فوزية التي بدأت دموعها تسيل من جديد ، ثم خرجا من الغرفة . عاد الجد إلى مقعده في الصالة بينما ذهبت فوزية لتعمل الشاي .

\*\*\*

في مساء اليوم نفسه ذهب شعبان لاستشارة الطبيب النفسي المشهور في باب الفوق .

ذهب بغيره وبدا يشمرح للطبيب حانة ولده وحكاية العادات والكلام الذي يقوله عن الذبذبات والأصوات . قال له إنه لا يكاد الآن يأكل أو ينام . سأل الطبيب : هل تعرض أبلك لصدمة قبل أن تأتبه هذه الحالة ؟ - لست متأكد ، نستطيع أن نسال جده ، ولكن شئ أعينم هو ليس طبيعيا من زمن . كنا قد عرشناه على حضرتك قبل سنوات . - نعم قرأت ملفه عندي قبل أن نقابلك . ولكن تلك الحالة لا تنسب إلى هذه التصرفات . لابد أن يكون أبك قد تعرض لصدمة حديثة . - ربما ، ربما ، ربما إن كان أحد في البيت يعرف . كان الدكتور قد بدأ يكتب (روشتة) طويلة من الحلق والأدوية الأخرى وقال لشعبان :

ستجد صعوبة في إعطائه هذه الأدوية ، هم عادة يرفضون العلاج في هذه الحالة ولكن لابد منه . وعندما يبدأ قليلا أحضره لى لأراه . هذا علاج مؤقت وإنه لم ينفج فقد نضطر إلى أشياء أقوى . ربما نحتاج حتى إلى الكهرباء . قد نعالج الصدمة بصدمة .

\*\*\*

في هذه المرة لم يعترض الياشكاكاتب على شئ . لا على العلاج بالنفث ولا بالعقاقير ولا على عودة سالم إلى النوم الطويل بالكيل والنهار . لم يكن يستطيع

أن يعترض حتى لو أراد . لأنه للمرة الأولى لزم هو أيضا الفراش يوم أن تكون هناك وعكة جرد أو أزمة معدة . فاجلته وقاجلت الأسرة إغصاة طويلة حلت به . وأمر الطبيب الذي استدعوه إلى البيت على عجل بأن يلزم الراحة الشامة وينظم في العلاج . وفي الياشكاكاتب رغبا عنه أياما في الفراش لأن الحوار كان يعاوده كلما حاول النهوض .

لهذا أيضا اضطوا عن الياشكاكاتب حجر جليشي الكهربائي اللتين عالج بهما الطبيب الكبير حقيقه .

\*\*\*

كانت تلك أيام مولد السيدة زينب الذي اعتاد الياشكاكاتب أن يتابعه من شرفته ويشارك فيه بنفس كل عام . في هذه المرة أعجزه المرض فكان يتابع بذنيه كل شئ وهو يرقد في فراشه ويكاد يرى الصور من خلال الأصوات . لاحظ الضجة وهي تزداد يوما بعد يوم مع فناء الآفاق الجديدة من الزوايا من كل مكان والذين يعلم أنهم احتلوا الآن كل الأرضية في الميدان والشوارع المتفرعة منه وأنهم زحفوا حتى جلية البيت . ميزت أذنه ، إلى جانيه الندابات وهياح الضجيرة وضجيج الميكروفونات . تلك الوسوسة الجماعية الموحدة لألف الأصوات . تلك النغمة المبهمة التي تنموج وحدها فوق كل الطنين من مد وجزر . والتي كان يسميها لنفسه «روح الأصوات» . يتعرف مع ذلك على كل التفاصيل المفردة في الشجة الآتية من الطريق ومن الخيام والاكتياك المتصورة في شارعهم للمول .

يسمع صوت ربابة وإنشاد مداحين ، وقرقعات ينادي التنسين ، وأزيز (الواجيج) ، وندابات باعة الأطلعة ، وباعة الصنوبر وباعة كتب الأذعية اللبية . وخشخشة ميكروفون المساحر الذي ينظر أبنته بالنشاز إلى نصفين أمام عين المتفرجين والبنحول بقرش خياغ واحد . يكاد يراهم جميعا ولمعهم ولكنه ينتظر

مع ذلك في كل مساء . في آخر الليل . مسونة شجبا لا يظفنه أبدا رغم كل الضجيج . يصر من أذنه إلى قلبه على القديم وهو يكرر يناداه المتعم - توكلت على الله ربي وخالقي . . . يعجز في سمعه بالنفحة الصعدية المتواترة كسراج البحر وهو ينادي وحمة الرحمن ملجأ المؤمنين قنبحتم الباشكاتب الرائد في مرأته

« ياربيا »

\*\*\*

وقا جاء يوم الكوكب قرى شعبان أن يحتفل به كما كان جده التسدي يفعل وكما ظل الباشكاتب يحببه لسنوات طويلة . ففكر أن هذه هي الطريقة التي يمكن أن تعود بها البركة إلى البيت ويرقع بها الدعاء إلى الله كي يخلي آباءه وأبنة . أراد أيضا أن يشكر الله على المال الذي بدأ يجري في جده منذ أن أحرز الزاوة لبناني السجاش وبعد أن راجت مبيعات الأقمشة هذه السنة لزوار الكوكب . استأجر شعبان وومها عشرات من القاعد الخيولان ووصها فوق السطح . وشارك السكان أيضا بإضافة ملأه من بيوتهم حتى امتلا المكان وشغل الضاحك العسارة كلها . متخوفا كل واحد بما يقدر عليه . ركب حميد الكهربائي أيقيرفونيات ومكبرات الصوت . ووضع أقرع الصابيح اللونة في مدخل البيت وعلق لنساء في أشلاء . ونصب أبو عزور التيجار أعمدة خشبية فوق السطح وعلق فيها أثوابا من قماش الضياف المزخرف كإعلان مطلوبة لجسد البرية . وشارك بنات البيت منذ الصباح بسج اللالام في أنوارهن . واستطاع أبو زيد أن يكس المداخل .

وفي التنهيرة ضحى شعبان بعجل كبير ذبحة أمام باب البيت ووزع لحمه على زوار أم مئتم . وهي لحظة الذبح مثل أبو زيد وكبير بصوته المرتعش مكملا كان يفعل في الزمن القديم . وارتفعت أصحبه أطفال البيت وأطفال الجيران

المحلقين للفرجة على الذبح يشريد الصلاة على النبي ودعاء الله من حقيقته الطاهرة . ثم علت بعد ذلك من مكبر الصوت الموضوع فوق البيت آيات القرآن الكريم يتناوبها القارئون الذين يختصون المصحف الشريف .

ولم المساء أصغر شعبان على أن يرتدى والده بذلك وعيائه واصطحب سالم النخود وهو يستعد من تحت إبطيه بينما يسند بيده الأخرى فراغ والده المتمد على عصاه وصعد بهما معا إلى السطح . أجلسهما متجاورين في الحنف الأول في مقعدتين كبيرتين مبطنتين بالقماش . إلى جوار الحاج إبراهيم الطلول الذي صعدوا به جملة على المقعد .

وكان المكان قد امتلا حتى أضمر بالجيران من العسارة ومن البيوت المجاورة الذين لم يكتفوا كل المفادح فظل البعض واقفين . وكان شعبان يشوف على النجوديين وإلى عدة قارورة يمر معدنية كثيرة بشر منها على الكفيم المسبوبة قطرات قيمصعون وجوههم وهم يدعون له . وكان غيره يطوف بكواب ماء محضر في زهر . ويألي إرساله الحاج فرعى العطار من شفته في اللون الرابع في أباريق حامية كبيرة .

وتأمل الباشكاتب فرقة المتشبين كانوا خصمة يرتدون جلابيب صوفية وعادة اللون وعماهم . ويضع كيموهم شالا من حرير أبيض يتدلى من على كتفيه ولقب أمام البكرافون واصطفت الأربعة الآخرون خلفه . وكان الباشكاتب يعرف من تجاربه أي مقاطع سيتلوها وحده . وآية آيات سترديها وراء الطوق . وأرتاح قلبه عندما وجد جميل الصوت مئة بدأ يشد مع فرقته مدائح قصيرة لمصاحبة الموك والحقام .

وأخيرا جاءت اللحظة التي انتقروا الجميع . حين علت من فوق سطح البيت بعد انقطاع طويل آيات البودة التي اعتنأوا على مصاعها مئة الصغر . تنظليا

مكبرات الصوت للحى كده - واغرورت عينا الياشكايب بالامسوح وهو يسمع  
الابيات الاولى التي يهتز لها قلبه :

أمرُ شُكْرِ جيسران بنى سُلَمٌ      مزجتُ معها جرى من مقلتي يدمى ؟  
لولا الهوى لم تُرقِ دمعها على طلل      ولا أرقّت لذكرى البان والعلم  
تكيفت تنكر حينا بعد ما شهدت      به عليك مقول المسمع والمسمع ؟  
وكانت شفتا الياشكايب تسبقان الغنطين - ووضع وجهه بين يديه مخالفة أن  
ينبتش بالثقا - وهو يتروم في سره -

مخضمتي النصح لكن لستُ أسعده      إن المصبة عن العذال في صمم  
فإن أمارش بالسوء ما اتفشت      من جهلها بتذير الشيب والهرم  
وبنات الياشكايب على بستان البوصرى عن نفسه أقرضه - إن يكن هناك  
من لم يردعه استريح فلا يمكن أن يكون ذلك الأمر النقي وأما شوقه في حاله  
أما بعد وقلت أمدا له - ولكنه انتبه من خواطره إلى الغنطين يكررون مرة بعد مرة  
ويحشد الجيران يردد وراءه بعانقه حاشة

محمد سبد الكولون والشلون      والفريقين من شرب ومن شرب  
نبينا الأمير انصافى فلا أحد      أيرُ في قول لا منه ولا تعم  
هو الحبيب الذى ترجى شفاعته      لكل حول من الأقبال مقتحم

أراح الله شكايب به من وجهه وبها يردد مع الجميع بصوت خافت مبهمة أول  
أمر لك انصافى لواءة الحبيب الذي ترجى شفاعة - ثم نسي نفسه بهم ذلك  
تماما - وانطلق يتشد في سره حيثما متابعا الملاحين - ويظهر حينا آخر مع  
الجميع وكان ثقل الستين وثقل المرض قد انزاحا بالفعل عن كاهله وعاد مرة  
أخرى إلى شيبائه وهو يردد أبيات البردة عن مولد المصطفى عليه السلام وبما  
قاساه في حياته وأثناء دعوته - وقد استغثت قدماء من يوم وشهد من سبق

أحشاء وطوى - ويرى بعينه محجزات الأقار في هجرتهم «فتتوا العدم وقتوا  
العتكوت على خير البرية لم تُسع ولم تُسم - ويسرى معه من «حرم إلى حرم  
كما سرى البحر في داج من الظلم - ويغيش أيام جهاده وغزواته - وسل حثينا وسل  
بدرا وسل أحدا - ثم يثو صوته مع المشدين ومع جيرانه

يارب بالمصطفى بلغ مقاصدنا      واغفر لنا ما مضى يا واسع الكرم  
واغفر الهسى لكل المسلمين      بما يكون في المسجد الأقصى ولى الحرم  
يجاء من يشه في طيبة حرم      واسمه قسم من أعظم القسم  
ولم يعد الياشكايب الآن ينتبه إلى الامسوح التي غطت وجهه ووجدوا كثيرة  
حول - وكان يلف على قدميه عندما أتى الملاحون الجردة وهو يرفع يده ويطلب  
الشفاعة معهم - وعاد شعبان إلى الظهور وهو يعمل بمقبرة راح يتوحيها أمام أبيه  
وأمام جدهم الذي كان يفتي ويحفر - ثم بدأ يتوحيها - بين صفوف فلاحين وبين  
الجيران الذين هم وهو حبيب باعلى حسنة - مداد - - فيسبح لكن كنه الهذات  
مضى على التبي -

كان حين يندم وأصوات الرجمة صندعية في المرقب مثل كد من مطاع  
التبار - تلو من هناك ومن فوق السطح أصوات التهليل والتكبير والدعاء لصاحبه  
أقيلة الحبيبة السيدة زينب - الست الطاهرة - أم هانم - بنت بنت النبي - أخت  
العسين والحسين - أم العواجز وجارية التكمسين -

عند ما جسد مدى -

\*\*\*

القسم الثالث

(الباشايب)

lllas.com/vb3  
ola\_mfs



يعرف الياشكاتب متى بدأت عملية ترميم البيت لكنه لم يعرف أبدا متى  
مستشفى.

أصر القاول على الحصول على الجزء الأكبر من أتعابه مقدماً لشراء المواد  
والتفق على إنهاء العمل في خلال شهر أو شهرين على الأكثر - لكن شهيراً كثيرة  
مضت ومبالغ كبيرة أخرى ضاعت دون أن يحدث شيء، إذ فجأة يختل المداول  
وعمله بعد أن وتركوا البيت مصلوباً بالأعمدة الخشبية ومن حوله أكياس الدس  
والأسمنت وسباغ الحديد، ونحس فداً الياشكاتب وراءه من يرجع لا يدرك  
يتقاضى مبلغاً جديداً غير الذي اتفقا عليه، وبدأ أنه أن تنهى إلا مع انتهاء آخر  
قرش يملكه صاحب البيت...

وهي هذه الأثناء اضطر الياشكاتب أيضاً إلى استشارة أكثر من طبيب بعد  
أن تكررت نوبات الدوار وأصابته هزات مفاجئة، كان الطبيب الذي زاره بعد  
إغمائه الأول قد أنبهه وسأله كيف سمكت على نفسه حتى ارتفع ضغط دمه إلى  
هذا الحد واضطربت نبضات قلبه؟ ومع أنه التزم بالعلاج الذي وصفه له الطبيب  
حتى استطاع أن يقلد على قدميه، إلا أنه بدأ بعد ذلك يفتقد الكثير من وزنه  
بالندرج فأنصح أنه أصيب بمرض السكر، أصبح من الضروري أن يعالج بحقن  
برمية وأن يتعاطى دوية كثيرة أخرى - وبذلك كان الغاض والإيراد الضعيف الذي  
بأنى من أرضي سمعية وكفيلان لسداد ائتمان هذه الدوية ولزيارات الطبيب الكبير  
للدوية - والتدخلات المستمرة التي يطلبها في معامل يحددها بنفسه كان يعرض  
إذا ما أجرى الياشكاتب التحليل في مصنوصت شعبي أو في معامل رخيصة.

يقول إنه لا يثق في هذه النتائج أبداً ولا يمكنه الاعتماد عليها في كتابة العلاج.  
فيضطر الياشكاتب إلى إعادة التحليل في المعامل الثغانية. ولم يعد يستطيع، حتى  
لو أراد، أن يدفع لفوزية ما كان يعطيه لها من قبل. لكنه على الأقل لم يضال فراج  
أبداً بسداد ما اعتبره مدياً عليه، وكف فراج أيضاً عن الاعتذار لعدم سداد هذا  
الدين.

ما كانت تشغل الياشكاتب قبل كل شيء آخر في هذه الأيام هي حالة صائم.  
ظل مريضه على حالة رغم العقاقير الخوية والمخفضة. وكان - براهم، كلما أخفق  
ويشير إلى أبيه أو أخته طالباً بصوت مجهود إيعادهم عنه - إيماناً أن يتروا إليه  
في معظم الوقت في معاطف بيضا، وأن يحدثوا ضجيجاً بسبب له صداها مؤلماً  
فيصد أزمجه بكلمة ويهبط جنبه دون جدوى. لكنه كف بعد العلاج من محاولة  
اكتشاف العقاقير التي ستأودهم ثم انقطع شهرهم تماماً بعد جلستين  
المصدمات الكهربائية، طردت هاتان الشيطان الأشباح المألوفة واستبدلتا بهما  
أشباحاً أشد شراسة. إذ ظل صائم يقوم مغزوعاً في الليل ويصبح صبيحات أقرب  
إلى القولا، وهو يروح يبيبه مسالواً أن يطرد الخفافيش والصقور التي تنقض على  
رأسه وتمتبه.

يكث فوزية وهي تقبل يد والدها ضارعة إليه، مرة أخرى، أن يرجع أخاها من  
هذا العذاب - سألته هل يمكن أن يحدث لسالم ضرر أكبر مما هو فيه الآن لو  
تركوه دون علاج؟

أراه شعبان أن يستمر مع ذلك حتى تنتهي الجلسات التي حددها الطبيب  
لتظهر النتيجة، لكن الياشكاتب الذي غادر فراشه بمجرد أن عاد له شيء من  
شأطه - فزع عندما رأى حالة حفيده، لم يستطع أن يترى شعبان كما فعل من  
قبل بأن يوقف العلاج على الفور. اكتفى مثل فوزية بالإشارة إلى ما جرى لتعبه

بعد العلاج، إذ امتنع سالم عن الأكل وأصبح يشكو بعد الجلسات، إلى جانب الصداع، من تشنجات مستمرة وهو يمسك بطنه والألم يعصر وجهه صغارا إرجاء ع طعام لم يذوقه.

قال الياشكايب لولده متظاهرا بالهتود: يا شعبان، هذا الولد سيصيرت لو استمر على هذا الحال. لنعطه على الأقل فترة راحة من الجلسات، فإن ساء حاله أكثر يمكننا أن نفكر فيها من جديد.

رد شعبان على والده يهدهد أيضاً لم يقل من فترة تأنيبه ربما يا حضرة الياشكايب لو كنا أكملنا علاجه من البداية لكانت أسهل لأننا الآن إلى هذه الصدمات - ملك حق يا شعبان، أما كل ما أطلبه الآن منك هو فترة راحة لسالم ترجع بعدها إلى هذه الجلسات إن شئت.

زهر شعبان ثم قال: وكنت بغض مستوية من آخرى كذا، يا أباي، بقم الله ما الذي فعلته لأدبر تكاليف هذه الجلسات وما شئت الآن توقفت!

أوبك الياشكايب من يقول هذا هو ما شئتك يا شعبان، حالة سالم تدهور أن نقضى على كذا حتى الآن أن نقضى على وأنت تحسبها أنك كذا، أليس أبنك؟ لم لا أراك جزءاً عليه مثل فوزية؟.. ولكن لا! كفى! توقف! من أدراك بما يدور في قلب شعبان أو في عقله؟

لم تنطق على ذلك لست أملاً لتحكم عليه أو على فوزية، توقف! توقف! ثم أنت تجرؤ على أن تقول شعبان؟ فلي هو السبب فيما حل بسالم أم أنت؟ من الذي سببه من الأصل؟

قال الياشكايب بلهجة كسيرة لا تشبه لهجته في شيء: لا تقلق يا ولدي سيبدو سالم من هذه الأزمة بأحسن الله.

طالعت يدهن تحتها نبوة أبو خطوة القائمة الحفيدة فيبحث عن العجاب وأعاد تعليله من جديد في صدره، لكن فوزية دلت إلى التفكير في شيء آخر.

كانت تلازم أخاه ليل نهار. تعلبه بيدها القيمات القليلة التي يملكها مشاعراً اعتادت أن تلحل وهو صغير، تأخذ في حلقها وتهدهده عندما تهجم عليه الوحوش التي تنشر رائحة، تولف حكايات كثيرة وتحنكها تسلوحي الذي كان يعلم المشي من أن تقارق عمتها أخاه الرائد في الغواش. إن لاحظت أنه قد شرد أو كلف عن متابعته تبدأ في اختراع شيء جديد لتبقيه صاعياً وستبته، وصارحت حينها بأنها مدعى لاسها، أنها تعطي لسالم الأدوية في مواضعها لكنها في الحقيقة تسقيه بدلا منها اليسون أو السليو. ولم تلاحظ أي فرق يحدث في حالته حين تعلبه الأدوية أو حين شبعها.

لما الياشكايب بعد أن سمع ذلك إلى الحاج مرعي العطار، ذهب إلى جاره في مكتبه القريب الذي تقوله منه من بعيد روايح البخور والأعشاب والمكتوب على وجهه الشيب حلة. كان يشبه والده الواحد صديق الياشكايب في كل شيء، يرسم على وجهه تغيير الجهد والانشغال طول الوقت، ويلبس مثل الشباب الذي يشربوا تشنفاً ومكوماً، لا يمتنع من. وكان ذلك يحسر الياشكايب بسبب تقاربه معات من الغربايش من لصي ومن العلم، استغفته مرعي شرجيد كبير وأدخله مكتبه الواقع في عمق محله الواسع الذي وجدته الياشكايب مزدحمة بالكداس من الكتب القديمة المجلدة، وقوارير زجاجية صغيرة مرسوسة فوق أرفف ضمن أنها تضم الأعشاب الطبية.

وعندما عرف مرعي ما يطلبه الياشكايب تحول تغيير وجهه الجاد إلى ما يشبه الصرامة وهو يسأله بوقاة أدبته عن كل تفاصيل حالة سالم، ما الذي يحدث له بالضبط في بومه وفي بقلته، وهل يستمر الطعام في بطنه أو يرجعه، وهل ترتفع درجة حرارته أحياناً، مثال أيضاً عن لون البول وما إذا كان يشعر بجفاف في اللسان، وهل يسيل لعابه حين شأبه الحالة؟ وما هي، بلا مواخذة، حالة الطبيعة عنه؟ كم مرة؟ وهل شمل إلى الإسهال أو العكس؟

ابتسم الياشكاتب وهو يقول: لا أعرف يا حاج مرعى إجابات كل هذه الأسئلة،  
حتى الطبيب لا يسأل عن كل هذه التفاصيل  
أنا حاج مرعى طربوشه قليلا إلى الخلف وقال بون أن يتشم. ما الدنيا يا حضرة  
الياشكاتب هو أبو الطيب، ليحك جنت لي منذ الجدا  
أراد الياشكاتب أن يداعبه «حقها حية» لكنه فطر على الفور أن مرعى ليس  
من النوع الذي يقبل المزاح، فتبعض وهو يقول:  
- سائيت بأجوبة لكل أسألتك إن شاء الله.

قام مرعى بدهش وهو يضبط طربوشه فوق رأسه قائلا: في أسرع وقت؟  
كانت فورية تعرف كل الأجابة التي يطلبها العطار فدونها الياشكاتب في ورقة  
عاد بها إلى مرعى الذي واجهها بكل دقة ثم طلب من الياشكاتب أن يعطيه مجلة  
يومية بالضميمة. وعندما ذهب في التوجه كان العطار قد أخذ أربعة أكياس نفس  
أعضائها مستنقعة مكتوبا عليها حفظ رقعة بالغ التحمال والظلم الجسط إسطادات  
مفصلة «ينتج في السماء ويضرب بارداً على الريق...» على جوداً ويضرب سائيت  
أربع مرات في اليوم... قبل النوم بساعة... طعنة صغيرة سفوف بعد الأكل...  
وعندما بد الياشكاتب يده ليأخذ الأكياس سحبتها مرعى بشي من التردد وهو  
يقول: سيهرت أيلتين يا حضرة الياشكاتب ورجعت إلى كل ما عندي من الكتب  
لأنه قال عندنا الشافي هو الله. ولكن إن أعطيت سالم هذه الأعشاب فيصعب ألا  
ياخذ معها أي دواء آخر. وأرجو أن تخبرني كيف تتطور حالته لأنها قد تغير  
بعض البرعات أو الأعشاب وقد نفعها كلها إن لم نفع. الشن الوحيد الذي يحكم  
أن أقوله لك يا معلماني إنه سيسترد شيئاً إن شاء الله.

وأخيراً أعطاه الأكياس في حزم شديد وهو يقول: وتذكره يا حضرة  
الياشكاتب بالذمة، ونذكرني معه، وربما يقبل مجاه المس...  
لقال الياشكاتب وهو يثاول الأكياس والحزم تسه: أمين.

وعندما أراد أن يذلع شيئاً للعطار رد يده المتعددة في تصميم لا يقبل جدلا  
- علما بأن الله بالشفقة يا حضرة الياشكاتب، ستجني لنا فوق السطح ليلة  
من لياليك الجميلة.

اتفق الياشكاتب مع لموزية على أن تعطي لسالم هذا العلاج بون علم شعبان،  
لم يكن وانقأ أن ابنه سيوافق على إيقاف الأجابة الغائبة. ولا كان وانقأ أن ما  
يفعله هو الشن الصحيح.

لكنه حاول شيئاً آخر ليساعد حقيقده - ذهب بنفسه إلى كلية الحقوق ليسأل  
عن الطالبة لينى التي أبوها طبيب - كانت تلك هي كل المعلومات التي يعرفها  
عنها، وحين انتهى إلى صاحبها عرف منها أنها سافرت إلى إيطاليا وأنها  
مستقبة لعليها هناك. أخذ اسم والدها واستدل على عيادته...

لم يستقبل الدكتور شوكت على الفور عندما أخبرته بالمعرضه إن هناك رجلاً  
عاجزاً يريد في سداة شخصية. سألها هل تشك من بنينين إغاثة أو كشفا  
مهايا لأحد طريباتهم - قالت إنها لا تعلم ولكنه سأل عن أخبار الأسرة ليس.  
قالت الدكتور قائلاً: ربما هو خضر فابست الممرضة وهي تقول هو عجوز جداً  
لا يصلح محبراً. لوح الدكتور شوكت بيده قائلاً: فليندر حتى ينهي العمل في  
العيادة. إن كان هناك وقت فسأنايله.

بعد أن انتظر الياشكاتب ساعتين استقبله الدكتور شوكت وهو يجلس إلى  
مكتبه. وبأخه بمجرد دخوله: كيف تعرفه أنتي؟

غالب الياشكاتب دهشة وقال: مساء الخير أولاً!

ثم برد عليه شوكت وظل ينظر تحوه وهو يعتقد بأنه بيده فبدأ الياشكاتب  
بشرح بارتباك أن حفده سالم كان صديقاً للأسة لشي قبل سفرها. وأنه أصيب  
بجدة نفسية سيئة، وذلك فهو يسأل الآن إن كان يمكنه أو الأسة لينى مساعدة

حفيده بنى شكله ولو من طريق رسالة أو زيارة.. تذكر الدكتور شوكت كل شيء  
عن الشاب الذي زاره يوم سميت ابنتي وقال لنفسه يجب أن تضع نهاية حاسمة  
لهذه الحكايا.

قال بلهجة الرخوة مضاميا الياسكاتب: ثاكني إن كان يمكنني مساعدة  
حليدك يمكنني بالطبع. أتصحت بأن تقعه في مصحة للأمراض النفسية أو  
العقلية ثم لا تجعلني أراه أو أسمع عنه أو نلت بعد اليوم! ليس عندي وقت لهذا  
الحديث.

قال الياسكاتب في زفول: على أيام كان نكلم من هم أكبر منا منا بطريقة  
مخطئة. أنا في سن والدك يا فتوى!

قال شوكت وهو يهيج: أنت كنت مثل والدي وأنتى كنت تعرف...  
سنداد السكاتب غضبا وهو يقول: حمد لله أنت كنت مثل والدي! على  
الأقل أنا استعصت أن أرى أولادي!

واستدار خراجا وهو يضرب الأرض بعصا صنف وقال شوكت لنفسه: دون أن  
يهتز! أفن أنا لمرقبة من هذه المسافة نهائيا!

غير أن سالم لم يعد بحاجة إلى المستشفين التي أصبح بها الدكتور شوكت.  
استقرت شقيقته بالفعل كما تنبأ الحاج مرعى وأصبح الطعام يستقر في بطنه.  
ونشأ فشينا أخذ يستعيد بعض الوزن فقد وأصبح نومه أقدا مما كان. ظل  
مرعى يمر على بيت الياسكاتب كل يوم تقريبا في زفوله وصدره. يسأل عن تطور  
«الحالة» ويغير أحيانا غلظة الأحشاب معتبرا الصراع مع الوحوش التي تشبهت  
بؤاس سالم معركة تخصه هو بالذات. وإن ظل يعقب على الياسكاتب، برزائته  
المعبودة، لو جئسى منذ البدء يا والدي لما استغرق العلاج كل هذا الوقت!

وكان الياسكاتب يبالغ في الاعتذار عن هذا التقصير، مبالغة ثمري في بعض  
الأحيان. وصادقا في أحيان أخرى حين لاحظ التمسك الذي بدأ يطرأ على حالة

حفيده. أخذت الوحوش تتسحب الشرج، وبدأ سالم يعوي ببطء عن العالم الذي  
غاب فيه طويلا. يتحدث أحيانا بجمال قصيرة إلى جده وإلى خويزة، ويطلب الطعام  
بنفسه. ويوم نعرف على علوم الصفيو وبدأ بداعيه خمست فوزية ليدها بنبرة  
ظاهرة: «أرأيت؟ البركة في عم مرعى!». فقال جدها وهو يقبل رأسها: «وقيل أنت يا  
فوزية».

بقيت بعد ذلك فقط حين رجع لهم سالم تلك النظرة المطلقة في عينيته وبسمة  
ثابتة على شفتيه وعاد إلى صمته الطويل. غير أن ذلك كان شيئا ألقوه منذ زمن  
طويل.

وكان الياسكاتب قد فعل شيئا آخر يوم ذهب إلى الجامعة بحثا عن ابنتي.. إذ  
قدم شهادة مرسية لإبنا، سالم من الامتحان في هذه السنة لم تكن حالته تسمح  
بذلك.  
ولكن في السنة التالية كانت هذه الحالة تسمح بأن ينزل سالم للعمل.

\*\*\*

وسميا كان الياسكاتب يتابع مع فوزية حالة سالم وجد الوقت أيضا ليفعل  
أشياء أخرى مؤجلة. كان حرمه قد استقر منذ ليلة المولد. جلت به لينها سكية  
أفقدتها طويلا وهو يتصهر مع جبراته في تلك الليلة من المحبة الخاصة. لم يكن  
يردد أحيانا من الشعر ويسمعها فحسب. ولكنه كان يستر عافية نفسه.

في أول خميس استطاع فيه الخروج ذهب لقاء تازلي وجلسا معا كصديقين  
غايا عن بعضهما لفترة. أعطت تازلي نصائفي بشأن صحتة وزودته باسم الطبيب  
الكبير الذي أصبح بعد ذلك يتابع حالته. قالت بلهجة جازمة:

- هو أحسن طبيب في البلد فاسمع كلامه يا توفيق.. وحاسب على نفسك. ثم  
تعد صغيرا!

وكان هو يعرف أنه قد أصبح كبيراً جداً! هي السفين الأختين ظل يماقظ على موعد التمس بحكم العادة لا أكثر. واعتاد أن يقضي الوقت في الثروة عن تسيافها ومشاكلها مع الحامين ومع أبنائها. فإذا جاء العشق بعد ذلك أو قبله، ثم بصعوبة ونسور، لا نسر فيه من حرارة الرمس القديم. كاد لف، الخسيس أن يقتصر على الثروة حتى لو كانت لدى الباشكاتب الرعية، وحتى لو توافرت القدرة التي أصبحت تزداد صعوبة أسبوعاً بعد الآخر.

لزم الباشكاتب الصمت فترة وهو يشغل وجهه نازلي الذي أجرت له عملية شد جلد فاصبحت ميناها الخضراوان الصغيران كخوزنيز لا يسمران، شقال بهن، وهو يعض.

وبما زلت يا بنت الناس...

لم يكمل كلامه لكن نازلي قالت بلهفة: عموك أشول من عموي

- أنت تعرفين ما كنت أريد أن أقوله؟

فأجبت وعادت تنتقم من ربيها الباردة الجافة

- طبعاً يا توفيق! من بدة أعرف أنك تريد أن تقول، وأنا أيضاً..

ثم هزت رأسها وقالت بأسف: أصبحنا عجوزين!

ورجعت لتضم وهي تضع يدها فوق يده، ولكن ليس شعرياً!

فاجأة ودعا بالتفعل كان قد فكر قليلاً كثيراً كيف يعاودها... شعر بكسر من الإخراج والارتباك مضادة أن يخرج مشاعرها بعد «عشرة» هذه الستين الطويلة، لكن نازلي أنهت انفساء بكلمتين واجتماع. لم ير في وجهها أي حزن حقيقي، تصرفت كأنها يستغرق عن شططها لماثته بالمصادفة - ليست غلطتها على أي حال!

حال

وكانت «مرومها» بسيطة هذه المرة، أن يتم الطلاق كعادة أيضاً وأمام شهود وأن يسجل فيه أنه ليس لأي منهما حقوق لدى الآخر.

لم يملك الباشكاتب نفسه فقال ضاحكاً: يا نازلي حاتم هذا ليس طلاقاً، هذا رد كميالة (مخالصة):

قودت دور أن تفسدك، لمصلحتك ومصلحتي يا توفيق،

وبعد أن اتفقت على موعد الطلاق والشهود، قالت نازلي وهي تنظر حولها:

- على فكرة، يمكنك أن تطلب «حقوا» كبيراً لهذه الشقة، الموقع مطلوب.

استند الإيجار الذي دفعته طول هذه السنين، وربما أكثر.

حول الباشكاتب بنقرة في الصفحة (تدور) مثل ينفجر إلى نراش وهو يفكر حل يقبل أن يرضى التعديل على المال الأرواح أم أن الأرواح المينة من الأصل هي التي تتكالب على المال بهذا الضرر؟ وفي سواد الأرواح بعدى... لا، هي لم تفرض نفسها على بل أنا التي سحيت وراها. فهل تنتشر الأرواح عن عبد كذا تنتحر الأجساد؟ ولماذا؟ كاشي كنت أبحث عنها لكن أقرب في الوقت ومن الوقت، أكم أسمع من أبو خطوة أن العاقل من يمر على الأوقات لا التي تمر به الأوقات؟ من يحكمها لا من تحكمه؟ وأنا لم تمر بي الأوقات فحسب، بل تركتها تزحف بي عمرا تسعت امداء والخمسة امداد. حتى أعذاري الوجيبة لم تكن في العن وجيبة. لك أن اتفق - ستنظر ألا أشتي الدنيا لا توجه بده قلباً خائفاً، ولكن كيف توقعتم أن يأتي هذا اللقاء لماذا لم تكن تصبر أبداً على ظمأ جسدك واستطال هبوك على ظمأ روحك؟ ولماذا مثلاً لا تنظي روح نازلي؟ وهل هي تعرف أصلاً أن هناك ظمأ للروح؟

ثقلت يا حضرة الباشكاتبيا ها هو ضلال آخر! هل اكتشفت نازلي الآن  
فيما قد تكون أفضل منة على الأقل هي لم تفعل شيئا فتتقد في قنطرة نفسها  
أنه خطا. ألم نعلم في علي أن يكون هناك زواج واليهما إن كنت أنت تضع  
في الرحمة رغم كل خطاياك فلماذا نمن بها على نازلي؟ لا! إن أردت أن أظوي  
هذه الصبغة فيجب ألا ألوم نازلي على شيء أبدا، بل ربما كان يجب أن أطلب  
منها الصلح.

سأنته نازلي حين طالي صيته:

- لماذا تنظر إلى كائنك لا تراهي؟ فبم تفكر يا توفيق؟

فقال بهنو: في الطلاق.

\*\*\*

(٢)

عندما كان عاطف - أو سلوم - في الرابعة من عمره تقريبا رجعت فوزية إلى  
بيت الأسرة بصحبة ولدها. لم تكن تلك هي المرة الأولى في الفترة الأخيرة. فكرر  
مجيئها وبينهما ليلة أو ليلتين أو أكثر. في البدء كانت تقول إنها اختلقت لهم أو  
إنها تريد أن تربي - وحياتها قتيلا لأنها لا تظمن شعاعا إلى عمل السفانة التي  
أصبحت تأتي مرة واحدة كل أسبوع. ولكن فوزية لم تكن ترجع إلى بيتها إلا بعد  
أن ينكي فراج لأصطحبها. وفيهم الجميع ما يجري دون حاجة إلى كلام. ولكنهم  
سكروا لأن فوزية لم تستأذ أن تدخل شيئا.

كان فراج ينكي في أندية متجهما. يجلس لفترة مع الجد. ومع شعبان أو  
سالم إن كان أبهما موجودا. بينما تستلقي فوزية في غرفتها. في تلك الأحوال  
يجلس حفرقا ويلزم الصمت معظم الوقت مكتفيا بتبادل النحيات والتجاملات.  
وأحيانا يشكو من شروف العمل. يقول إن كل الشغل فوق رأسه ولكن لا أحد  
يقدر. وإن من يحصلون على المكافآت والعلاوات هم مداسيب رئيسي مجلس  
الإدارة الذين يحطون الإنتاج. أنهم لا يفعلون شيئا لشركة ويغرمون بأعمال  
خارجها. سأنته الباشكاتب مرة كيف يفعلون ذلك وهو ممنوع بحكم قوانين العمل  
لنشر فراج نحوه وإشفاق وشرح له أن الدنيا تغيرت. وإن هؤلاء الموظفين يديرون  
أمرهم. يدفعون العلوم. ويقدمون الهدايا لوزراء. ليسمحوا لهم بالتفرغ  
لأعمالهم الخارجية ولأرسالهم أيضا في إعارات للبلاد العربية. واعتادوا أن  
يتركوا فراج يتكلم أو يصمت كما يشاء وهم يعرفون كيف سينتهي ذلك كله. فيعلم  
أن يشرب الشاي يسأل: أين فوزية؟ وينادي عليها جدها أو يخرج آخرها أو

نوع استعاضتها ، فأنشئ رفعت سباب الغرفة مطرقة وهي تشبك بدينه أنام  
 حجرها أو وهي تدفع أمامها شغلها الصغير الذي يجري نحو حوض أبيه في  
 ضجة كبيرة بمجرد أن يراه ، ويقول قراج عابسا دون أن يتغير نحوها كلمة واحدة  
 الخبيث .

وبعد أن غرزه له نحت أحدا عن أسباب خلافها مع زوجها بعد أن مضى عنها  
 أن مريه لم يحد يلقى مصاريف البيت حتى منتصف الشهر . وأن الديون التي  
 تراكت عليه كانت سببا مستمرا في اتهامه لزوجته بالإسراف وعدم التدبير .  
 كانت في كل مرة تتسببها له بالورقة والقلم وهي تبكي ، ولم يكن يقتصر  
 وفي هذه المرة فقال لها : غرزه مع اسب في البيت ، ثم بات لراج لأصاها  
 بعد جرح أو ثلاثة ولا تسرعين أو تلامه ، ولم يزل هناك من زمانها في استرجع  
 مساهمتها .

اعتقد (شعيان) أن التبلغ الكبير الذي حصل فيه مقابل تدبير الزاوية لبات  
 الصغار سببا في ذلك التبل الذي يراه محل القمار ليعيشوا حياة عادية  
 ومقابل كثير ما ينفد بالكل عوده أنه الرضا القديم . جرح أنه اكتشف بعد قليل  
 أن الغلاء يسبق أي مبلغ يمكن له تدبيره ، وبعد أن ضاقت مدخرات الباشا كانت  
 وأصبح تعلق بكفى بالكاد لعالجه . نشأت مشكلة حفرية في نفقة مصاريف  
 السيد . ولما فقد الصبر أن يجد وسيلة لنظام في مضمون أمريكي فراجع فتح  
 بالقرب من ميدان السيدة بعد شعور من شقائه .

عمل سام كاتب حسابات في المتجر . وأمناد هذا من لاس الدقية البيضاء  
 الملوخة التي يلبسها بقية زملائه مع سترة زرقاء ، إذ كان يعمل في ركن داخل  
 صغير . يكنى بالضيف وهذه المكتبة التي يشتغل فيه ، وارتاح إليه مدير المتجر  
 كثيرا . كانت حساباته في غاية الدقة والامتانة . كما أنه لم يكن بحاجة إلى

تعليمات المدير التي يوجب بها زملاءه طول الوقت لامتثال الحسنة الكامل والتركيز  
 على العمل لهذا نجح سالم وحده من الطرد خلال ستة أشهر . على عكس بقية  
 زملائه الذين التفتوا مع العمل في وقت واحد . لم يكن . ليس يجب التعامل مع  
 مكتب العمل . ولكنه أدرك حاجته إلى سالم الذي بدا أيضا أنه لا يعرف أي شيء  
 من هذا المكتب .

كانت المصاغة قريبة من البيت إلى المتجر مما وفر مصاريف المواصلات ولم  
 يكن سالم يذخر أو يحتاج إلى صرف أي نفقة فاعتمد أن يساهم بمربيه كنه  
 تقرب في البيت . بعد أن يقطع جزءا من هذا القرب الصغير يعطيه لقرية .

حكى له أخيه بعد شغله كل شيء عن همومها مع فراج - قالت له إنه كلما  
 جاء حاجته في العمل يذهب مكانه زملائه الذين يلتقون عليه عب العمل كنه  
 ويحسون وحده على العداوات والمكائد . كلما نك عليها تعيشها في البيت .  
 قالت إنها خفت من فراج أن يمتد ينف مصروف البيت ليرى كيف يمكن تدبير  
 المعيشة . فذهب حتى آخر الشهر فرد بين هذه «شغل الستاد» ، أبيه «عقابت أن  
 تدبر كنه ويظهر مصاريف تعليمه يقلل من المبلغ الذي يعطيه لها .

وبصراحة فوزية أخاها يتأولها ، هي تعتقد أن فراج يقتل كل هذه  
 المشاجرات لأنه يريد أن يخرج من موظفة لها مرتب . لم يعد مرتبه وحده  
 يلقى المعيشة . وبعد أن كان متشبدا في أن زوجته يجب أن تبتلى في البيت  
 لتربية الأولاد أصبح يعبرها بأن شهادتها الإعبادية لا تنفع لأن تشتغل في أمر  
 وطنية .

قالت لأخيها في حارة : بدلا من أن يشد حبله ويبعث عن عمل على تآكس  
 بعد الظهور أو أي شغل إضافي مثل شغل وسيل بقية خلق الله فهو يدق نفسه ليل  
 تفل في الوضيفة (الأميات) ويعبرني بأني لا أعبر ..

أصبح سالم . بعد العلاج . يحسن الاستماع دون أي تعليق . تتصاعف صيته القديم وأصبح يحدد يتركيز قيمته يعتقد أنه يصغي إلى كل حرف . لهذا أحبه زملائه في العمل وصار موضع أسرارهم جميعا . كان ينسى هذه الأسرار بسرعة بعد الاستماع إليها ولا يبلغ إليها حتى لصاحبها فيعتقد أن هذه مبالغة في الكتمان . ولكن في هذه المرة بعد أن استمع إلى شكوى فوزية قال يهودا والبسمة الثانية على شفثيه :

- كان رأيي منذ البداية أن هذا الزواج غلطة يا فوزية . لارآ وافقت عليه ؟

تحولت وجهها عن أخيها وانهمكت في ترتيب ملابس سلوم .

لا تستطيع أن تقول لسالم . هي نفسها لا تعرف كيف حدث ما حدث . كانت تزود صاحبة لها في البيت الذي يسكنه فراح . وأربح قبل ذلك مرات كثيرة دون أن يخسر بيالها أي شيء . اعتادت هي وهو أن يلتقيا خارج البيت . في أماكن بعيدة عن الأنظار . وهي هذه المرة وهي تغزل من عند صاحبيتها وشفتيه يظفر بالمصادقة أمام باب شفته المفتوح وكان السلم خائبا فابتسمت وابتسم . هي لا تعرف ولا تفكر بالقبض ما بعد . تذكر لحظ أن دعوه كان يفوق دعرها وأنه راح يلطم خده .

التفت مع ذلك نحو سالم وقالت بلمحة هائلة . تكاد تكون مستسرفة :

- لآني أحببت . لآني أحبه .

\*\*\*

جلس الباشكاش في منزله القديم بعد أن أدى صلاة الظهر في مسجد السيدة . أصبح يمر على المنظر كل يوم في هذا الوقت الذي يكون فيه شعبان وسالم في العمل وتكون فوزية مشغولة بإعداد الطعام .

اعتاد أن يصحو في الفجر ليصلي ثم يقضي بعد ذلك وقتا طويلا في قراءة الكتب . كان يقرأها بتركيز وتعن حتى كان أن يحفظها كلها . لم يترك وصية من وصاياها في العبادة أو السلوك إلا ونفذها بكل دقة . أهدأ أنه يطلب شيئا كبيرا . يهودا في سبيله كل ما يبذل . وسلم يأن كان ما يبذله لأن فهو قليل بعد أن بدد عمره في التراخي والمعاصي ولكن صديقه قال له يوما إنه حتى العصبية تستفقد لصاحبها إن أتى طائعا وبنينا . فهل يتقبل منه بعد كل ما سلف ثم ما هو ذلك الذي يظن به بالضيقة ؟ ما هي تلك البشرية الموعودة ؟ ألا يكفي أن يطلب من ربه المغفرة ؟ يكفي ويبريد . بل هي في حالته فضل وتبعية من الله . وفكر ساخرا من نفسه : أم تريد حظا يا توفيق يا ابن السعدى بعد كل ما فعلت في حياتك أن تكون من الأولياء الصالحين ؟ ولكن لابد مع ذلك من حكمة في تنبيه تلك البشرية الغالطة التي حدثنا عنها صديقه . الحكمة هي أن تتواضع أن نتعلم ما قاله لك . أن توب ألا تريد . ولكن كيف ؟

كان يحضر معسكا بعضاء ببيته الاثنين ومسندا عليهما بذنبيه وهو يتنقل إلى الميدان . سرح بفكره وهو ينظر إلى السبيل الغلق الذي يواجهه وابتسم لنفسه لأنه ظل ملول عمره بتناول فزاة أنبات الشعر الضموسة المحصورة في أعلى واجهة السبيل دون أن ينتج . استطاع بعد جهد على مر السنين أن يدخل البيت الأول وسبيل الله يا عشتان قاسمرب . هتينا صافيا يشقى العليل . لكنه توكل بعد مطلع البيت الثاني أنا ظمان قارون ... وقل ما يعده حروفا مبعشرة كالظلام . لكنه يحب التنفر إلى هذا السبيل . بنخيل راسا لم يكن فيه هذا الجناء المهجور الرصاى اللون وكانت تحف بتأيات الشعر على الواجهة الزخارف من أروع أرواق الشجر ونسكسات الزهور والتفرش الخونة كدائها تحمي كل قاصد للسبيل .



هو يحبه حتى على حاله الآن . يجب كل شيء في هذا المكان . يذكر فرحته عندما كان يهل على الميناء بعد غيبة أثناء عمله في أسبوط أو التصورة . فرحته عندما يرى من بعيد اثنية والثلاثة السابقة بشرافاتها المتعددة . زحمة الناس حول اثناف الطاهر . يتحقق قلبه ويود لو يصافح كل إنسان دون تمييز . التارة في الشوارع . وأمعجاب إحداث . والياعة الجالسين على الأرضية . وحتى عمال الترام في الكنت الذي يتوسط الميدان والواقفين حوله . يريد أن يقول للجميع : أنت رجعت ! وما زال بقي الآن . بعد أن أصبح بالفعل يتوكل على العصا التي كان يمسكها من قبل على سبيل الأمانة . لا يستطيع أن يحتل يوما دون طوشه هذا المكان وبنايه . لا يشعر أنه يعيش حقا إلا حين يراهم . لو أمكن أن ينفذه بعد موته نمت أحيات هذا المكان !

توقف الباشكاتب ليمسك نفسه ! كيف وهو جلي يذهب إلى هذا الحد سيصل إلى العلة والظرة التي تقول الكتب ألا وصول بزويهما . ولكن أنا حطوة قال له خذ من هذه الكتب ما يوافقك . ستتعلم وحدك ما الذي سألتهم منها وما الذي تنركه لأن طريقك لم يعيده لك غيرك . لا ترهب نفسك بالتفكير فسيأتي كل شيء في حياته .

وضع جابر فنجان القهوة أمام الباشكاتب المستغرق في أفكاره وهو يسأله مبتسما .

— ما زلت غافيا على يا حضرة الباشكاتب ؟

فانقسم بدوره وهو يرد عليه : قلت لك يا جابر مائة مرة سسبارك تبحر والمقارن الذي جاء به اليرم البيت أكمل المهمة . وبعد بأن ينهي العمل في شهرين فاستمر أكثر من سنتين . ولكن ماذا أفعل ؟ وبنا يسامحك ؟

قال جابر مقتظاها بالأسى : والله يا حضرة الباشكاتب أنا أردت أن أخدم ولكن ما العمل ؟ أنت رجل طيب والناس في هذه البنية إما أكل أو متكول ..

رفع الباشكاتب فنجان القهوة بيده المزعشة وهو يسأله وأنت يا جابر ، أكل أو متكول ؟

أشار جابر إلى جيباه ومزوره (الدمور) الممزق وهو يقول :

— انظر بنفسك حضرتك واحكم !

أشار الباشكاتب بدوره إلى فم جابر الذي كان يستحب شيئا وسأله :

— فماذا إذن يا جابر تصرفت قرطك على هذا ؟

رد جابر دون أن يهتز : أنا يا أستاذ في النهار الواحد ألف هذا الميدان الواسع على رجلي عشر من أتايون أن أتوك المقهى . أظل بالنهار والليل كالمكوك وراء ظلمات الزبائن حتى تومض قديمي كما ترى . فماذا أفعل لاحتمال هذا العذاب ؟

وما الذي هناك على هذا العذاب ؟

ثانية أولاد وأهم .

— ألم يغير أحد من أولادك حتى الآن ليربك من العمل ؟

— كلهم كبروا يا أستاذ . منهم من شطم وأفلح واشتغل . ومنهم من خاب

ولكنهم جميعا عازالوا يدعون أيديهم إلى جابر الغليان ؟

تذكر الباشكاتب عبوات الكيف الملقوفة من ورق اسلوفان وحكاية الدولارات والسمسار الذي أهلكه فقال ضاحكا :

— أنت غليان يا رجل يا سلالى ؟ ماذا يستقوى زرينا يوم يلقاك ؟ فكر لأن حكايتنا أنا وأنت قريت !

ولما جاء رد جابر حين قال بأني شديد وهو يمسح الطاولة يمشطه :

- سارو شك يا حضرة الياشكاتب ؟

ثم قال وهو يرفع الغلبان متأهبا للانصراف :

- أنا في هذا العمل يا أستاذ منذ أن كنت صبيبة صغيرا ، وده على هذا كل أصناف الناس ، رأيت الكبار والشبان والصبيان والفجار والناس الطيبين الذين يعملون القير في السر ، والذين يظهرون أنهم طيبون ويكفون مال الجبي ، فإذا كنت أنا جابر الغلبان أستطيع أن أميز بينهم فما بالك ؟

ورفع يده الخالية نحو السماء : - ثم أكمل بشحنة وهو يبرش بعففيه :

- ولكن سبطني يا أستاذ ، أنا بالقلع غليان !

وانصرف عن الياشكاتب وهو يصفك .

قال توفيق لنفسه بعد أن ابتعد جابر : مستفهل - موعظة بموعظة ، ولكن موعظة جابر أقوى بالفعل يا حضرة الياشكاتب ، فعلى يعرف الطوب حقا غير مولاك ومولاة ؟ هل أذهات الكبر الآن لأنك دخلت في طاعة قزوية بعد طول معصية ؟ إن يكن ذلك فقد شككت بأخ توفيق - عدة مرة قلب له تواضع : تواضع ؟

نادي جابر ليدفع له الصاب وعندما جاء قال له يقلب مثل :

- سامحنى يا جابر على ما قلته لك .

تراجع جابر خطوة وقال : استغفر الله يا حضرة الياشكاتب ؟ أنا أسامحك ؟

أنا لم أقل لك إيتي ولى ! قلت لك أنا غليان !

ثم راح يضحك لقال الياشكاتب : إننى فسامحنى يا غلبان ؟

رفع جابر يديه معا وهو يقول : ربنا وسامحننا نحن الاثنين لأن حكايتنا قربت ؟

ويضحك من جديد ، فضحك له الياشكاتب ولكن قلبه ظل مثقلا .

\*\*\*

- ١٨٦ -

عندما رجع الياشكاتب إلى البيت كان مجهدا وقلقا لكنه وضع على فمه الانسامة التي يلقي بها فوزية وقلها ، كان يحاول كل ما يستطيعه ليخفف عن حقيقته إحصائها بالهزيمة ، اتحنى على الصلير وقبله ، لم يعد يستطيع أن يخطه ، رفع سلوم يده القصيرة محاولا أن يتخس جيب الياشكاتب وهو يسأل : « أين اللبى يا جدى ؟ » فوضع الياشكاتب يده على جيبه وهو يقول للصغير - أولا ، سمعت كلام ماما أو عنبشها زى كل يوم ؟ قال سلوم وهو يشب على قدميه ليتخس الجيب بلهفة : « سمعت الكلام ، سمعت الكلام ، هات انطيس ! »

أعطاه قطع الحلوى فيجرى سلوم مبتعدا وهو يهتل ويقول : « لكن بابا أحسن منك ! بابا حلو وأنت عجوز ! »

ضحك الياشكاتب وهو ينطح إلى فوزية يعين مستهفما فهمس : « مثل كل يوم - صدقنى كل دقيقة بالزوال عن أبيه وحتى سرجع إلى بيضاء . »

ثم قالت لجدها يا بتمامة صغيرة : أنت تقرا كتبيا فديمة كثيرة يا جدى ، أتم تعد فى أي كتاب منها طريقة تحمل بها صلا يعين إلى فراح غفلة ! عمل نصحه نه تحت شجرة الباب أو فى ذيل قرموط ؟

أبتسم جدها وهو يقول : هذه ليست كتبيا فى السحر يا فوزية .

فقالته وهى تتجه للمطبخ : وأين إننى تجد كتب السحر ؟ فكر إلى أن أخذ لك الغداء !

لم يتخس الياشكاتب كثيرا ، أصبح لحداده بلا طعام بعد حرمانه من الأرز الذى لم يكن يعتبر أى طعام بدونه وجبة حقيقية ، وبعد منه من الملح والتوابل ولكنه اعتاد أن ياكل أى شئ تقدمه له فوزية لكى يملأ بطنه ويأمن قيلولته .

وفي مساء ذلك اليوم كانت الأسرة كلها مجتمعة على العشاء وراخو يزفرون طعامهم فى صمت - يبدو الانجهاز على وجه سالم وشعيان والرجوم على وجه

فوزية . وكان الباشكاتب شاحبا أكثر من المعتاد ولكنه قطع الصمت فجأة وهو يقول لشعبان :

- رأيت اليوم صطك في المنام ، رأيت زحاما كثيرا ورأيت شمعولا جدا في ثلابة طليبات زياتك .

قال شعبان : دون أن يرفع رأسه عن طبقه : يسمع منك وينا يا والدي . الحال واقف تماما هذه الأيام . لولا إيجار محل السجائر لأفلستا من زمن .  
قالت فوزية وهي صوتها نبرة خفيفة من المزاج : أكم تحلم شيئا أيضا عن زوجي المجنون يا جدي ؟

فهرز رأسه وقال بعد لحظة صمت : ربما ينتهي يوم الخميس .  
ثم التفت نحو حفيثته مكسلا : ويحسن أوشك يا فوزية أن نعطي شعرك .  
رأيت في الطريق قبل أيام وقد أطلق حفيثته . ربما لا يجب الآن أن نكسب شعرك .

نفصت فوزية دون انفعال . لم يستك قبل اليوم من شعري يا جدي . المشكلة الآن أنه يريد زوجة يوتوب . ولكن قريبة حكاية أنه ربي ذقته !

\*\*\*

مع ذلك عندما خرجت فوزية في اليوم التالي لتشتري لوازم البيت وضعت قفلا على شجرها .

وفي المساء عاد شعبان إلى البيت متعبا ، قبل يد والده في حرارة وامتنان وهو يقول : جاسم اليوم يا أبي شبنان كبيران لاقبسة أزياء مدارس في الحي . طليان لا طلب واحد يا أبي ؟

وقال أبيه في حماس : أحلامك أحلام الصالحين يا والدي . أنت رجل بيوك !  
ثم أبه في يوم الخميس التالي زارهم فراج بعد غيبة شهر .

لم يكن هناك شهيد لحفيثته ففوجئت به فوزية وهي تفتح الباب ، تعلق سلا . يعنى والده وهو يصيح صيحات عالية ، وأشارت فوزية صامتة إلى غرفة الجلوس ثم انسحبت إلى غرفتها .

جلس الرجال معا دون أن يبدأ أيهم الكلام . كان شعبان وسالم ينظران إلى فراج فيثور تكرار هذا الموقف كثيرا من قبل . أما الباشكاتب فقال وهي صوتة نبرة من الشاب الرقيق : مرعيا يا فراج . لم تترك منذ مدة .

لم يرد فراج على الفور . أخذ يبحث قليلا يلحظه الجديدة قبل أن يقول : - في الواقع أنا كنت أفكر في حالنا أنا وفوزية . لا يمكن يا حضرة الباشكاتب أن تستمر الأمور على هذا الحال .

قال شعبان على من الخسيف : إذن يا أسي كما دخلنا بالنعروب نخرج .  
قال فراج : الباشكاتب يا جدي ..

قاطعه الباشكاتب : انتظر لحظة يا شعبان . هل هذا هو ما تريد يا فراج ؟  
تخضع فراج وقال : لا . كيف ؟ وعاطف هذا ؟

ثم أنزل الصغير من على حجره وقال : هل يمكن أن نتكلم على راحتنا ؟

حمل شعبان حفيثته رغم صراخه وبكائه وأعطاه لأمه وعين رجع كان الباشكاتب يقول : . هذا مفهوم يا أبنى ولكن ما باليد حيلة . أنت ترى حالتنا الآن .. ثم قطع إلى والده وأكمل : بفول فراج إنه علم فوزية بالفعل عندما ذهب بالتبذير . وإن مرعيا لا يكتفى بالفعل ليقطع مصاريف الشهر .

قال شعبان : وماذا بيدنا نحن أن نفعله يا سيد فراج ؟ هذا حال كل الناس . ربما لو بحثت عن عمل آخر ..

قال سالم ، الذي كان صامتا طوال الوقت : بصوت هادئ : ما هو المطلب المطلوب يا أستاذ فراج ؟

رد زوج أخته محتجاً وقد أحمر وجهه : أنا لم أت لأتسول يا أسنان  
سالم !

وتدخل الباشكاتب قائلاً : سالم لا يخلص هذا بالطبع .

لكن فراج أكمل بمرثته المحتجة : مع ذلك لا يصح الكلام بهذه الطريقة ! بعض  
هذه حالة طارئة ، سنتحسّن الأمور قريباً بإذن الله . أنا تقدمت لإعارة إلى  
السعودية وسيرفتني وأنا هذه المرة إن شاء الله . وأي مساعدة حتى نتمكن الإعارة  
ستكون دينا على بالطبع .

قال سالم بالهدوء نفسه : ليست دينا . بما أن لمرثية لانتشغل فينبغي أن يكون  
لها دخل كل شهر . أنا سأعطيهما نصف مائة ..

نظر الجميع نحوه في دهشة . بمن قبيح فراج . وقال شعبان محتجاً

- وكيف سيصرف نحن في البيت ؟ أنت تعرف أن مائة مائة في ..

لكن الباشكاتب وقع يده يسكت ولده وهو يقول : بارك الله فيك يا سالم .

نحن نستطيع أن نحمل يا شعبان . سندير أمورنا بإذن الله .

وقال فراج مؤكداً . ومع ذلك ليس بمشترط دينا حتى الإعارة .

قال شعبان : مفهوم . ولكن أرجو يا أسنان فراج من أجل ابنك الصغير ألا  
تكرر هذه الحكاية .

لمرد فراج : إن شاء الله لن تكرر . لم يكن يبدى .

وقال الباشكاتب وهو يتطلع إلى السقف :

- لا تحمل عاماً يا شعبان . هذه الحكاية لن تكرر .

وكان يتكلم بلهجة واثقة تماماً .

وعندما رأى فراج قوزية وقد غطت شعرها استعداداً للخروج معه . قال وهو

يشير إلى رأسها في إعجاب ورفض :

- ١٩٠ -

- ما شاء الله ! عين العقل !

وبعد أن خرجت قوزية مع زوجها وابنها . التفت شعبان نحو والده وقال في  
التيار :

- يوم الخميس يا حضرة الباشكاتب كما قلت حضرتك بالضبط ! فلعلنا الآن  
بيركك !

قال الباشكاتب شارداً

- البركة في سالم .

لكنه شمال وهو يقار يرتجف .

- هل هذا صحيح ؟

\*\*\*

جلس الدكتور شوكت في (كافيتيريا) المطار ينتظر الطائرة القادمة من روما التي تغترب كعادتها . ففكر أنه لن يستطيع الآن أن يذهب إلى عيادته ويرجع إلى المطار لأنها لن تتأخر ، كما قيل ، غير ساعة ونصف . ساعت الليلة وعندما تصل الطائرة ويصحب لبنى حتى البيت سيكون الوقت متأخر جدا . قال للمرصة على أية حال إنه سيتأخر عن موعد . وشتمطع المريضات الانتظار أو الانصراف . عودهن على احترام النظام والوقت . لا يستطيع أي مريضة تتأخر عن موعدنا دقيقة واحدة . لابد من شيء من الشدة في هذا المنز . ولكن السادة ليست به هذه المرة . إن كل غفلة سيستغلون . لابد من شيء لأنهم المرصدة . قد من ذلك أن يجد الطبيب في هذه القوضى الشاملة في الطائرة؟ جواب ذات مرة أن يتقدم حين عاد من إحدى رحلاته فلم يفلح . كل شيء فوق في هذا البيت . كان يجب أن ياترجم إلى روم جدا من شيء . لأنه ما يمكن لبعض الناس . لا التي لنين بالطبع : إن يجد مشكلة في أن يعمل هناك ولكن ماذا عن لبنى؟ إن كانت لم تنجح في روما فهل تحتل الحياة في لندن؟

لم يكن هناك كثير من الزبائن في الكافيتريا ، معهم حتى هبهتهم مرفوعة . رأى غير الواجبة الزجاجية المستقبلين يتكلمون في صلاة الانتظار ، معظمهم يلبسون الجلابيب وينظرون أقاربهم العائدين من الخليج . يا عمال العالم اتحدوا! أهلا وسهلا ! ترى كيف يتحد عمال الخليج مع إخوانهم من الفلاحين والصيادين بالصوم القديمة : وأهم بعينه هناك . في أحد الممارات وأهم يقرضون على الأرض في صفوف وأبائهم شرطى يمسك عصا ليمس أي واحد من النهوش أو الحركة !

لم يأت الأخ ماركس إلى هذا ليرى ويتعلم : كان سيقول شيئا مختلفا بالتاكيد . مثلا : مثلا يا عمال العالم اتحدوا : هذا هو الحل الشايع بالفعل . العربات الوحيدة لتشيء على انظر في الفناء على الفناء . لا يمكنه لأنه منكم ما في مدينة هؤلاء النعمة ، يستدعي النفس بالخدمة بالوضع الزملا . الذين يدخلون السجن ويخرجون منه كالمثوك بعشورتي خائلا لو سمعوا هذا الكلام ، هم يعتبرون خائلا تون أن يسمعه : ليكن : أثرك لهم بكل ارتياح السجن والفقر وتعلم الخاريج بروني .

ولكن انتظر لحظة يا شوكت أنت لست اوسقراطيا مثل صفاء هاتم . ربما بعض هؤلاء العمال الوافدين هناك من أقربائك الذين لا تعرفهم ، ليس ليجد أن أياك الثولي اللاج في أمك التركية أصبحت أنت من جنس آخر . ثم الله لا تعرف في شيء من أمك التركية هذه . ليس لك أخوال أو أخوات ، فمن صحيح ما سمعته . هذا كانت خدمة جيوها من استديو ليد واحد العزبة . يقولون انهم من الكسيرة لكن في شيء آخر لا بد . فهم نيا ورثت أخيك الشعر الأصفر والعيون الملونة والجمال الأبيض الذي يحببه أيتاء هذا البلد فتزوجها أحد الدومينيون . سمع كثيرا زويها في حانة حسانيات في الخارج . أما في فناء كل صلة له بالخواتم والغرباء عنه ما نرح إلى القاهرة وعمل في حاضرة العطار . لا تعرف في أي أفرا . ولكن أنا لا يسمي من يكون أي أو أمي أو أقربائي . أنا شوكت ابن شوكت ! أنا الذي صلت نفسي ولا فضل لأحد على لم أرت أرفا ولا مالا ولم يساعني حال ولا قد لا فضل لغيرك على فدا وصلت إليه . أنا بالفعل شوكت ابن شوكت ومن حق أن أنتظر بذلك !

ولكن فاما هو شيء جسد في الكافيتريا امرأة جميلة وأنيقة وتعمل في يداه يانعة رده تابعها بفكره إلى أن جلست قبالة على متحدة بعيدة ثم تجمعت عضلات وجهه تجتأ وهو ضامك ضامك . هو في صفاء هاتم . لا أحد غيرها .

حول وجهه يسرعة إلى ناحية أخرى - هو لم يرها ولا حتى بالمصادفة منذ  
الطلاق - الحسن الخط ، تعتمد كلاهما أن يتجنب الآخر - حتى في روما كان يتجنب  
زيارته مع لبني لكي لا يلتقيا هناك - ولكن كان يجب مع ذلك أن يتوقع أنها ستأتي  
الكثيرة كيف غاب عن ذهنه هذا الاحتمال؟ وما الغريبة ؟ في في حالها وهو في  
حالها ، يمكن حتى أن يخرج من الكافيتيريا إكراما لمطاعمها ؛  
مع ذلك الشمس ينظرون تحويلها في حذر شديد ، كانت تفتح كشفا وتقرؤه  
بانتهاك شديد وعلى المائدة بأية الورد -

فكر - طلبها الهاتم لا تقوتها الأصول؟ بنت الأصول تعرف للأصول - ولكن هل  
تدخل الحياة الزوجية ضمن هذه الأصول ؟ مظهرها بريئة جدا وهي تجلس هناك  
منهكة في القراءة - بريئة جدا وجميلة جدا مثلها كانت طول عمرها - مثل حكاية  
موريتان جراي - لابد أن تدبها ملكة صورة في البيت يرسم عليها بشئ عندها  
والحملان بينما تحتفظ في بقاع هذا الوجه البريء ؟ إلا فهناك ظلم في أن يظن  
وجهها بهذه المتصامة والجمال حتى هذه السن ولكن لا أراها عن قرو - ربما  
كانت هناك تجاعيد في الوجه - لا يمكن أن تهرب من الزمن -

في هذه الليلة رفعت صفاء وجهها وألقت عيناها بعينيه ، ثم بيد أنها فوجئت ،  
ظلت تنظر نحوه ثم عزت رأسها بإيماء خفيفة - أو ما هو يرأسه عصية ثم حول  
وجهه على الفور - الهاتم مهذبة أيضا الكثيرة يجب أن أترك لها هذا المكان على  
الفور - أنرك هذه الكافيتيريا البضعة واتحد هناك مع عمال العالم ؟ يمكن احتمال  
روائحهم وأصواتهم المزعجة أكثر من الوجود مع هذه الهاتم في مكان واحد  
وكان بهم بأن يقوم بخدما وجد صفاء تقف أمامه وهي تقول بابتسامة  
صغيرة -

- مساء الخير -

ظل يعتمد يديه على المنضدة وقد نهض بجذعه وهو يتطلع نحوها ثم عاد إلى  
الجلوس وهو يقول بلهجة جافة :

- مساء الخير - خيرا؟

- لن أخذ من وقتك دقيقة ، هل يمكن أن أجلس ؟

أشرب إلى منضدتها التي تركت فوقها كتابها وبقاؤه الزهر ليلهم أنها  
سترجع إلى مكانها - لم يرد شوكت ولكنها كانت قد مسحت كرسيها وجلست  
بحرفها الرشيفة مبادعة قليلا عن المنضدة وبدأت تحدث بلهجة عميقة جدا

- كنت أريد أن أقترح عليك شيئا ، إذا وألقت يمكن أن تستقبل لبني معا بدلا  
من أن تقابلها بالورد - أعرف أن هذا سيسعدك ، لا ، هذه كلمة كبيرة - أقصد  
على الأقل ستعجبك من الإخراج والارتباك -

لا توجد تجاعيد في وجهها بنت العرام ؟ لابد وأن التجاعيد موجودة أيضا في  
صورة لوربان جراي - هذه شيطانة - لا يمكن أن يكون هذا الجمال واليسيرة  
الطليعة في هذه السن أميا؟

قال وفي هوته الرخو نبذة عصبية : جالامت لبني تهلك وشعرصين على  
مساعرها إلى هذا الحد فافطن أنك كان يجب أن تفكر في فيها منذ زمن طويل -  
عندما -

نهضت صفاء وقد احتقن وجهها وهي تقول أخطأت بالفعل حين تصورت أنك  
يمكن أن نفهم أي شئ ! كان يجب أن أعرف أنك لا تتغير - حقا على - ثم قامت  
وعادت إلى مكانها بخطوات مسرعة -

لمحت الكتاب وراحت تنظر فيه دون أن تتمكن من قراءة أي شئ قالت لتقضيها  
حقك على أنت يا صفاء - لا يهم - فعلت ذلك من أجل لبني - نعم كانت غليظة -  
أعرف - كانت غليظة وما أغنية ذلك على أي حال فراحنا لبني منا أو تراو أولا ثم

تراها بعدة . هي تعرف أن كل شئ منتهٍ بينهما إلى الأبد ، مع ذلك تمسك لو أقدر عليها هذه الدقائق من الإحراج ، وهي ترى أمها وأباها متباعدين ونفسها إلى أن يصيبهما بالدور . أنا أعرف الآن كل جرح لبني . لو أمكن أن أعطيها من جرح واحد جديد مع ذلك فهي لم تعرفها كإثارة ولم تعرف نفسها كإثم إلا في روما . لا تستطيع أن تخفف لنفسها ابتعادها عنها هذه السنين الطويلة . لا تستطيع حتى أن تفهم السبب ، هل كانت تهرب منها لأنها بنت شوكت ، وبماضيها هي في النهاية كما كانت تقول دانة سنية « بنت بطني » البنت الوحيدة . هل كانت تصاف أن تعرف لبني الحقيقة ، ما للبرص في هذه الحقيقة ، صدقني أنظروا بالفضل من الجنون مع شوكت . أنقذوا من الانتحار . فليت شوكت على ملاقته من أجل لبني ولكنه أحال حياتها حبسية منذ أن صارته بحالها معه . لا تدري هل كان يعاقبها أو يعاقب نفسه لفشله بذلك الشاجرات والأشجار التي تنمو في وقتها . عندما استغل لولا صدقني ظهر في الوقت المناسب بالصدفة . عندما استولك عليها فكرة الانتحار للهروب من جحيم الحياة مع شوكت .

وإنه في البيت لأنه كان يستورد معدات المستشفى من أجل شوكت وكثيرا ما كان يقف قبل وصول الدكتور لتجلس معه في انتظاره . وعندما كانت تنظم كان يميل قليلا بجسمه النضج ويصمت لها وعلى وجهه تعبير اعتماد واحترام مبالغ فيه فتشرك أن تشكك . هذا قبل أن تكشف أنه لا يتكلم هذا الاهتمام . وأنه يعطي كل نفسه بالفعل أن يحميها . سررا . كانت هي أو شوكت أو أي إنسان آخر . لم تعرف في حياتها قلبا محبا للناس مثل هذا القلب . وبدأت تنفذه حين يغيب ويستقبله بلهفة حين يأتي . وبدأ هو أيضا يهرب بظلاله منها ويحزن وجهه الأحمر من الأمل حين يتراجفان ، رسالته مرة ولما في انتظار شوكت . لماذا لم يتزوج حتى الآن يا صدقني بك ؟ فاشكر إلى صليحتك لوضع يده على كثرته وقال ومن التي ترضي بي يا دكتورة صفاء ؟ فقال لوني تكلمين : أنا !

٤ . هي ليست شائعة . صدقني هو أفضل شئ حدث في حياتها بعد لبني . وكان يحزمها فد استقر على الطلاق وانفقت عليه مع صدقني من قول تشبها شوكت . وفزع عليها بهذه التمثيلية أشياء كثيرة . لكنه حرمها من لبني . إن تكن هي قد تركت جرحا في نفس ابنتها فهي لم تعرف عمق الجرح الذي خلفه غياب لبني عنها إلا بعد أن سافرت إلى روما ولحققت هي بها على اقنور هناك لتري ابنتها المريضة . أصابها الانهيار العصبي في السجن وتلقا شوكت من هناك إلى المصحة . شاهدت عذاب ابنتها في قمعتهير الانهيار التي تعرفها جيدا من دراستها وتعرف أنه ما من إنسان يستطيع أن يساعد غيره على الخروج منها . فلتك مع الشبيب رفيقة بدقيقة تنال العلاج وتتابع ابنتها حين نوم ولا راحة حتى كادت هي تنسها أن تنسقط . ولزمت لبني بعد ذلك أسابيع في نقاهتها . لم تكشف كل الحب الذي كانت تخفنه لابنتها وتكتبه إلا هناك وهي تراها ضعيفة ومريضة هي كنت لثياب البيضاء راقدة على فراشها في المستشفى . انكم تحبها . ولكم هي شائعة على كل الوقت الذي ضاع منها !

أهـ منتبه الدكتور صفاة إلى الدروع التي كانت تنساقط على الكتف المتوجع لكنها التفت فجأة إلى شوكت يلقف أمامها فمسحت دموعها بسرعة ونظرت إليه بشئ من التعدي .

قال لها وهو يضع يده على المنصدة : أنا أسف لتفاديتك ولكنهم أعلنوا عن وصول الطائفة . إن كنت عازلت ترويدين . قلنا . من أجل لبني . . . . .

هزت رأسها وقالت دون أن تنظر نحوه وهي تشير بإصبعها إلى باب الكافيتريا : ستكون عند بوابة الاستقبال .

ابتعد عنها برأها تخرج من حقيبتها على الزينة . وقال لنفسه وهو يخرج دموع التماسيح ! جرحت مشاعر الهائم بكلمتين . كاتبا لديها بالفضل ضاع .

رقفا متجاورين عند بوابة الخروج من المطار دون أن يتبادلا كلمة . كانت صفاء تنطلق بلهجة إلى وجوه الفارحين وتشرب بعنفها حين ترى زحاما من عربات الحافلات التي يدفعها القاصدون . ولكن لبنى تأخرت كثيرا داخل المطار عن بقية الركاب في الطائرة روما . وكان الدكتور شوكت يفتش عينيه أيضا عن لبنى وينظر في ساعة كثر دقة . عبر أنه كان يتخصص بنظره من حين وآخر إلى صفاء الواقعة إلى جوارده والتي لم توجه له كلمة ولم تنظر نحوه مرة واحدة . وقال لنفسه : متجاهلني ! لكنها لم تكن هي التي طلبت أن أصبحها ! ولكنها تخشى بالطمح أن تنظر في وجهي ...

بعد أن انقطع زحام ركاب الطائرة . ظهرت لبنى وحدها وهي تدفع أمامها عربتها . بدا في وجهها شيء من الدهشة وهي ترى أمها وأباها يقفان معا . عانقت أمها بعد خروجها . وكانت الدكتورة صفاء ترتعد تقريبا وهي تحتضن ابنها ثم حاولتها بإقاة اللورد واستدارت تسبح صرخيا . وفيلت لبنى أباها في وجنته .

ابتعدت لبنى عنها قليلا . وسالت بهنو : رادة سيدة ؟ تبادل صفاء وشوكت نظرة سريعة ثم نظرا نحو لبنى دون أن يلتفتا . قالت لبنى بهدوئها لنفسه : كنت أعرف (ثم نظرت نحو أمها) منذ انطلقت من الحديث عنها في الرسائل والتليفون هسه . ولكن بقي عندي مع ذلك شيء من الأمل ..

أطرفت لبنى وقد تدلى ترابعتها الذي يحمل بإقاة اللورد . همت صفاء أن تحتضنها من جديد ولكنها قدرت أنها تستطيع أن تتذكرها حزنها ولكنها لم تستطيع أن تمسك بدلا منها في هذه اللحظة . فامسكت بذراع ابنتها وهي تقول : سائر ذلك ترتاحن الليلة يا ابنتي وسأحدثك غدا ..

ثم قالت بلهجة عادية وهي تغمض : سلام يا دكتور شوكت .

\*\*\*

في السيارة كان شوكت يقتل النظر إلى لبنى التي جلست إلى جوارده صامتة تنطق للطريق . تغيرت كثيرا في هذه السنوات الثلاثة . تتمد الطفلة التي سافرت . هي الآن امرأة جميلة . أكثر امتلاء . وقد أصبح وجهها أملل للاستهارة . والزينة التي يضعها ليزج جمال ملابسها . كل هذا حسن . ولكن لماذا صغبت شعرها باللون الأسود ولماذا تركته يستمر بل تشبه بأبها ؟ أتمنى أن يقتصر هذا على الشعر ؟ أتمنى أن تكون قد أصبحت أطل يجب أن تخرجها من هذه الحالة التي استولت عليها منذ سمعت بن مرضها . ويجب أن أضمن عليها على كل حال .

حاول أن يجعل لهجة عادية وهو يقول : هل تعرفين يا ابنتي أن القضية التي أخذوك من أهلك ما زالت في المحكمة ؟ خرجوا عن زملائك ولكن القضية ما زالت .. التفتت صفاء وانصرفت . أم لا ؟ كانت تمشي كل الأخبار في رويد ..

ولكن بعد الآن لا علاقة لك بهذه المسائل بالطبع ؟ قلت هذا سيادة اللورد وأوصى بنفسه في المطار لكي لا تواجهي أي مشاكل في التحول .

ابتعدت لبنى اسماء صميرة ولكن المشاكل حدثت مع ذلك يا أبي ! أخفوا جواز سفرى . ولتشتوا كل حفاشي وأخذوا كل الأوراق التي معي قبل أن يسمحوا لي بالخروج .

ابتعض الدكتور شوكت في مكانه وقال : كيف ؟ سيادة اللورد وعنى بنفسه ..

- لا يهم يا أبنا . خرجت في النهاية وهذا هو المهم .

قال فيما يشبه الغضب : ولكنه وعنى . الممرض أنه صدى لي . عانجت له زوجة .

دفعت لبنى يديها وهي تقول : كما ترى !

لكن الدكتور أكمل غاضبا : كان الممرض أن يلقى بنفسه ليتفكر ويسهل خروجك . أنت لا تعرفين كم هو صدى لي . زوجة كانت في حالة ميؤوس منها لولا ما فعلته لعلاجها ..



ظلت ايشامه لبني على شفقتها ولكنها قالت بشر من نقاد الصير

« لماذا لا تتغير يا أبي؟ »

قال متعجبا: « أنتغير ؟ كيف؟ »

« أنت الأديب ، سامعني؟ »

فكر شوكت «تغير» هذه كلمة أسهل . إذن هي لم تصيغ شعورها فقط ولكنها صيغت أفكارها أيضا .

قال : بالطبع . لا توجد عندي مشكلة للتغير . ولكن أنت ؟ هل غيرت أفكارك ابني الشهد بك إلى السجن؟ هل سترجعين مرة أخرى إلى هذا القعب؟

« لا . إن أرجع .

تنهد الدكتور شوكت في ارتياح عين الطفل .

« فو عين الجبن لكثير إن أرجع .

لم تقل له إنها في روما افقتعت ثمانية بآن ما يقوله زملاؤها في مقالاتهم ومنشوراتهم أقل من الحقيقة . رأت في بيت زوج عمها الدبلوماسي شجر الأمانح الذين كانت تسمع عنهم . اعتاد أن يدعهم للعشاء . وبعد أن يتكلموا ويشرروا عدة كؤوس من التوسكي يفتك عبارهم وتنتطق السننهم . يتبادلون الخبرات عن كيفية تهريب المشبكات من الجمره . وعن أماكن شراء البضائع (النصورية) من إيطاليا وتهريبها على أنها بضائع صالحة . وعن أضعف الطرق لتهريب العملات . ومن الذي يجب أن يدفعوا له في البلاد . كانوا يتباحون أيهم (أشطر) من غيره ويتكلمون بصراحة تدفعها لايشعرون بخجل مما يقولون ولا يلهمون حتى مدى اليقظة والإجرام فيما يقولون .

ولكن بما أعجبها أكثر أن زوج عمها الدبلوماسي الثقاف يصير على صناع أحاديث هؤلاء الصرحس الذين كانوا ولا استثناء حقيقة من الجهلة . وأنه يضطك على ثقاتهم القحة ويتبادل المزاح معهم . في اليد . اعتقدت أن هذا جزء من عمله .

أنه ربما يجمع معلومات أو شيئا من هذا القبيل . ولكن ثم مضى وقت طويل حتى اكتشفت أنه شوكت . يتبادل المصالح معهم .

لهم كن الحق هؤلاء الطلبة . حتى ولو كانوا لايمتصرون . ولكنها الآن تعرف حدودها . تمنى لهم حقنا طيبا ولكن من بعيدا .

جلس الدكتور شوكت إلى جوارها مستغرقا في التفكير هو أيضا . بدأ عصيا وهو بعضي أوامر السابق طول الوقت أن يسرع . مدة متعجلا ولكنه كان يفكر في الطلبة في شيء آخر . الآن يجب أن يتلقى المصالح من ساقطة وطفلة .

هزات بالفعل . ثم إن هناك شيئا يذيقا في أن تكون امرأة . في هذه السن يمثل هذا الجمال .

\*\*\*

في البيت نغمت لبني حولها وفاتك لنفسها وجعنا إلى بيت خال . لا راحة سنية ولا هم حسن . ربما يكون الله قد رحمها بالموت . كيف كانا سيعيشان في هذا العصر المجهيد ؟ دابة سنية كانت أمها سترعاعا بالثاكد وتكن عم حسن . حتى قبل أن تسافر إلى روما كان يوسطها لدى الدكتور لزيادة مرتبه لأن المرتب لم يعد يكفي لمصاريف البيت . وتعليم الأولاد . هل سأل الدكتور شوكت عن هذه الأسرة بعد وفاته ؟ يجب أن تعرف .

ذهبت إلى غرفة دابة سنية . لم يكن هناك مدبرها ولا (الكتبه) التي كانت تزوج فوقها . حولها الدكتور شوكت إلى مخزن لتحتة الجديدة . في وسط الغرفة كان تمثال خشبي فوق حامل لرجل طويل نحيل محض الرأس . كان يفتك أسلوب (جياكوميتي) الذي تحبه . ولكن بدلا من الرشاقة والتوازن والتموخ في ثباته كان هذا يشبه تمثالا لرجل مريض . كان تمثالا مريض . حولت بصورها عنه . وراة الدابة تجلس فوق الكتب بفرحتها البيضاء . رأت البسمة التي كانت تنير وجهها للتفحص حين تراه : أهلا يا لبني يا جيبيني . لا ! ذلك انتهى . لا الكتب ولا دابة

ولا حتى لبني لبني المتكلم من زمن - منذ متى ؟ منذ السجن ؟ منذ المصحة ؟ قبل ذلك لمي الليلة التي سبقت السجن ؟ المهم أنها انتهت -

نصبت إلى غرفتها . هناك وجدت كل شيء في مكانه . رأت سريرها وصورتها ومكتبها الصغيرة . لا حتى هذه اللبنة . ماتت في داخلها . شيء لا تشافى إلى شيء حقا . بالبحر جينا في مصحة روم . عليها الطبيب الذي رافقها لدهور ولم يكن لك عن الكلام أن تسمى الخوف وتسمى بعد كل شيء . آخر علاجها بالبقاء . في حمامات السباحة ساعات كل يوم . ولم يعد يتبعها عثيان المدة ولا النوار ولا ارتعاش الساقين . ثم بعد ذلك سراسر ولا خلاوس . قال لها الطبيب شيئا قريبا ما قالتها أمها . إن الإنسان ينضج ويصنع تعلمه بالصراع ضد ماضيه . لكنها لم تصنع نفسها أبدا . ولم تصنع أي شيء . صارع الطبيب . فانه غيب وهنعا ضد ماضيه واستقبلها بها . الآن الخوف ولا ضائقة لا حزن ولا فرح . لا حدود . لا إفرط ولا نوح . يستعبد في الوسط الشوي . مثلها مثل كل الناس .

رسالم . سالم كان جدا وانتهى . كان كابوت وانتهى . كان ما كان وانتهى . واليكثورة صفاء ؟ تعرف الآن كم تحبها . تشفق لبني لطيفها وهو ترى عواطفها الجافة وأرى كل ما فعلت لشهود أومعها . وهي أيضا تحبها . ولكن الطبيبة وصلت مع الأسف بعد وفاة المريضة ؟

حسنت لبني على السرور ونشرت إلى صورتها في المرآة معلما . عشتوت أنت تفعل في القديم . وقالت نفسها بابتسامة صغيرة . والآن ماذا ستفعل في كل هذه الوجبة ؟

\*\*\*

صرف الدكتور شوكيت لطبايح الجهد عندما قالت لبني إنها لن تتعشى وإنها مجبده من السفر ونود أن ننام . دخل هو يدهو إلى غرفه مكتبه وانجمل بالمريضة

لن يذهب إلى العيادة في هذه الليلة وعلى المريضات الاتصال غذا لتحديد مواعيد جديدة .

جلس إلى مكتبه وأخرج زجاجة الويسكي من مخبئها الذي وضعا فيه قبل مجئ لبني . لا . لم أخشى ليس هذا بقا يجب ألا تهمز صورة أبيها أمامها . أنا لك سكريرا على أية حال . أشرب فلنط لأربع أعصابي من إجهاد العمل .

حسب لنفسه كاشا وجلس إلى مكتبه . . ولكن أي إجهاد يريد أن يرتاح منه الليلة باللات وهو لم يعمل أبدا ؟ إذن فلنعمل .

اتجه الدكتور إلى مكتبه وأخذ منها أحدث مجلة طبية متخصصة في طب النساء . وصلتته من لندن ثم رجع إلى مكانه وبدأ يشرب من الكأس في جرعات كبيرة . شيء غير عادي . .  
فتح المجلة وأرى قائمة الجود ثم اختار الموضوع الذي يهيمه . انتهت الكثر فكتب لنفسه كاشا جديدة . راج يشمل الصورة الموجودة في صدر الموضوع باللات .

وقد درستته وعلمه وكل من عرف من النساء . فهو لم يستطيع أبدا أن يتغلب على نفوره من هذا الشكل . هذا الجرح استقبل الذي لا يندمل . هل يكون نفور . القديم العهد من أيام الزواجة هو السبب في . . .

٧٠٢ لا داعي لهذه الأفكار التي لا تقود إلى شيء . فلنعمل .

لكن العمل لا يأتي . كان يقرأ ويعد قراءة ما سبق دون أن يستطيع شيئا . وانتهت الكأس الثالثة بسرعة أيضا . أغلق المجلة بحركة عصبية . ربما الأفضل لو أخرج . يذهب إلى مكان يلتقي فيه بناس آخرين ويشرب وسط زحام . أحسن من ذلك أن يلتقي بئى واحدة من صاحباته ويتقضى معها الليل . ها هو التليفون . يمكن أن يجرب لكنه راج يظفر إلى التليفون لوق أن يمد يده إليه . وصعب لنفسه الكأس الرابعة بيد ترتعش .

ماذا بك يا دكتور شوكت ؟ لماذا كل هذا الهم في الخلقة ؟ طيب لآنى رأيت صفاً ! ولكن لماذا ؟ أنت تعرف أنها موجودة طوال الوقت وتعيش معك في نفس المدينة . كان يمكن أن تراها في أى لحظة . نعم ولكنها أعادت لي ذكرى ذلك اليوم القبيح . أنت لم تنس أبداً على كل حال . الساقطة !.. نعم أعرف . أعرف ساقطة جميلة . جميلة جداً وساقطة . كانت ملك بك على أى حال . أنت استمعت فعلاً باستغلال هذا الجسد الخارق لفترة من العمر . ولكن هل استمتعت كما يجب ؟ وهل استمعت هي ؟

ساقطة . ساقطة . بكلي يا أنسى ؟ وأنت ماذا بالضيقة ؟ قالت إنك يجب أن تغير . صفاً قالت وليس قالت .

تغير ؟ ضحك لنفسه بصوت خافت وهو يرشك . لكن من الكأس الجديدة بيضاء وقد بدأ اللوار . طط فيها وهي بنها . أنا شوكت أين شوكت ؟ ضحك مرة أخرى ووضع يده على قمه . طط في شوكت أين شوكت ؟ ماذا تهتز هكذا ؟ دكتور الجود لك رأيتها ؟ تعال نقل العقيلة . هل مارلت أجبها ؟ إن يكن ذلك كذلك فعليك الموضع يا شوكت يا أين شوكت ؟ عليك أن تأهب إلى مصحة البش في روما . الأسهل أن تشعر . هذا أيضاً تغير يا دكتور ؟

وما الذى تغير ؟ يجب أن تعرف . نعم أنت كنت تعرف نفسك من زمن طويل تعرف . حاولت أن تعالج نفسك ببنوية من حجر وببنوية من قند ومن قنما ومن راق الواق . وكنت تسمع متظاهراً بعدم الاكتراث إلى الضائعات والتجارب التى كانت يتبادلها أصدقائك في جلسات الرجال . وإلى أقوال هؤلاء الكذابين . بالأسر طول الليل . . . الكذابين .

ضحك لنفسه مرة أخرى بصوت مسموع . أنا لم أكن أريد طول الليل

عشر الليل . واحد على عشرين من الليل ؟ عشر دقائق من الليل ! خمس لا بأس ! ولكن لا قلقة ! البداية هي النهاية !

ولكن ماذا عن الأخريات ؟ لم يكن يشتكين . قبله على حاله .

على من تكتب يا دكتور ؟ كنت تجتهدون بوساستك وشهرتك وهذائك العنابية قلماذا لم تبق أى واحدة منهن محلة أكثر من أسابيع ؟

طط ! أنا لم أكن أريدن أيضاً ! ماذا كنت تريد إذن ؟ نعم ؟

أنا لم أرد واحدة غير صفا ! لو أنها ساعدتني بدلاً من أن تخونني . فربما . . . صبح دموعاً من خده وهو يقول لنفسه أنت سكرت يا دكتور شوكت يا أين . . يا أين ال . .

مد يده إلى الكيبون وطلب الرقم . يجرب معها العلاج الأمريكانى الجديد ! طول الليل ! ما ها ها ! وماذا لو رد عليه صدق الفنزير ! لكتها هي ! هذا هو صوتها

هات . . . هذا أنا . . . أنا شوكت أين . .

ثم سكت واحتبس صوته .

لشك صوتها هي نعم . ماذا حدث ؟ ليس غير ؟

اليتي ؟ نعم . نعم . لا . أنا أير ليس . أنا لست بخير . إسمعى . من فضلك هل يمكن أن أراك ؟ يعنى . . من فضلك !

قالت بهدوء . أنت مكران يا شوكت . صوتك يقول إنك مكران جداً فلا تنظم الآن .

نعم ؟ لماذا من فضلك . . على الأقل مرة ؟ على الأقل أنا كنت زوجة عندما ذهبت إلى صدقي ؟ لماذا صدقي من فضلك وأنا لا ؟ على الأقل مرة ؟

كررت . أنت مكران ولا تعرف ما تقول يا شوكت . .

على الأقل . . .

احتد صوتها فجأة : يا مجنون ! لو انقضى صف الرجال كله من العالم ! على الأقل أحترم أنت ابتك في ليلة عودتها . يا مجنون !

- من فضلك تبيكت يا أبى - أنت لا تعرف الآن ما تقول ، أرجوك أن تذهب إلى غرفتك أريد أن أنام.

- لحظة من فضلك - أنت لا تفهمين ، من فضلك ، مجنون ، عاقل ، قاتل ، أنا أسألك هل تحبينه؟ أقصد ما الذى يمنع يعنى؟ إن كان الحب يحتمل الضيافة لماذا لا يحتمل الجنون؟ الشئ الوحيد المهم فى الموضوع يا لبنى .. أبى .. جذك يعنى ، كان عنده مثل يحيى - كلب أبيض و كلب أسود الاثنين ولاد كلب .. من؟ .. معنى كلب دكتور و كلب مجنون ما الفرق؟ أقصد يا لبنى .. من فضلك ..

أزاحت لبنى أباقة من الباب بحتف وهي تقول فى غضب : من فضلك أنت ؟

إذهب إلى غرفتك الآن - أنا أريد أن أنام!

ثم صغفت الباب وأنظفت من الداخل بالفتاح ، أفاق شوكت ، قليلا مع ضجة إغلاق الباب ، وهو يتسأل فى ذهنه : ماذا حدث بالضبط ؟ يجب أن أذهب إلى الحمام؟

\*\*\*

فى الصباح كان الدكتور شوكت وليس على مائدة الإفطار فى الموعد ، كان وجهه شاحبا قليلا ويشعر بضداع ،

سأل ابنته : هل نمت جيدا يا لبنى ؟ هل أرتعت من السرور؟

تأملت قليلا وهي تقول : نعم ، شكرا .

- هل ستفرجين اليوم؟

- لا أعرف ، اسمع يا أبى : لماذا لم تقل لى من قبل أن سالم مر عليك فى العيادة ..

- من هو سالم؟

- زميلى ، الذى قلت إنه جاء وجاءه أيضا إليك فى العيادة .

- ابنتى ؟ طبعن أوبر ابنتى : أنا أقول على الأقل مرة .. من فضلك؟

لكن صفاء كانت قد وضعت السماعة فى غضب ولم يكن هناك على الطرف الآخر غير صفارة وموت شوكت يده المغمورة فى استماعه إلى التليفون ليطلب الرقم من جديد لمسقط الجهاز على الأرض فى ضجة وتين وحيل نهض ليشتد وجده ثلثة يترنخ ويتعثر قفلا وألقا لحظة وهو يمسك رأسه بين يديه ويعصر جبينه.

ظل يقف فترة محاولا أن يتحاشى نفسه وهو يقول : ابنتى ، ابنتى ؟ هناك شئ قالت عن لبنى .. ما الذى قالت بالضبط ؟ يجب أن أرى لبنى ..

طرق باب ابنته ففتحت له وكانت بشباب اللوم .

وقف بشوفا بالباب فقالت بارتعاج : بابا ؟ هل حدث شئ؟

- نعم ، ولكنى لا أذكر بالسبب ما هو

وقف مسندا يده إلى الحائط وقال : أنت الآن تعطينى أمه يا لبنى .. قد هربت منه الفكرة التى كانت تشكل فى رأسه فقال فجأة :

- اسمعنى يا لبنى .. هل أنت مسيرى نورك ، الولد الخبول الذى جاء إلى عيادتى يوم قبضوا عليك ..

- أبى ولدا؟

- الولد .. الولد (الخبيثة) الذى .. الذى كان يريد أن يعثر لك وأنت فى

السجن .. من؟ ..

- سالم؟ هل جاء إلى العيادة ، لماذا لم تقل لى؟

ثم سمع فتكمل : جاء جده أيضا بعد سفره وقال إن الولد جاءه حالة نفسية ، لا حالة ولا يحزنون ، أضن أنه سيخون من الأصل لكن من فضلك أنا أسألك هل أنت تصبينه بالتعلم؟ هو من أسرة مجانين بالطبع جده أيضا مجنون .. جاء إلى وشتمنى فى العيادة أنا شوكت ابن ..

قال بشي من الدهشة : أنا قلت ذلك ؟ أه ، بالفعل جاعني يوم القيظ عليك ولد  
مستحيل قال كلاما غريبا . لا أظن أن امرة بهت في شيء ، أقصد لا يستحق أن  
تهتم به . ربما أكون قد قلت لك لا حذرك منه ومن جده المجنون ولكن شي حدثك  
عنهما ؟

لزمك بشي الصمت ثم انفجرت فجأة بالصوت وقالت :

- أنت لا تقدر يا بابا إلا إله....

- إلا إله جادا ؟

- إيش ! المهم ، هل جدت اشتراك الثاوي هذه السنة باسمي ؟

- ما العلاقة بين هذا و... بالطبع أرسل من يجسد الاشتراك كل سنة . لماذا

تسألين الآن ؟

- لأنني يجب أن أراعي السياحة ؟ وربما يجب أن أسبع أنت أيضا بأشياء

- لماذا ؟

- لأنني تهتك وأنتك أبني

قال الدكتور لنفسه وهو يرتشف القهوة : لولا أنت تشبهيني لما صدقتك

\*\*\*

( ٤ )

اعتقد الياشكاتب صحبة سالم الذي أصبح الآن مثل شعبان يقضي النهار كله  
في العمل ويستبقوته في الطعام أيضا جزءا من الليل . وطلب من حفيده ولكن دون  
إلحاح أن يولر وقتا للمذاكرة ليدخل امتحان الكلية . فقرر أن سالم لم يبد أي  
حماس لذلك . فاضطر الياشكاتب أن يقدم من جديد شهادة مرضية لإعفائه من  
الامتحان سنة أخرى . وكانت تلك إحدى المرات النادرة التي خرج فيها بعد عربة  
لموزة إلى بيتها . اعتادت حبيبته أن تأتي كل ظهيرة لتعد له الغداء وتبقى معه  
حتى يدخل ليرتاح قبلولته . وفي المساء يقضي وقتا قليلا مع سالم وشعبان .  
وفيما هذا كان يقضي معظم وقته في غرفته .

أصبح الياشكاتب بعد صغرة في صعود السلم ، مع أن الجيران كانوا حين  
يسمعون إيقاع عصاه يضربون له ملعدا في كل دور ليرتاح قليلا على (البسطة)  
فقال أن يواهل صعوده . قل خروجه من البيت . وقلت أيضا حاجته إلى النوم  
فأصبح نفاسه مستطعها وصار يقضي وقته كله في العبادة والقراءة . يؤدي  
الفرائض والنوافل . ويكرر الفرض الواحد أكثر من مرة فيحسني بما فاته في  
السفر الماضية .

وانهمك الياشكاتب أيضا في قراءة الكتب التي أعطاها له أبو خطوة مرة بعد  
أخرى حتى كان يحفظها . وكان يلوم نفسه لأنه مع حرصه على التزام وصاياها  
ظل يهمل أهمها جميعا . ويفكر أحيانا : الذنب ذنك يا سيد إن كانت البشرية  
تزاوذك . كيف تريد الوصول وأنت تعصى نفسك وتخصه واجازة من التقيد بالمرأة  
اللزامة لتفكية روحك وتصفيتها من كل كدر ؟ يقول لنفسه في الواقع آيا أعيش

نصف عزلة ولكنها إجبارية : لا أفضل لي فيها منذ أصبح الخروج من البيت مشقة لا تحتل، والنعوذ على الجوع والعطش اللازم في العزلة لفقر الجسم جاء إجباريا أيضا . أملاء المرض لا العزم ! ثم إنك لم تقو على أن تهجر الناس الذين تسميهم الكتب « السوي » لكي تفرغ نفسك وحدها فتشغلها وتصل إلى حقيقتها .

ثم كيف تدخل بالفعل هذا العالم من السكينة وعقلك لا يكتف من التفكير وعن السؤال ؟ أنت تلميذ خائب يا حضرة الباشكاتب ! تريد أن تذاكر الفروس البسطة وتزجل الصعجة ! تلميذ مجرب جدا وخائب جدا لم يبق لديه وقت لتأجيل الامتحان ! وتكاثرت أحلام الباشكاتب وسط تومة التقطع واختلطت بأحلام بقية كان يخاطب أثناءها أحبة بصوت مسموع . وفي فقرات مسجوعة كان يحاول أن يفهم مغزى تلك الرقى وأثقا من أن الأحلام رسائل . ألم تكن هذه الأحلام هي التي ضايعت أمله بعد أن تحققت رؤياه لونه وحقيقته ؟

زارته سمية وزاره أبو خطوة عدة مرات . اعتادت سمية أن تأتيه مبتسمة كما لو كانت في صحراء أو في غلاء واسع ثم تستدير متبيرة بدهة إلى تلك النفساء التي لا يرى نهايته ولا أفقه فظنهم فيه وجود كاته يعرفها وإن لم يستطع أن يعجز أصحابها . ويصالح توفيق نفسه هل تنسبر سمية بهذا النفساء إلى الإخل ؟ إلى اقتراب النهاية ؟ هذا يفهمه جيدا ولا يحتاج إلى سمية لندته عليه . فاني رسالة أخرى تريد أن تيلها له ولماذا لا تتكلم ؟

أبو خطوة : على العكس . كان يتكلم كثيرا حين يزوره . يأتيه كما راه آخر مرة بشعوره الانشيب ويخبره الفناذين وابتهاماته المرحية . يذكر حبيبة حين جاءه مؤنبا ذات ليلة وكثر عبادته سمعها منه من قبل . ليس بحفك ولا حتى بفكك ولا بنفسك . وإنما عندما تنسى ذلك كله با توفيق . حين تريد ألا ترويه فترى نفسك وتري النور في قلب الظلام . مدال الباشكاتب صاحبه في لهفة : إذن فما هي العلامة ؟ ففكر عليه : أن تروى النور في قلب الظلام .

قال الباشكاتب وكيف آواه في قلب الظلام ؟ فرد صاحبه : سيبدو شوم ظلمة الليل والنهار . سأل : وفي النهار ظلمة ؟ فرد : أشد حلكة من الليل .

\*\*\*

بعد كل مرة كان الباشكاتب يخرج فيها ويعود وهو يلثث مجهدة عن السير ومن صعود السلم كان يلزم البيت مقسلا عما يدعوه إلى الخروج واحتشال هذا العذاب . ولكنه بعد أن يقضى في البيت عدة أيام . كان يتجول قلقا في البيت العالي منتظلا من غرفة إلى غرفة . يذكر نفسه بصالته وبما قاساه في المرة الماضية وبأن الأفضل أن يبقى مكانه لينفذ تمسيحة الطبيب بعدم التعرض للإجهاد . ولكن صورة التدارس والتسديد والخاس الذين يتقاعم هناك لا تغادر ذهنه رغم كل ما يحذره . فسعود إلى عرشته فجدة ويرتدى شابه وينزل وفشه يفتق في اغتيال طفل صغير . حتى أنه .

ولكن كتب جدا : الجوع والعطش إجباريين للباشكاتب فكذاك جهاته العزلة الكاذبة التي مثال نورية منها .

في إحدى مرات خروجه القليلة كان يصعد السلم في الضابق الثاني مبفتنا كعادته وغارقا في التفكير كعادته . وكان يربط نفسه الآن لخروجه وهو يفكر فيما بقي له من درجات السلم . حين انزلت العصا من يده فجدة وهوت في الفراغ بين دوجتين فاستلحق هو أيضا وتخرج على السلم . ظل راكدا على ظهره على (البسطة) وهو يتنوء . وحين حاول النهوض مرة أخرى سعثما على يديه . لم يستطع أن يحرك ساقة فصرخ يطلب المساعدة .

حملة الجنيران إلى البيت وظلت ساقه في الجيبي عدة أسابيع وقالت فوزية لنفسها في حزن وهي تنظر إليه يتمده شاحيا في فراشه : كأنما لا يكفى السكر والصفط والنوار وقلة الأكل . لأن هاهي ساق مكسورة أيضا !

\*\*\*

اعرفت عينا الباشكاتب بالدفع : بسبب ما فعلته بنفسه بسبب ما فعلته  
بك وبشعبان وبطرية .

- ولكن يا جدى أنت .. أنت لم تفعل غير كل خير ، كيف تقول هذا الكلام ؟  
نحن كنا نحبك ونعجبك .

- إذن فلا تدع لى بالسالم بالصحة ، بل ادع لى بالتراب النور .

- أى نور يا جدى ؟

فقال جدده وهو يتطلع إلى نقطة ثابتة في المرقعة ، النور العلامة ..

ولم يكمل .

سأل سالم وهيرته تشتت : علامة على ماذا ؟

- سمعوا يا وائل .. من جديس . وسأ يا سالم من مزبد في هذا الجسم  
العطاب . ثم خطبوا وأنته لقيطته وهو يقول : ونحن نكتب هذا التعيس عن ظن  
الظور .

- بعد ذلك صدر الباشكاتب بنفسه كل يوم من غرفته . كان ينفخ النور بالليل  
ويظل المتيش بإحكام من النهار وترتفع صلاته وأذيعته يصوته المتهدج .

وكان يعمل في النظمه يتنظر . ولكن أير خطوة ظل يأتيه مؤثراً دون أن يفهم  
السبب .

\*\*\*

لم يعد الباشكاتب يقرب الطعام إلا حين ترغبه فوزية وتضعه بالقوة في فمه .  
وكان ذلك ضروريا على أى حال لأن يده المرتعشة صارته عاجزة عن حمل الطعام  
والشراب . كان يلوث شيابه إن حاول أن ياكل بيده .

لزم الباشكاتب غرفته بإزادته وبغير إرادته بعد أن صار يعرج على ساقه  
الصلابة ويتألم من السير عليها بضع خطوات . لم يعد يستطيع الخروج ولا حتى

صبح من الضموري بعد ذلك أن تخيم فوزية مع جددها لفرعاه ، فكان فرج  
يأتى إلى البيت ويتناول وجباته هناك إلى أن يرجع شعبان أو سالم لى المساء .  
فيمضون زوجته وولده إلى بيوتهم القويص . غير أن فوزية كثيرا ما كانت تصور  
على أن يقتني القيل معهم في سدا عنها ميمصيح للشهية

وأنت سالم أن يفعل في ذرية انسا . ليقى مع جدده أطول وقت ممكن . كان  
حالة الجد نفسه بعد أن تكررت موياث الدوار بعدة تحويره ساعة من الجيس .  
جاء العنبيب إلى البيت مضاعفة جرعة التسمولن التي يصفها لها بالسكتب .  
روصف أدوية جديدة لتسقط الدم ثم توضحه بالتزام الراحة والتقييد الدقيق بنظام  
الغذاء .

وقد كانت فوزية السالم . صبح مسك . سالم . فكتب بعد في الكلام  
لكنه لا يكف حرق الضمراء . أعرف من لا يحب . السالم ولكن هذا ما أكرهه  
الوسط . كانت عد مرعى لحيته . مسكة تمنح توتله على الكلام فقال لى يا شتر  
لى حالة عينك يجب الالتزام بواهم الطبيب . خطط العلاج لا يفيد . ففعل يا سالم  
غير أن ياكل باهر موضوع له . المظر كيف صار جلدك على عظم !

أشقت هزال الباشكاتبية بالفعل . ونيل جدده وجهه الذي كان عربضا حتى  
تدلى من عييته كالكزوات إلى جوار ثفته . لكن عاتسا حذت سالم عن  
ضرورة أن ياكل كذا ينفى وهو يشير إلى تحوله رد عليه جددها لم يطيعه .  
إذ قال :

- طرأ أصاب النحوق إذن هذا الجسم وحلت به الأمراض ؟ تلك غلثاها يا  
سالم كيف أعرف بنوتها أى أنفى ما استحو + العتاف ؟ كيف أعرفت أننى  
ربما استحو الرحمة ؟

قال سالم محتجاً : ولماذا تستحق العتاب يا جدى ؟

تصرف معاشه الشهير الذي كانت الأسرة بحاجة إليه لتكثيف عمله والمساعدة في مساويف البيت . فاجتهد شعبان أن يحصل من والده على تمويل شامل لتصرف نيابة عنه . وجاء جوتف من الشهر العقاري إلى البيت ليحصل على توقيع الباشكاك على التوكيل . والحق على ما طلبه شعبان دون نقاش . كل ما كان يعتيه هو أن يتفهم إجراءاتهم بسرعة وأن يتركه لتفكرته .

الوحيد الذي لم يكن الباشكاك يثق بصحته هو سالم . كان يجلس مع جده في أوقات فراغه من العمل . يراقبه في صمت ويكلمه ما يطلبه . يستدعي حتى الحمام ويقف إلى جواره لمساعدته حين يتوضأ . يقرض له سجادة الصلاة ويضع له مقعدا يجلس عليه بعد أن تعذر عليه الركوع والسجود ويصلي سالم وراءه . ويسمع إلى الأدعية التي يرددها جده ويكررها معه . يمر به في معظم الوقت كان يمشي صامدا على عادته .

حاولت قوزية أن تجعله يتكلم بعد أن استرد نفسه . حكى لها جوتفا القليل الذي يعرفه عن التي ومن علامة سالم بها . ونكرت أنها لو جعلته يروح بها في صيد فسيساعد ذلك على اكتشاف شغائمه . لكنها حين فتحت معه الموضوع بصورة عابرة ابتسم ابتسامته المحايدة وقال :

« هذه حكاية وانتهت يا قوزية » .

فقال قوزية بلهجة مازحة : كيف انتهت يا سالم ؟ يقول جوتي إن الحب القراء أرواح وأنا أعرف هذه الأرواح . أعرفها تماما . هي أرواح (لرقة) ! إن جاءت فهي لا ترحل . فكيف استطعت أنت أن تهرب منها ؟ أنا لا أفعلك ؟ لنقل يتشم في وجهها دون أن يرد .

ولم يكن يكذب على أخته . كانت ليني تخطر على باله أحيانا ويذكر الأشياء الكثيرة التي سبقت مرضه : ليلته الأخيرة معها ، وزيارته لبيتها وما جرى هناك ،

ومعاها بمنجتها . ثم تفد زكرياته عند ذهابه إلى عبادة أبيها ويلفها بعد ذلك الغلاف . ولكن تلك كانت نسيجه له أشبه بعبدة جن . لا يتغير لها حين يذكرها . كانت مثله مثل كل شيء آخر في الحياة السلبية له . وهو يراها من وراء حاجز زجاجي ويراقبها كمتفرج دون أن يشارك فيها . لم يعد حيا وقويا في نفسه بعد أزمات حياته وصدمات الكهرباء ، غمر جده وطرونية .

وأصبحت الجامعة أيضا تذكره بعبدة لا تغني سالم في شيء . لكن منير المنعم الأمريكي الذي أعجب به كثيرا شجعه على أن يحول أزماته إلى كلية لتجاره . قال إنه جسر ثقليته في العمل وبوابته من الحسابات يمكن أن يكون له مستقبل كبير في « البيزنيس » ومن يدرى ؟ فقد يأتي يوم يصبح فيه مديرا لمطعم مثله . المهم أن يستغل وقت فراغه من العمل لدراسة . فقال سالم ودهمته : لا ينبغي .

\*\*\*

وفي ليلة الأيام التي كان الباشكاك معتكفا فيها . وبعد منتصف الليل تكلموا جميعهم بملامح ارتجبت العمارة على صوت دوي هائل كالانفجار .

علا الصراخ والبكاء من كل الشفر وأخذ الجميع ينادون على السهم ملابس اقنوم والصحبات تتجاوب من كل مكان . الزلزال ! اظلم يارب ! .

وجرى سالم وشعبان أيضا يشاب النوم إلى غرفة الباشكاك يحاولان حمله لتزول معهم . لكن الجد كان يقف في وسط الغرفة تحيلا وشاحبا في جنباته الأبيض الذي أصبح واسعا جدا عليه وقال بصوت متهدج :

« رأيت ذلك في المنام ! رأيت سنية تجري وكنتم كنكم شجرون وراءها .

أين قوزية ؟ هيا . انزلوا . انزلوا بسرعة !

« أراح بذقنهما عنه يديه الناعقتين شعر الباب لكنه رفض وهو يصرخ أن يفرح بهما أو أن يترك غرفته .



قال في عائد : في هذه الغرفة سيقى إلى أن يتحقق الوعد أو أموت !

فقال سالم : إن بقيت هنا يا جدى قائما أيضا بائس .

ولاح جده بملحه يديه الضعيفتين ليترك الغرفة لكنه لم يفلح في إخراجته

فتركهما شعيان معاً ونزل مهرولا .

وجد شعيان كل السكان وحيران البهت المجاورة في الشارع وهم يفسرون

كلنا بكف . ويسمعون وسط سحابة من الغبار لغة البيت والمكان . لم يقع زلزال

ولكن شرفة البيت انصابت تصدعت فجأة وحدثت مسحاتها في الشارع . تحطمت

الشرفة وتناثرت حجارها في المكان ولكنه السحابة الهائلة تلك ملقاة على

الأرض كتلة واحدة مغلقة وبماسكة لم يصيبها شيء .

وقال واحد من السكان : الحمد لله أن ذلك حدث بالليل . لو سقطت بالنهار

لراحت فيها أزواج .

وردد آخر وهو يعمل : هذه بركة الباشا كاتيب الطيب . لا يريد الله له البهانة .

وعلا صراخ المست إنصاف . وأنا ماذا سأفعل ؟ والجاح إبراهيم الزائد فوق ؟

يا مصبتي !

وسأل عزوز ابن التجار أباه في قلق : معنى ذلك يا أبي أننا سنزول المرح ؟

فدأ أبوه يده ورجليه إليه ويملعه بكل قوته .

لكن صبرت شعيان علا فوق كل الأصوات وهو يصيح بلهجة أمره :

- استكثرا !

كان يسمع صوتا بدأ الجميع أيضا يتجهون إليه . وصنعتوا جميعا وهم

يسمعون قعقة سقوط كتلة من الطلاء والأسمنت في جانب البيت الذي سقطت

منه الشرفة . جرى السكان مبتغيين متعدين أن التفت كل حينهم فوقهم وأرتفع

من جديد صوت الصراخ واليكاء والدعاء .

وقفوا يراقبون ما يحدث من بعيد . لم تنهار جدران البيت لكن مع صوت

سقوط كتلة الجير والأسمنت وانطلاء الحديد انكشف الشوخ القديم الذي دفع

الباشا كاتيب كل ما بطنك الترميمه وبدأ أنه قد انسح بطول العبارة .

ولكن وسط الصمت الشامل وسحابة الغبار التي تكاثفت علا صوت أبو زيد

البواب وهو يصرخ ملوحاً بذراعيه في الهواء :

- من شياً يتاء الجاح شعدي بيت جاي الحديد ! سكان عمره ! جبر يتلويهم

كثهم ! جبالة أرمي على السلم .. مواشيع تشر .. تشر وتهد الحيطان . فبن ناش

جمان ؟ أنا وأجمع أشيوط حد ناشي إن شاء الله جبر يتلوييني أنا كمان وأرتاح

منكم . اتقوا !

أما شعيان فكان ينادي عن ذلك كله . وقف يتأمل الشراخ من بعيد وهو يفكر .

\*\*\*

ثم انصرف عن ولده نوح أن يكتل وهو يكثر : والآن أشأت في البيت ؟ على العموم نرى أشياء أقبح .

لم يكن الباشكاتب وحده هو الذي رفض إضلاء البيت ، تمسك كل السكان بالبقاء رغم الإنذار الذي قال يوضوح إن العمارة على وشك الانهيار - فوجهوا إلى شعبان وسأوه أين يأمنون ومن أشغالهم ومعالجهم قلوب القبيح . وتم بعد ترويض في أنس مساكن خالية عرضوا بعد فوات الأوان أن يرمموا البيت على حسابهم . فورد شعبان بأن الأمر ليس في يده وتعليهم الآن أن يتفرد مع الإدارة الهندسية في العنى المسقولة عن قرار الإخلاء . وسيفعل ما ينبغي عليه - ويطلب بعضهم منفذين خراب الذمم وتدريس المارل الذي استغل طبية قلب الباشكاتب وعشه في الترسيم . قالوا إن هذه أحوال الآباء وإن القبالة أوشكت أن تغرق مدام الفش قد وصل حتى إلى جوار البيت المظلم .

تركهم شعبان يدارسون مع إدارة الحي . كان بحاجة إلى وقت لينظم تفكيره

وليدبر أحواله

استأنا الباشكاتب فلم يعد يفكر غرفته المعتمة إلا حين يصحبه مدام وهو يكد بعمله جهلا إلى الصمام . ولم يعد يكلف عن جواره وابتهالات بالليل أو النهار . إلا في لحظات غفوانه القصيرة . فيجد أن استغنى عن الأكل استعنى عن النوم . وكانت فوزية تستطيع إرضاعه على أن يزود بعض الطعام الذي تضعه له يدها في فيه . وإن رفض أحيانا في هذا أن يفتح فيه . شغل فوزية والحلة أمامه ويدها طبق الأكل وتقول إنها تعلم أن يكرهها ولا يطيق أن يراها ولكنها لن تتركه من قريبه من وجودها إلا إذا أكل شيئا . ومع ذلك فلم يكن يأكل إلا لحيات كذا أن فوزية لم تكن تستطيع إرضاعه على النوم فتدهورت حالته بمرور وأصبح يعجز عن الوقوف على قدميه إلا إن ساعده أحد . وحين كانت فوزية ترى التجليات الأبيض

عائين المستولون في الحي العمارة . وبعد أن حوروا محضرا فالكها والسيد إبراهيم المشلول - صدر قرار بإخلائها على الفور قبل انهيارها على من فيها . قال الباشكاتب الذي تعود عمره كله على احتزام القانون إنه لن يتقبل من مكانه . تلبث بضابحة العظمية المرتعشة بذراع شعبان وهو يبكي ويشتج كطفل صغير متضرعا إلى أبيه أن يتصرف . أراد أن يقلب يده ولده وفرد برجوه بصوته البهكي أن يتركه في غرفته حتى يموت . قال إنه حكم بانقلاب العلامة . انتزع شعبان يده من حصة والده وقيل رأسه وأمعن صوته بطول الأمر قائلا : لا يسفل ناله وأنت ستصرف بإذن الله .

سأل سأم والده بصوت هامس بعد خروجهما من الغرفة المعتمة : ما هي هذه العلامة يا أبي ؟

فرد شعبان وهو يهتس : بينما لا أعرف يا أبي . ولكن أشأت أن جلدك لينتفخ ؟ كرامة من الكرامات . هذا ما فهمته .

قال مدام بافتتاح كامل : هو يستحقها .

يتر له أبود غيا وهو يقول بشر من التردد : بالطبع . ولكن الكرامات كما أعلم لا يأتى توهيب ولا تطلب . بكفى الإنسان أن يطلب من ربه المعرفة لاسما إن كان خذال عمره .

فألمعه مدام وبسوته يندب بالغضب : هو يستحقها . ألم تقل أنت بنفسك إن

أحلامه أحلام المصلدين ؟

- نعم قلت وأنا أودع له . المهم الآن هل الوقت ..

يشهد على جسدته الهزيل كأنه يخوض فيه كانت تحول وجهها لكي لا يرى  
دموعها . رغم أنها بأنه لن يرى شيئا في ظلمة الغرفة .

واعتاد سالم أن يخلق لجدته ذقنه في ظهيرة كل يوم قبل أن يصحبه إلى  
الحمام للوضوء . وكان في هذه الحالة يضغط على زو النور في الغرفة الممتعة  
بمجرد دخوله . ولكنه دخل ذات يوم لم يجد الضوء يضيء الغرفة . رأى جده يجلس  
طوق سريريه وهو يشي سابقا تحته بينما تشكى ساقه المصابة من السرير . وقد  
فتح شيش الخرفة على أرضه . ظل يقف مأخوذا عند الباب . محاولا أن يفهم ما  
حدث . فقال جده بصوت هادئ وإتسامة تغمر وجهه التامل المنفصل :  
- ادخل يا سالم واجلس .

تقدم سالم وقبل رأس جده على عاتقه . فمد الجد ذراعيه الضعيفتين واحتضن  
سالم إليه باقضي ما يستطيع من قوة . ظل يحضنه موقفا قبل أن يسند ظهره  
خفيه ليجلس على الكبة المواجهة للسرير وهو يتطلع إلى الشرفة المنقوشة وإلى  
جده بنظرة مستقيمة .

كان الباشكاتب يبدو ضئيلا في جلسته على فراشه وكان وجهه شاحبا جدا  
في ضوء النهار الذي لم يدخل الغرفة منذ مدة طويلة . غير أن صوته لم يكن  
مرتجشا ولا مثجدا . ون في آذن سالم كصوت الباشكاتب المرح القديم وهو يرمو  
إليه ميمسا ويقول :

- أوجستني جسامت سمحرا القديم يا سالم وأرجستني كلامك . قل لي ما  
أحوالك الآن في العمل ؟

لم تغادر الدمضة سالم وهو يرد على جده :

- شغلي ليس فيه جديد أبدا . حسابات وأرقام .

- وإن لملي أي شئ آخر تفكر يا سالم ؟

- أفكر فيك أنت يا جدي . وجيوتك كثيرا أن تأكل وأن تفرح لكن تستر  
صحتك لكك لا تسمع كلامي .

- ألم أقل لك من قبل إنه مع كل جزء يموت من هذا الجسم يصح جزء من  
الروح ؟ وأنا الآن كما تراثي يا ولدي وأحب أن أقر لك بروح حية .

قال سالم متفعلا وهو يمد يده نحو جده كأنما ليمنعه من الكلام :

- لا تقل هذا الكلام يا جدي . سيخفيك الله من المرض وسيعطيك العلامة  
التي تظنها . ألا تعرف أنه لا حياة لي بنوتك .

قال الباشكاتب متحيرا : ولكن لماذا يا ولدي ؟ ما الذي فعلته أنا طوال حياتي  
لأستحق أن يكافئني الله بك في ههنا ؟ وهل لك في الخيوط . أن تكون أنت أبا  
لجدي ؟

راح الباشكاتب يفتش جيبه وهو يفكر . أم أنك أير لأش يجب أن أعلمك  
كف موت يا سالم فكر ما فاسته في جيبك وفي غفك دون أن يتحرك صفو  
نفسك . كف تظل تعطى كل شئ لأخيك ولأليك ولي . ماك روقك وحبك دون أن  
تطلب شيئا لنفسك أبدا ؟ أيمكن أن يكون المرضي هو الذي يهب كل تلك الطاقة  
على الطب أم أننا نحن المرضي ؟ ما الذي يدور في غفك حقا ؟ وما الذي يجب أن  
أعلمه منك يا أباي ؟

قال الباشكاتب لهجة بشرى من الانتفاخ : قل لي يا سالم . هل مازلت تفكر في  
زيمتك لني ؟

نهض سالم يجذعه وهو يجلس وقال لجدته بشرى من الدهول :

- إذن فانت تعرف يا جدي ؟

- ما الذي أعرفه ؟

- أولا فلماذا تسألني ؟ اليوم . الآن . كانت معي وكنت أنت أيضا معي .

ظل جده ينظر نحوه مسائلا . فاعتدل سالم في جلسته من جديد وقال :

- أنا لم أفكر فيها أبدا من زمن ، إن خلوت على ذهني فقد كنت استغفر الله  
تائب ، ولكنها اليوم .. كنت متأخرا في الليل بعد رجوعي من العمل ، تمت قروب  
البيجاج فجاءتني في المنام ، ربما هذه أول مرة أحلم بها ، لابد أنك تعلم ما كنت  
تسكني ..

قال اليا لشكيب يهودي : لا يا ولدي ، أنا لا أعرف ، لكن أحلامنا تقول لنا  
الحقيقة أكثر من صحتنا ، فماذا قالت لك ؟

حوال سالم وجهه من جده وقال بصوت خفيض : لم تقل شيئا ، كنا أنا وهي  
في زورق على النيل وهناك غدا لا أعرف من أين يأتي ، هل كان خلاصا لي زورق  
أو هل كان الغناء أصوات طيور في السماء ، ولكننا كنا سعيدين ثم جاء ظلام وأخذ  
الزورق يهتز بنا وحدث لبني بدءا بحوي ومضت لنا يدي فأنفسي فوثقا طائر أسنن  
ضخم له مخالب كبيرة ورففت خائمين كان أحدا يهيمنا الآخر وكنا نخطأ وهم  
ذلك فن مرر بطول مظلم كأنه سميج وكنا نجري معا ، تعرف أن شحميا يطايرنا  
ويؤيد أن نصل إلى آخر هذه الممر لأن هناك تورا في نهايته ، صموت بعد ذلك وكان  
رجبك انت اخر شئ في العلم أو أول شئ فنحت عليه مرس ، فما يعني ذلك يا  
جدي ؟ هذه أول مرة أتزوطني هي في الحلم وأول مرة تسكنني عنها من زمن -  
فماذا ؟

رفع سالم إلى جده عيدين ملهزين فقال الجد بلهجة قاطعة  
- لا أحد يقدر عليك غيرك يا سالم ، أنا أعرفه الآن أن الأفضل لا انطلق  
بما لا أعلم ، لكنني أعرف أيضا أنك تستحق النور الذي رأيته في حلمك ، المهم يا  
سالم ألا تغطي النور حين يجيء .

- لا أتقدم يا جدي ،

- ربما نلهم معا يا ولدي ، وربما لا يكون الوقت قد فات ، اليوم أنا أيضا أريد  
أن ألهم ..

أشرق الجد قليلا ثم رفع رأسه بعد فترة ، كان يبدو عليه الإجهاد لكن صوته  
قليل واضحا تماما وهو يتكلم .

- أنا لم أقل لك يا سالم كل ما سمعته من أبو خطوة عندما رأيته آخر مرة ،  
هل تذكر أمي حكيت لك عن بطري حلم بها لي ولم يفتح عنها ؟ يومها أيضا  
أعطاني الحجاب الذي أومس بيّ يظل دائما قريب قلبك وذهبت في اليوم التالي  
وكان يوم خميس لأودعه قبل السفر ، جلست إلى جدارة ونفسي تراوتني أن  
أسأله : ما هي تلك البطري وبني تتحقق ؟

سامحتني الله لأنني سألتها كنت أشك فيما سمعته منه وقالت لي نفسي إتنى  
حتى لم أر أيا من كراماته التي يسمعون عنها وإننا كنا مساكين كان ينهر من  
الجواب ، استخدمت شطائفي وقررت أن أسأله لكنني رأيت وجهه بشعب فجأة  
وأصبح يشغلني بمفعولة ثم عذمت عينا ، أصابني القهر أنا وكل من في المكتب  
وبدأنا نجري هنا وهناك ، فتحت له أزرار قميصه وأخضرت أحدهم ماء ، رطت على  
وجهه وحين صرخت أين الطبيب ؟ جرى البعض يستدعون طبيبيا ، لكن ذلك كله ثم  
يسفرك خبر دقائق قليلة أنقذ أبو خطوة بعدما كذب كان في سنة من النوم ويهز  
لي ولبن حولي وقال يهودي والسفراب ، كيف يسبق جنازتي موكب وتشريفه وأنا  
لست من الحكام ؟ وما حاجتي إلى التشريفه وأنا يكفيني قلب واحد طاهر  
يصحني إلى مثاوي ؟ علا صوتي وأصوات الجميع في المكتب ونحن نكرر بعد  
عمر طويل يا حضرة الباشم حضرة .. اتق الله فينا يا رجل .. أنت ألقى علينا من  
كل حكام الدنيا .. هل تستدعي الطبيب ؟ فرد علينا وهو يمسو شيابه ويضحك :  
لماذا خفتم هكذا ؟ أنا كنت أمثل عليكم دورا - أريد اليوم أن أزوج قليلا من العمل  
ثم عاد بعد ذلك يمزح معي ومع الجميع ، ثم أودع في حياتي يا سالم أكثر موعدا  
معا كان في ذلك اليوم ، وعندما قلت له إتنى جئت لأودعه قبل سفرني قال

سئلتني في ذلك معا ، ثم أفسك بذراعي وهو يقول : ألم أصارحكم بانني أريد أن  
أزول اليوم ؟ وقال لزملائه وهو يتجهم معي نحو الباب : أراكم غدا إن شاء الله ،  
فرد أكثر من واحد بعد قد إن شاء الله يا حضرة الياشعفسر ، غدا الجمعة ،  
نقال لهم نعم ، يوم مبارك .

وعندما خرجنا من باب الحكمة قال وهو يتوكل على ذراعي كنا كنا تسخننا  
حديثا بدأتاه : سألني يا أخى توليق من الكرامات ، ما الذى يشغل بالك عنها ؟  
هل سمعتني أنت أتممت عنها مرة ؟ وردت وأنا أكاد ارتجف لأنه خدس ما أفكر  
فيه . لا فقال : وصيقتي أنت ما تحدثت عنها مع غيرك ، كل ما يحدث خارج  
نفسك لا وزن له ، المهم هو ما يتحقق ، الحق في داخلك أنت ، والكرامة الحقيقية  
هي أنت ، معنى السحرة والحدود ينشؤون الأشياء من مكان إلى مكان وليس فيهم  
الانسان ومختبرون انهم يهل بغيرهم هذا من رحمة الله العظيمة ، ولكن الكرامة  
علامة ، قال وقد تكون فتنه وقد تكون امتحانا ، وبما يفتش انسان في شيايه بما  
وحسب إليه ولكنه إن لم يرجع بالله عن الشهوة فيسقط دائما عند الشهوة ويخاف  
في الفتنه ، طالححت عليه ولكن الكرامة علامة على الوصول : ليس خلاف الحال  
أنت وما تؤمن به يا أخى توفيق ، الوصول الحق هو أن ترى النور في قلب القلبية  
وقد يكون أقرب إليك مما تظن ، لكك لن تراه قبل أن ترى نفسك ، قلت ضاحكا  
صارحتك من قبل يا مولانا أنه من الصعب أن أحب نفسي ؟ فرد أبو خضرة بما  
يشبه نقاد الضمير قائلة إن حتى تصبها : لا ترجع ثانية إلى ذكر توبك  
لمنحك ينكران الرحمة ، حين تصنع التوبة لما علم أنه لا صغيرة إن قايك عدل ربك  
ولا كبيرة إن قابك نفسك وأحسن القلب بفضل خالك ، ثم سمكت أبو خضرة بعد  
ذلك لحظة ووقف ضوئوه وهو يسأل منك : خفيديك اسمه سالم ، ليس كذلك ؟  
لم ينتظر ردى ، بل قال : هو ما هو يأنى الله ، وأنت معه لأن نوره يتجسب  
عليه ،

ثم وضع يده على كتفى وقال سئلك يا أخى إلى ما تطلب بفضل مولانا  
وسئلك وحدك أن المكابة والفتنات باب الرحمة واسع ، لكن لا تتعجل الوقت كما  
قلت لك فالوقت مخلوق ملك وجير ملك ، أما أنا فستنترون غدا لتكمل ما بدأتاه  
لما تسافر اليوم .

ودعى بذلك الكلمات ولم أكن أعرف ولا كان أحد ممن في المكتب يعرف أننا  
في البيت ، في يوم الجمعة المبارك ، سيكون نحن وأسيروط كلها تقريبا في جنازة  
أبو خضرة ، وأنه ستكون هناك جنازة شيقا للواء في الشرطة بتقدمها الموسيقى  
والطبول وصغوف الجنود ، قبرت كلها كما لو كانت إتشريفه الجنازة أبو خضرة ،  
وشاركت في حمل نعشه يا سالم فكان خطيפה كالريشة ، قبل أكمل بذلك ما  
بدأنا قل أنت يا سالم

قال سئلك في كراه مقبها لكل حرف من كلام جده : ألم يقل يا جدي إنه  
يريد قلبا طاهرا يصحبه إلى مثواه ؟

مقبها الشكوت وقد بدأ الإحباء سئل إلى سؤله ولكن خائى لم يزوى  
القول : .

سمكت سالم قليلا ثم قال : عندما كنت أخاف وأنا طفل صغير من عقاب أبي  
أو من المروض كنت أتى هنا إلى غروفك ، حتى ولو لم تكن أنت فيها ، فكنت  
أطمئن ، كنت أعرف أنك تحبني وأنت سساعدي .

وفورقة أيضا ، فوزية لا شرب أحدا مثلك لأنها تعرف أنك تحبها ، أقصد  
يا جدي ..

ثم سمكت مرة أخرى وبدأ في وجهه الألم وهو يقول : أنا لا أفهم كثيرا من  
الأشياء ولا أعرف أن أتكلم ولكن قرأت منك في كثير من النور نور لأن ضووه  
يبعد ظلمة النفس ويجلب البصيرة وأنت يا جدي ..

ثم سكنت مرة ثالثة وقال في يأس : أينما أستطيع أن أتكم : أنت الذي  
سيتحقق يا جدي ، أنا لا أستحق .

نزل جده ينظر إليه وقد اتسعت عيناه وبدأ صدره يعلو ويهبط ثم قال : ولكنني  
الآن أراك يا سالم ! نعم ، أنا أراك !

ثم نزل من حراسته قسيحة وتقدم من سالم وهو يعرج على وجهه المريضة  
ويخترق في جلبابه الأبيض الواسع ، هد يداه الاثنان نحو حفيده وراح يشير  
بإصبع برنغش وهو يقول : أنا أرى 1 أرى يا سالم !

التفت سالم خلفه لينظر حيث يشير جده ، ولكنه ترفع فجأة في مكانه فاستدار  
ليجد جده قد أرمس عليه يريد أن يتشبث به ، ثم أخذ يتزلق ببطء وقد ارتفعت  
نراهة يمينه من ثغر وهو يرفعه ليضعه من السقوط . لا ، فقد يا جدي ، لقد  
قبل أن يصرح ينطى صوته صائها . يا فوزية !

\*\*\*

( ٦ )

انفثع سالم عن الذهاب إلى عمله .

أرسل المدير إلى البيت من يسأل عنه فلم يخرج من غرفة جده . وقال شعبان  
لترسول إن سالم يلزم جده المريض .

لم يشرك جده لحظة منذ سقط بين نراعيه ، وهذا أن قال الطبيب إنه شغل  
كامله كان شعبان قد قرر أن ينقل والده إلى المستشفى لكن الطبيب العجوز الذي  
كان يعالج الحاج إبراهيم قال له : كما تشاء ولكن رب البيت هو رب المستشفى ،  
ولعل أسرته تتعصب أكثر من المرضات هناك . ونشبت جدال بين جده في  
البيت . فالتفت سالم إلى بابو النقيب على البيت مرضى في الأسرع . ومن بدنى  
المرضى كل يوم لإعطائه حقنة وتغيير الحبال التي علقوها في عمود السرير .  
وبعد أن نزل بدنى في ظهيرة كل يوم ، فقد تعلم سالم بسرعة كيف يقوم بهذا  
الفعل . وبعد أن يتفرغ منه كان يجلس على كرسي إلى جوار فراش جده ويستك  
الكتب التي تعود أن يقرأها ويردد بصوت عال الأديبة التي كان يسدها منه .

لم تكن عين الياشمكات تطرق ولكن حفيده كان واثقا من أنه يسمعه .

وكان سالم يؤدي كل صلاة مرتين ، مرة لنفسه ومرة لجده ، وباستثناء فترات  
القراءة كان يظفي ، نور القرفة أو يخلق الشيش .

ولم ذلك الوقت وصل إنذار قائد السكان بضرورة إخلاء العمارة الآيلة للتسوية  
ولم ثم إجتازهم بالقوة ، فلم يتحرك أحد . فاثوا أين ذهب ؟ غير أن شعبان كان  
قد انفق بالفعل ، بواسطة بائع السجائر المستوردة ، مع أحد الخلاك على أن يبيعه  
نصف أرض البيت بعد هدمه . وقبض جزء من مئتمن الثمن ، أجر شقة في

فى المنيرة القوية واستعد للانتقال إليها مع الأسرة . وقال له السكان الذين  
تبعوا بلهجة على إخلال الصارح فى النوم . وقت إن الشكايات ما كان لتصرف  
هكذا .

قود عليهم : وأنا ماذا يدي أن أفعل ؟ هل أستطيع أن أمنع البيت من الوقوع  
أو أن ألق أمام الحكومة ؟

كأن بعض السكان المقتردين الذين فهموا أن المسألة منتهية بالفعل دفعوا  
لشعبان فى السر حياض كملدم إيدار لإسكانهم فى العمارة التى سببتها فى  
الجزء الذى يخصه من الأرض . وحدها الست إتصاف كانت لاتكف عن البكاء  
وتزور شعبان كل يوم وثوبه فوزية لديه فيعدها خيرا إن شاء الله . ولكنه يترتبها  
بصورة عارة . هل كانت ضرورية هذه العمارة التى جلبت كل المصائب ؟  
وسط بكتها . نعم كانت ضرورية لتكفل فى الدنيا وعلى

لم يكن سالم يعرف شيئا عما يدور أو من قريب انتقلهم إلى البيت الجديد .  
استكف فى الغرفة التى أصبحت لها راحة المستشفيات . غير أن فوزية دخلت  
عليه مرة بعد أن أنهى من تصميم جده فى طست الفرفة وأرقده فى فراشه  
بغاية كان يلك حوله الغطاء بالحكام عليها دخلت فوزية تصرخ فيها :

- إقتلى الباب بسرعة !

أغلقت الأبواب كما أمراً . وكان من الصعب عليها أن ترى شيئاً فى الفرفة  
المظلمة . فراجعت تتحسس طريقها نحو قرائى جدها وسحبت سالم من يده  
وأجلسته بجوارها على الكتبة المواجهة للقراش وقالت له :

- لماذا تبقى فى الظلام يا سالم ؟ لماذا لاتفتح الشيش على الأتق ؟

- جده لم يكن يريد نورا فى الغرفة فى الفترة الأخيرة .

- ومع ذلك لقد كان الشيش مقفولاً يوم سقط . ألا تذكر ؟

قال متحيراً : نعم أنكر وحتى الآن لا أعرف لماذا فتحه يوماً . ولا ألهج ما  
حدث .

- لأنه كان يحب دائماً أن يسقى فى التور - أحب جدى الظلمة فقط وهو  
مريض . ولعله أحس بما سيحدث له فتراد أن يودعنا فى التور .

لم يسمع سالم كلمة يودعنا . كان مستغرقاً فى أفكاره وحيرته لما كنس  
لشقيقته

- لم أفهم كل ما قاله لى يوماً وهذا يعذبنى يا فوزية . كان يريد منى شيئاً  
لكنى لم أعرف ما هو وسألنى عن .. عن أشياء لم تحدث عنها من زمن طويل .  
ونكلم أيضاً عن التور .

فالتت يا صفت : لو كنت أعلمكم تحبونها . . . فكفى أعرف أن جدى بصديق  
الخير .

ثم قالت فى جدوى : افتح الشيش يا سالم من أجله لاس أجله . فهو الآن لا  
يعرف من هو والده .

لم تر فوزية النظرة الغاضبة فى عيني سالم ولكنها شعرت بها فى صوته وهو  
يسألكا :

- من يتربك ؟

فردت عليه بالهوى تله : هذا كلام الطبيب .

قال سالم وقد ازداد غصبه : وما الذى يعرفه الطبيب ؟ جده من الصالحين  
وسيشيقه الله ويلوم سائلاً يا ترى الله .

- حتى الرجال الصالحون يا سالم .

ثم سكنت قبل أن تقول بلهجة مختلفة : لم أت لأنكم معك فى هذا الموضوع .

كنت أريدك فى شيء آخر - أردت أن أسألك : هل وقعت على تركيل لوالدك ؟

قد وضعت من ضمن ، وتقول لي إنه كان ينتشر ثورا ؟ أنا أراه هناك وهو معد على السرير في التلال كالحقبة وكله ثورا ؛ ولكنه كان يحيا يا سالم ويحب لنا أن يعيش .

مدت غوزية يدها وضمت أخاها إليها وهي تقول : فله حق يا سالم . أنا لا أعرف ولعل الطبيب أيضا لا يعرف . لعله بالفعل يسمعك وأنت تكلم وتقرأ له ولكن من أدراك أنه لا يتعذب إن كان يسمع ولا ينطق ؟ لا تعذب جندك يا سالم ، أنت تعرف كم يحبك .

قال سالم : وهو يعرف أيضا كم أحبه .

- إذن فلا تعذبه ، جدى لا يجب ذلك له ولا لك .

فكلم سالم : ماذا يعرفين أنت بكلام يا غوزية ؟

- أنت سيكفى لي ! كان جدى يريد أن يقول لك يوم مرضه .

فقال جدى بصوت ضوئى : وماذا كان يريد يا غوزية ؟ ليس أعرف !

- يريد ما قلته لك ، ويريد أن أشاؤك في رعايته لأنى أستطيع أن أفعل مثلك

بالتقصير . لا يريدك معه طول الوقت

سكنت طرما سالم الصمت بعمود ، ثم قامت غوزية وضمت حتى سمع حدها

انحطت فوقه وقبضت جيئة بركة . ثم توجهت نحو الباب وقالت لأخيها بهود : قبل أن تخرج

- اتق الحنور يا سالم ، جدى يحب الحنور .

وقالت لنفسها في أسى وهي تخرج : ولكن هذا لن يستمر طويلا !

\*\*\*

حدد شعبان مرقد إنتقالهم من البيت إلى شقة المنيعة الجديدة .

جاء عمال فككوا قطع الأثاث وكوموها في أركان الغرف . كان قد قرر أن يبيع

بعضاً من الأثاث وأن يفلح بعضه الآخر إلى المسكن الجديد وأصبحت الشقة

رد سالم دون مبالاة : نعم ، أعطاني ورقة وقعت عليها . لا أذكر ما هي .

- كيف لا تذكر ؟ هذا شيء مهم ، وأنت لا تعرف بالطبع أن أياك يا حبيب من

البيت ؟

كان يجهل ذلك لكن غوزية شرحت له في حوض أنها لم توقع على التوكيد لأنها تريد أن تعرف رأسها من رجلها ، ويكفى ما فعله سالم مشكورا من أجلها حتى الآن . إن كان والدها قد قبض عليها من المال فهي تريد أنه تأخذ قصبتها منه وإن عرف كيف يستشير الأبور بعد ذلك . عليها الآن أن تخدم مستقبلها ومستقبل سلمو . ثم ذات الإغارة التي استمرها فراح ولا تس أنها سمعته وهي لا تريد أن تكون تحت رحمة أو تحت وحمة أي مخلوق .

كان سالم شديدا وهو شكك وسأله ولكن ماذا أعني في الأخير ؟

تسمرت غوزية إلى وجهه أخيرا في العسة التي ألقوها ضاحكا وقالت أنه مركز فطره على سرير جده . فأنسكت برؤوسه وسجلته تعذبا وهي تقول : - اسمعني يا سالم من فضلك ، لو كانت أبي تنصيني من المال الذي قبضه

فقبل تمامي ؟

حاول سالم أن يستجمع تلكيرة وقال لأخت :

- يا بالطبع سئباعدك يا غوزية . أى شيء تظلمينه سوف أفعله . تهدت غوزية

ثم قالت بعد فترة :

- وكيف ستساعد نلتك يا سالم ؟

- أنا .. أنا لا أحتاج إلى أي مال ، عندما يشقى الله جدى سأنزل الفعل .

فالت بيضاء : لو كنت تحب جندك حقا طادع له أن ...

ثم توفقت وهي تنسأ إلى ما الذي يمكن أن أقوله لسالم ؟ أخاف عليه أن

يعرض من جديد أو أن يعود مرضه . لو يجرى أن أحمله يسلم بالطفيفة ، أنت

تقول لي يا سالم إن جندك من الصالحين ؟ لو قلتم كم أحبه ! لولاء ربما لكنت أنا



خالية باستثناء غرفة الباشكاتب التي أوجدها شعبان حتى اللحظة الأخيرة . بدت اللغة الخالية واسعة جداً . أصبحت الأصوات والخشخشة تزداد في صدري فحتم ككتيب . سمع سالم من أبيه أن هذا هو الحل الوحيد لأن العمارة على وشك الانهيار فسأل عما سيفعلون بالنسبة لجده وطبائعه شعبان : انقلت بالطبع مع جربة إسماعيل وسننبل خوفته كما هي . سريره ومكتبه وكل كتيبه . سنكرم حضرة الباشكاتب حتى ...

ولم يكمل عبارته .

وكانت فوزية منغولة مع أمها في الترتيب للانتقال من البيت . انغفوا أيضا أن تنقل هي وفراج وسلمو إلى شقة القبرة لشاوان في تسليم السكن الجديد وفي رعاية جدها . وتبقى هناك إلى أن تجد الشقة المناسبة التي كانت تبحث عنها لنفسها . حصلت من أبيها على جزء من مديريتها من بيع الأرض وحصلت مع فراج أن التلقة الجديدة التي ستضع فيها حوزا من التلح ستكون باسمها .

في

وأثناء الاستعدادات الأخيرة دخلت فوزية غرفة جدها . كان سالم يفتح خزانة صليوا من الشيشي ويجلس على الكتبة معشدا رأسه بيده . يستريح من جهد كل ما دام معه وبين جده يوم ستوفيه ويحاول أن يفهم ويعرف . وضع رأسه حين دخلت فوزية فقامت له :

« هناك واحدة تريد أن تراك يا سالم .

قل ينظر إلى أخته يستلها فقامت بهو . شديدة : هي لبتى .

عب سالم واقفا حين سمع الاسم وقال : « جدى » . ثم قطع من مكانه وانقطع نحو الباب . لكن فوزية مدت طريقه يذراعيها وقالت :

« لا تخرج باليخاما ! اردت ملايسك .

وانصمت فوزية لنفسها وهي تطلق الباب وراءها : كنت متأكدة أنى أعرف هذه

الأوضاع ! يارب :

\*\*\*

وكانت لبتى تنتظر وجيدة في الصالون الخالى الذي لم يبق فيه سوى أربعة مقاعد متناثرة . كانت تقيس من جديد بلوزة بيضاء ينصف كم وإجولة واسعة كما اعتادت منذ سنين . قالت لنفسها وهي تلقت حولها : لماذا أنا هنا إما التي يحلني اتي الآن ؟ قد تكون غلطة . لايمهم . كل شيء غلطة . أنا نفسي غلطة لا فائدة منها . يجب انظر طويلا ما قاله أبى في ليلة سكره . يمكن . جاء سالم إلى عيادته قبل سثن قما جدوى أن أراه الآن ؟ لو كان سالم مريضاً حقاً قلن أستطيع أن أساعده . لن أستطيع حتى أن أتصيح بأن يذهب إلى المصحة في روما ! رفض أبى أن يقول شيئاً حين سألته عنه فلم أفتح معه الموضوع مرة أخرى . الدكتور غارق في عوالة العشيمة ولا وقت لديه لأمثالنا . لايفك الآن من العمل ليل نهار حتى الويسكى انقطع عنه بعد ليلة سكره الكبير . أظن أنه كان متفعلًا ليشعر أنه قابل للدكتوراه صفدا . لم أفهم كل كلمة لكنه سمع طي أبى أحال من التعب . لطفه مازال يضيها حتى الآن وإن كانت هي نغفها لماذا أمالى أنا وذلك الآن ؟ تكروه أو تحبه المهم أن لكل منهما حياته فمافا عن حياتي أنا ؟ أين صامت بعد أن عولمت في روما وتحسنت الأحوال ؟ واضبت على الأنوبة والعلاج . غطست في حمام بارد وحمام ساخن وحمام فاشر وشقيت تماما ! وقبل أيام عنيما غطست في حمام السباحة في النادي قربت ألا أظلم من جديد . قال عتلى هذه هي النهاية المظففة الجيدة لواحدة سكى شقيت من كل شيء حتى من الرعاية في الحياة ! شئيت أن ينتهي كل شيء في تلك العشة الجراحية في قاع الحمام . لكن عنيما نفذ البهراء من الصندري خائفي جسمي . واحدت ذراعتي فشربت الماء بجمون ولما وصلت إلى السطح كنت أشفق وأصرخ وأقفز من جوفى باستماتة ماء الحمام وطعم الكلور . شككت أن جبتي غريزي لا علاقة له بما بقرره عتلى . لا علاقة لعتلى بشيء . قرر ألا أرى سالم وما أنا هنا أنتظره . لماذا ؟ حكايته انتهت

وكل الضغائيات انتهت . ثلث لتفحص ولكني أحب أن أرى جده . هذه ليست كذابة .  
هو الوحيد الذي أفكر فيه عندما أسمع الكلام العاقل الذي يقوله أبي وأمي وكل  
الناس الذين أعرفهم . هو الوحيد الذي سمعت منه على لسان سالم كلاماً يخلط  
بين كل هؤلاء الحلال الذين يدفعونني للموت . قلت ربما يستطيع أن يساعدني .  
والآن تقول حبيبته إنه هو أيضاً مريض لايتكلم . ضاعبت الفرصة ! لو كنت قد  
جئت على الفور ! ماذا أبقى ؟ هل أنصرف الآن ؟

لكن الباب فتح ودخل سالم .

كان يرتدي القميص والبطون لأول مرة منذ مدة لمدا تحبلاً في ثيابه .  
ونهضت لبش حين رآته . قلت تلف صامتة وهي تتأمل وجهه المتقاع والابتسامة  
المصنوعة على شفاهه . وكان هو أيضاً يتأملها وهو بنفس مصعوبة . فجأة وجدت  
نفسها تندهج نحوه خنوقتين ثوبتت حين مد لها يده ماسنداً ذراعه وهو يقول :  
- حمد الله على السلامة . سمعت من جدي أنك في فرنسا .

لم تصيح له اسم البلد . عادت تجلس مكانها دون أن تحاول نظرها عنه .  
فأخى هو رأسه وهو يقول : صفك أحسن .

كان يريد أن يقول : أنت الآن أجمل . ولكنه غير رأيه .  
لسانته : وأنت ؟

رد ببساطة : أنا مريضة بعد . ولكني عولجت وأنا الآن أحسن . لم أعد  
أخذ علاجاً ولكني الآن أحسن . هل انتهيت من دراستك أو ستسافرون مرة  
أخرى ؟

لحدث يبدوا وهي تقول : لا . اكتشفت أنني لا أحب القانون فشوققت عن  
الدراسة . لم ات الآن لكن .

ثم سكنت . كانا يجلسان على مقعدين متقابلين يتبادلان الحديث بلهجة مهذبة  
قارأت لبش أن تصرع : كفى يا سالم ! لا تدعنا نتكلم لمجرد فتح الفم وإغلاقه .

كفى ! ما الذي يحدث ؟ لماذا أنا هنا ؟ يجب أن أنصرف ! لكنها مع ذلك أحست  
رأسها وقابل في عيني . تعبت حين عرفت عوانت . ذهبت أولاً أمسار في محلات  
الانتمشة عن والدك ..

لم يسمع سالم ما قالته ولكنه رفع رأسه فجأة وقال :

- هل هو الذي طلب منك أن تأتي ؟

- من ؟

- جدي !

- كيف ؟ أتالم أوه في حياتي !

- لا أرى . لماذا إذن سألني عنه قبل أيام ؟ ألم يكن هو الذي طلبك ؟

سكنت لبش لحظة ثم قالت : ربما . لم لا ؟ منذ أيام وأنا أفكر فيه . الحقيقة  
أنني أحب لأراه . تقول لي : لم لا ؟

فرا سالم رأسه وهو يقول : جدي من الصالحين .

فقلت لبش : لا بد . ولكن ماذا قال لك عني ؟

- كان أول مرة يذكر فيها اسمك منذ سبعين وسائس إن كنت أفكر فيه .

- وبماذا رددت يا سالم ؟

- قلت إنني .. إنني طنت بك مرة ..

فطالت نفسها : مرة واحدة يا سالم ! خلعت بي مرة ؟

واحت تنظر إلى وجهه الشاحب . وإلى ذقنه النابتة . وإلى عينيها اليميلتين  
اللتين تتحركان في قلق . وإلى ساقيه الطويلتين اثنتين بيدل وضعتهما كل لحظة  
وساكت نفسها : هذا هو سالم ؟

قومت والدموع تظلم من عينيها دون أن تيدل أدنى محاولة لشعها كما اعتادت  
أن تفعل طول عمرها : نعم . هو !

شعرها ؟ لكنه بدلا من ذلك كله كثر سؤاله :

- لماذا تبتكين ؟ .. هل قلت شيئا ؟

مسحت ايضاً دموعها براحتيها وقالت بعد لحظة :

- لا ياسالم ، فقد لم تقل شيئا ، تمنيت أن تقول شيئا ؟

سألتها في حيرة : ماذا أقول ؟

فابتسمت اجتماعاً صغيرة وهي تقول : خدشي ماذا يقول خدك عن الأرواح ؟

يقول لكل الأرواح جميلة وكلها طيبة .

- وهل قال لك ياسالم ما الذي ينفذ هذه الأرواح ؟

- نعم ، قال الحب .

## النهاية

وهو هو الجواب : أنت هنا من أجله ؟ تعرفين في تلك منذ جئت ومن قبل أن  
تأتي أنت هنا من أجله . حتى ولو كان قد فقد كل عقله ، فهو نفسه سالم . سالم  
الذي كان يقاوم وجهه في روما وفي مصر وقبل السفر وبعد أن رجعت . سالم  
الذي فعلت كل شيء لتتدبريه من حياته لكنه ظل يظهر لك لون ترقع فيصنك يدك  
وأنت تمشين هناك على شاطئه النهر في روما أو بنى ليجلس أمامك على مصيف  
المقهي أو ينام إلى جوارك في القفاز . هو نفسه ، سالم ، الذي تمر أسابيع  
ويشهور لا تذكرينه وإذا به فجأة يحيط بك كفلاة ترين كل شيء من خلالها ولكنك  
لا ترين غيره . ما هناك إن كان مريضاً ؟ لماذا طوائف تلك السفين ظل الأصحاء  
والأقوياء الذين رأيتم أحبا عابرة وبقى هو غيب لم يجد بلا انقطاع ؟ لو  
ترجع يا سالم أيام خوفنا معا ! لو يرجع كدنيا طعم حقيقي غير طعم الكبر في  
حمام السباحة ! لحظة واحدة من ارتعاشه اليد وفعلها حين تمسك بها . من ماف  
قبلت . من راحة جسدك وهي تنفذ إلى مسام أظلم . لحظة واحدة من الخوف  
الحقيقي والحب الحقيقي بدلا من هذه النسيئة الكذب . من المنس بلا سبب والكلام  
بلا معنى وفتح الأبواب وغلق الأبواب وظلوع السلم والورد على التليقيون واستقرار  
السبارات وقناع كاذب التعزير وتناع أكذب الضحك لقابلة أفنعة الآخرين . لحظة  
واحدة تبعت فيها الأرواح الميتة لتفتي كما قال جندك . ولكن كيف تبعت هذه  
الأرواح ؟

سألتها سالم في المزاج : لماذا تبتكين والبنى ؟

لم ترد . وراح يراقصها بعينين قلقتين ودموعها تنساب دون أن تشعج أو يصدر  
منها أي صوت . وكانت أفكار كثيرة تندافع في ذهنه وتطارده بعضها دون أن  
ينطق . أراد أن يسألتها كيف خرج من بيتها في الليلهما الأخيرة معا . وأن يقول  
لها سأكفر عن ذنبي بعد أن يشفي الله جدي . وأن يسألتها لماذا غيبرت لون

## تنويه

رجعت أثناء كتابة هذه الرواية إلى بعض الدراسات والكتب الصوفية ، وأخص بالذكر - بين كتب أخرى - «المواقف والمخاطبات للنفري» ، وكتاب «الكنز في المسائل الصوفية» للاستاذ صلاح الدين التجاني .

بهاء طاهر

lilas.com/vb3  
ola\_m3

رقم الايداع: ١٨٨٩٥ / ٢٠٠٠

I - S - B - N

977 - 07 - 0749 - X

# رواية الهاتل

بهاء طاهر



نقط النور

## الإهداء

في ذكرى مولد الكاتب والإنسان الكبير  
يحيى حقى .. رحمه الله  
أنتسم عطر الأحباب !

بهاء طاهر

٧ يناير ٢٠٠٦

قال أستاذنا الحكيم :

- الناس أجناس والنفوس نجاس ، ومن تلجس نفسا  
من غير جنسه وقع في الالتياس .

فسألناه :

- يا معلمنا ، فهل النفس قناع ترتديه إن أصبحت  
وإن كرهنا نبتذله ؟

فرد مؤنبا :

- أو لم أقل لكم من تقنع هلك ؟

قلنا :

- فمن يتجو يا معلمنا ؟

أطرق متأملا ثم رفع رأسه يجول فينا ببصره  
وقال في بظء :

- يا أيتاني وأحبابي ، أفنيت العصر في البحث  
والترحال ، فما عرفت إلا أن الجواب هو السؤال .

---

الخلاف رسم

وتصميم الفنان :

محمد أبو طائب

---

القسم الأول

الم

بناء الحاج السعدي وإثني الباشكاتب في مطلع القرن ، شغل الأسرة طابقه الثالث  
وسكن الشقق الأخرى المؤجرة منذ بناء البيت أمر من أصحاب المصالح القريبة  
ورث أبناءهم منهم ومسكنهم وهم نجار ومنجد وعطار وكهربائي وناجر أخنية ،  
كان الباشكاتب هو الموظف الوحيد من سكان البيت ، وكانوا جميعا يحترمون

ويعتبرون

لا يعرف سالم لون البيت أو ثلاثة الخارجى الأصلي - فقد وعى عليه يلوته  
الحائل الجامع بين الرمانى والبني ، والذي يشبه لون الساجد والتكايا والأسلبة  
الاثنية المنشورة في النص ، ولكن من الواضح أن الجم الأكبر اعتنى بزخرفة بيت  
عندما بناء - فإلى جوار المشرقين الحجريتين في كل طابق - كانت هناك شرفتان  
أصغر ، إفريزهما من حديد مشغول على شكل أفرع كرم مقوسة تتدلى منها  
عناقيد حديد ، وتتوسط الشرفات بامتداد طول العمارة من ناحيتين متقابلتين زخرفة  
منقوشة في الحجر كضفائر مجبولة تحتل قراعاتها زهور حجرية مدورة الأزراق ،

وكان هناك أيضا سور حديدى واضح ، يحيط بمشغل البيت ، ويمتصن الممر  
الصغير الذى يسميه بعض السكان (الطينة) لأنه يضم إلى جانب شجرة النمر  
حتى اثنتين من شجيرات (الليكيس) ذات الأوراق اللامعة المقطعة المصممة (ودون  
الفيل) ، والمزروعة في كثير من بيوت الحي . نجر أن أبرزت مواب العمارة العجوز  
لم يعد يستطيع العناية بهاتين الشجرتين كما كان يفعل من قبل ، أصبح لى  
شيطرولته شبه مقيم في غرقته الموجودة أسفل السلم وأهمل الرى انتظم ،  
فاصلرت بعض الأوراق وتهدلت ، ولكن الأشجار خلعت سقيما في مجملتها تبين  
للبيت ، بخلا زاهر القصور .

كانت تلك هي واجهة العمارة التي شغل على الشارع الرئيسى المقفوع من  
ميدان السيدة زينب . أما جانب البيت المثل على ناحية الحارة والجانب الآخر  
لشغلتهما لواف خشبية مستطيلة متزاوية ،

عاش سالم منذ طفولته في رعاية جده الباشكاتب .

لم يكن يعرف وهو صغير معنى هذا القلب ولا تلك الوظيفة . لكنه كان يسمي  
أياه يود على استفسارات بعض الجيران بحبابة - سأسأل الوالد حضرة  
الباشكاتب ، فلهم أنها وظيفة مهمة .

وعى سالم على الدنيا وجده على المعائن - كانت التجد أحسن غرفة في البيت -  
تطل على البحري وتفتح على الشرفة الواسعة المعروضة في البيت باسم  
(التراسية) ، والتي تعلو قاعدتها المكونة من السلوانات حجرية صغيرة متجاورة ،  
شبابيك خشبية مشغولة مثل النشريات ، تكرر هذه الشمس في النهار وتنتج على  
مصاريعها للجواء في المساء - واعتاد الباشكاتب أن يقضى وقتا طويلا في هذه  
الشرفة كل ليلة قبل أن ينام ، يجلس على مقعد أمام نافذة مفتوحة ويتابع ما  
يحدث في الشارع المزدهم بالقادمين من ميدان السيدة زينب والمتجهين إليه ،  
يحمل التسميم إليه في موسم الزهر عطر شجرة - التمر حنة - المزروعة في الممر  
الصغير أسفل البيت .

أما غرفة الباشكاتب فنعما فكانت تضم سريره النحاسي الكبير بأعمدته  
الأربعة المعلقة فيها الناموسية ، والكتب ذا الأذراع العديدة المعلقة باستمرار ،  
والذي تعلوه أكرام من الكتب المعلقة في ناحية ، وفي الناحية الأخرى مللت قديمة  
ياقة الخضرة ومصفرة الأضراف .

وعندما كبر سالم قليلا عرف أن الشقة التي يقيمون فيها هي شقة جده - وأنه  
هو أيضا مالك البيت الذى يضم ست شقق مؤجرة ، كان يبيت من أربعة حوايق



ولد سالم في ذلك البيت وعاش هو وأخته الأكبر قوزية والديهما شعبان الذي ظل يقيم مع أبيه الباشكاتب بعد زواجه وإجابته . ولا يذكر سالم أمه التي ماتت بعد ولده بستين، ولكنه رأى في الصور جميلة جدا، مثل أخته قوزية، لها وجه مستدير، وشعر كثيفان غزير يستقرس بعيدا وراء الكتفين، وعينان مملوءتان كزيتونين لامعتين ورشما هو وأخته .

واعتاد الباشكاتب توفيق أن يصحب معه حفيده منذ الصغر لكي يبعثها الجمعة في مسجد السيدة زيب، وعلمه من وقتها أشياء : أن يذهب إلى المسجد من طريق وأن يرجع من طريق آخر لأن هذا يزيد الثواب . وأن يشتري أشياء صغيرة بعد الصلاة . ليموت أو يعض المالكة أو البخور . وكانت قوزية تفتح أحيانا تقول إن البيت أصبح مكتسا بالليمون والبخور . فيرد الباشكاتب مبتسما وهو يربت على خدها : أهدي الزيادة للجيران . ثم يشير بإصبعه للسما، وهو يفرأ : اشراء بعد صلاة الجمعة ثوابه هناك .

كان الباشكاتب يحب حفيدته كثيرا . هي الوحيدة المسنوح لها بأن تنظف غرلته حتى في حالة وجود شغالة في البيت . ترتب الخلفات القديمة والكتب التي تملأ المكتب وتنفض التراب، ولكن لم يكن من حقها أن تغير ترتيب هذه الملفات أو أن تلمح الأدراج التي يحفظ هو وحده بمفاتيحها .

واعتاد أيضا أن يدخل معها المطبخ . يعطيها تصانيع وينوق الطعام، يقترح زيادة الملح أو الاكتفاء عند هذا الحد في تعمير البصل، ويريد أشجارا وأمثالا من معظم أنواع الطعام . ففي يوم طبخ القليقاس يضع يده على صدره ويردد : إذا سأتوكل من لملي قفل قاسى وقفل قاسى وعندما تطبخ قوزية الوجبة الخضراء يتظاهر بأنه يعرج وهو يقول : العاقل لا يأكل وجبة . أما في يوم الملوخية التي

كان يصحبها كثيرا فكان يفره يديه على أشاعهما ويقول بلهجة قديمة : طعام الملوك يا ملوكية . وكانت عنده عبارات كثيرة من هذا النوع تجعل قوزية وسالم يضحكان دائما . مع أن العبارات والحركات أيضا . لم تكن تتغير في أغلب الأحيان .

ولكن كانت هناك أشياء اختص بها الباشكاتب حفيده منذ الصغر ولا تشارك فيها أحده . كانا يجلسان معا فوق السطح ويتسامران، في الشمس شتاء وفي الأمسيات صيفا . يكلف اليد حليده يظهر كميات كبيرة من التمرس توضع بيتجا على حطب . ويصغر الباشكاتب غيبا كثيرا من التيمون قائلا لحفيده لميما : شبه الأمر كل . هذا ينقى الدم . ثم يكمل بضحكته الطلقة : لكن لا يصغر وجهك من أنفاس .

في يوم الخميس وهذه من كل أسبوع تنقطع هذه الجلسات . إذ يخرج الباشكاتب قبل الظهر ويرجع متأخرا في الليل . يرتدى في الغالب (جاكتة) واسعة قديمة من الكتان الأبيض . لكنها ثقيلة ومكوبة باستقرار ويضع فوقها - في الشتاء فقط - عمامة من الصوف البنى . ولم يكن أحد في الأسرة يعرف أين تذهب .

وكان خروجه - باستثناء ذلك - نادرا في الليل، حين يذهب في أمسيات متباعدة وغالبا في المواسم الدينية، إلى حلقات الذكر .

وحافظ الباشكاتب على عادات ورثها عن المرحوم والده، فكان هناك قارء - فريزير يأتي صباح كل يوم جمعة ليترنل آيات من القرآن الكريم مشربا على (كنية) في الصلاة الواصفة، بينما تطوف قوزية بالبخور في حجرات البيت المنفس . وواصل سنوات طويلة التقليد الذي استنه الحاج المسعدى بتغريق ذبيحة في المولد النبوي الشريف واستضافة مشبهين يرتلون بردة البوصيري فوق سطح البيت مع دعوة الجيران والأصدقاء إلى الوليمة والاستماع لغيره .

ولكن بعد إصالة الباشكاتب إلى الحاش لم تعد المكانيات تسمح بذلك.  
 فاكثفت في هذه المناسبة وتيزها باستتجار عدد محدود من القارئين يهتمون  
 المسحقة بتلاوة آراء أجزاء القرآن الكريم فوق السطح أو في حدة  
 البيت الكبيرة . وكان يحضر هذه (الربعة) ويتلو (بالمشاركة) منها من أبناء  
 الجيران . وفي ذلك اليوم كان سالم يتوجه مع أبوزيد البواب مصلين بالارفة  
 المحشوة بالبول النابت لنزولها على المسولين والمحتاجين المشغلين حول مسجد  
 أم الخواجر .

## ( ٢ )

في جلسات السطح شبه اليومية استمع سالم منذ صفوة إلى كثير من  
 قصص جده وذكرياته . وكان كثير من هذه القصص يدور حول مئة ومئة  
 شبابه . الباشكاتب السيد السنانيري ، الذي غلب عليه لقب « أبوظوطة » وكان  
 الباشكاتب المحب للصدق والمزج بشهراج بسوته وتقيم عيادته عندما يتحدث عن  
 صديقه ، الذي لم يكن في العادة يذكره أمام أحد رغم أنه لا يفتيق بين ياله . ولكنه  
 بسبب ما اعتاد أن يحكي عنه لسالم منذ طفولته . ففي الوقت الذي كان فيه السيد  
 كاتباً حديث التعيين في محكمة (أسبوة) في مطلع العشرينات من القرن العشرين  
 - أصبح عن الكثير من كرامات هذا الرجل المبارك - بل وشاهد بعضها . لكنه لم  
 يشهد بالطبع الكرامة الرئيسية التي أمثلته لقبه : أي أن السنانيري لم شوهد في  
 وقت واحد ذات يوم ومع يزدي صلاة العصر في مسجد سبنة الحسين في  
 القاهرة ويحضر مصلية في سوق أسبوط يصافح أصدقاءه ويحدث إلى غيرهم .  
 أقسم على ذلك أناس صالحون لا يرقى إلى شهادتهم أي شك : رآه بعضهم في  
 العاصمة وكلمه البعض الآخر في أسبوط وجزموا بأن ذلك كان في الساعة  
 نواحد .

سأني سائم - الذي كان وقتها في التاسعة من عمره - في شيء من الانتباه  
 والعبارة . كيف يمكن أن يحدث ذلك يا جدي ؟  
 فرد جده في خشوع : يمكن يا ولدي . يمكن أن صلت نفسه وتظهرت روحه أن  
 بفعل ذلك وأكثر منه ماثر ربه .



- ولكنك تدم على ما تفعل يا توليق أغني ، اليس كذلك ؟

فرد لي أسف

- بلى .. أدم ثم أعود كما كنت ،

- أدم باب الحياة والحياة باب التوبة .

- ولكني لست لك يا مولانا إني أدم ثم أعود ؟

- لا .. أنت لا تعود لأن الزمن لا يعود . أنت لا ترجع إلي ما تدمت عليه لأنه

انتهى ولن يرجع .

- إنني لست أرجع إلى تائب جديد ، فما الفرق ؟ وما فائدة التدم ؟ قل لي كيف

أجد الطريق .

سكت السنايبر لحظة وبدا أنه يفكر قبل أن يقول

- أراك تبتسم يا توليق أغني وأنت تفعل ، أرى زخافات يحمونك والناس

الذين يتوكلون يحمونك ، أراك لا تفوق في قضاة مصالح الناس بين الفقير

والغني ، بل أراك لشجع مصالح الضعيف قبل القوي ، كنت أضحك في سرى وأنا

أراك تضحك خلفات النافذة التي بدعيك أنت سبب التصايا لرمع قنات مع فصول

لهم أنهم تسوا بداخلها نقودا ثم تردعا إليهم . لم يخطر ببالك حتى أن هذه

رساوي وأنهم يدفعون لك ثروعا ثم تقضي لهم مصالحتهم بعد ذلك .

- وما علاقة ذلك بما نحن فيه ؟ قلت لك إني أنتقل من ذنب إلى ذنب .

- فكر صبي ، إن أنت أحببت وتعذبت في الحب وصبرت طويلا على ذلك

العذاب ثم فرت بعد ذلك بمن تحبها ، ألا يكون شعورك بهذا اللزق أكبر مما لو ظلت

الواصل بسرعة ؟

- لا أتقبل شيئا يا مولانا وأرجوك أن تحدثني عن التوبة لا عن الحب ، فانا لم

يخفى ويضعيني غير هذا الحب .

قال أبوخطوة وكأنه يوتيه :

- أحضرت هنا يا توليق - الحب يقرب ولا يبعد .

- ولكن متى ؟

- سيأتي الوقت ، ولكن تعلم يا ولدي ألا تطلب من الوقت إلا ما يثنى به ربك

ورب الوقت .

عشرات المئين مرت على ذلك الحوار وما زال توليق ينتظر التوبة .

ومع ذلك فليعترف بأن الحب أفضله طويلا ، وبأن الحياة بعد زواجه من سمية

لم تكن تشبه ما قبلها .

\*\*\*

احتج الأياضكاتب اهتماما كبيرا بدراسة عقيدة يسلم التي تنبأ له بمستقبل

باهر وتقل يساعده ويراجع معه المواد التي يعرضها منذ اللحظة الابتدائية وحتى

شهادة الثانوية التي وصل يسلم إلى مستنها الأخيرة في عام ١٩٧٥ . كان

أياضكاتب الحاصل على شهادة «الكفاءة» ، تلمذة متضلعة في اللغة العربية ،

يعرف جيده التاريخ والجغرافيا ، ولم يضل على عقيدته بدورين في اللغة

الإنجليزية رغم إقامه بية بسلم ولعبته فترة أثناء عرقته في إحدى المحاكم

المختلطة التي كانت تستخدم الإنجليزية والفرنسية ، وكان يفضي إذا ما رآه يهمل

في الاستفكار ويحضره : لو اهتم أيوك بمذاكرته لكان في حال غير الحال .

وكان يسلم يعرف أن أياه لم يتقدم في التعليم بعد السنة الأولى الثانوية من

النظام القديم فاضطر الجدد أن يوجهه الشجرة ، وساعده في إجابة فتح وصل

السعدى لتجارة الأقمشة والماليقاتورة ، بالقرب من شارع السد المجاور للبيت

والمزبعم بتخلات الأقمشة ولكن تجارة شعبان السعدى لم تزدح مثل تجارة

جده . كان المحل يدر دخلا مفعولاً في أولات حصص السويين التي يروج فيها

البيع والله سول ليست الظاهره التي نكر فيه الرجل على النحر . وتكاد أن يغضب

مهاريفه بضعوبة فيما عدا ذلك. وتل الباشكاتب رغم هذا يفتجع ابته ويساعده بالأسوال ولم يفقد الأمل في أن المحل سيأتي من ورائه خير كثير ذات يوم. هؤل على عوبة بركة الزاك وأيامه القديمة. وسالم مرة إلى أسبوة ملتسما بصيحة السنانيرى. وبغاه لولده. وكانت هي أخر مرة رأى فيها أبوخوة قبل أن ينتقل إلى رحمة الله.

ولم يكن سالم يتبادل كثيرا من الحديث مع والده أو يقضى معه وقتا كالأى يقضيه مع جده. كان شعبان مختفيا من البيت معنم الوقت وشبه مقبع في محل الأقسنة. وبعد وفاة زوجته المبكرة ترك شئون البيت وتربية ابته وابنته لجددهما. ومع ذلك فإن شعبان كان صارما مع ابته في شيء واحد هو متعة بلعا بانا من اللعب في الحارة التي يقع البيت على ناصيتها. فحريه فحريها قاصبيا ذات يوم عندما رآه يلعب الكرة مع الأطفال هناك. قال له: «هل هؤلاء العيصال من سستوانا؟»

عرف أن سالم وحذره من العودة إلى اللعب مع هؤلاء الأولاد. وحذره أيضا بمصلحة خاصة من أن يحتقنه أحد أو يلعب مؤخره سواء في الحارة أو الشارع أو المدرسة قائلا بشيء من الغضب بعبارة لم يفهمها سالم في وقتها «أنت جميل كالبنات فحاسب على نفسك»

ولم يلعب سالم كثيرا لامتناعه عن اللعب في الحارة. كان يحب لعب الكرة ولكنه يتقايى من مشاجرات الأولاد وسبابهم الفاحش للأب والأم أثناء الضجار. وكانوا هم يسخرون منه وراء ظهره ويتنرون على أديه وإن لم يجروا على إيدائه بسبب مكانة جده في الحي. ولسبب آخر أهم وهو أن سالم منذ صغره كان طويلا وعريضا بالنسبة لسنة وكانوا يحتاجون إليه دائما كحارس مرمى فريق الحارة لتسيفا عند اللعب مع فرق الحارات الأخرى. ثم أنه عندما شاجر معه ولد مشاحب ذات مرة وجرب قبضته القوية لم يفكر هو أو غيره في إعادة المحاولة.

وكان سالم بطبعه يكره الضجار والعنف بالصراكات أو الكلام. لهذا استجاب لأمر والده.

وهكذا فقد شب بون أن يكون له أصدقاء من سنه. سواء من جيرانه أو من زملاء دراسته. فكلت صديقته الوحيدة الحقيقية القريبة من قلبه هي أخته فوزية. فمع أنها لم تكن تكبره إلا بأربع سنوات. إلا أنها حتى وهي طفلة في الخامسة من عمرها كانت تعامله كمن بعد وفاة والديها. اعتادت أن تطعمه بيدها وأن تغير له شابه وتأخذه إلى الحمام. وعندما بدأ يذهب إلى المدرسة كانت تصحبه حتى بابها قبل أن تذهب هي إلى مدرستها. أما في العودة فكان أيره أو جده هما اللذان يصلحيان إلى أن تعلم العودة بنفسه. وينجده ويرجع فوزية من المدرسة كانت تعد له ولجددهما الغداء. وتلعب معه ألعابها المفضلة التي علمته إياها. «الكرتشة» «والسلم والخجان» وأحيانا «الاستغماية». وكانت تساهل عما حدث في المدرسة في يومه فيحكى لها وتراجع بنفسها ككاريبي وأجبانته قبل أن يتولى جده فقه المسؤولية. نادرا ما دبت بينهما المشاجرات الصغيرة الشائكة بين الأخوة. ولم يحدث أبدا أن اشتكى أحدهما من الآخر إلى والدهما أو جددهما. بل كانا يبيكان معا في خلوة إذا ما تعرض أحدهما لأي عتاب.

وعندما بلغت فوزية سن الخامسة عشرة اضطرت إلى أن تتفرغ تماما للبيت. كانت قد أصبحت امرأة حقيقية طويلة. ذات قوام ناضج كامل الاستدارة. ووجه ضيوح ثيرة عيناها الزينونيان وحيثه كأنها شعر كستنائى ناعم ومستمر. وبدأت المشاكل عندما يسبح في البيت آن شبان بالاحترتها ويعاكسرتها منذ خروجها من باب المدرسة. وجرى أحدهم ذات مرة أن يشيعها حتى باب البيت. وكان من سوء حظها أن رآه سالم من الممرضة لمهبط بسرعة البريق وقى يده بحجة جده الثقبة واتهال بها ضربا على العاشق الذي اضطر إلى الهرب جرياً. وسالم

الضبي بإخفائه حتى اضفى من الانتظار - وبعد تلك الحادثة أمر والدها بأن تبقى  
لويزة في البيت، لم تكن قد أنهت السنة الثانية الثانوية فاعتزلها جدّها قليلاً  
انتقلوا يا شعبيان على الأتل حتى تحصل على الشهادة، فرد شعبيان : الهند  
مصيرها الزواج يا ولدي، قال والده : ولكن الشهادة سلاح في يدها، فقال  
شعبيان : لن أزوجها لشخص تحتاج معه إلى أي سلاح - ثم أقفأ فبعثا شعبي  
الضراية : لا نتحدثنا للمشاكل يا حضرة الأباشكاتب ، البنت يتيمعة وفي سن  
صغيرة -

رأى الجد أنه لا يستطيع المجادلة في قرار يصور عليه الأب - أما لويزة نفسها  
لم تهتم فقامت باستهانة ومن التي تكي على (العلام) ؟ البيت أحسن لك  
موقعا ،

كانت تعي تماماً أنها جميلة وأن الزواج لن يتأخر ،

فمنذ وقت كانت تبادل عبارها (فراج) الطالب الحب والموايد دون أن يشعر  
بذلك أحد في الأسرة ، بذت العوفة من شباك المنيع الذي يطل على منزل  
فراج في الحارة ، وكانت تنتظر معه أن ينتهي من الدراسة في الجامعة ليشر  
الزواج .

\*\*\*

وفي تلك الفترة عندما كان سالم في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره حدث  
شئ غير متوقع -

شليبا لم يكن سالم يشير إلى مشككة في البيت، كان طفلاً عابداً ، محبوباً في  
أسرته، ناجحاً في مدرسته ، عديداً مغرباً الجدة والأخته ، وإن ظل ضموها معظم  
الوقت ما لم يكلمه أحد - غير أن تلك لم تكن مشككة، بل اعتبرها جده ميزة وأسماء  
«عبادة بن الصامت» شيئاً بالضحايى الجليل - ولم يكن أحد في البيت يعرف عن  
هو عبادة، ولكنهم كانوا يضحكون عندما يطلق القيق على سالم المزوى في صوته  
الطويل ، بل كان سالم نفسه يشترك أحيانا في الضحك -

حدثت المشككة الحفيضة ذات مساء شتوي ، والأسرة كلها مجتمعة في البيت  
بعد العشاء في انتظار وفد سالم بعد عنيهم مجوار حادق وكان بينوا سمير  
واليسار بحرمة بسيمة منتظمة ويدها خلف ظهره وكانت يلعب وحيدة ثم فجأة  
انطلق يقول بصوت مرتفع «يا غبي ! .. يا تامة ؟»

التفتوا نحوه في دهول وكان هو يصوب نحو جده وأبيه وأخته نظرة ثابتة لا  
يطرف له فيها جفن ، وبعد تلك البداية تكلم بنفس الصوت المرتفع والظفرة المركزة  
أنهم «حوش وثربة حوارى وأولاد مستن» ثم راح يسيب في شتائم جنسية بذئة لا  
تخطر على بال أحد في هذه الأسرة .

ظنوا ينظرون تعود ميهوتين وهم لا يصدقون أذانهم، وعندما بدأت الشتائم  
الجنسية ألفتت من فوزية ضحكة عالية بالرغم منها فظفر لها أوجها نظرة قاسية  
ثم تجلس في الحال وانبال على ابنه بالضربات واللكنات وهو يأمره أن يخرس فلم  
يلتح في إيقاف سبل الشتائم المتدلق، ثم سد فمه بيده بينما راح سالم يتلعص  
منه ويتنطق من فمه أشتائم الشتائم كلما استطاع الإللاء من قبضة أبيه .

قامت فوزية أيضا وكانت تحاول أحيانا أن تنقذ أخاها من الضروب وتتفاد  
على جسمها بدلاً منه - وأحيانا أخرى تشارك في ضربه عندما تجد أن بذاته قد  
زادت على الحد - ولكن شيئاً لم ينجح في إيقاظه لا الضرب من أبيه ولا الملاينة من  
أخته إلى أن هذا أخيراً من لقاء نفسه وجلس على الأرض وهو يلهث -

كان ذبوه وأخته يقفان فوق رأسه ، وقتل شعبيان ينظر له في غضب هائل ثم  
قال بعد فترة :

- من علمك هذا الكلام القذر يا ولد؟

فقال سالم بصوت مجيد ودهشة شديدة:

« أنا يا أبي ؟ أي كنوم قذر ؟

وبدا واضحا أنه لا يذكر أى شيء مما حدث .

وطوال هذا الوقت ظل الجدة جالسا في مكانه وهو يكرر بصوت متهدج «سلام قولا من رب رحيم .. سلام قولا من رب رحيم» يعلو صوته ويخفئ مع إبتاعات عبارات حفيده .

تجاءلت الأسرة ما حدث بعد ذلك ولم يتطرق إليه أحد . ظل جده يراجع له دروسه ويصاحبه إلى صلاة الجمعة كالعتاد . ويراقبه بين المصن والآخر وهو يضع يده على رأسه ويترنم الموعظتين ثم إنه علق حجابا قديما في صدره وتصحبه بشدة ألا يترنم من مكانه . وعندما كانت غزيرة تطوف بالمحبرة في البيت صباح الجمعة كانت تبطيء بشكل خاص وهي تدبرها حول رأسه وتدعو له في سرها . ولكن هذه التوبة من التهيان تكررت بعد شهرين أو ثلاثة بالطريقة السابقة نفسها .

كانت الأسرة صجتمعة بعد العشاء في الصالة ودار حديث غاير عن أن تاجروا ثوبا في السوق تقدم إلى شعبان يطلب يد فوزية فرد عليه شعبان بما يعرفه وما أكدته فوزية أكثر من مرة وهو أنها لن تفكر في الزواج قيل أن ينتهي سالم من الثانوية العامة . وقال الجدة ضاحكا : وكنت تستطيع أن ترد عليه بذلك يمكن أن تسأل السمين لو زوجت فوزية قبل بلوغها السن القانونية . فقال شعبان لا يسمع هذا من عند الخطوبة إلى أن تبلغ السن . لوحت فوزية بيدها وقبالت سجيامة ضحكات حدها . لا سجين ولا خطوبة ولا زواج قيل أن أزوجهكم أنتم الثلاثة .. لا بد أن أطمئن عليكم جميعا أولا في بيت العدل . ثم ذهبت بهجة جادة وحاسمة ليس قبل أن أطمئن على سالم في الجامعة . وبعد أحاديث أخرى عابرة قاموا جميعا لمشاهدة المسلسل الكريميدي في التلفزيون الذي اشتراه الجد حديثا وعلت ضحكاتهم . لكن سالم انتبههم وذهب إلى جوار الحائط وبدأ اعتزازه اللطيف المنظم ثم بدأ سيل الشائعات من جديد . بعد تلك المرة أصبر أبوه على أن يصحب

إلى طبيب نفسي رغم أن الجد لم يشمس أبدا لهذه الفكرة . كان يرى أن هذه مشكلة عابرة ستنتهي مع الوقت ومع الدعاء الصادق بأن يكشف الله عن حاله الكريم . لكن شعبان أصبر على رأيه .

كان الطبيب النفسي الذي سمع عن مهارته عجوزا يبتو على وجهه الإرهاق وتعبير لفت نظر شعبان . كفته ثغاد الصبر أو الاستعداد للانفجار في أى لحظة . لكن على العكس مما تصوره فقد قضى الطبيب وقتا طويلا مع الأب على انفراد واهتم بأن يسمع ويأن يعرف أوضاع الأسرة والطريقة التي يقضي بها سالم وقته ثم سأل عن حاله في الدراسة .

قال الأب إن سالم طبيب عادي لم يرسب في أي سنة وإن لم يكن أبدا من الأوامر . غير أن مدرس الحساب يقول إنه مثقوب في مادته . وهو يفضّل بالفعل على درجات مرتفعة . بل على الدرجات النهائية في بعض الأحيان . ويشيأ له مدرسه يستحيل كبير في شرم الرياضة .

ولمى اللغات ؟

لا .. درجاته عادية

سأل الطبيب إن كان مستواه الدراسي قد تدهر بعد هذه التويات فقال شعبان إن جده الذي يشرف على دراسته . لم يلاحظ أن مستواه تغير . كما أنهم لم يلقوا أي شكوى من المدرسة

سأله أيضا إن كان قد لاحظ عليه أي شيء غير عادي قيل هذه التويات أو بعدها . بل تصيبه حالة من التشنج مثلا أو الإغماء ؟

لم يلاحظ شيئا من ذلك ولكن أخته تقول إنه تأتيه أحلام وكوابيس في الليل .

يشتم الطبيب : أخته تقول وجوه يذاكر له . أنا أسألك أنت!

هو ، لم يستطيع أن يقبض شيئا غير أنه قال إن عيني سالم كأننا نعيمان  
 أثناء النوبة ، ويسمى أنه لا يشعر بأي شيء وحوله ونحن ننهي بيدو عليه أوهان  
 شديدا ولا يذكر شيئا مما حدث .  
 ولكنه تذكر شيئا فقال إن سالم ظل يبذل في قرأته حتى سن السادسة أو  
 السابعة .

أشاح الطبيب بيده قائلا : عادي ! ألم تقل إنه فقد أمه في الثالثة من عمره ؟  
 لمعنى الطبيب العجوز سالم بعد ذلك بفترة ، أجرى عليه كشفا بالأجهزة ووجه  
 إليه أسئلة وأعطاه أعيايا مفككة من الكررتين ليعد تركيبها وعرض عليه سورا  
 غربية الأشكال طلب منه أن يحدث عنها وراء فيها .  
 وأخيرا أختلى الطبيب بألب مرة أخرى وعاد يسأله فيما يشبه التائب : ما  
 هي المشكلة ؟  
 شرح الأب من جديد حكاية النوبتين اللتين أصابتا سالم والشتائم التي  
 ينطقها .

قال الطبيب وهو يحول وجهه المحتفل عن الأب : والله أنا شخصيا أفعل ذلك  
 في سرى طوال اليوم وليستني أيوح بهذه الشتائم مثل إبتة ، ما أكثر من  
 يستحقونها !

أشدت دفقة الأب وبدا ذلك في نفثته فعاجله الطبيب في صمم  
 : « الولد طفل عادي فتركوه في حاله »  
 قال شعبان مضجعا :

- ولكن يا دكتور الأطفال العاديون لا يشعرون أباهم !
- بل كثيرا ما يمتصونهم في سرهم .
- أنا لم أشم أبي في سرى أبدا .
- أنت حر .

ثم غور الطبيب الموضوع : اسمع ، كنت أستطيع أن أجعلك تذهب وتجيء إلى  
 العيادة دون داع كما يفعل عيوي ، ولكني لمحضت الولد وأجده سقلا أدكي من  
 المتوسط وأنت تقول إن سمته في المدرسة لم يتغير ، وسؤلكه عادي باستثناء هذه  
 الحالة التي لا تأتيه إلا في البيت ووسط أسوته فما هو الخطر ؟ هل تعرف ؟  
 عندما كنت أنا في من إبتك كنت طفلا متطوبا على نفسي وكانت تكتفي حالات  
 تزيف من الأنف وإغناء التزجع لها أهلى ولم يستطيع الأشباء علاجها ولكنها ترفقت  
 من تلقاء نفسها بعد من المراقبة .

لم يستطيع شعبان أن يلهم العلاقة بين تزيف ابن الطبيب الطفل وحالة والده  
 ولكنه قال وهو تخير كلماته ولكن ربما يمكن يا دكتور أن تتطور هذه الحالة وتأتيه  
 خارج البيت أيضا .

قال الطبيب في هتو : يتكرر جدا إذا استمرت حياته كما هي وكما لمهتمة  
 من كلامك ، يجب أن يتنزه هذا الولد خارج البيت أكثر مما يفعل الآن .

ورغم إلحاح الأب فإنه لم يكتب تواء ولم يوضح بأي علاج آخر ،  
 لم يقنع شعبان بتشخيص هذا الطبيب ، وصحب سالم بعد أيام ، وبعد أن  
 استشار أكثر من شخص - إلى طبيب آخر مشهور بعيادته في باب اللوق .

لم تختلف أسئلة هذا الطبيب ولا طريقتة في الكشف عن الطبيب الأول إلا أنه  
 كان أسرع منه في كل شيء ، ولم يقل للأب أي عبارات مطمئنة بل طلب إجراء  
 رسم مخ لسالم . كان يشك في احتمال إصابة الطفل بالصرع ،

ومع أن نتيجة هذا الرسم لم تكشف أي شيء غير عادي لمي مع سالم ، مما  
 حير الطبيب إلى حد ما ، لقد كتب (روشة) طويلة فيها كثير من العقاقير ، على أن  
 يعود لرؤية الطبيب مرة أخرى بعد انتهائه من تعاطي الأدوية .

وبعد أيام قليلة من هذا العلاج أصبح سالم يقضي تناره كله في المراتش  
 وعندما يصحو كان يسير في البيت مترنحا ويرطم بالأثاث ويسقط أحيانا في  
 الأرض ، وانقطع بضيعة الحال عن المدرسة .



بكت فؤزية كثيرا) وهي ترى سالم في هذه الحالة وقالت لجدتها : دعوه يشتم كما يشاء يا جدي. لن ينجو أحد من الشقيقة ولكن أخى سيموت من هذا العلاج !  
كلم أبى .

وبعد ظهر أحد الأيام دخل الجد إلى غرفة سالم فلم يجده هناك . بحث عنه في كل الغرف الأخرى وفي المطبخ والحمام دون جدوى . وأخيرا عاد الباشكاتب إلى غرفته هو وفنش جيدا فوجد سالم يتام على الأرض منكورا أسفل سرير جده . لمحمته يرفق إلى غرفته ويضعه على قراشه . شعر به سالم ففتح عينيه بصعوبة وقال لجدته بصوت واهن : قل لي يا جدي ، هل أنا مجنون ؟

فانحنى جده وهو يضطهه في صدره بقوة وقال بصوت هشتاق : يا ولدي ، بل نحن المجانين .

ثم إنه جمع كل العقاقير والأدوية التي اشتراها الأب وانفى بها في القمامة . وفعل شيئا تافعا ما يفعله إذ رفع صوته وقال لاينه في غضب : ابعده يا شعبان عن الولد واتركه في حاله .

اجتمع الأب باسم الطبيب المشهور والمبلغ الكبير الذي دفعوه في رسم الكشف والأدوية . وقال إن العلاج لم ينفذ بعد حتى يحكموا على قاتله . لكن غضبة الجد اكتسبت كل الاعتراضات واضطر شعبان إلى أن يترك سالم في حاله بالفعل .

تعدوا بعدها على التزام العمت وتحويل أفتارهم بعيدا عندما تتباه تلك الحالة التي أحسهم وأراحهم أيضا . أنها لا تكتفي خارج البيت . وكما تنبأ الجد فقدم تلك التوبيات مع امر البنتين وأصبحت تائرة الصدوث حتى أوشكت أن تختفى . ثم بدا للجميع بعد سن الشرافة أنها قد أضلت بالفعل .

### ( ٣ )

كان سالم في نهاية السنة الثانية الثانوية - قبل عام تقريبا من حصوله على الشهادة التي انتقلتها فؤزية طويلا - عندما تقدم جازهم فراج ليطلب بدأخته .

استقبله رجال الأسرة الثلاثة في حجرة (الباتون) . وشكر سالم أنه رآه بعدة مرات في الطريق خارجا من الحارة أو داخلا إليها . وأنه كان في بعض الأحيان يرفع له يده بالضمية فيردها له سالم بالمثل ولكنهما لم يتبادلا أي كلام . جساء مرتبدا قبيحا أبيش جديدا وينظونا وماديا . وكان شايئا ومسيما . طويلا ومفتول العقل . يحيط بوجهه الأسمر شعر غزير قاتم السواد يشطه يفرق في جانبيه . وكانت عيناها السوداء تلمعان حين يركزان على مسدته قيتيش وجهه كته بالضيوة . وترسم على ملامحه ابتسامة ضيعة دائمة .

وبعد تناول الشراب وعبارة الترحيب والمجاملة قال فراج إنه جاز لهم مدة ويعرف الكثير عن سمعة أسرة حفصة الباشكاتب الطيبة والذائعة في الحي . فكه . وأنه يشعره كثيرا أن ينتسب إلى هذه الأسرة الكريمة . كان يتكلم بلهجة شديدة التهذيب ولكن مع ثقة واضحة في النفس .

سأله شعبان - الذي استلزه أن يحضر فراج لطلب يد ابنته دون أن يكفه نفسه بقاء الرضاء بذلة كاملة - سأله بضمي من الفتور فإذا لم يتشرفوا بمقابلة السيد الزائد في هذه المناسبة؟ فاعتذر بن والده الثقيمين في القرية عجوزان لا يحتلان مشقة السفر ولكنهما سيحضران بالتأكيد إذا ما تم الله بخير .

سأل شعبان ، بالهجة نفسها ، عن اسم هذه الفتوة ومكانها . لكن الباشكاتب فاطم استرسال هذا الاستجواب وخاطب فراج مع ضحكة صغيرة : سألتني أنا يا

ابني عن بشقة السفر، حتى مشوار القبة أصبحت أعتبره في سني هذه سفرا بعيدا، ودهش شعبان لأن هذا لم يكن صحيحا، إذ كان الياشكايب يخرج ويمشي كثيرا كل يوم. ومضى الجد يسأل فراج باسمه عن نوع فرائضه وعطه فقال: إنه يخرج في كبة التجيزة قبل شهور وكان محتفظا إن عينه القوي العاطلة في شركة قطاع عام الجعابن في حلوان. والعقبى للأخ سالم إن شاء الله.

تدخل شعبان مرة أخرى ليسأل عن مرتبه في هذه الشركة، وعندما سمع المبلغ أصابه الذهول وسأل: وكيف تنوي يا ابني أن تفتح بيتا بهذا المرتب؟ رد فراج بأنه والجد أنه مرتب كبير بالفعل يزيد عن مرتب زملائه الذين عينتهم القوي العاطلة في الحكومة، ثم إنه عندما كان في الجامعة كان يدرس ويعيش بقل من نصف هذا المبلغ، فكيف لا يكتفي بتكمله الآن لأثنين؟

قال الأب: وعندما تنجب أولاداً ياذن الله؟

فرد الخاطب: سيكون المرتب قد زاد، قلت لحضرتك إن هذه الشركة جديدة ومستقبلها كبير، ستكون الثوابت فيها أسرع من غيرها، بل هناك يا عمي كلام عن احتمال مغربي في بعثة إلى ألمانيا الشرقية، لأننا بعد أن انتصرنا في حرب أكتوبر بحمد الله ستلتفت الحكومة أكثر إلى الاقتصاد وسيؤخر على الصناعات بالذات. ولو قرعها رينا بهذه البعثة إلى ألمانيا قريبا فستتمكن من ادخار مبلغ كبير والشبكة.

سأله الجد: وبمناخية الحرب ماذا عن فترة تجديده؟

لقال فراج: أنا معلى لأني وحيد والدني ليس لي سوى أخت واحدة متزوجة في البلد، ولكني كنت أعتني مع ذلك لو شاركت في حرب أكتوبر،

إيتمس الجد قائلا: إذن فلي هذه الغرفة أربعة معقبين من التجديد للسبب

نفسه!

لكن هذه المقاطعة من الياشكايب للمرة الثانية لم تعجب شعبان الذي عاد يسأل

- تعني يا أستاذ فراج أن مبلغ المهر والشبكة غير جافز؟

فرد ببساطة: بالتطبع لا، من أين؟ تعب والذي القارح حتى نهر مصايف تلميم، وألآن يجب ألا أطلب منه شيئا بعد أن توفقت. بل جاء دورى لأرد له الجليل.

مضى شعبان وهو لا يصدق نفسه: إذن فببساطة الأسرة في البلد أبخس من مرتبك؟

غاضبت ابنة فراج لأول مرة وتصلب وجهه وهو يكرر: بالتطبع، يجب أن أود لأبى وأمى الثوب.

تدخل الياشكايب مرة ثالثة في الحوار: هكذا يتصرف أولاد الأصول، مبارك عليك يرك بوالديك يا أستاذ فراج ولكن أين تنوي أن تسكن عندما تتزوج إن شاء الله؟

- في شنتي -

ارتفعت صبيحة سالم حادة ورقية: في الحارة؟

فتفكر له جده نظرة صارمة. كان قد حفره قبل زيارة فراج من أن يفتح قبة بكية، قال له هذا موضوع يتكلم فيه الكبار فقط.

أخلى سالم رأسه على مضض وهو يكر على أسنانه لكن فراج رد وهو يعاود الاستمارة.

- نعم يا أخ سالم، في البداية على الأقل، إلى أن تدخر مبلغا يكفي لتسكن في مكان أفضل. وسيبعد هذا صدفتي، ربما بعد البعثة بالبحر.

ثم اتسعت ابتسامته وأشرق وجهه مرة أخرى وقال: أنا يا حضرة الياشكايب ويا عمي شعبان ويا أخ سالم إنسان متفائل وواثق من المستقبل بفضل الله، شاركوني في التفاؤل وستكون أيتكم في غيري.

أوشك شعبان أن يقول لفراج إن التفاؤل في هذه الظروف يكاد يكون وقاحة،  
لكنه مضط على نفسه وقال :

- ولكن لماذا لا ننتشر يا أبتى حتى نكون مستقبلك قبل أن..

فاستمرت مقاطعات الباشكاتب لشعبان وقال مخاطباً فراج :

- أنا أيضاً يا أستاذ فراج متفائل مثلك دائماً وأحب المتفائلين.

ثم أكمل بليجة من يريد إنهاء المقابلة : وإذن فعلى خيرة الله . أترك لنا قرصية  
للتشاور ولكن نسال ابتداء عن رأيها وسنكون الرد خيراً بإذن الله.

ثم نهض وصالح الخاطب وسط نظرات الدهشة من الابن والحفيد . وبعد أن  
ودعه جثم الباب وانصرف الفجر شعبان مدحماً :

- كطبخ وأنت الصراة؟ ماذا جرى لشعبان هذه الأيام؟

غير أن الباشكاتب قال : تعال يا شعبان . أريدك في كلحين.

ودخلا من جديد حجرة الجلوس . أما سالم فقد توجه بنقله إلى حجرة أخته

التي كانت تجلس على السرير مستعدة بمرقها إلى الدخان وتبدو مستغرقة في

التفكير . وعندما فتح سالم الباب لم يخط خدمت على الفور ما يدور في رأسه

فواجهته باهتمام ممتصبة عندما قال :

- هل رأيت ؟ - جدي بدلاً من أن يطرده.

- لماذا تريد أن يطرده يا سالم ؟

- فلاح وبغلي وسكن في الصارة ويحمل أن تسكن فينا معه . تصوري ؟

سكنت فوزية فاستحشها سالم وهو يشعر بالخوف : ستترلعمن بالطبع ؟

أحلت فوزية رأسها وقالت ليست أنا التي تقبل أو ترفض يا سالم . الرأي لأبيك

وجداك.

فصاح مستكراً : ولكنك رفضت أكثر من مرة ولم تسمعي كلام أهلك أو

جداك فما معنى ..

ثم انخرط فيادة في اليكاء .

قامت فوزية واحتسنت أخافاً بشدة وراحت تقيه وهي تقول :

- أسكت الآن يا سالم . أرجوك انتظر ما سيؤول ألي.

وكان أيرها وقتها يردد كلاماً مشابهاً في مواجهة الباشكاتب يكاد يلونه لآله

لم يترك له الفرصة ليرفض هذا الخاطب على الفور . كانا يجلسان على مقعدين

متقابلين ولكن الباشكاتب ظل محتفظاً بهويته وهو يسمع إثني أينه الثائر بكيل

الشاتم للجدار الواقع الذي تجرأ...

غير أن الباشكاتب مكثه رجلى على مقعد مجاور لولده وتكلم بصوت خفيض:

- نعم . معك حق يا شعبان . أنا أيضاً مثلك أتمنى مستقبلاً أفضل لفوزية.

أعرف أن هذا الشاب لا يملك شيئاً غير وسمائه . وأعرف أن المسكن الذي سرت أن

تعيش فيه فوزية معه لا يزيد على حجرتين صغيرتين .

- بالطبع لن تعيش فيه ! لن أوافق أبداً .

ثم انتبه لشيء في حديث والده فاستدرك : ولكن كيف عرفت حضرتك أن منزله

من حجرتين ؟

زاد صوت الجدة خفوتاً حتى كاد يهين .

- فوزية هي التي قالت لي .

- وما أترأها هي ؟

- هي تدري .

- كيف ؟

سكت الجد وهو ينظر في عيني ولده . فارتاع شعبان وهي واقفا وظل ينتظر

أبيه صامتاً للثقة بل أن يهين بدوره

- نعمد ..

نعالجها الجذ : لا أقصد شيئا يا شعبان؟

ثم أحضر رأسه وكأته بكم نفسه : تمنيت لو موت هذه الليلة على خير . تمنيت على الله أن تقبل هذا الشاب لأن ابتك شريفة ، تمنيت ألا تسكنني عشي . ولكن . . . سكت مرة أخرى ثم خضع وفي صدره لحة : تروى ابتك بسرعة يا شعبان .

ظل شعبان يلف في مكانه بقماته الطويلة النحيلة مبتلا على أبيه بوجه مستقر

وعينين مغمورتين تحسبان الدموع . ثم قال بصوت مرتجف

- أنت أفسدت حياتي يا أبي !

وقف الباشكاتب بحدوده وعفلات وجهه قرنهش

- أنا الذي أفسدت حياتك يا شعبان ؟ كيف؟

- أتجنت منى أولادى وضيعتهم كما ضيعتني !

كان جيبه الباشكاتب كنه الآن يربويف ويبد بصعوبة صوته الذي كان يحتبس

أحيانا ويضجول إلى غنمة غير مفهومة

- متى ؟ كيف ؟ تكلم . . هل تحسب يا واه أنى كنت أعرف شيئا ؟ أنتى يمكن

أن أعرف شيئا ؟ هى ابتك فلماذا بعد أن صنعت على أن تقطع دراستها لم

ترافقها ؟ أنا شغفت يا شعبان ؟ وكيف كائن يمكن أن أعرف ؟ هى بالأس لفت

كلمتى وأنت الذى حدثت شباب المود عندما جئت فى المنزل .

كيف . . متى كان يمكن أن أتكلم ، ومائة لفت سبقتك لك؟

ثم نفذ الفترة على السيرة على نفسه فارغم صوته : خذ أولادك يا شعبان

واترك هذا البيت لتربيهم كما تشاء متى . فل لى منى شغلت أنا من أن تقنوب

منهما أو من أن تربيهما ؟ متى أفسدت حياتك ؟ قل . لماذا لا تتكلم ؟ كل شيء

حزلك محب الحزن .

ماذا كنت تريدنى أن أفعل ؟

كان شعبان يلف مستغرقا فى حبة لا يكاد يفقه ما يقوله أبوه أو أن يتابع توتره . غمره إحساسه بالاعار والغضب والهزيمة . فترك أباه وألقا وسط العرة واتدفع خارجا ليجد سالم وفوزية يقفان مذعورين فى الصلاة لا يرتفع صوت أبيهما لى وجه الباشكاتب لأول مرة . فى حياته . خرجنا أبوهما بنظرة غاضبة . تكاد تكون كارهة . قبل أن يخرج من البيت ويصلى الباب وراءه .

\*\*\*

فى تلك الليلة غزت سالم أحلام وكوابيس كثيرة . فى البدء زأوت أمه . التزمت

منه واحتضنته وألقته شبيهة الترضع . فقال أنا كبرت يا أمى ولكنه مع ذلك راح

يوضع لى نيم شديد قبل أن تنزع ثديها فجأة وتقول كيف ؟ ألم تصبح رجلا يا

سالم ؟ قال ولكن يا أمى . . وهو يمد يده فى ينى أسمعها الذى يشر به العين دون

أن يلفه فتألت إبهض يا سالم وأغسل فك ثم قال لى عند الكبيرى ومعك التريمان

ولا تقل لأبيك . مثل يجزى وراءها وهو يشرى لكن يا أمى . . لكن يا أمى : فجاء

شعبان معصكا بعصا الباشكاتب التى أصبحت فجأة أطول من أبيه نفسه وراح

يقبىب سالم على بطنه وهو يقول اخبرجه ؟ أخرجه يا ولدا ! وهو يسدل وسط

لأعات النجى ما الذى أخرجه ؟ خذ كل شيء . واتركنى . غير أن العصا صارت

خنجرا مشرعا فى وجهه ولم يكن الشخص الذى يفسل الخنجر أباه فارتعب وراح

يصرخ .

ولم يشعر سالم باليد التى جاءت تصيح جبينه وتهدده وشجفه عرقه وتعدل

وضبعه فى الفراش إلى أن دنا ارتجافه ونشيجه .

لكنه فى الصباح كان مجعدا وكان شاحيا . لم تعاوده توبة البهتان كالمعتاد

بعد الكوابيس . بل فوق لى صمت عتيق . وحذت فى تلك الليلة شيء . كان قد توقف

منذ فترة طويلة . إذ يال لى فراشه .

\*\*\*

لجأة الباشكاتب إلى شرفته وبقي فيها طويلاً، جلس يفتلح مجموعها إلى الطريق الذي دائما ما تسري عنه حركته وعابروه ولكنه ظل ينظر لور أن يرى أو يسمع. كيف استطاع شعبان أن يقول ما قاله؟ ضيعه وضيع ولديه مرة والحقيقة ماذا كان يوسعه أن يفعل لهم أكثر مما فعل؟ أعطاهم عمره وماله وحبّه، فهل ضيعهم الحب؟ ماذا يقول أبو غسولة في هذا وفي الحب الذي يقرب ولا يبعد؟ هناك لحظة ما، فما هي؟

أي ذك كان يستطيع أن يبذل أكثر مما يبذل هو لشعبان؟ أصعب قبل أن يولد بقدر حبه لسمية، أخيه كجزة من أغالية التي ماتت حياته قبل أن يكون ولده، ولكن حتى في طفولته الباكورة وقبل أن تمت أنه كان بعيداً وثانياً. يحب أن يلعب وحده ولا يريد الاختلاط بغيره من أطفال الجيران، وبعد أن ماتت سمية عاش له أبا وأما، يلعبه ويلبسه ويذاكر له نروجه ويكاد يلازمه طول الوقت ومع ذلك ظل شعبان مصحفاً ووحيداً، راوده الأمل في أن يتغير ولده بعد انتقاله إلى محكمة في القاهرة قليل وقاة سمية، كان شعبان وقتها في العاشرة من عمره، وسكان البيت كلهم يعيشون كاسرة واحدة، تمنى أن يشجعه ذلك على الخروج من البيت والتعب مع أولاد الجيران لكنه لم يفعل. أراد دائماً أن يبقى وحده ولم يعرف هو أبداً ما الذي يدور في رأس ولده، أم أنه في الحقيقة لا يوجد أي شيء يدور في رأسه؟

يتذكر دهنه حين كان يذاكر له دروسه في المرحلة الابتدائية، يذكر عجزه عن أن يكتب ولو سطراً قليلاً في أي موضوع للإتشاء، اعتاد أن يشرح له الموضوع، ويزوده بالعناصر التي يمكن أن يكتب عنها، ويعطيه ما يسمى بالجمل المفيدة لكي يستحب بها في كتابة موضوعه، فلم يكن يفعل غير أن يعيد كتابة هذه الجمل، كان محروماً من أي خيال، وأحزنه كذب في آخر الأمر أن يسلم بأن ولده لا يملك أي

ذكاء. لم تكن مسألة النروس الخصوصية معروفة أيامها في مطلع الأربعينات ولكنه جاء له مدرس من لكل المواد فاشتكو جميعاً من بقاء فهمه.

بالكاد استطاع أن يعبر به مرحلة الدراسة الابتدائية ثم تعسر بعدها، ظل يرمب في أول سنة من المرحلة الثانوية ويعيدها المرة بعد الأخرى إلى أن فصلوه من المرحلة الحكومية، أدخله مدرسة أهلية ظل يطلع لها وللمدرسين الخصوصيين معلّم مرتبه ومع ذلك لم يتق شيء. وأخيراً، بعد أن أصبح له شارب كش وأشرف على العشرين من عمره اضطر أن يسلم وأن يقطع دراسته. أعاد فتح محل الحاج السعدى على أمل أن يفتح السوق ابنه ما قضت فيه الدراسة، لكن شعبان لم يكن هو الحاج السعدى الذي عاش عمره صديقاً لكل وجيرانه في السوق يخضعهم ويخدمونه، يجلب لهم الزبائن ويجلبون له، يحب زبائنه ويحبون معاملته لهم رساله عن أخبارهم وعن أحوال أولادهم فيرجعون إليه باستمرار. لم يستطع شعبان أن يفعل شيئاً من ذلك، عجز عن أن يصادق أحداً في السوق بعد أن عجز قبل ذلك في البيت.

ابن كانت غلطته إذن وأين كان تقصيره؟ أو لم يستجب بعد ذلك لطلبه بالزواج بعد أن فتح له المحل؟ ليته ما فعل! فليستغفر الله كيف كان له أن يعرف ما يقبته القدر؟ فعل أيضاً أقصى ما يوسعه، زوجه فتاة مهذبة من فتيات سمية ومن قريبتها، وكانت سعيدة جميلة ووريفة، تسعدو سكره قبل أي إنسان ويقوم بعفورها بكل الأعمال في البيت، تحنو عليه وعلى الأسرة كلها بحب لا تكلف فيه، لم يسمحها يوماً تشكو أو تذمر من زوجها أو من مشاكل طفلها، أكلها بهذا السبب ماتت في صمت، نون أن تصرخ ونون أن يسمع أحد صوته أو تطلب المساعدة، عندما لُزمت غرقتها يومين وبخل اليسال عن صحتها حاله شحوب وجهها، ولما سمع من شعبان أنها تشكو من التزيف من يومين سلك لماذا لم ينقلها إلى

المستشفى على الفور؟ لماذا لم يخبره بحالتها من قبل؟ رد وهو يرتجف خائفا بأنه يعتقد أن هذه الأشياء طبيعية لدى النساء، وأنها مستشفى من ثقاة تلمسها، وعندما نقلوها بعد ذلك إلى المستشفى كان الوقت قد فات، قتلها بأعماله، بساذجته، أو قبيحتها، بغيائه: لا - فليستشفى الله من جديد! حان أجلها هذه كل ما في الأمر، نعم - حان ولكن على يد شعبان؟ متى إذن سمع شعبان؟ حين ضمهم على أن يتعلم؟ حين ساعده على فتح محل جده؟ حين زوجه من سعاد؟

أهدأ - أهدأ يا حضرة الياشكايب:

نعم - كانت نيته حسنة في كل ما فعلته، لكن كل شيء انقلب إلى عكس ما يهمني، فلماذا إذن بدلا من أن علوم شعبان لا تحاول أن تفهم السبب، هل هي عقوبة من الله؟ إن تكن كذلك فهل يستحقها - يستحقها من جدارة، عاش عمره كله بطبع بئرته، ألا يستحق عقابا على ذلك؟ ألا يستحق عقابا على ما يفعله الآن بغيائه؟

تواضع يا حضرة الياشكايب - تواضع قليلا قبل أن ترمي ابنك بالغباء، ربما تكون أنت أغبي من غيره. فكر في أن شعبان لم يقصر عمدا في أي شيء، قلب منه، حتى في المدرسة لم يكن يهمل دروسه كما اتهمته أمام سالم، كان يقضي ساعات طويلة في الاستكثار وحل الواجبات ولم يكن ثلثه أنه عجز عن المنحاج - ثم أنت لا تستطيع أن تنكر أنه ابن بار، ربما كانت هذه أول مرة في حياته يرفع ليها صوته أمامك، له عذره، فليحمد الله أنه لم يتجهز ويصول المسألة إلى فضيحة، لا يقتصر الغشاح؛ لمزية فتعل ذلك! أمكنت؟ أمكنت تماما، لمزية حفيظة!

ولكن أبوها؟ يستطيع أن يتهم نفسه كما يشاء، غير أنه لا يمكن أن يتهم شعبان، منذ صفوه لم يكن يقوته قروشي ولا ستة، فهل يستطيع أن يقول إنه بخاري ابنه في ذلك؟ هو يبيض في الصلاة فقد في شهر رمضان وهو أمام الجمع وتلوته بعد ذلك قرائن كثيرة، فلما عذره؟

لتسامح ابنه إذن على ثورته، لا! لتسامح ابنه! لتسامح به! ومع ذلك يقول أبوخطوة إن الندم سيصيبه والحب! فلماذا لم يشبه هذا ولا ذلك من قبل؟

ومنى وقد قربت ساعته كثيرا سيأتي الترح الذي ثبأ به صديقه الصالح، ومائة لو عرفت أسرته ما يخفيه أو لو عاش أبوخطوة ليعرف ما صار إليه صديقه النادم؟ ومن في هذه الدنيا يتغير حقا؟

التيه الياشكايب على صوت تنقعة إقلاق الباب العذى لأحد الدكاكين، كانت محال كثيرة قد أغلقت أبوابها ومع ذلك ظل الشارع صاخباً وحياً بالباعاء الذين يترشون الأوصاف ويتأدون على بضائعهم، ويترنل القادمين التي لا ينقطع من ابتداء الميدان -

هو الآن يحتاج إليهم، يحتسب بضائعهم لتسكن أصواته، ولكنه عرف أنه قد حان له أن يدخل غرقته عندما سمع الصوت الملم يقرب قادماً من الميدان - كان يمر كل ليلة في الموعد نفسه، هل يبدأ جولته أم يختصا؟

يعرفه جيدا، يقبض دائما جلبابا نظيفاً أبيض فوقه (جاكيت) رصادية، تغشى عليه ثفارة سوداء، ويقوده فتاة ملابسا نظيفة أيضا، وهو يردد مرة بعد أخرى بلا انقطاع، ببته، ويصوت شجي -

تركك على الله ربى وخالفنى، وأيقنت أن الله لا شك رازقى إن كان لي رزق فيسر يقوتى، ورحمة الرحمن ملجا للزمن كان يمر بخطواته البسيطة لا يتوقف في الطريق ولا يسأل أحدا - تأخذ الفتاة ما يوجد به المحسنين وتضعه صامتة في جيب جلبابها -

قل الياشكايب يتابع الصوت الجميل وهو يبتعد ثم همس لنفسه وهو يتعشى: لو عدائى كيف تظنن الخروب!

لم تكت بعثة ألمانيا الشرقية وأزدهار الصناعة بعد الحرب بسرعة كما توقع فراج، ولكن زواج فوزية هو الذى تم بسرعة.

قال فراج إنه لا يريد شيئاً من الأسرة لأنه لم يدفع شيئاً. كل ما يريده هو أمواله وأن تشاركه حياته كما هي . على أن يبنيا مستقبلهما خطوة خطوة كلما تحسنت الأحوال . لكن الباشكاتب أصم على تجديد طلاء شفته الصغيرة وأن يقرشها من جديد على حسابها وظل فراج يعارض فى غدا أن يدخل شفته شيء، لا يدفع شئ. حاول الباشكاتب أن يشرح بأن العرف جرى على أن تجهز أسرة العروس بيئتها ، فرد فراج بأن المصنوع تغير وينبغى نبذ التقاليد البالية، لكن الباشكاتب نجح فى النهاية فى إقناعه بأن يتقاسما التكاليف باعتبار نصف المبلغ هدية الأسرة لابنتها والنصف الآخر قرضاً يسرده فراج عندما يتوفر له المال. فوافق على مضمض بشرط أن يكتب إيصالات بالمبلغ لتكون التزاماً عليه يرد الدين. وأجمل فى مبلغ الدين (الشيك) التى اشترأها الجد ليقدمها فراج إلى عروسه.

ثم فرح فوزية حسب الأصول ودفع تكاليفه الباشكاتب الذى نظف على جماعة فراج هذه المرة بأن قال له ضاحكاً : يا أخ فراج لا تحضر أنت إن كان لا يعجبك . ولكن نحن نريد أن نفرح بابنتنا . وهكذا فقد علق زينات كهربائية ملونة فى مدخل البيت وفوق السطح الذى أقيم فيه شاور ورحست مقاعد تكفى لكل الجيران والمعوين. وعلق مكبر صوت ليصمدح فيه المطرب ولتقدم الفرقة الحانها لأهل الحى.

حضر والده فراج مع أخته وزوجها وأولادها، وكانوا يلبسون ثياباً رفيعة من جلابيب جديدة ويجلسون متزوين فى ركن السطح، وكانوا يتمتعون كلما قدم لهم شراب أو طعام، ولا يتناولون بعد إلصاح سوى القليل، على عكس بقية المدعوين القاهريين. حاول الباشكاتب أن يغلب على إحساسهم بالفرة بالجلوس معهم والمبالغة فى الترحيب بهم ولكن حياءهم كان أقوى من كل محاولات الجد ومدايعاته. ولم تنفع أيضاً جهود فراج الذى كان يترك مكانه إلى جوار عروسه فى (الكوشة) ويقوم ليجلس مع أسرته مقبلاً المرة بعد المرة يد والده ورأس أمه. ولكن الراقصة تجحت فى خلق جو آخر عندما تميلت فى وقصها أمام الباشكاتب ووالد العريس وراحت تميل عليهما فى دلال، فدلا صغير الشياطين وضحكهم. وأخذ الباشكاتب يصفق ويتمايل بجسمه، ولم يشاركه نسبيته فى ذلك، بل أطرق رأسه مبسماً فى ارتباك وإن له بشئ أن يضع يده فى جيبه ليعطى الراقصة وطباليا (النفطة). ورحب شعبان بنسبته فى حيود الواجب ولكنه اختفى معظم الوقت معتزلاً باشلسقاله فى تنظيم القرح و(البوفيه) والترحيب ببقية المدعوين. أما سالم فاحتل مقعداً أمام الكوشة لازمه طوال الفرح تقريباً، وكان الجميع يعرفون مسالة قلة كلامه فلم ينتظروا منه أكثر من التحية الموجزة قبل أن يعود إلى مكانه وصمته .

وفى نهاية الفرح قدمت والده فراج (كرداتها) هدية لفوزية وهى تقول بصوت خافت : تعنيت يا بنتى لو كان عندى مال فأرزن . فقبلتها العروس التى كانت فى قمة جمالها وسعادتها وقالت : بكفتنى وعازك يا أمى .

وعندما شيك فراج ذراعه فى ذراع فوزية ورفقتهما الراقصة حتى سلم البيت وسط طبول عالية وزغاريد أعلى صوتاً أطلقتها جارات فوزية وحبيباتها. تبع المدعون جميعاً الزفة التى استمرت لفترة طويلة على السلم .

خلا الشارب والمسلح إلا من التصحيح الملونة المعلقة التي كانت أغربها تحتل  
اجتازا بقليل.

وبوسط المقاعد الشاغرة والمتاخلة وقد شعبان رسائم متبايعين.

\*\*\*

بعد زواج قوزية تغيرت الحياة في البيت .

أصبح من الضروري الاستعانة بشغالة ، كانت تأتي مرتين في الأسبوع  
لتنظيف البيت والتخفيف . ولكن المياشكاتب لم تعد يلعبون بوحدة في دخول المطبخ  
واعطاء تعليماته لهذه الشغالة . غير أن قوزية ظلت تتردد على البيت بالنظام من  
شقتها القريبة وتحاول تنظيم الأمور قدر الإمكان : تراجع أعمال الشغالة وتقصي  
وعنا طريقا مع سالم ومع جدتها ألوحى بأن هناك تغيير في علاقتهما بالأسرة ،  
كما أنها لم تقلد امتياز ترويض غرقة جدتها التي كانت معروفة على الشغالة . وكانت  
تأتي أحيانا سفردفا تتناول معهم العشاء أو الغداء ، ولكن فراح الذي أحبه الجيد  
كثيرا وأزواج أصبحت لم يكن يستطيع أن يزوره إلا في يوم الجمعة . كان يسلم  
في الشركة في لفرئين صياحية وسائبة ، ولم يعد لديه أي فراخ .

وبهذا أصبح سالم وحده يقضيان معظم الوقت بمفردهما . لم يكن شعبان  
يظهر إلا عند العشاء ، يبدو عليه الإرهاق والتعب ويرد بالتهنئة وأدب على أسئلة  
والده عن أحوال العمل ، التي لم تكن جيدة في معظم الأحيان . كان يعد قوزية  
الزوجة والصغيرة الأجل قد قبل راس والده ضالما الصفيح فأنشأ أنه لا يستطيع أن  
يعيش بون وضياء عنه ، وقال المياشكاتب إنه تسمى ما حدث وأنه ربما لو كان مكانه  
للعمل ما فعله والده ، رجعت أحوال شعبان وقياحه مما يجرى في البيت مسلما كانت  
من قبل ، ولكنه اعتاد ليل أن يدخل غرقة ليعلى العشاء ويأمن أن يسأل سالم عن  
دراسته . فبعد الجيد بأنها على ما يرام ، فيما عدا ذلك كان الجيد والتفكير فيأمن لأن  
الحديث والسفر بحرية في البيت ولحق المسلح على السواء .

وفي تلك الأيام وفي إحدى جلسات المسلح طلب سالم من جدته أن يحكي له  
عن جدته التي لم يرها ، فسمع منه قصة زواجه ، وكان زواج حب .

كان توفيق المندى قد انتقل من أمسيته كاتبا في محكمة المصورة ورأى  
(سعيد) وهي تزوره مع والدتها على المحكمة فاعلمها من أول نظرة ، كانت بقاء  
ومستكة أملاء حسنا ، ولم يهتم بأنها تصغره كثيرا في السن أو بأنها لم تتجاوز  
السابعة عشرة ، ففي ذلك الوقت في مطلع الثلاثينات ، كانت هذه بسا معقولة جدا  
لزوج البيت ، وكان مرتبة كبيرا في حينها ولديه إيراد هذا البيت الذي ورثه عن  
والده ، أي أنه كان مستعدا ومكتمل الرجولة فلم يتردد ، ثم إنه تبه سالم إلى درس  
مهم جدا لينفعه في الحياة : ملتحا أي بنت في الدنيا هو أمها ، وهكذا فقد سلك  
الطريق المباشر وكسب ثقة الأم . ساعدها هي وابنتها في مزاحمتها مع الأمعاء على  
الميراث . لم يكن قد طوى لها الكثير بعد توزيع الأرض بينهما وبين الأمعاء ولكن  
حشي بالنسبة لهذا القليل الذي كان يكفيهما بالكاد . بدأ أمعاء يرفعون قضايا  
ويقدمون إيصالات قديمة وثوكيلات موقعة من الأب لانتزاع بقية الأرض ، وحين  
راجع توفيق ملفات القضايا في المحكمة أحس بغيرته أن هناك تزويرا وتلاعبا في  
المستندات وسأوره الشك في أن الحاشي الذي وكلناه يعمل لصالح الأمعاء .  
فمنصع بتغييره وبالطعن في المستندات . وأمكن بالفعل بفضل نصائحه استنقاذ  
القليل الذي بقي لهما من قبضة الأقرباء ، وفي تلك الفترة بدأ يتردد بنفسه على  
البيت لينصح الأخيار ويؤرش الأم إلى ما ينبغي أن تفعله ، ولما كان قصده شرفا  
لأنه لم يتردد أثناء زيارته في استخدام لغة التهورات مع سعيدة ، فسقطت  
الجدة كثررة الناحية .

قال سالم : كان فرق السن بيني وبينها يزيد على خمس عشرة سنة ، أنتن  
أني شعرت بذلك أو أنها شعرت به ؟ الحب يا ولدي اللقاء ورحيل والأرواح لا عمر



لها) ونحن ضمنا في النهاية بيت كنت أمتثل الوقت الذي أرجع فيه من المحكمة،  
أكار أجري في الطريق فتفتح لي الباب قبل أن أطرقه وشوقها مالي شوقى.. ثلوث  
كانها هي التي صعدت السلم وثبتت لا أنا، ناسرة ما كنا نخرج من البيت، لم يكن  
أحدنا يحتاج غير الآخر، الآن أسأل نفسي من أين كنا نبقى بكل هذا الكلام؟ ولم  
كان كل كلام وبيضة من أين كان يتبين ذلك الفرح ونحن معاً؟ لماذا كانت كل  
أيامنا وليالينا يوماً واحداً معتداً من التعميم ولماذا صارت الأيام بعدها ضويلة  
كالهوى؟

قال الجد ويومع في عينيه إنه عرف معها سعادة لا شعورية عنها نساء الدنيا،  
ثم شرده طويلاً وحول تفكره عن حفيده في اتجاه بيوت الحارة المتلاصقة حتى  
بين سالم أنه نسيه، لكنه عاد يقول بصوت أكثر خفوتاً مون أن ينظر في اتجاه  
حفيده:

- لما أتجيتا أياك فخرجنا بالطبيع، أحبيبتنا وربيتنا، كنت أقول إنى أراها فيه  
تفتول إنها تراتنى أنا، حتى طلقنا لم يكن ثالثنا في البيت، بل كنا كلانا فيه معاً،  
لم يكن في بيتنا غيرها وتغيرى.

ثم تنهد طويلاً وهو يلتفت من جديد إلى حفيده قائلاً:

- كنت أفكر دائماً أنى سيموت قبلها فحاول أن أحدها مرفق عما نلتك، عن  
هذا البيت وعن تقود كنت أذكرها وعن المعاش الذى سيقبضه بعد أن أرحل.  
فرد: بديك أنت لا حياة لي ولا له، ولكن انظر، ما أنا قد غشت كل هذه السنين  
الطويلة بعد أن رحلت هي:

كانت اليموع تغطي وجه الجد وهو يتحدث عن زوجته الراحلة، غير أنه لم يكن  
يطبق الحزن طويلاً لمسح خده وقال متساجلاً:

- عانت! قريباً تكافأها وتلقى الأجرة.

ولكن سالم لم يسمع هذه العبارة الأخيرة، كان هو الذى شرده الآن بعيداً ثم  
قال خجاة:

- ولكن ما الذى فعله أبى لثورت أمى وأمه؟

انتفض الجد في قزح:

- استنقر الله! جيتك وأمك مائتا مينة وبناء الله وحده يأك،

- لكن أمى ماتت صغيرة جداً.

- هذا أمر الله، حكمه وحكمته.

ثم بدا يلى اليأس كآب شىء من المتوجس فقال الحفيده:

- ولكن لماذا شيدك عن ذلك الآن؟ هل سمعت شيئاً؟ قل قال لك أحد شيئاً  
ما؟

فانطلق سالم في سرعة وغضب: لا تكذب يا جدى!، لماذا يهرب أبى منى،  
لماذا يهرب من كل إنسان، من قوزية ومنك؟ لماذا ليس له أصحاب؟ لماذا لا يزوره  
أحد ولا يزور هو أحداً؟ لماذا يرحل وجهه بعيداً كلما كلمته أنا ولماذا ينظر في  
الأرض حين تكلمه أنت؟ ما الذى فعله أبى؟

قام الجد من مكانه وتقدم من حفيده بخطوات مهتدة وهو يوجه نحوه بسبابته  
في غضب: أياك أن تتكلم عن أبك هكذا!

ثم تمالك نفسه وقال وهو يضع يديه على كتفى سالم: أهذا يا سالم وبناء  
بهديك.

لكن سالم لم يسمع ضيق جده ولا دعاءه، بل واصل ثورته وهو يتفقد:

- أبى فعل شيئاً يخفيه هو وشقيقه أنت، أبى لا يحبنا، كان يريد أن يقتلنى  
من زمن مع المجانين، وزوج قوزية لرجل فلاح في الحارة لأنه يريد أن يتخلص  
منها ويريد أن يعاقبنا لأننا نحبها ولا نحب، لا تكذب يا جدى! أنت لا تحبه وأنا لا  
أحبه ولا أحد يحبه ولهذا لا يتبني زبائن في المحلة ولهذا يعاقبه وبناء.

حاول الياسكاكتب أن يتغلب على انفعال سالم بالثألة في الهدوء:

- لا يا ولدي أنت تخطئ، أبوك رجل طيب ياسالم ويعرف ويثأر هو أكثر سلاحا مني وست فلماذا يعاقبه ربنا؟ أنت لاتعرف الآن ما تقول - أبوك بعينه وأنا لم أكرهه أبدا، ولا أنت أيضا يا ولدي لأننا نعرف أن حبلة ظليل ماتت أمك وكانت ستة أصغر مني يكتنن عندما فقدت جسدك، كنت أنا رجلا كبيرة فاحتملت أما هو فكان في يده شيابه، هل فهمت؟ إهدأ ياسالم -

ظل الجدي يرت على كتفي حفيده ويمسد رأسه ويتخصص بين الحين والآخر صدره في موضع الحجاب إلى أن هدأ سالم وعاد إلى حبيته وإن ظل جسده يرتبط لعاد الجد يجلس في مكانه، فجمت عليه من جديد يكدات سالم أشياء كثيرة يحاول أن ينساها، فترى يدوره الصمت.

كانت الشمس قد غابت، وظل طوق الترمس بينهما يور أن يمسعه أحدهما فاقترح له الجد يور حداس: كل ياسالم.

- لا أريد، عن إلتك، سنأول إلى البيت.

قال الجد في شروء: ابق قليلا ياسالم.

فرد بإقتضاب: أشعر بالبرد.

بقي الياسكاكتب يملأه فوق السطح ولم يكن يكره شيئا قدر كراهيته للوحدة

والصمت.

في شبابه لم يكن هناك مجال لهما، كان مشغولا بمغامراته وعطش ورفاقه، وفي كهولته ابتداء أن يذهب إلى مغربي قريب من البيت ليشفي بالحمرة والأصمحاب، يتبادلون الأحاديث والتكزيات والضحكات، ثم بدأ رفاق التمرير بحلول واحد بعد الآخر، ولم يعد يرى في القهفي حين يذهب إليه رجوه من بقي منهم - وإنما صوره من رجولاء، فاعتكف في بيته معظم الوقت وشغلته صحبة ولده وحفيديه.

كان يعرف أنه يخاف في شيقوخته أن يتفر إلى نفسه وأن يحاسبها، يكرر لنفسه دائما قات الوقت ولكن سالم أبقت من جديد الأشياء التي يجب أن تنقل لانه.

سأله أبوخطوة في شبابه لماذا تهرب من نفسك بالتوكل أنتوي؟

فرد عليه بصراحة: لأنني لا أرى فيها ماسرا، فقال له: ولكن كيف يمكن أن أراك أنا ولاترى أنت تسلك؟

لم يلهم ترفيق في كثير من الأحيان ما يعنيه أبوخطوة بحديثه وتجنب التعق في السؤال، بل أخذ يتهرب منه بالتعل بعد أن اعترف له بحقيقة حاله، غير أنه ذم بعد أن التقى بجمعية يان الحب تم اتقده بالضل، لم تشبه حياته معها أي شيء عرقه عن النساء قبيها، كانت كما قال سالم كتابته من الدنيا، لم تكن أجمل من عرق من النساء، ولا أكثر من لفقة كأمراة، ومع ذلك لمجو لم يعرف في حياته متعة في ممارسة الحب كالشي عرقها مع سمية، كان هو الذي طالما عذبه بقوة جسده، ينس تلك المتعة تماما في كثير من الأحيان، طوال حياته معا لم تكن سمية زوجته قط، فأنش شيء كان ذلك الحب؟ كان يشتهيها ويشفق عليها ويريد أن يحميها من الدنيا ويريد أن يحميها في حضنها وأن ترعاه هو الكبل كمثل. فإن جاء انتفاء الجسد من فكانها هو استمرار ذلك كله، كان الحب معها امتلاء ورحمة.

- سال الياسكاكتب نفسه وهو يشعر بلذعة البرد فوق السطح فلماذا إذن وقد

عرق الحب الحقيقي لم يبقه ذلك الحب حتى نهاية الرحلة؟

وآين يغتر على إجابة للأسئلة التي عذبه من مطلع العصر؟

نفض ترفيق ورفع رأسه للسماء التي اذهمت بالنجوم وكرر لنفسه:

- وهذا -

استعصى النوم على الباشكاتب في تلك الليلة - بلى في غرفته بسبب البرد  
والأزمة في فراشه التفكير الشى طلقا حاول أن يهرب منها، ومع ذلك فقد كان  
يعرف، بل كان واقفا في قراره نفسه أن ذلك الهم لن يستمر معه سوى يومين أو  
ثلاثة ثم يرجع بعدها إلى طبيعته. اكتشف منذ زمن طويل أن الإنسان مهما  
يصادف في الدنيا من مشكلات أو حتى من مأسى فهو لا يستطيع أن يكون غير  
نفسه، لم يصدق أبدا أن أحدا يمكن أن يغير تغييرا حقيقيا، لاهو نفسه ولا غيره،  
سيفنى سالم ذو سالم بضمته الكوبول، ونوبات الهياج التي تأتي بين الحين والحين،  
وسيفنى شعبان ذلك الكائن المصمت الذي لا يفهم أبدا ولا يفهم ما يدور في رأسه،  
وسيفنى فوزية على حنانها وحبها للحيث أيا كان ما يحدث لها في الحياة، ومع  
هذه الستة أن جوارهم الأسطى حميد الكهوباشي العجوز قد هذه الحزن بعد أن  
ماتت زوجته، وأن جارتهم البيت إصناف قد لزمت البيت لتكف عن البكاء، منذ  
أصاب شلل تصفى زوجها الحاج إبراهيم النجد، لكنه كان واقفا في قراره نفسه  
أن الحقنة لن تغير أيا منهما، وطلب من الله أن يسامحه على غفلة، وبالفعل فإنه  
بعد أسابيع من مرضه زوجها رجعت الست إصناف تساو المياعة الجائدين  
كعادتها وتتمسك معهم بممرتها العالي من شرفتها في الطابق الثامن دون أن  
يردعها الحزن، ورجعت إلى هواياتها الأخرى التي يعرفها تماما، تدق الباب في  
الظهيرة في حضور فوزية لتشرب معها القهوة وتنقل لها أخبار السكان، ثم تحاول  
وغم مرارعات حفيدته أن تعرف نفسها ما يدور في بيت الباشكاتب، رجعت كذلك  
إلى هواياتها الأخرى، إذ لم تكن تفزع أبدا بخافية المدين - بل تطلب من فوزية ومن  
غيرها من الجارات وتجمع - حتى من الشارع - كل الأشياء القديمة التي لاتلح

منها الثياب المهترئة، والأحذية المخرقة الجلود والتعال، والصناديق الوافية  
والزجاجات الصغيرة الفارغة، وتفعل بصفة خاصة الأشياء المعدنية : الأقفال  
والمزالج الصدئة، عند موافد الكيوسمين الثالفة، مقابل الأيواف المكسرة، إلخ،  
ويعرف الجميع أنها تخزن هذه الأشياء في - السحارة - الخشبية المضطعة التي  
تشكل كل مساحة شرفتها، نقل يعتقد لفترة طويلة أنها تستفيد بشكل ما من هذه  
الأشياء القديمة، ولكنها بعد إصابة زوجها بالشلل استطعت بائع الروبايكيا لتبيع  
بعض مقتنياتها، فقال البائع إن الشى - الوحيد الذي يصلح للشراء من هذه  
الغايات هو (السحارة) نفسها وتزل متبوعا يتقاسم الست إصناف حتى الدرجة  
الأخيرة من السلم ثم لاحفته بسبابها من الشرفة إلى أن اختفى بحريته عن  
الأنظار - منذ ذلك اليوم طلب من أبوزيد البواب أن يعطيها الإيصال في أول كل  
شهر دون أن يأخذ منها الإيجار، قال إنه سيحصله بنفسه من الحاج إبراهيم بعد  
أن يقوم بالسلافة، شكرت الست إصناف ودعت له كثيرا وطويلا ولكنها ظلت تدق  
الباب في الظهيرة ولاتفزع أبدا إلا ولي بها شىء .

انتهى منذ مدة طويلة إلى أنه كلما كانت العادات غريبة وغير مفهومة استحال  
التفكير منها، واعتقد لفترة أنه أخطأ في الحكم على جاره الأسطى حميد الوحيد  
من السكان الذي يقاربه في السن، نقل الكهوباشي بالفعل مهموما وعندما بعد وفاة  
زوجته، كان يعيش في جنازتها وهو يسند يده من ناحية وجار آخر يستند من  
الناحية الأخرى، وهما يحملان تقرية بينهما بجوهر بالكاد قديمة، واعتكف في بيته  
أسابيع طويلة بعدها، واعتاد أن يفضى معه أمسيات كثيرة يحث على الرجوع إلى  
عمله والتسليم بقضاء الله، وعندما فتح الكهوباشي مكانه أخيرا رجع بعد قليل  
سلما كان من قبل بالضببط، يستوقفه على السلم حين يلقاه ليهمس في أذنه بأمر  
البنكات المكتشفة التي ظل الأسطى حميد يصره كله بحسب الاستماع إليها وروايتها

وهو يضحك من قلبه في الحاليتين، لم يدركه ذلك كثيرا ولم يدركه أيضا أن الكهريائي لم يغير مكانه القريبة الأخرى، إذ غل دائما آخر من يدفع الإيجار عن السكان بعد أن ينقضي من الشهر موعده. يقول لليواب حب يحمل له الإيصال أن ينتظر بضعة أيام إلى أن يلزمها ربها. ويشكو أبوزيد الذي لم يعد يستطيع احتمال صعود السلم ونزوله، كان اليواب قد عقد أمانته كلها وأصبح يتكلم لغة غريبة لا يفهم منها غير عبارة «الأسطى حى»، فيقول له ألا يتفاهى مرة أخرى لأنه سيضع من تلقا نفسه حين يريد. كان يعرف أن حيد لا يذبح أى مشكلة صالحة، بل وثق أنه ليس بخيلا، فهو يتفرد دائما في المناسبات بتركيب الزمات الكهريائية في البيت على حسابه ويصلح الأعطال لزماته بالهجان. ولكنه لسبب ما يكره أن يصرح نقودا من جيبه ويرجى ذلك بشهاده يستطيع، ولم يعبر مناسبه شيئا من ذلك.

نعم، هو يعرف حدوده أحزان البشر، ويعرف أن هذا من رحمة الله بعباده، ولكنه يفهم أيضا، بمعنى ذلك، لا أحد يتغير بسبب الحزن، وأقل من ذلك بكثير بسبب شجار مع واحد أو نفاش مع حفيده أو ذكرياته من أيامه التي مضت. لماذا يريد أن يكون هو الاستثناء، يستثنى هذه الحالة بعد يومين أو ثلاثة أيام.

مع ذلك قضى الباشكاتب معظم أيلته مؤرقا، تزوده وجوه أحبائه الذين دخلوا حين تغفل عنه. ثم صحا محيدا على غير عادته في الصباح، لكن أمزائه لم تغل حتى يومين أو ثلاثة كما تنبأ لنفسه.

لحق الصباح كان يتلقى لوزية في أخصائه وكانت يضحكان معا. بدأت تظهر عليها أعراض الحمل وكانت تدخل البيت لافتة من طفرع السلم وهي تنسك واضعة يدها على بطنها رسال. لماذا اختارت النور الثالث بالجدي؟ ومتى تزكب مضعدا البيت لسنا جميعا تنبأنا مثله.

وكانت تعرف أنه طلب مستحيل في بيت لا يكاد يبقى من إيجار مساكنه شيء.

بعد دفع الموائد وإتارة السلم وصرت البواب، لكنها كانت ترغم جدها على الاعتذار وهو يحتضنها ويبسدها إلى أقرب مقعد في المصانة.

اعتادت أن تأتي أكثر من مرة في الأسبوع خلال النهار، ترتب غرفة جدها وتختل به قليلا، تحدد للشغالة أصناف الطعام التي تطبخها، وتجلس مع سالم كثيرا إن كان في البيت لتحدث معه عن أحواله وعن دراسته. تتداول أيضا أن تذيب مغووه من فراج الذي خدمته منذ البدء، لم يقل لها سالم أى شيء بعد احتجاجة الأول على خطبتها ولكن صنعتها كان يصبح أعرق وأطول عندما تأتي بصحبة زوجها. بل بدأ بعد الزواج يتقاعد عنها لكنه يعاقبها، وحاولت لوزية كثيرا غمرته بحبيها واهتمامها أكثر مما كانت تفعل من قبل، واعتادت أن تقضى معه أوقاتها الطويلة دون أن تذكر له، كما كانت تفعل مع جدها، بأنها يجب أن تنصرف لتفجير الأعمال في بيتها.

ولم تكن تتكلم هذا كله إذ كان حبيها لأخيها كبيرا، اعتادت ألا تشير كثيرا إلى فراج أمام سالم في بداية زواجها، وبدأت بعد فترة تقول بشكل عابر إنها تعتقد أن عرق (العبط) الموجود فيها يرجع إلى أن أمها وجنتها غلاصتان. وقالت إن فراج أيضا (عبيط) مثلها يصدق كل مايسمع، بنى مستحيله كله على كلمة سمعها عن أنه سيسافر إلى بعثة، ولما انتهى أمر هذه البعثة جاءت في رأسه فكرة الدراسة ليحصل على شهادة عالية لمزيد مرتبه، لوحث بيديها أمام أخيها وهي تطبق «وحلتي ياسيدي»، وقالت إنها تعتقد أن من أسباب عبطه أنه عندما كان طالبا في الجامعة أدخلوه في معهد اسمه المعهد الاشتراكي وهناك علموه أن كل الأمور (تمام) وهو مازال يصدق هذا الكلام. تصور: يقضى في تلك ساعات أكثر من زملائه لكن «يزيد الإنتاج» ولكن سواء زاد إنتاج المصنع أو قل فسيظل مرتبه كما هو لايزيد ولاينقص اليس كذلك يا سالم؟ لماذا لا تفعل مثل زملائه العقلاء.

لماذا يهلك نفسه في العبث؟ ولماذا يصمم على أن يخضع من مرتبة الصغير كل شهر ليرد إلى جدها فقساوة دين لم يطالبه به، بتمتلك هل يطعن فيه أحد سوى العبط؟

كانت مقاومة سالم العميق بكثير من كل محاولات فوزية. ولكنه أراد أن يرضى أخذه فحاول أن يقشرب قليلا من فراخ. وعندما كان يرى سماعتها وهو يربح بزوجها قليلا أو يتبادل معه الحديث أو يشاركه الضحك كان يرجع إلى صمته على الفور. وفهمت فوزية ذلك أيضا فبدأت تتجاهل وجودهما معا. ثم إنها منذ بدأ الحمل انشغلت بهما.

وساعدت ظروف سالم في تلك الأيام فوزية. كان مستغرقا تماما في تربيته واستعداده للثانوية العامة، اختار أولا قسم الرياضة بناء على نصيحة أستاذه الذي رأى مستقبله في كلية الهندسة ولكن عندما رأى في وجه جده العزوب وخيبة الأمل عدل اختياره ودخل القسم الأدبي. ولم يكن الباشكاتب قد قال شيئا قط عندما علم باختياره قسم الرياضة غير أنه احتضنه في قرح بعد أن غير اختياره. قال إنه واثق - ويكاد يقسم - أن سالم سيصبح وكيفا للكتابة وربما قاضيا. كان يشق في ذلك، حفيده وفي نبوءة سمعها من أبوظخوة وإن لم يدرك معناها تماما، ومع ذلك قصر على أن يستعين بسالم بمدرس من خصوصيين في التاريخ والجغرافيا واللغة الإنجليزية، وأشرف بنفسه مهمة مضاعفة على مقرر اللغة العربية.

ولكن كيف إذن حدث الخصام في تلك الأيام الحاسمة، وفي عز المذاكرة، فبينما كان الباشكاتب يتابع سالم ولا يكف عن تشجيعه ليكون منذ البدء من الأوائل في كلية الحقوق غضب على حفيده فجأة غضبا شديدا دون سبب واضح، كان في العادة سريع الصلح إذا ما آسأه سالم التصرف، لا تشبر بكلمة واحدة إلى ما يسمعه من إساءة له أو قهيرة في نوبات التهذيان التي تصيب حفيده، أما

في هذه المرة فلم تحدث نوبة من هذا النوع. ولم يستطع سالم أن يعرف سر تحول جده الذي قل أياما يكلمه بطريقة جاملة وفي الأمور المهمة وحدها وامتدح من الصعود منه إلى السطح وعن دخول غرفته. حاول مرات عديدة أن يستفسر جده وأن يستوضح سبب غضبه فلم يفلح أبدا.

لجأ سالم إلى أبيه وهو في غاية الحزن، وكانت تلك إحدى المرات النادرة التي تحدث فيها مع أبيه عن جده أو عن أي موضوع آخر. غير أن شعبان قال لايتنه بلهجة تأنيب صارمة

« أنت أضعفت حضرة الباشكاتب فليل يده ورأسه حتى يرضى عليك، إن نلجج في الشهادة سالم يرضى عليك

لكن سالم اكتشف أن حال أبيه كماله وأنه لايعرف أي شيء عن سبب انقلاب جده للملحاحي. وعندما حاول مع ذلك أن يعمل بالتصحيح، لم يسمح له الباشكاتب أن يلصق يده تاهيك عن أن يقبلها، نظر نحو حفيده في غضب وهو يتقدم منه ماذا يده فتراجع سالم على الفور.

فوزية وحدها هي التي استطاعت فيما يبدو أن تفعل شيئا لمساعدة سالم في تلك الأيام الصعبة، ففي أول زيارة لها بعد ذلك الخصام الكتيب حكى لها شقيقها عما يجري لمفكرت لحظة ثم قالت بائسامة:

« هل حدثت مثلا عن خروجه يوم الخميس؟ هل سألته أين يذهب؟

« لا بالطبع. ما شأنني بذلك؟

« فهل تعرف أنت إذن أين يذهب؟ هل ذهبت مرة؟

« أنت مجنونة يا فوزية؟ كيف يمكن أن أتجسس على جدي؟

« أنا مستعدة أن أتجسس لو استطعت! ادفع نصف عمري وأعرف أين يذهب

يوم الخميس.

ثم أضافت وهي تضطج: ماذا يفعل جنتا المكار؟



بصره على قوة السجد الميساوية، وقال لنفسه إنه ملزم الآن أن يفكر في مصيره بطريقة أخرى.

في الواقع الخمس الأخيرة قليل جميع الأوراق تذكر أبوخطوة وزيارته الأخيرة له قبل خمسة عشر عاما، هو رائق أنه لو أجهت ذهنه ليفهم معنى ماحدث في هذه الزيارة فسيجد حدا لكل مايزوقه، لكن في تلك اللحظة جاء حرسون المنهر العجوز الذي - يبريش - بجلتيه ورحب به بحرارة وهو يهتف: عاش من شئت بالحضرة الباشكاتب، ثم أقام بلهجة تعشيلية: «أين أنت وأين أيامك الخلوة؟ شأيت الرزق وأصبحت عجوزين».

تألمت على الباشكاتب طبيعته: أنت الذي أصبحت عجوزا وحيدك يا جابر، أنا كالحصان حدة ليس شيئا، هذه صيغة.

انصرف الجرسون ضاحكا ليحضر له القهوة التي طلبها وعاد الباشكاتب يفكر: نعم، هو لم يكتب، ما زال بالفعل كالحصان ولكن حتى متى؟

وكيف انقضت سنوات عمره الطويلة دون أن يشعر بالزمن؟ لو كان أبوخطوة حيا لسافر إليه مرة أخرى ليسانه عن المنزى، بل لسافر إليه ليعاينه لأنه لم يده مباشرة على الطريق بدلا من أن يتركه سائرا فيها هو فيه يكلام غامض عن الحب وعن الدم وعن الدنيا الذي هو باب لياب آخر.

لم تفده كثيرا أيضا تلك الكتب التي أعطاها له أبوخطوة لكي يقرأها، لم تكن كتباً جيدة بالتبسيط، بل كتباً عن سير الصالحين وطرائق السالكين، أحب قراؤها كثيرا كما كان يحب في شبابه قراءة الشعر، وجد فيها كلاما جديلا ما زال يذكره. بل ما زال يحفظه: «سوابق الهمم لاتشرق أسوار القدر» ودرج عمر اتصفت أعاده وقتل أعداده. «وإن قل ما تفرح به قل ما تملن عليه».

لكن وهو يمشي لنفسه: هو يحفظ هذه العبارات لأنها تلخص حياته

بالتبسيط، ليس تماما، فهو في الواقع طمع في الفرح الكثير، لا، ليكن صريحا هو ما زال حتى الآن بطبعه. وبما لهذا أنته الأحرار الكبيرة منذ فقد سمعية.

جاء الجرسون بالتهوية وقال بلهجة الاستعراضية وهو يصحبها أمامه في الفتجان:

«ما أنت ذا ترى يا حضرة الباشكاتب جابر أيضا ليس عجوزا، لم أنس سؤال هذه المدة قبرتة» ما هي ذي: «على الرغبة».

ابسم الباشكاتب بالرقم منه وهو يقول: قضعت نفسك يا جابر؟ أنا أشربها طول عمري (زيادة).

أراد جابر أن يرفع الفتجان معتبرا: غبت عنا أطول من اللازم يا أستاذ، لكن الباشكاتب أراح يده قائلا: اتركه، زيادة أو ناقص كلها سموم، لا تفرق.

قل لي يا جابر، كيف حال ريانك؟

— انتهوا يا أستاذ، الدنيا تغيرت والزمان تغيروا.

— حقا؟ قل لي كيف يتغير الناس، أحب أن أعرف.

قال بالانفعال وهو يضرب كتفا على كتف يتغيرون بسرعة؟ الزمان القديم اختلوا، يتبين الآن في أشخاص شياب وعواجير لا يتحدثن إلا عن البسفر إلى بيروت وتعمير البضاعة من الجفرك وتغيير التولارات، حتى زبائن رجال المشرعون مثل حضرة بعضهم الآن يا أستاذ يشتغلون تجار شطة، (يسمبون) شعورهم ويلبسون تنقارات سوداء على عز الليل ولا أعرف لماذا؟ والكل الآن يشتري أرضا ويبنى بيوتا مشر الأرض الذي كان يسهر التواب في دواوي السيدة أصبح الآن يباح بالشيء الغلافي.

لم تكن هذه الأخبار تهم الباشكاتب في شيء فقال وهو يأخذ رشقة من فتجان فبهوت.

— ذكرتني يا جابر فاشكروا الله، جأني خطاب قبل أيام من تنظيم الحى يائز

ليركب قوسه من جديد ووصل إلى غايته.

ولكن كم مرة عاود هو استطاء الفرس دون أن يصل إلى أي مكان.

أزاح فتجان القهوة من أمامه في شرف من الضيق وهو يزحف لماذا ينظم نفسه هو ليس إنسانا سيئا إلى هذا الحد. أكثر لنفسه: أنا لم أؤذ إنسانا في حياتي. أحببت الناس جميعا. ولم يعرف اليقظ طريقه إلى قلبي ضد إنسان حتى ولو أساء إلي.

وبعد أن ماتت سمية أتم أبى وأخيا للكرامه عشرات السنين. سميت هذا الجسد الذي ابتلاني به الله وكسبت حياتي الولدي ولولديه من بعده. حتى عندما زوت ابوخضوة آخر مرة لم يكن هذا من أجل نفسي. بل من أجل شعبان. وصرة أخرى حيرني الرجل الطيب بما قال وبما فعل.

ولكن ربما تكون تلك هي اللحظة التي مستكشف كل شيء. ربما تكون في لحظة النداء. فلنحاول الآن استعادة كل شيء. كلمة كلمة. خطوة خطوة. كان قد أصبح عجوزا جدا عندما أوت. كنت أنا نفس قد خرجت إلى المعاش وخرج هو قبلي بكثير لكنني وجدت مع ذلك في مكتبة القديم نفسه. تعلموا في المحكمة بأفكار دافئة للإبقاء عليه في الخدمة. للاستفادة من خبرته. حتى ولو لم يفعل شيئا على الإطلاق. أراونا فقط أن ينزل معهم لشعروا بأن (البركة) دافئة في المكان. التحققتني حين رأني وقال: كنت أعرف أنه لن تفوتك الفاسية. وأنه ستبقى الدعوة. لم أفهم معنى ذلك في حينها ولكني اختلفت به وحدثته عن شعبان. إنني استخفرت الله وأعدت فتح محل جده لكن أحواله في العمل ليست على مايرام. قلت إنني جئت ألتحق بالجمع والهداء. استمع إلى بانثيا. وحين انتهيت سألتني باهتمام: «ما اسم حفيدك الصغير يا أخ توفيق؟» ثم أخرج مفكرة من جيبه وكتب فيها اسم سالم. خشيت أن يكون قد أساء الفهم فقلت له يا مولانا ولدي اسمه

هناك شرحا في جانب البيت.

سأل جابر شهلة وجلناه (بيريشان) بصورة أفكار. سئلهم البيت يا أستاذ؟

رد الباشكاتب غي دهشة:

«لماذا أجده يا جابر؟» سارعه طبعه.

فكلم بليجة الشفق على زبونه القديم:

«غيرك يا أستاذ بدفع أموالا ليحصل على هذا الخطاب. كل الملك يتلون

الآن قدم بيوت الإيجار القديم ليكني بنوا عمارات للتعليل.

من الباشكاتب وأسه دون أكثرات. وسكند لكي يفهم جابر أنه لا يريد مواجهة القديس. ولكن جابر ظل متمكنا إلى جواره وأخيرا تنحى وقال وهو يشجع بوجهه نبلا.

«قل لي يا هضرة الباشكاتب. بالأسر أخبرني أحد الزبائن أن الحكومة

تسمح الآن بتغيير التولارات في السوق العمدة. فهل هذا صحيح؟ الزبون يريد

أن يعمل معه في تغيير التولارات ويعطيني عمولة لكي خالف.

«مك حق يا جابر. تغيير العملات خارج البنوك جريمة يعاقبها السجن».

«يا ساتر يا رب. انه لغري».

ولكن عندما انصرف جابر متظاهرا بالذعر تسام الباشكاتب إن كان يسأله

التصحيح. بالفعل أم يعرض عليه التولارات؟ لم يتغير جابر. من قبل كان

يحرض على زبائنه للاتف (الكبف) في ورق (السيروقان). لعله ما زال يفعل. لعله

الآن يجمع بين الحسنيين. سألته هو وذلك؟ المهم الآن أن يتغير هو نفسه لو

استطاع.

انقسم حين تنكرو عبارة أبو خطوة المهم ألا يثبث من الاستقامة إن وقع مث

ذنب فقد يكون هو آخر ذنب كتب عليك. إن تمت يا توفيق أفندي كنت كشخص

سقط من فوق فرس. فإن ظل ساخطا على الأرض فانه يلوح بيده. وإن جاهد



شعبان وهو الذي من أجله جئت، لكنه أكمل وكأنه لم يسمعي. أميلتي حتى الغد  
 يا أخي توفيق، غدا سجد ما تطلبه جاضعا بإذن الله، ثم غام بصره قليلا وهو  
 ينخلع نحو السقف قبل أن يقول - معك حق يا أخي - أحيانا بكور أحيانا أحلى  
 بنا من أحيانا الذين هم أحيانا أيضا بكونون آباء لنا دون أن تدري،  
 لم أجروا على مراتبته لأقول له إنني عاشقك بشيء من ذلك كله، لكنني غففت  
 - سالم صغير يا مولانا، لم يدخل المدرسة بعد، أما أبوه فيحتاج حقا أن تدعوه -  
 لمرد - ومن منا لا يحتاج إلى الدعاء وإلى رحمة ربه يا حضرة الباشكاتب خير أن  
 الطريق طويل وخطانا التي نحسبها نحسب بنا على الطريق نفردنا أحيانا إلى  
 عكس الطريق، سعيد من تهدي خطاه فلا يضل، ولا تصب يا توفيق أن عملك أو  
 عملي هو النجى وإنما هي رحمة مولانا.

لا بد أن يكون قد رأى في وجهي وقتها البرق لأنه عد به ووضعها على كتفي  
 كأنه يضمني إليه وتفر إلى حضنكم ينظر إلى بقل صغير وقال: لا تخش شيئا  
 يا حضرة الباشكاتب - أنت رجل صالح وستحل بك ويتسلك البركة بإذن الله.

فحاشيت من أول اللقاء أن أحدثه عن نفسي ولكنه حين تكلم عن صلاح  
 طورت من بعني الدموع وقلت بصوت مختلج: أنت تلوم لي ذلك وانت أدري الناس  
 بحياتي، فرد: والآن أدري هذا أنكم - الأرواح وحدها هي التي تظلمت يا أخي  
 توفيق وأنت وروح أصلي من البلور، من أدراك بحدتي أنا أو بنوحي - أنا كنت  
 أبوا مما يمكن تخالف أن يتصور، اتسبب أن الصالحين بولون مائة؟ ألم تعلم  
 أنه كان منهم الفرائي والقصود - أنت - وتكنهم تابوا في الوقت الصالح  
 لمصحبوا من الصالحين، أما أنا كما ترى فقد مرت بين السنين وهرت شيئا  
 أشبه - فقال: لا يئس من الوقت إلا من يجول أن الرحمة تسبق الوقت ولا يسبقها  
 الوقت، وأنت كابيت وسكايد أكثر قاع لي يا أخي توفيق! - وحين قال ذلك سطر

نصوى يعين من مغرور قتل بالدمع ثم رفع يدي فلقبتها، هو الذي كان يئس على  
 الآخرين أن يتقبلوا يده ويحزمهم إن حارلوا ذلك، سألته في ذلول وسط دموعي  
 - أنت تفعل ذلك، وأنا الذي أبيع لك يا مولانا؟ -

فهز رأسه وقال بصوت خافت: نعم، فكم أحتاج إلى دعائك.

ليتها لم أكن أعرف النوم في غرفة المذلق الصغير في أسبوطه أنتنى في  
 المنام سمعة وزيات وجهها يشبه وجه أبي خطوة أو ربما كان أبو خطوة يقف إلى  
 جانبيها وسط زحام كثر فاستيقظت من النوم وأنا أنشج وأرتجف، ثم أصبحت  
 الوضوء وصليت وأنا أطلب المغفرة وأدعو لأبو خطوة طويلا وكثيرا كإن تنفيذ  
 وصية لك سيفتح لي باب النجاة.

وفي الصباح الباكر ذهبت إلى المكتب القديم، استم في أحد الساعات وقال  
 مولانا لا ينس في مثل هذا الوقت المبكر.

تكل أبو خطوة أنني سبكا في ذلك الصباح.

احتضنني بوجه ياش وهو يقول: «أريت لك الليلة وزيا وبشرى» فقلت: «وأنا  
 أيضا وأنت في المنام» ثم سألته بشفقة: «ماهي البشوى؟» فهز رأسه دون أن  
 تفارق الابتسامة شفقه وقال: «لنا - مانونين بالروح، ولكن هي خير» ثم وضع يده  
 في جيبه وأخرج ورقة مطوية أعطاها لي وهو يقول: «هذه لحفيدك سالم يا سيد  
 توفيق، عندما يأتي الوقت لاتدعها تفارق صدره، فلتكن دائما قرب قلبه» - أمسكت  
 الحجاب المطوي بين يدي ورجت أجلي وأتظر إليه فصولت ابتسامة أبو خطوة إلى  
 ضحكة جلية وهو يقول: «لا تخف يا حضرة الباشكاتب» - نحن لانصنع سحرا  
 ولانكتب ثنائيم ولا خرافات، هي أدعية كتبناها من قلب وأرجو أن يقبلها الله.  
 فغففت أعرف ذلك بالطبع يا مولانا ولكني أردت أن أسأل عما خطيت منك الولدي  
 غره ياقتضاب - سيكون يخبر بإذن الله - سألته بالحاج - دعوت له يا مولانا أن

يبيِّن له ذلك». فقال: «كثيراً يا أولي». وأدع له أمنت أيضاً دون أن تلتفت الأمل، وأعلم أن الأمر كما قال أسياخه. «فقد بفتح السر» بال انطاعة دون أن يفتح عنه بالقبول، وربما يقضى عليه بالفتح فيكون سبب الوصول.

\*\*\*

ظل الياشكاتب في المفهم مستغرقاً في التفكير - راج لثمرة الألف يستعيد التفاصيل والعبارات التي حفظها ليذكر معانيها. وباهر ذا في الترويع الأخير من العمر ما زال متصبها كما كان في البدء. قال لنفسه: أهم بالطبع أنه حينئذ إن يسالم سيكون في حاجة إلى المساعدة أكثر من أبيه. أما كيف جلس ذلك فلا أدري. وأهم بالطبع أنه نشأ في بحسن الختام. ولكن متى ونحن الآن بالفعل في اللقطة.

ثم تسائل الياشكاتب سائلاً: ولماذا لا تلهم أنه كان يشجعك على أن تعبر طريقك في الضيافة ألم يقل إن خطاها تقربنا حينئذ دون أن يدري إلى عكس الطريق. وأن السعيد من تهتدى خطاه. فما الذي يندل خطاها؟ أمت يا توفيق تعرف كل شيء، وتقدم كل شيء. إن شئت أن نبدأ اليوم فلن يهمل أحد. وإن شئت أن نطلب كما أنت قلن يتفكك مائة أبوخشوة ولو سراً لنجدت من القبور. نعم. ولكن شينا في نفسى يقول مع ذلك إن هناك رسالة خفية وراء ذلك الواضح والمفهوم. ليكن. حتى لو كان هذا جميعاً فهو ليس عذراً للإرجاء ولا التهاوى.

مرة أخرى زفر الياشكاتب وقال وهو يستند للقبض: «ها نحن».

نادى على جابر ليرفع له الحصاب فقال له: يدري يا استاذ.

قود الياشكاتب وهو يضحك: بل متأخر جداً يا جابر.

ولكن جابر كان مشغولاً بالبحث عن شيء في جيوبه وأخيراً أخرج بطاقة

وباره مصفوفة ومتجعدة وقدمياً للبشكاتب الذي نظر إليها في دهشة وهو يسأل: يا هذا يا جابر.

- عنوان السمسار الذي حدثت عنه يا حضرة الياشكاتب.

- ألق حسداً.

- إن شئت حضرتك أن تهدم البيت أو تبعد.

مدال في يقول:

- أنا حدثت يا جابر عن هدم البيت أو بيعه. أنا كنت لك يا إيش إيش ساريمه.

فقال وهو مازال يضع البطاقة تحت أنف الياشكاتب:

- هو يعمل أيضاً في الترميم.

انقل حضرتك رقم تليفونه فقد تحتاج إليه.

ابتعد الياشكاتب عنه وهو يقول: إن احتجت إليه فسنعود إليك. شكراً.

ثم انصرف من القهفي وقل يظل فثورة في الطريق. ففكر للحظة أن يرجع إلى البيت. ولكن خطاه غادته إلى محطة الآتوبيس وهو يقول لنفسه:

- تأخرنا على التباطؤ.

\*\*\*

عندما رجع الياشكاتب إلى البيت متأخراً في الليل كالعادة وجد سائماً مستغرقاً في الاستذكار. فجلس إلى جواره يراجع معه ما أكمل من دروس. لكن سأل قال له:

- قيل أن أنسى. فوزية كانت هنا.

- في الليل هل كانت تريد شيئاً.

- نعم. قالت كلاماً غريباً. مددت إن كان من الممكن أن ينشئ مكان (البنيمة)

بعض الدكاكين وتجرفها بالآليات الجديدة.

هب الجد واقفا وهو يهتقد

« يذئنا! »

ومضى سالم يقول:

« لا أظن أن هذه الفكرة السخيفة من عندها، اعتقد أن هذه من أنكار الأستاذ

نواج! »

لكن جده كان يفكر في شيء آخر، فقال بصوت أكثر خفوتا:

« أو ربما تكون انشيتا! »

(٢)

عرف سالم اليناث لأول مرة وهو في السنة الثانية الثانوية، كان يقف عند سور  
السطح وفي يده كتاب يذكر فيه بعد زواج فورية وانتقالها من البيت فرأى بيتا من  
الجبيران شققا فوق السطح «قابل وتطلّع نحوه من مقربة وأخرى وعلى شفتيها  
شبح ابتسامة. حول بصره على الفور وانهمك في كتابه، وعندما رأت اليناث ذلك  
ثأته بأصمعه بصوت خافت مررين فالتفت نحوه. ابتسمت ابتسامة كبيرة وهي  
تستخدم جديها لغة الإشارات وأعلنت بوعدا.

كانت ثريا تلميذة أيضا في مدرسة الستة، انتظروها بعد خروجها من المدرسة  
ومضوا معا بصلبان حجاب القب الثقيلة. انبته إلى أنها أقصر منه بكثير وإلى أن  
هناك (نشأ) في وجهها. مضوا معا صامتين، وأخيرا انفجرت هي بالضحك وقالت  
« أنت ضخم! »، فزاد ارتباكها ولم يقل شيئا. بدأت تسأله أسئلة «هل يتابع مشعل  
محمد صبحي في التلفزيون؟»، «هل يذكر أنها سلمت عليه يوم فرح فورية؟»، «هل  
يتوى أن يدخل القسم العلمي؟».

وهو كل تلك الأسئلة كان سالم يحب بنعم أو لا دون زيادة، فبدأت هي تتكلم،  
فأثارت إنها تحب سعاد حسنى جدا ووقت فيلمها الأخير أربع مرات، وتتمنى أن  
تصبح في الثانوية العامة بمجدوع لكي تدخل كلية الإعلام وتشتغل بعد التخرج  
مذيعة في التلفزيون. والمشكلة أنهم في الإعلام يظلمون «مجاميع» كبيرة وهي  
لا تحت المذاكرة، وقالت إن أبيها يملك محلا وورشة لصناعة المفاتيح والأقفال وإياه  
صاحب جده الناشكاتب ولكن لو رآها أبوها شمس معه الآن فسوف يغفلها، وقالت  
إن لها أخا أصغر منها في الابتدائية (إشقي) جدا ويتعمد إغاضتها يعمل نجدة

ومصر أخ الفاء، مشاعيتها للمعجمل ولكن أعتبها تصديده لأنها هي أيضا مدح  
التشليلات،

ثم سالت سالم هل هو مغرور جدا أو أنها بصراحة لاتعجبه وهذا لا يريد أن  
يتكلم،

فقال وهو يشعر حواء وبساقبه بخلافه إنه ليس مغرورا ولكنه في العادة لا  
يفكر كثيرا،

قالت ثريا: لاحظت هذا يوم فرح قويزة،  
ثم أضافت وهي تتسخط: ومع ذلك لاتياكل،

ثم تعرف أن معجزة هي التي جعلت سالم مذهب الثياب في المودة، ولا شعرت  
باللحظة التي يعيشها وهو يسير إلى جوارها في الطريق، كان كلامها يصل إلى  
سليم بكتريا ومناقضا لكنه يأتي من بوق بعيد، وعندما تصافه سؤالا كان يتم  
بصوت إلى رأسه ويصع برفه فلا يكاد يستطيع تحريك لسانه، ولم تعرف أنه كان  
يحاول باستماتة أن يسمع من كلام يرد به على كلامها فلا يحد في رأسه غيرة  
الغمران والبيض المتلاحق، لم يدرك أن ذلك ليس غمورا ولا حتى حبلا، وإنما  
مساواة أن الكلام قد هرب منه كلما اعتاد أن يهرب بعدها يلقي - لغويا -

ومع ذلك اعتقوا راح يسأل نفسه في غضب لماذا؟ لماذا كان خائفا إلى هذا  
الحد؟ لماذا تستطيع ثريا أن تفكر ولا يستمتع مرة ما الذي يشل لسانه؟ لماذا  
يملكه أن يتكلم مع جده ومع فوزة عن أشياء كثيرة وأن ضاعت كل الأفكار  
والأفكار؟ ولماذا لم يعالجه الطبيب الذي أخذته أبوه إليه قبل سنوات؟ لكن  
يعالجه من ماذا؟ هو ليس مجنوناً، أستاذ الرياضيات يقول إنه نافع، يستطيع  
أن يحل أي مشكلة أو معادلة قبل أي تلميذ أخضر، مما اتحدى بنفسه من أن  
يتكلم مع ثريا؟ ولماذا كان يخاف من مقابلتها والخروج معها؟ لولا مشاجرتي مع

الطالب الذي قال له إنه ليس رجلا ماوأم لا يعرف بنات ما استجاب لموعدها من  
الأصل، والأول ما العمل،

حاول سالم من جديد، التقى مع ثريا مرة بعد ذلك، مشية معاً على شاطئ  
النيل ناحية قصر العيني، رأى سالم أزواجا كثيرة من الأولاد والبنات في ذلك  
المكان الذي شجبت الأشجار تزين مصابيحها المظلمة باللون الأزرق منذ أيام الحرب،  
كان المجهول يشعر هناك بالأمن فيسلك الأولاد ينادي البنات ويتهاكسون،  
تترفع أي صرخة، وإن لم يسمع البعض، ولكن سالم دخل صامنا وهو يسمع إلى  
حكايات ثريا، كان لم أجد كلاما يقول له لكته عندما غشيت عته في رأسه لم يجده،  
حاول أن يسرق السمع ليعرف عن أي شيء يتكلم الشبان إلى صاحبياتهم ووجد  
ذلك صغيا، فمن بعيد لم يكن يسمع غير ضحكات خافتة وكلمات متفرقة ليس فيها  
شيء من الغزل الذي تروقه، «قلت لأين خالفنا»، «لكن أنا رفضت»، «نجمع  
العشب في فرنسا في الإجازة»، «بعد سنة النجدة»، «أيه»، وإذا ما اقتراب سالم أو  
شكا أكثر من اللازم كانوا يحذرون، يحذرون ويهزون صدورهم صامسين إلى أن  
يتبدل،

في المرة الثانية حكى له ثريا بالفعال أنها من يومين وجدت طفلة وليدة أمام  
البنت لأنها مشمشى وكانت نائمة وتكاد نعت لأن أمها تركتها، قالت إنها أحببت  
الطفلة جدا وأخذتها وتحدث أن الطفلة أيضا أحبها لأنها ترفض أن تشرب اللبن إلا  
إذا قلعتها لها ثريا بنفسها، ثم سألت: ما الاسم الذي يفضله للطفلة؟ مشمشة أو  
قافري؟

قالت:  
«قالت لي غصن: وخلاص؟ هذا كل ما عرفت»،  
«لم طلبت في تفاد حنين وما يشبه الأمر: إحدك أنت حكاية».

كما لو كان يقتطع من لبنة الخس حكي لها بإيجاز شديد حكاية أبوطوط  
زويل بيده الذي الخشقي فتجارت القهوة من أمامه. كان يريد أن تضحك مثما  
ضحك هو عندما سمعها، لكن ثريا ظلت تتابعه بنظرة ثابتة ولما انتهى بلغت ريقها  
وقالت

- إسمع! أنا أضاف من حكايات العفاريات والجن. هل تريد أن أصوت من  
الربيع بالليل؟ ثم ضحكك فجأة وأكملت في محبة:

- يذمتك هذا كلام تقوله لصاحبتك!

سألتها في نفسها ماذا أقول؟

لوجت سيدة في اتجاه الشبان الآخرين، كما يقول كل الناس،  
وكان ذلك هو اللقاء الأخير، لم نعد تظهر على السطح، وعندما ماتها مرة  
بالصدفة في الطريق تجاهلته، ولم يحزن سالم لذلك أبدا، بل شعر براحة كبيرة،  
ولكنه عرف بعد ذلك في الإجازة التي سبقت سنة الثانوية العامة أوله من  
قربيات أبيه من بعيد. طلب أبوه أن يساعدها في إنهاء أوراق لها في بعض  
المعامل الحكومية لأنه ليس لها رجل يقف بجانبها. كانت عنايت كبيرة من  
عشرة سنة على الأقل وكانت امرأة ذات جسد ناضج وعينين ملونتين. وكانت تقول  
له ضاحكة إنها عندما تنظر إلى عينيهِ هو تشعر كأنها تنظر إلى امرأة. أخذ  
أوراقها إلى مصلحة المعاشات فطلبوا أوراقا ومستندات أخرى لأحضر لها، وأرأها  
في بيئها أكثر من مرة أيام الإجازة الصيفية. وكانا يجلسان في مجالس بينهما  
مقاييل وهي ترتدي ثيابها البتية النقيّة. أحيانا كانت تأتي للجلس إلى جواره  
على (الكنبة) لكن تطلعه على الأوراق التي تريد تقديمها. كان جسده كله يلتصق  
حين تلمسه زراعها العارية أو حين تتلاصق كتفاهما ويشعر بضبط صدرها عليه،  
يترواح مبتعدا عنها وعرق غزير يتعر من جبينه، وفي تلكها نخس الكلمات

أيضا في حلقه وتهرب من رأسه، يبقى كل شيء عليه مشغولا بموي قبية التي  
تنس في عنق يكاذا بمنع طيبة، في الإجازة الثالثة وهي تودعه عند الباب كان  
وجهها محتقنا جدا وقالت بصوت خافت مقتضج إلى حد ما  
- سأكمل الأوراق ثم اتصل بك، مع الصلاة.

أغقت الباب بشيء من العتق ولم تتصل به بعدها أبدا - ومرة أخرى شعر  
سالم بأنه قد نجا وعاهد نفسه على أن يتجنب أي علاقة من أي نوع مع اليك أو  
النساء. وحين سألته أبوه ذات مرة عما ثم بالنسبة لأوراق «الست عليات» أجابه  
بالتعجب: إن موضوعها الشهي.

\*\*\*

كان هناك على كل حال ما يشغله. اجتمعت ثانيا في الثانوية العامة. ثم  
إن فوزيه وضعت طفلها بعد أقل من سنة من زواجها، رجعت البيت القويمة بقر  
موجهة. اعتادت أن تأتي بصحبة طفلها كل يوم تقريبا بعد أن يذهب زوجها إلى  
عمله مبكرا جدا في الصباح، أراد لوراج أن يسمى ابنه مسعد على اسم أبيه  
وصممت فوزية على تسميته بسالم. وأخيرا أصدوه في شهادة الميلاد (عاطف)  
ولكن فوزية تناديه باستمرار (سالم الصغير) أو سلام.

كانت تأتي في الصباح قبل أن ينزل أخوها إلى ميريسته وأبوها إلى مكانه  
وهي تحمل الصغير الذي تعلق به الحبيب. ثم تكن قد ظهرت له في أيام عمر  
شعر أسود غزير كعمر أبيه ودين قسليين مضمومتين يضرب بهما الهواء غير  
أن الجميع كانوا يفتادون حمله ويكسبون فيه جمالا غير عادي. كانت فوزية  
صن بأن شركه فوينا مع أي منهم إذ بعد بدنها بسرعة وهي تقول ضاحكة  
مغارة لأمه الطيبة: «مع ياسلوم». أمك ضاحكة غاياب أن تنطق ضاحكة مثبنا. ذكر  
ياولك والضح واشتغل. أريد أن أراك (ياشكاري) قد الدنيا.

ترفعه نحو جدّها وتسلّ، ألا بينو ناكيا يا جديّ، ألا يقع (باشكاند) ؟  
 فيرد جدّها مبتسماً: (آيا شكنتي) راحت عليهم يا قوزية؟ حتى لقبهم لم يعد له  
 الآن وجود، تعني بذلك أن يبيع ابنك ضابطه.  
 نحن نؤسسه سنأهونه بالفرح، نحن نقول: لا تشك واشجيري! جدك لا يقصد،  
 أحياناً كان فرح يمشي أيضاً مع قوزية في المصا، كان يبدو على وجهه  
 الإيماء من كثره العيون، لكنه لم يفقد شيئاً من عيونه، ظلّ يقنطع عن مرئنا في  
 أول كل شجر مثلاً صعباً لمسد من الشككانت، ثم اضطر للتوقف فيزولادة  
 صغرية وبعد بمشايها، بعد أن يمسك بالمتنظام في المدام عندما يقضي  
 شكنتك بنجوعة فليجده له رأسه ويثقلها من مدة، قال له الباشكانيّ ألا  
 بهتم وإنه لم يضال به بنس، هذا أصل لكن فرح رد مثل النمل من، وثالث مرّة  
 في إحدى زياراته المسائية قال سدائم بطريقة عابرة، دون أن يوجهه الفهم  
 لأحد

« تنظيم الحى وفرض مشروع (الشككانت) »  
 نظر فرح بنظر إليه دهشاً وهو يسأل في دهشة: أى شككانت؟  
 شككانت الحى؟

ثم فهم فرح أيضاً وهو ينظر بصره من سدائم وشعبان وزوجته وآياشكابي  
 ولكن قوزية سمرت إلى أخبها مضطربة الوجه، قالت: بلهجة معذرة  
 « فرح لا يعرف شيئاً عن الموضوع الجديد، هذه كانت فكرى أنا... »  
 وحين تصرف فرح الحكاية قال بدهشة: شككانت في هذه (الزينة) ما هو  
 مرض الجنينة؟ ستر ونصف أو متران؟ أى بضاعة يمكن وضعها في هذه  
 المساحة؟ وأين يثقل الثأبع؟ على الرصيف؟

قال شعبان: ربما يمكن أن تستعملها كمخزنة

فأبوه في بنس لشخون في بنس، ما عسى.

« شكنت فرح كحقة وبسب صوبه بنس، من الخزان وهو يقول

« ومع ذلك قوزية محبا حق، كثر الناس الآن معكروا في طريقة بنس، بنس  
 أو في مشروع يجب ماله، ما هذا الغلاء يا خضرة الباشكانتية؟ كيف شكنتي  
 الحويث الناس مع هذا الغلاء؟

ظل سمر في حيرة إلى الجرد الذي كان مستغفراً في فكرة أخرى وقال  
 مناساً

« إن ربما يكون جابر على حق.

ثم يبحث أحمد عن تلميح لهذه العار، وقال شعبان: ما تنسى فكرة، شكنت في  
 سبع ثلاثة مياه عازية في الجنبه، سولي اسم قوزية عم أبوزيد الباب، هناك الآن  
 كثير من الشركات الأجنبية ويقال إنها تعطى الملايات مجاناً أو بالتقسيط.

عاد الباشكانت وفي هذه الحالة تصبح خلافتك أم حاجة ضرورية.

ثم مضى بمرارة ولم يقل

« أريد، يمكن أن يموت وهو يدع هذا.

ثم سكت ولم يتكلم أحد.

كان «المهندس» يدخل من نفسه فاضحاً، إلى صلبه، واضطرت قوزية  
 وإنها في حزن، دخل الباشكانت وفرح بنظر كره منهما إلى الآخر دون أن يجمع  
 ما يقوله، ولما طال الصبوت راحت قوزية تملأ بصرها بنفسه، كانت خمرته وعذبة  
 لكن شعراً أقوى من ذلك غلبها وهي سمر صغر جانيها العاردين في التفكير  
 فشكنت وهي تقول

« شكنت - شكنت - بسبب! تعني الشككانت في بنس،

فشكركم أيضاً، ولكن بلا روح.

ترفعه نحو جدتها وتسال: ألا بينو نكيا يا جدي؟ ألا ينفع (الباشكاتب)؟

فبرد جدتها مبتسما: (أناشكتية) راحت عليهم باقوزية؟ حتى لهنهم لم يعد له الآن وجود. - نثنى بدلا من ذلك أن يصبح ابنك ضابطا.

فتمسكته متفاهرة بالفرح وهي تقول: لا تيك يا حبيبى! جدك لا يقصد،

أحيانا كان قراج يتس أيضا مع فوزية فى المساء، كان يبتو على وجهه الإرقاق من كثرة العمل، لكنه لم يفقد شيئا من عاداته، ظل يقطع من مرتبه فى أول كل شهر مبلغا صغيرا ليعود دين الباشكاتب. ثم اضطر لتولف قيل ولادة فوزية وبعد إجابتها، وعد الجند بأن يعود للانتظام فى السداد عندما يقبض مكافآت شجعية طلبها له رئيسه ويتفطرها منذ مدة. قال له الباشكاتب ألا بهتم وأنه لم يطلبه شيء من الأهل لكن قراج رد بأن النيل دين، ذات مرة فى إحدى زياراته المسائية قال بسايم بطريقة عابرة نون أن يوجهه الخطاب لأحد.

- تنظيم الحى وفرض مشروع (الدكاكين)؟

فظل قراج ينتظر إليه مبتسما وهو يسأل فى وحشة: أى دكاكين؟

- دكاكين الجنبنة؟

لم يلم قراج أيضا وظل ينقل بصره بين سالم وشعبيان وزوجته والباشكاتب ولكن فوزية نظرت إلى أخوها مقطعة الجبين وفاتت بلهجة معاتبة:

- قراج لا يعرف شيئا عن الترضى يا بساند، بدء كانت تتردى أنا.

وحين عرف قراج الحكاية قال بدعشة: فكنا كين؟ فى هذه (الوقت)؟ ما هو عرض الجنبنة؟ ستر ونصف أو ستران؟ أى بقماصة يمكن وضعها فى هذه

المساحة. وأين ينفذ البائع؟ على الترسيف؟

قال شعبيان: وبما يمكن أن تستعملها كعقرون.

قال أبوه فى نفس: لتفوزين أى شيء يا شعبيان؟

وسكت قراج لحظة وشاب صوته شيء من الحزن وهو يقول:

- وضع ذلك فوزية معها حق، كل الناس الآن يفكرون فى طريقة تزيد من دخلهم أو فى مشروع يجب ماله، ما هذا اتغلاء يا حفسرة الباشكاتب؟ كيف تكفى المرتبات الناس مع هذا المذلة.

ظل ينظر فى حيرة إلى الجند الذى كان مستغرقا فى فكرة أخرى وقال - ساعدا -

- إذن ربما يكون جابر على حق.

لم يبحث أحد عن تفسير لهذه العبارة، وقال شعبيان: جاسنى فكرة، يمكن أن نضع ثلاثة مياه غازية فى الجنبنة، يوفى البيع فيها عم أبوزيد الجواب. هناك الآن كثير من الشركات الأجنبية ويقال إنها تعنى البلاجات سجانا أو بالتسمية.

سأل الباشكاتب: وفى هذه الحالة تصبح لنا جنتا أم ثلاثة أبوزيد؟

ثم سكت بمراودة وهو يقول

- أبوزيد يمكن أن يموت وهو يفتح واجارة.

ثم سكت ولم يتكلم أحد.

كان سائما يشعر بالخل من نفسه فاتسحب إلى صمته، وأطوقت فوزية برأسها فى حزن، وظل الباشكاتب وقراج ينظر كل منهما إلى الآخر دون أن يجد مايقوله. ولما طال الصمت راحت فوزية تنقل بصرها بينهم، كانت حذبة وغاضبة تكن شعورا أقوى من ذلك عليها وهي تنظر نحو وجائها العارفين فى التكبر فتسكت وفى ثقل:

- فالكلم سأكتر؟ بسيطة: نبني الدكاكين فوق السطح.

فضحكوا أيضا، ولكن بلا روح.

قال الياشكاكي إنه قضى عمرا طويلا يبعث عن سر تلك الأسباب الشقية  
الجريمة فلم يتوصل إلى شيء، يفسق إليه، فمن لم يكتب كتابا عن هذا الموضوع  
ولكن ألغت ستاخر وسيرك لسالم هذه المهمة بعد أن ينتهي من دراسته للقانون.  
قال سالم: وسوسة الشيطان هي السبب.

عزده جده: وسوسة الشيطان وراء كل الجرائم يا سالم والشيطان يوسوس  
للإنسان طوال الوقت فمما لا يخلو من مثل هذه التأتات لا يستجيب الناس إلا  
لوسوسة الشيطان.

- فها وأنت أنت واجدي؟

- لو كان لي رأى لما تغيرت ولوضعت الكتاب منذ زمن طويل.

ثم بدأ لسالم أن جده قد شرد قليلا ولم يقول ما الذي يجعل خطاة تقفون  
إلى عكس الطريق ونحن نعرف أنه عكس الطريق؟

- لا أفهم يا حدى أن من يرتكبون هذه الجرائم التي منكده عنها حضرتك  
يفكرون بعدم فهم في حصة الجريمة

- بالضبط، لماذا إذن يغيب العقل وتسيطر الظفافة؟  
- لماذا؟

- سنكتفى أنت بعد أن ندرس.

- وهذه الكتب الطبية التي تقولها حضرتك والموجودة جنب اللغات إلا تساعد  
على فهم الأمر؟

تنتهد الجيد وسكت طويلا قبل أن يرد:

- هذه كتب تتحدث عن الثور، لا شأن لها بقلعة النفس.

\*\*\*

بعد أن دخل سالم الكلية - وبدأت الدراسة لم يتركه حده في حاله، بل بدأ  
كل يوم عن المحاضرات التي يلقاها. ويخفف - بفضله - إلى التلخيصات النظرية

بالزمن من كل شيء، فقد كانت تلك أياما سعيدة للاميرة. ملأت فوزية وسالم  
الصغير البيت بالحركة والنشاط. وانهمك سالم الكبير في مذاكرته ولم تعادله  
التفاهة في تلك الأيام العاصية، واستلعل الياشكاكي مع حفيده يوما بيوم كما لو  
كان هو الذي يستعد لامتحان. فحسب أيضا كثيرا مما كان يفتقه. وكانت فرحة  
عمره عندما احتاز سالم الثانوية العامة بالمجموع الذي يكفي ليحقق حلمه، وليسحق  
بكلية الحقوق بجامعة القاهرة.

وكاف الياشكاكي حفيده على نجاحه بإطلاعه على سر اللغات الموضوعة فوق  
مكتبه، شرح له أنها تضم القضايا التي حيرته أثناء عمله في المحاكم. قرأ في  
حجابه وسبح الكثير عن أسباب الجرائم والأعراض، قرأ عن الفقر ونفك الأسر  
والأمراض النفسية والجذع واشتول الإجرامية العريضة وكثير غير ذلك. ولكن نرى  
شيء من هذه الدوافع الجرمية كلها يجعل رجلا مشهورا له بالبطية في الحبس الذي  
يسكنه بقتل جارا له لأن أباه الباقي خمس سنين من العمر تشاجر مع ابن جاره  
المقتل.

وتأذا يقدم مرافق معروف بالإساءة لمسلوات السجن على اختلاس خزينة  
الحكومة ليقض أسبوعا في الأسكندرية يعرف أنه سيقضي بعده سنوات في  
السجن ولماذا يقتل زوج زوجته التي عاش معها سنوات طويلة لأن طعام العشاء  
لم يعينه؟

وتأذا غير ذلك كله من الظفافات التي تحبسها اللغات كلها جيرانهم ليس  
لأصحابها تاريخ سابق في الإحرام ومع ذلك فهم جسيما في لجنة ما والسبب  
شدة الظفافة يرتكبون الجريمة التي تشبههم وتضيق عليهم.



التي تعلنها حفيده خيرات عملية مستمدة من عمله في المحاكم، ويلقي عليه بعض  
«الابنة الأعزاء» عن إجراءات المحاكمات أو عن دقائق القانون ونحن يعجز سالم  
عن الرد يقول له:

— أرايت؟ ليس لك العلم في المحاضرات ولا في الكتب،

وحين يدافع سالم عن نفسه مستحجا، ولكن ياجدى أنا ما زلت في أول السنة

الأولى؛

يرد الياشكاتب في حسم لديهم، أنت است كبلية الطلبة، أنت يجب أن تتفوق  
من أول السنة الأولى،

ولكن ذات خميس بعد أسابيع من بدء الدراسة وبعد أن رجع الجيد من جولته  
الأسبوعية التي لا يعرف حفيده عنها شيئا، دخل الياشكاتب إلى غرفة سالم وهو  
يراجع بعض المواد وجلس قبلته هاهنا، توقع أن يسأله كعادته عن آخر  
المحاضرات فير أنه اكتفى هذه المرة بأن أمسه بالكتاب الذي يقرؤه سالم والتي  
عليه نظره ثم وضعه جانبا،

أحكم العناية حول جسده وظل يشغل نحو حفيده صامتا لفترة قبل أن يسأله  
بتهنئة.

— قل لي يارلدي، أنت جميل حقا وفي عز الشباب، ألم تلت نظرك واحدة في  
الحى أو في الكلية؟ أقصد ألم تحب؟

أحنى سالم رأسه وأخرج صوته معجوها بعد فترة وهو يقول:

— نعم ياجدى، أنا أحب،

ظل الياشكاتب صامتا وهو يقلب في الكتاب دون هدف، ثم رفع وجهه إلى  
حفيده وهو يتسهم ابتسامة عريضة

— هل تعرف أني رأيت نكته في وجهك منذ مدة؟ رأيته ربما قبل أن تعرف أنت  
ولكن أردت أن أتركه.

ثم قام وهو ينزع عيائه الصوفية وقال لحفيده «يبنى» من الفرد وهو يملك عند  
الباب:

— لا أريد أن أعرف أسرارك ولكن تجتنب المعصية يا سالم.

ثم خرج قبل أن يسمع ردا من حفيده الذي ظل ينظر نحو آيات المغلق ضارعة  
وهو يتحارب، هل هذا صحيح؟ هل عرف جده قبل أن يحرف هو نفسه؟ ربما، ظل  
يقاوم طويلا الاعتراف بقلته يبنى ليبنى، كان لها في الكلية أصحاب ومصاصات  
وكثيرا ما رآها وسط مجمرات من الطلبة أما هو فلم يكن له في الكلية أصدقاء،  
قلّة من زملاء، كان يتبادل معهم التحية في المدرج وربما أسئلة عابرة عن  
الأساتذة والمحاضرات وتتبع علاقته بهم عند هذا الحد، وعندما كانت بعض  
البنات يتفنون شجوه وفي عيونهن إعجاب وبهشة كان يبدل كل جهده لبيتعه  
ويختفى عن الأنظار.

لم ينس سالم أبدا تجربته مع الأطباء في صفوه ولا ما كان يصعبه من غمس  
بين فوزية وجده عن حالته، وفهم إصوار الجد على أن يعلق الصباغ على صدره  
والأدعية التي كان يهوى بها حين يضع يده على رأسه، عرف أنه عندما تكتيه  
الصالة يقول أشياء سبحة ثم يسألهما وأن الأفضل له أن يلزم الصمت ويتجنب  
الناس قدر الإمكان.

أحيانا كان يشور على نفسه، يود لو يصبح مثل بقية الأولاد من سنه،  
وعندما قال له تلميذ في المدرسة إنه ليس رجلا ما دام لا يعرف أي بنات تشاجر  
مع هذا التلميذ، لكنه يكن وحيدا في البيت، وجاءت دعوة ثريا بعدد لتلقاه من  
إحسانه بالقبول والعجز، أراد أن يقاوم خوفه ويشك أنه مثل غيره، ولكن حكاياته  
مع جارتة الفتنة بالآ يكرر المحاولة.

ابتعد في الكلية عن لبنى بالذات، لم تكن هي تجعل البنات لكتنها لفتت نظره  
من رآها.

كانت تلبس دامنمراو (بلوزة) بيضاء قصيرة الكمين و (خزنت) واسعة. تضع  
يدنا في جيبيها وتمشي وسط عمارات الكلية كما لو كانت مصغرة إلى هدف ما.  
تكنها تتوقف بين حين وآخر وتثقلت حولها ويبدو عليها أنها غير رافقة من وجهتها.  
أو تميل بنصف جسمها إلى الخلف دفعة واحدة كأنها ستعود أراجيفيه بالسرعة  
نفسها لكنها تغمض في ترفيفها. عندما تنكس أيضا كانت تسلم برأسها قليلا إلى  
جانب وتخرج الكلمات من فمها متقطعة ومتروكة.

ظل سالم يراقبها من بعيد هريصا ألا تنشب إليه. أحب عيشيتها العسلية  
وشعرها الغمغمانى المخصوص الذي يصنع دائرة حول وجهها. وتندلى منه  
خصلتان صغيرتان كعلامتي استعظام بجانب الأذنين. أحب أكثر من ذلك شيئا  
حالي حبسها وطريقة كلامها. لكنه كان يراها مع أصحابها وساحباتها في الكلية  
يقفون في (شلال) ويتكلمون بصوت عال.

لقال سالم لنفسه هم جميعا أخرج مني مع البتات ومن المؤكد أن واحدا منهم  
بحيها. أراد أن يقول لجدد. إن تكن قد رأيت في وجهي الحب. فهل رأيت أيضا  
أننى لم أبع بهذا الحب.

\*\*\*

مر شهران أو أكثر على بدء الدراسة ليون أن يخرج سالم من وحدته.  
وفي مرة في الفاصل بين صفهتين كان يقف وحده في ركن مزوحم بمجلات  
المنافذ التي يعبرها الطلبة. كانت هناك مجلات كثيرة داخل إطارات زجاجية  
تظهر كلاما مع الرئيس السادات ومجلات أخرى بمسبحة مشيئة إلى الحائض  
مباغمة بدائيس وقد نزلت أجزاء منها وتكتب كلاما ضد الرئيس. وفي لجرد  
أن يضمع الوقت في قراءة واحدة من هذه المجلات المزعجة لكن الكلام بدا له  
كالتألق فهو رأسه وهو يرمع بالانصراف. تذكر سميرات جدده العارضة، السبابه

مستفزع لا شأن لثى به. من يخوض فيه يتسرع. لم يهينه الماشكات. أما  
بالسياسة واعتاد أن يطلق الراديو أو الطيعيون عندما تبدأ نشوة الجحيز. علمه  
علمه في الوثليقة من صيلره الخمر والتحفظة وأكدت له سميرات الأمور في البلد  
صواب رأيه قورث حفيده التطور من السياسة.

لكن بينما كان سالم يرمع بالانصراف سمع صوتا خلفه وجين التفت وجد لبتى  
ومعها طائف آخر يذكر شيئا. ناديا. كان متوجع الطول عريش الطيف منزان  
شعره الأسود مبروشا وقميصه مفتوحا عند الصدر. وكانت له شفتان غليستان  
مميزتان.

سمع لبتى تقول بصوت خافت ضارح: ابتعد عني يا مرتضى! قلت لك أن تبتعد  
عني.

لقال مرتضى في إلحاح: ولكنك وعدت.

وبت بعصية: وعدت في كلامي يا أحمق. اوتحت.

- لا .. لابد أن أعرف السبب.

قالت وصوتها يرتفع قليلا وكتبتها على وشك أن تصرخ. يا أحمق أنت مصيبة!  
قلت لك أفرقتني في حالي!

توجه سالم نحوهما وكأته سمع استغاثة ولم يقل غير كلمة واحدة.

- ممكن ...

فرمطه الآخر ينظرة كارهة واستدار مبتعدا. أوشك هو أيضا أن يغمض في  
طريقة ولكن لبتى قالت له بلهجة ممتنة: أشكرك.

قال: ومادة لعلت.

ثم أكمل بشيء من التردد: أنا أعرف هذه الطالب.

سألته يا ستغراب: كيف تعرفه.

مرة أصليهم بين عدي ياب المروج فاعتذرت أن لا لكنه قال لي أن أنشيه لي  
المرّة المقبلة.

ضحكت ليّني بمسببة: نعم، هذا بالضبط هو مرتضى، تعطيه يدك فيريد أن  
يتخذ ذواته.

ثم لوحث بينهما: وما أتمه وأيتى تقراً المجلات، جاراتك في الكلام،  
رفع سالم يده الخالية من الكتب أمام صدره كمن يدفع نهمة وقال أنا في  
السياسة صغراً.

فهزت رأسها: هذا أفضل شيء.  
كانتا يسيران جنباً إلى جنب بخطوات بطيئة وأراد سالم أن يسألها عن سبب  
شجارها مع مرتضى لكن شيئاً في داخله قال له أن يسكت، كانت في التي  
وامسكت الحديث:

أراك من أول السنة في المحاضرات لكنني حتى الآن لا أعرف اسمك،  
قال لها عن اسمه وكان هو يعرف اسمها منذ زمن طويل لكنه سأل كانه  
يجعله.

ظلاً يسيران معاً وكانت هي التي تنقل الحديث من موضوع إلى آخر، ولحظة  
وجد سالم الكلمات التي كانت تطفئ في حلقة تخرج دون عاء لا يذكر حتى عن  
أي شيء، فكما بعد أن تبادل الالام، لكنهما ظلاً يسيران جنباً إلى جنب.

تركنا المحاضرة التي كانت نرشك أن تبدأ وخرجنا معاً من الكلية كان بينهما  
مودة، واتجهتا دون اتفاق نحو كلية الآداب التعديلة، وكانت على عاتقها تنوتت  
لحظتهما يسيران وتلفتت نظرة إلى الخلف فيفزع سالم مقلها، لكن أحدا لم يكن  
يتبعهما، دخلا كلية الآداب ومشيياً معاً في معرات وصعدا المدرجات الضيقة  
وهبطاً أكثر من مرة وهما يشرشان دون هدف عن الزملاء والمواصلات والأستاذة  
وعن أي شيء، يخطرون على البال، وجلساً على إفريز حجري في أحد المعرات وراحا

يكملان الحديث الذي استغرقا فيه، بهمساً أحياناً، يضحكان كثيراً، يصمتان  
عندما يهملق طالب أو طالبة يجريان ليدخلا مروجاً بدأت فيه المحاضرات لكنهما  
لا يقومان من مكاتيفهما، عندما يحل أي صمت كانت ليّني تدأصابعها لتحدث  
بخصلة الشعر المتدلية بجانب أذنها، أو تلتفت نحوه فجأة يعينها العليلين وهما  
يتكلمان فتزى ارتعاشة أهداه لحظتها ويتضجج وجهها وهي تضي رأسها على  
الغور، تغمط في كشيها لحظة ثم تعود لتتلعج نحو السقف تائبهما الأصوات  
مكتومة ورشيبة من فاعات المحاضرات المغلفة بيشعران في عزلتهما بسلام.

بهمساً وتزيد فترات الصمت، ولون أن يشتم وضع يده على يدها وهو يحكي  
شيئاً فسخيها على الغور ونظرت نحوه بعتاب، ارتبك وتتم باعتذار وهو يتزحزح  
مبتعداً عنها، لكنها تلمصت بعد ذلك بتقررات سريعة للعين واليسار في المر  
الخالي ثم صمت يدها وأمسكت بيده دون أن تنظر إليه ووضعتهما بيده فوق يدها  
كما كانت من قبل، كانت تجلس إلى جوارده مشدودة كالأومع ولكنها حين وشجت  
يده الساخنة فوق يدها التفتت فأسدت ظهرها للحائط وفي شتهد بعضي - وراح هو  
يشمس يدها يرفق وكان أنامله تكبل تلك اليد، غير أنها يطزغان معاً ويتبصقان  
حين يفتح ياب إحدى القاعات ويخرج منه الطلاب بضجيجهم الموكف، يذهبان إلى  
ممرات أخرى، إلى كليات أخرى في الجامعة، تمالك أيديهما حين يشعران  
بالأمان ويتنفسان مسرعين حين يوج أي شخص أو يسمعان أي صوت، ثم  
المساعات دون أن يدريا بالوقت وهما يتتقلان من مبنى إلى آخر في الجامعة  
الرابعة.

قرب الغروب قالت «يا»، نحن تأخرنا، ولكنهما ظلاً يسيران فانهن حتى وهما  
قرب الصور التذكى للجامعة، ورواء أحد المباني سقتت الكتب من يدها فأتحت  
تلتفتلها وأبعثت هي في التحظة تلسها وتلاص الجسدان وهما ينهضان معاً  
لوجود وجهها قرب وجهه تماثياً مشوداً يظن الشخص الغاربة فعمس خدها بسلسته

برقة وسرى نفس يشوقها الناعمة من لحمه إلى جسده كله.  
ابتعدت لبنى وراحت تتطلع إلى الأمام والخلف في قرع ثم قالت: كان يمكن أن  
يطردونا معنا أو راونا! فقال سالم وقد عاوده القرع أيضا: لم أقصد صدقيتي. لا  
أعرف كيف.

لكنها لم تكن تسمعه، ضحككت ضحكة صغيرة وهي تقول: كل هذه الجرافة  
لمكانة! إذن ظننت من أول السنة تنتشر إلى دون أن تكلمني؟ وكيف لم تفهم لماذا  
أنظر أنا إليها؟

ثم فجأة طويحت بكل الكتب التي ناولها لها يامشاه ثماعها وقالت بشرة غريبة  
ملعون الضميمة ملعونة الد... الد... ولم تكلم لبنى ليعرف ما الذي تلعبه لكتب  
جذيت من يده وقالت: تعال... تعال نجتمع هذه الكتب مرة أخرى!

\*\*\*

مشى سالم دون أن يدري حتى وصل إلى البيت مبهور الانطاس.

سأله جده في بالقة:

- ماذا بك. لماذا تلهت هكذا؟ كنت في الجامعة أو كنت تلعب الرياضة؟ لماذا

تاخرت حتى الآن؟

لم يرد سالم على أي من هذه الأسئلة، ألقى على جده السلام ثم دخل إلى  
غرفته، جلس إلى المكتب وأغمض رأسه بين يديه، لم يكن يفكر في شيء، لم

يعتبر حتى لحظات النعمة التي عاشها، كان يرثيل وهو يحس يديه ويصل  
نفسه في دهشة، كل حدث في هذا بالفضل، كل كان هذا أنا؟ ولم يخرج من

الدوامة غير طرقات جده على الباب وهو يسأل في ندم:

- وبعد؟ أين نعيش في ليلتنا هذه؟

فتح سالم الباب وقال لوجه يابسة:

- سامعني يا جدي الليلة لا أريد.

## القسم الثاني

### لبنى

نحنت ابنتي باب الشقة فواجهها الظلام، وعندما كنت أفتتاح نمر نور النخلة الكبيرة الأثاث الثقيل الذي تكفه في روضة الاستقبال الراضة : المقاعد الذهبية سلطانها الذهبية ، والمائدة الرخامية الطويلة التي تطلوها مزهرية (الكريستال) البيضاوية المضطمة والخضابة من الزهور ، ودولاب المكتبة الزجاجية الذي يضم وسط الكتب وهي وثمانيل فضية .

وقفت لحظة تنظري إلى تلك الأشياء، وانقسمت لنفسها : ماذا كانت تتخيل ؟ أن تدخل فتجد بدلاً منها بيتاً أثرياً شبيح فيه .

تساءلت ولم لا ؟ إن تغيرنا نحن فلماذا لا يتغير ما حولنا ؟ ولماذا يظل العالم جامداً ؟ فإذا لا يمكن أن نغديه بفرحتنا فليصبح أجمل وأرق .

اجتازت ممرا إلى يمين الرودة ووقفت أمام باب غرفة مغلقة ونادت : دادة سنية .

أناها صوت ناعم : تعمر يا بنتي ؟

فلمحت ضحكة خافتة : أنا سعيدة يا دادة .

فأقبل صوت الدادة الناعم : الصباح رباح يا بنتي .

قلت وأقف للضلة ثم رجعت فأواجهني في الممر وقلعت الرودة الملونة وذهبت إلى غرفتها في الطرف الآخر من البيت . وقفت أمام المرأة تنطح إلى وجهها المشرج وكورت برؤانة :

- أنا سعيدة -

ثم أفرقت في الضحك وقالت : كيف يعبر السعداء عن فرحتهم ؟ برقصون ؟

بدأت تدور حول نفسها أمام المرأة حتى أصابها الدوار ثم جلست على عتبة سريرها وهي تلهث وتنبست بصوت مسرع : وقيلة أيضا ؟ وفي الجامعة ؟ من يصدق ؟ أحكر لن ؟ من يمكن أن يسمعني في هذا البيت الضائي ؟ من يمكن أن يسمعني في هذه الضياء ؟ ولماذا تنام دادة سنية الآن ؟ .. حسن أنها نامت على كل حال ، أحتاج أن أبقى وحدي ، أحتاج أن أفهم . احتضنت كتفها بذراعها وراحت تنطح لنفسها في المرأة وقالت : يتنى من يحبون نومهم ؟ تسببها بالغل . تسببها كأنها لم تكن .

رفعت إصبعها الساية ووجهتها إلى نفسها في المرأة ما إذا الآن أفكت ، هناك أشياء لا تنسى . ليكن ، ولكني بالفعل سعيدة . إن أفتح برجاً داخل ووجهي أضع فيه تلك الأشياء وأغلقه بإحكام . سأفتح ذلك الدراج ذات يوم وأخرج الأشياء . ليس الآن بالطبع . ولكن كيف كان يمكن للعب أن يجره لو لم تكن تسببها بالغل ؟ كيف كنت سأجره أنا . على أن أبدأ بالكلام اليوم ؟

شكرا لرفقي البشيع على أية حال . لولا إشاعته ما جاءت الفرحمة اليوم . ثم لو لم أكن قد تسببت بالفعل قبل كان يمكن أن يفزوني من الأصل حينه . ذلك العيبيل الخجول . القبايع طوال الوقت الذي تغرق الميت في غيبط : ربما يكون شازا ؟

نهضت لبني وهي تكلم نفسها : ولكني بالفعل أريد أن أحكي . هل أوقف دادة برغم كل شيء ؟ أذهب إلى أمي ؟

انقسمت ابنتي لنفسها . أكون محظوظة لو لم تطردني الآن إذا ذهبت إلى بيتها دون تليفون ولا موزة ؟

وقفت مرة أخرى أمام المرأة ولوحبت بيديها :

لا - لا داعي للمبالغة . لن نلذذني . سئيتسم ابتساماً كبيرة وترويح حاجباً  
مستقرئاً «حبيبتي ! ما الذي فكرت به ؟ حسبك أنك تسيئين !» هذا إن كانت لم  
تخرج مع زوجها إلى السينما أو إلى المسرح أو إلى عشاء في فندق من الفنادق  
الكبيرة التي يبيتها مدناً .

ثم ما الذي يمكن أن نقوله أنها من الحب ؟ أي شيء تعرفه الدكتورة صفاء عن  
الحب ؟

وبإية ؟

سيرجع الدكتور العظيم متأثراً جداً . ثم يذهب مباشرة إلى غرفته حتى لو  
كانت صاحبة . يخشى أن أشم على قمه رائحة الوردسكي ؟  
كنتي لا أعرف . كنت ما يغلبه يهمني في شيء ! ولكن بابا حويص على أصول

القرية !

اتجهت لبيتني إلى مكتبتي في ركن الغرفة . أمسكت بدواوين الشعر . كانت  
تمت ديواناً ثم تهمه في مكانه : عبد الصبور وشارك وتزاور وشوق وشيلى  
وريشان . يمكن أن تسبهم أيضاً . لكنها تلك تكتب صفحات الدواوين دون أن  
تفزع واحدا منها . ثم في داخلها قال لها إنها تس في هذه اللحظة يمكن أن  
تقرأ شعراً . إنها الآن يمكن أن تكتب شعراً لو كانت تستطيع . (عادت الدواوين  
إلى مكانها .

تذكرت ما حدث قبل شهر عندما دخل والدنا الدكتور شركت إلى غرفتها بعد  
أن تحدث في الثانوية العامة . ليبتها لم تكن تلوح منه رائحة الوردسكي ولكن .  
كالعادة . رائحة عطر امرأة . وقف هو يقلب الدواوين والروايات . دون أن يملك  
نفسه حتى قرأه العناوين . وقال بلهجة حازمة : تويت على كلية الآداب شيئاً ؟  
لمرت على الفور : لا . الحقوق طبعاً .

نقلوا إليها يدعشة : ولكنك منذ المدرسة الابتدائية وأنت يتقارونك دائماً  
لإلقاء الشعر . وكانت درجاتك في اللغات شبه نهائية . حتى في الثانوية العامة  
مراجعتك ..

فكرت في تصميم : الحقوق طبعاً !

لو لم يسألها ويصحب بالانابة عنها فهل كانت ستفكر في كلية الحقوق ذات  
يوم ؟

ثم فكرت : ولو لم يسألها وشغل الحقوق فهل كانت ستقابل سالم ؟ هل كانت  
ستعرف هذا الطرح ؟

وشالحت وهي تتجه نحو فراشها يخطى بطيئة : وهل الحب أيضاً هو كل هذا  
الغيب ؟ هل يعلو الروح والجسد فتصبح أكبر من أن تحملنا الأقدام ؟

\*\*\*

قالت لنفسها وهي تتمدد على فراشها بشياها : وأين كان الحب في حكاية  
زواج أبيها وأمي ؟ تستطيع أن تفهم أنه كانت يتهما حسابات العقل . تستطيع  
أن تفهم لماذا تزوجت الدكتورة صفاء من الدكتور شوكت . كان منذ شبابه الطبيب  
النابغ . وفيما بعد . أشهر طبيب نساء في البلد . لابد إذن أنه كانت له كثير من  
المحبات من زميلات المهنة . حتى الآن مازالت له كثيرات من المحبات من المهنة  
وخارج المهنة . ربما المحبات الآن أكثر بعد أن تحرر بالطلاق ! ثم إنه لا يبدو أي  
اهتمام بالنساء ولا بالرجال ! هو مشغول طوال النهار والليل في عيالاته وفي  
مستشفاه . لم تعرف له أي أصدقاء غير الأطباء الذين يعملون معه في المستشفى .  
ولكن هؤلاء جميعاً موزعون له : العلاقة ثقافت عند حد . أيكون هذا التباين عن  
الأخوين هو الذي استهوى الدكتورة صفاء العتيقة ؟ حسبك أن تلوح به ! وهل  
هذا أيضاً هو ما استهواها هي في سالم ! أنه جنيل وبعيد وصعب ؟

ولكن يمكن أيضا أن يكون النسبة عكس ذلك بالتخفيف ، بمكر أن يكون الدكتور شوكت هو الذي سعى وراء الدكتور صفاء . كانت جميلة الجميلات . مازالت جميلة الجميلات . لو ورثت نصف جمالها : لو ورثت تلك القامة المشوقة ، هاتين العينين السوداوين الواسعتين ، هاتين الشفتين الشهيبتين ، تلك السلطة البنفسجية المثلثة والشفة العليا البارزة بروزاً فظيعة في وسطها شاماً ، وهي تنطبق على الشفة السفلى . أى رجل لا يشغى تقبيل هذه الفم الكامل : وشك البشرة البيضاء الناعمة التي كانت في طفولتها شحب أن تلمسها بيدها وخذها وأن يلمسها .

التفت بجانب وجهها إلى المرأة ، رأت وجهها ، رأت عينيها العسلتين ، أنفها المستقيم ، بشرتها القمعية ، شفطها العسلتين . لبست قبيحة :

كل إيمان يقول إنها جذابة . ولكن جذابة شيء وجميلة شيء آخر ! أمها في المحبة حقاً . وما أهمية الجمال يا مثقفة يا من قرأت كثيراً ! ألم يقل لك كل شعراء إن الجمال في عين المرأة ؟

هاها ! فقلوا ما بلان مون ! لو لم يكن سلام جميل ، جميل حقاً ، فهل كانت ستفكر فيه ، ذلك الأنطوائس الذي لا يحسن أن يتكلم : كم من أواز فضضها ووجهه يراهم كل الوجوه التي تراها وكل السطور التي تقرأها ؟

وفل كانت تلك القراءة ضرورية : هل كان ضرورياً ألا تورثها الدكتور صفاء جمالها وأن تورثها حب القراءة ؟ وكيف استطاعت الدكتور أن تجمع بين هذين الشيئين الغريبين ، حب القراءة وقششتها بجسدها ؟ تقضى ساعات طويلة في التزيين أمام المراة ، وساعات أخرى في التسوق واختيار ثيابها الجميلة دائماً ، وتاكل باستمتاع ، توافة حقيقية . وبعد ذلك كله تقرأ الكتب في نهم ! مازالت حتى الآن تسأل ابنها عن آخر كتاب قرأته وتزج رأسها حين تسمع الجواب ، تكون قد قرأته

من ضمن ! من أين تجد الوقت لتقبل ذلك كله ؟ وكيف تزوجت من هذا البغل ، أتكلم صدقي ؟ هو لا يطيق القراءة ولكنه يتولى الدكتور في حالها حين تقرأ ، يحب الأكل حبها مع ذلك !

لكن لابد أن لديه مواهب أخرى غير ذلك وغير كونه مأكبة فلوس يضيئها من شركائه للاستمرار والتصدير . بالطبع يحتاج هذا الجسد الجميل أن يعيش به ! ولكن الدكتور شوكت يبدو جيداً أيضاً من هذه الناحية لا يمر شهر إلا وتتغير راحة عطر النساء في شيا .

تصالح ليني : إذن سيكون هذا هو السبب لمي أنها تركته ؟ هل كان يخونها مع لورا ؟ هل كان يشغل عنها كثيراً يعلمه ؟ كيف ستعرف ؟ كنت صغيرة جداً عندما حدث الطلاق في العاشرة من عمرا . تركتها أمها لأبيها دون أي شجار . دون أي دم ! كيف تعرف إن كان هذا صحيحاً ؟ لا أحد منهم يتكلم . أبوها لا يذكر أمها أبداً ، وأنها تكفى باتشكركم حين تأتي سيرته وتساءل ليني : كيف حال عتري الشاب وحننا الوطني ؟

تعرف بالطبع بعتري هذه العبارة . أنه كان لأبيها ماض سياسي ، قضى في شبابه شهوراً في السجن لأنه كان عضواً في تنظيم شيوعي . ترك السياسة مبكراً بعد أن بدأ العمل كمسوق كل وقت . ولكنها تذكر قبل الطلاق مفاوضات لم تفهم معانات في حينها . تذكر أمها وقد انقلبت سميتها الجميلة وتضرد ووجهها وهي تصرخ : خلقتنا الديمقراطية والروايات . لماذا لا تدعني موجهاتك مجانية دكتور شوكت ! لماذا لا يفر من مثل الدكتور شعاعير ؟ تدفع إلى غايات غريبة وتربيعاً ! تذكر ليني جيداً تلك المشاهد من أبيها وأمها التي كانت تلعبها وهي توشق ، هل بدأ من أيامها الخوف الذي يلازمها حتى الآن في كل خطوة ؟ هل بدأ الخوف عندما كانت تسبح في فراشها أصوات شجار أبيها فيملأها الرعب

وتضع الثلاثة فوق رؤسها والخدعة فوق أذنها لا ، هذه مبالغة . الخوف معها من زمن أمد ، الخوف رفيقها منذ عهد علي الدنيا وربما من قبل أن نحى . ولكنها تذكر مع ذلك رعبها حين كانت تلك الألفاظ التي لا تفهمها تصل إلى سمعها . الإمبريالية .. الدكتور شفايفز .. والبرجسية .. تلك الكلمة التي كان أبوها يكررها دائماً في المناجزة بصوته الرقيق الحاد . وفي وسط تلك الألفاظ كلها تسمع اسمها على لسان أبيها أو أمها . لا بهم " الآن يمكنك أن تعلمي تماماً يا دكتورة صفا " .

لم تعد لديها في البيت إمبريالية ولا بروليتارية بيتنا الآن مليء بلوحات غالبة وتحف غالية يشترها بابا لأنها غالية . ربما يكون بابا الآن أغنى من أنكل مندي والبركة في المستشفى لم يعد لديه وقت حتى لقراءة الجرائد . يسمع الراديو في الصباح على الإفطار حين أتيه . تدعش أخيار حوت عليها أسابع وشهود فسيفسائي يداً خفيف في المستشفى " وأضبط أنا في سرى كيف أصبح حافلاً بأخيار الرطاق إلى هذا الحد ؟

في الواقع أصبح حافلاً بكل شيء . عدا المال طبعاً . والطب ربما . والنساء طبعاً . ولكن لا تهتمى يا دكتورة مارك أنا هنا لا إمبريالية ولا بروليتارية . نحن الآن نهنت للرجل الذي كنتم تلعنونه . بابا لأنه البطل السوري الذي أنقذ السجن . وأنت لأنك مثيلة الشهد والطريف الدكتورة صفا . بنت الدكتور عبد العظيم بك .

جلسنت لثني ووضعت يدها في حجرها وهي تنظر في المرأة إلى وجهها اللطيف وتتسائل . بالأمسة هذه أفكار سعيدة ؟ ألم أقل لثني سعيدة ؟ لماذا الآن شعوب السعادة بسرعة وفاتي هذه الأفكار ؟ لماذا أحوم دائماً حول حكاية الخلاق ؟ ما أن أيا الآن وبابا وماما والثورة العالمية والمحلية ؟ ألا أستطيع أن أركز على سنام وجده ؟ أن أظل سعيدة ليلة واحدة ؟

ما الذي يفعله الناس ليعيشوا السرور ويشبوا أي شيء غيره ؟

هالت نفسها وهي تحاول عيشها عن الحرافة . هذا الشرح ليس منبئاً جيداً : استخراج الآن كل الأشياء التي أردت أن أكتبها فيه . أعرف أنها مستفهم . لا لأنني أهتم حقيقة لما حدث . لا لأنني أعقبه نهاية العالم . ولكن لأن الإهانة توضح أن تزول ولأنني لا أعرف طريقة أرد بها هذه الإهانة .

لحانت عيناها وشمرت قليلاً ثم تهنئت وزفعت وأمسها تستكمل الحكمة التي سيطرت عليها . يا قطع لو سألني سالم سأقول كل شيء .

لا تستحق حكاية مرتضى أي اهتمام . لا توجد أي حكاية أصلاً . لو سألني سالم عنه سنفرغ من الأمور في دقائق . مرتضى نفسه لا يستحق من الحياة أكثر من ديفيد . ولكن ماذا لو سأل عن الحكايات الأخرى . وحتى لو لم يسأل فلماذا أن أقول الحقيقة . أنا لا أضاف ولكن من الشيء يستحق الاستماع إلى الحقيقة ؟ الأبرياء وحدهم مثلاً دابة منية . أنا لم ألق شيئاً لئاماً ولا لئاماً لا لأنني خفت منهما ولكن لأنهما لا يستحقان الاستماع إلى الحقيقة .

ومع ذلك فهي حقيقة بسيطة جداً . ليست معقدة ولا غريبة . أستطيع أن أكتبها بدون تشبيلات ولا مبالغات . سأقول كذا في غرفة المكتب مثل طهر كل يوم . كان عمري ١٦ سنة وكنت في السنة الأولى الثانوية . كان يجلس أمامي على المكتب . يعطيني درس الرياضيات . سأقول كان مدرساً عادياً . ربما في الجامعة والأربعين من عمره . ربما أكثر . تلك البنات في المدرسة إنه يشبهه بوجيب المرحاض في فيش نزل الشات . وكان يشبه بالفعل . اسمها سنا بيتنا الأستاذ حليم . لم يكن يصنع في الاحتلام لأي بنت . كان أكبر من أبي . ومع ذلك فسأقول الحقيقة . لن أقول إنه اغتصبني . سأقول إنني لا أذكر للحظة . سأقول لا أذكر كيف قام من مكانه أمامي وكيف جاء بقمطه إلى جوارى . هل قلت شيئاً أو فعلت ما شجعه على ذلك أم كان هو الذي فعل كل شيء . أذكر أن جسمي كله كان يتلفظ وإن شعرت مسخونة كالخمس وهو يبعث بيده في جسمي . ولكن بعد ذلك أجمدا .



أصبحت تقابل سالم كل يوم تقريباً ، يلتقيان في الكلية ويخبران بعضاً  
بمفقان سلفاً على لقاء خارج الجامعة ، فركا كثيراً من المحاضرات واكتشفا بعضاً  
مخائيل - العليان في القهورة الشوارع اللبنانية نصف المظلمة في وسط البلد ،  
الكازينوهات المنضمة على الدهر والتي صمم مداخلها بمخبر ، طعناً  
المحبون ، الأوراق النيلية التي تتبع الخلوة ،

ولم تقترح لبنى أبداً الذهاب إلى أي من المقاهي الكبيرة التي كانت تلتقي فيها  
بأخيه وأخيه ،

اعتاد أن يسير معاً بالساعات ، يدعاً في يده ، يجمعهما الكلام ويضمهما  
الصمت ، ولم يتحدثا مرة واحدة عن الحب ، لم يكن أي منهما خبيراً بكلمات  
الغزل ،

وكانت نساء فحسباً أحببنا ما جدوى كل الشعر الذي قرأته وكل الأدب الذي  
أدعته إن كانت لا تستطيع أن تغفل له بالكلمات كيف تحبه ، وما جدوى ما كان  
يقوله أيوها وأنها ومدرسوها من أنها ذكية جداً وأنها أكبر من سنّها بكثير ، وما  
جدوى أنها ظلت مثقال عمرها الأولى في مدرسة اللغات وكانت تقرأ هذه المدرسة ،  
بفرضها على المثقلين كما يعرضون البضاعة القادرة ، لردد محفوظات الشعر  
الغربي والإنجليزي ، ولكن تجيب عن الأسئلة الأهم عن ماصصة نابيلاند وفاريج  
عيلاد طه حسدين ومعاركة وأرلو بداءاً فبداها هذا العلم وهذا الذكاء ، وفي ثم  
تعرف المسور الحقيقي أبدأ من المسور ترتيب نفسها ، وتكتشف أخيراً ، لم  
توتكها ، ثم اعتقدت أنها هي السبب في طلاق أبيها وأنها وإن لم تستطيع أن  
تحدد كيف ؟ حين كانت تسمع اسمها يتردد وهما يتشاجران في غرفتهما بصوت

من كان هو الذي نادى إلى الكلية أم أنا التي سمعته من يده إقبالاً ، سأقول لا  
أدري ولكني سأقول إنني أنكر ما بعد ذلك بكل وضوح ، سأقول إنه ذهب إلى باب  
الفرقة افتتح وألقاه فالتفت كمن يحسب فجة من النوم ، كنت أعرف أن لبني في  
العبادة وإن يحسن التليغ خارج البيت وإن دأب سنية في غرفتها السعيدة لا  
تسمع أي شيء ، خفت ، كنت راقدة على الكلية فقمعت وزرعت رجلى في الأرض  
وسألت بصوت عال ، لكنه مذهول ، ماذا تفعل يا حيوان؟ سأقول إنه رجيع ولعني  
بيده على الكلية وهو يحل ثيابه ، قلت سأصرخ ولكن صوتي أصبح ضعيفاً جداً  
واظلت الحصى التي كانت شهب جمدى مكانها البرودة كالسحج في أفراقي ، كان  
مدعني بيده لأرقه وكنت أنا أدعاه لأبعدني عن لثني لم أصرخ ثم أجبت صوتي ،  
سأقول إنه صفني وإنني أصبحت خائفة منه جداً ، فكرت وأنا أنظر إلى وجهه  
المشوه بالهشوة أنه سيقبلي وشعرت وأنا أرقد بأخيه ، كالأغصاء ، وعندما جاء قلت  
الأم أخيراً وصرخت فخر صمات ورفقت فومى وراح يمشي إلى رجة مستغفل وخائف  
وهو يسألني ، ماذا لم تفعل؟ إنني بنت ؟ لم تكن أنصوري ، ثم وجه تحوي صمات  
وهو يضم ثيابه بيده الأخرى ، إن أن أزوج ، أنا رجل متزوج ، سأقول إنني فجة  
نهضت رغم الألم والأغصاء وكنت أصرخ ، إمش ، اخرج يا كلب يا ابن الكلب ،  
فأخذت نحوه كتباً وأتتني ، أخرى ثقبه كانت على الكتف وخربت راحة وهو يعدل  
ثيابه ويسوي مشابيحاً بسقوط الأشياء عليه إلى أن خرج من البيت ولكني ظلت  
أصرخ ، ونادت دابة سنية من غرائها في دهر لجوجت إليها وحكيت لب كل شيء ،  
ويومها بكيت ،

وتستمت لبنى لنفسها في المرأة ، سأقول إذن إنني بكيت ، وسأقول إنني من  
لوخطتها كرهت الرجال ، كل الرجال - إنني أن جئت أنت يا سالم ، قتل مثله  
الحقيقة كما كانت ؟ هل أنت بزيء بالغزل ؟  
وكانت الآن ترفع رأسها كعادتها لتمني دموعها فذمت صورتها في المرأة ،

بما كان قد تبنى أنهما يتماجران بسببها ولم تستطع أبدا أن تغلب على نوبات الضيق الكاسحة التي تغزوها وتشل تفكيرها . وماذا نفعية أنها الأولى والأدنى والأكبر من سنها عندما اغتصبها حدم؟ وهل كانت هذه القراءة وخلوتها بالكتاب هي طريقها للهروب من العالم الذي يرعبها؟ تلك على كل حال هي هدية أمها الوحيدة لتحسينها من الدنيا فشكرها لها . ومادة كانت سنفعل بنفسها في أيدي الوحدة والخوف لو لم تكن الكتب هناك ؟

إن تحدثت معك عن ذلك الضيق . إن تحدثت عن قرائتها فمن الواضح أنه لا بقراءة شيئا . إن تحدثت عن حمام ولا عن مرتضى . إن تغلب أي شيء . بعدها مثلا . إن تحدثت عن السياسة . هي نفسها لا تعرف ما الذي أدخلها في هذه الحكاية المضحكة من الأصل . لا . لا معنى لأن نظم نفسها . ليست حكاية مضحكة . هي لم يدخل تنظيمياً سوريا ككافى دخله الدكتور شوكت . كانوا مجرد مجموعة من الطلبة والطالبات التفت بهم نور دخولها إلى الجامعة ووجدت أنهم يفكرون بطريقة أعجبتهم . فغضبهم التغيرات العجيبة التي تحدث في البلد . تجار الذهب والعملة والغلاء المشع وبذاعة الانغباء الجدد وفقدان الكرامة وغياب فكرة الوطن وضياع تقصيصات الحرب القوية وظهور نساء في السياسة يستعرفن جمالهن وأزيائهن على شاشات التليفزيون ويتاجرن بظهورهن مع مشاهير الحرب على مفاهيم المتحركة . وذلك في الوقت الذي ظهر فيه في الجامعة عشرات من الطلبة بجلباب بيضاء ولهم يمزقون مجلات الصائغ التي تكتب هذا الكلام ويضربون زملائهم الذين يكتبون بينما يجلسهم حرس الجامعة حتى يمزقون وحين يضربون . أحببت ليش زملاها الفاضلين الذين يحنون إلى أيام لم يكن فيها شيء من ذلك . ويحنون إلى الزعيم الذي أحببت صوته وصوته وفي طفلة . وكانت نغفست عندما تسمع أمها وأما بسببها كلما أظلت صوته من شاشة التليفزيون .

وجدت نفسها وسط هؤلاء الطلبة المثلثين بالحساس وأحس أنها تختفي بهم من وحدتها ومخاوفها . شاركت في اجتماعاتهم في مدرجات الجامعة وفي كتابة المقالات لجالات الحائط . وعندما عرف أنها ذات مرة أنها تكتب مقالا عن الرجل الذي يكره من كل قلبه غضب بشدة وأفهمها بالسذاجة وبأنها لا تقوم شيئا من «الطاعة» الذي ضيع البلد . وقال إنها تدافع عنه لجرد أنه يكرهه . ولو قرأت بما فيه الكفاية عن عقدة أوديب لكنت عن هذه الملاحظة . أمرها وهو يمزق المقال بانفعال ولا تعود أبدا إلى مثل هذه الطفلة فقالته وهي تبتمم «حاضريا بابا» . كانت واقعة من أنه إن يتسرع له وقت لينابيع ما تفعله أو ما تتركه . ولكنها تسامت . إن كانت عندي عقدة أوديب فما هي العقدة التي تجعل الدكتور شوكت يعتقد أنه محور الدنيا وأن كل شيء أفعله لابد أن يكون بسببه؟ وهل طلقته أمها لهذا السبب؟

ظلت ليش تشارك زملاها ولم يلمس عليها صاحبهم إلا وجوده مرتضى وسطيهم . لم يكن يكتفي بالوجود معهم . بل أراد أن يكون زعيما لهم . وبدأ يصنف الطلبة على هواه ويستخدم مصطلحات لا يعرفون معنيها . الطفولة اليسارية . الهلال الحبيب . الخلاف البعثي القومى . الماركسية التروتسكية . وكلام كثير من هذا النوع . يستعترف أنه خدعها أول الأمر اعتقدت أنه أكثر فهم عما وحماسا للفكرة . سمحت له أن يغترب منها على أمل أن تتعلم منه . كان على عكسها يعرف أن يتكلم بفصاحة ويهاجم الحكومة والطبقة الجديدة التي سرقت الثورة . فيهرما بكلامه وجرائته . ووافقت للمرة الأولى عند تجربة الدرس على أن تقابل خارج الجامعة لكنها ظلت توجيى ذلك الموعود باستمرار .

لم تكن المسألة مجرد اتباعها لسلالم الذي أسسته في سرها (أبولو) والمقتت به عند شعرت بعقباته الحذرة الحبية . لم تكن هناك لغز يتصاعد في داخلها من

مرتضى . لاحظت الانتقادات التي بدأت في المجموعة بسببه ، واكتشفت أن حقده لا يقتصر على الحكومة وأمريكا والضفة الجديدة بل يشمل الجميع . لم يكن الحق الطيفي الذي صدموها بالحديث عنه . بل الحق الذي يستل على كل من يملك شيئاً لا يملكه هو . وبقتل مرتضى استطاعت لبنى أخيراً أن تفهم شخصية ياجو عند شكسبير التي ظالما ضيرها أمراً . فهمت أنه لم يكن هناك سبب حقيقي لتكراهيته لطويل ومعينه لتدمير حياته غير أن المفروض كان يملك حب وديمونة : كلاك مرتضى ! لم يكن يحتمل أن يملك أحد شيئاً لا يملكه هو . سواء كان هذا الشيء هو المال أو المركز أو الشكل أو السمعة أو أي شيء آخر . كان يعتبر امتلاك غيره لهذه الأشياء إهانة شخصية له . هو الذي قال عن سالم إنه ضام عندما لاحظ إعجاب البنات به . ولاحظت لبني أنه لم يكن يطبق بالذات الأستاذة الذين يحبه الطلبة . يجد في كل منهم شيئاً منكراً . فهذا الأستاذ سليم الأستاذ ومصاحبه دم الغالطين ، والآخر يسرق محاضراته من كتب الدكتور المنهوي ( التي كانت لبني وثيقة أن مرتضى لم يقرأ عنها حرفاً ) وهذا الدكتور الثالث عميل للحكومة والأجهزة . ومع ذلك فقد انتهى أمره بالنسبة لها حين ضبطته ذات مرة وهو يمشق هذا الأستاذ العليل ويتدل له لكي يقمه إلى الأسرة الشبابة التي كان يكونها في الكلية . وأنه يفتل منكشاً أمام الأستاذ حين بعد . وبدأ لها أن جسده أصبح أكثر هشاشة وصوته مرتعشاً وضائفاً . ولم تكن هي وحدها التي اكتشفت أمره وبدأت تقهقر منه . بل عرف حقيقة سرمة معظم زملائها وزميلاتها وصاروا سجنين وجوده في وسعهم . لم يبق على علاقة إلا من كانوا يتحالفون من قدرته على جرح الآخرين وإيذائهم .

ومع ذلك ألا ينبغي لها أن تشعر سرفس ؟ هي كانت دون مقارنته وواقعته ستعرف فرحة هذا الإقتراب الذي ملا حياتها ؟

\*\*\*

وكانت تسير مع سالم في ليلة شتوية باردة في شارع الظلي الضيق الذي تحفه الأشجار وتكسر نور مصابيحها الطويلة العالجة . عندما انتزعت يدها فجأة من يده والتذلت خلفها . لم يكن هناك أحد فقام يحضن يدها وهما يسيران صامتين وحدهما في همس :

- هم ضافين يا لبني ؟

- من كل شيء .

أفقت منها العبارة دون تغير فساتنها وهو يضم يدها بقوة : ولكن لماذا ؟

- لا أعرف . أحيانا أصحو في الصباح فيخيلني كل شيء . أصوات الشارع . جدران البيت . صوت الراديو . ضجكات اشبهات على السلم . كل الأصوات وكل الألوان والروائح . أشعر أن كل شيء فيه خطر . وحين أخرج من البيت في هذه الأيام أنتظر شيئاً مستقيفاً . وبالليل أضيء النور حين أنام . أخاف بالذات من الظلام .

هو سالم رأسه وقال : آله لا أخاف من الظلام ولكن أخاف من نفسي . وأخاف بعد فترة صمت : عندما كنت صغيراً اعتقد أنني مجنون . وهكذا حكى للبني ما لم يقله قطبها أحد . اعترف أنه تائه حالات لا يعرف فيها هو نفسه إن كان مجنوناً أو عاقلاً . وأن الكوابيس كثيراً ما تخزعه من النوم فيصدم مجيداً وعاجزاً عن الكلام .

كان سالم يتكلم بمسألة شديدة وبهذوء وشعر براحة تغمره لأنه تكلم أخيراً عما ظل يثقله في نفسه . ضغطت لبني يدورها على يده . وقالت :

- لا تهتم لذلك . أنا شخصياً أعتقد أنك عاقل أكثر من اللازم .

ثم أكمشت وهي تفحص : أتدري . عندما كنت أراك في الكلية تمشي ثابتاً كما تعالوا . لا تخصص مجهول الجسمين لثبات كما يفعل بقية الطلبة كنت أقول

نفس في رأس لماذا لا تتعطف على يا أبولو بنقرة ؟

- من .. من هو أبولو ؟

- هو إله ال .. من شخص جميل مثلك والاسلام ..

تقليد وجه سالم وابتعد عن لبتي ووفقا متواجدين في العتبة وهو يقول بصوت

خشن :

- لا أحد أن يقول أحد إني جميل

- لماذا ؟

- لا أحب .. البنات فقط جميلات .. أنا رجل ..

- ربما العيب أن يكون الرجل جميلا ؟

قال بصوته ينفر بالهيب : قلبك لا أحب ذلك .. ألا تفهمين ؟

كانت شفتها ترتعش .. كان جسدها يرتعش :

- نعم .. أنا لا أفهم .. أنا لينة .. سامحني ..

عندما بدا من صوتها أنها على وشك البكاء أصابه هو أيضا الفزع ثم تصالح

نفسه وقال بصوت يتحشرج : أنا أنسى ..

من يده يمسك يدها مرة أخرى لمكانة باردة كالثلج .. سارا لفترة دون أن يتكلم

أحدهما .. وأخيرا سألتها :

- عن أي شيء كلما فتكم من قبل ؟

- عن الخوف !

- نعم .. الخوف هو الذي منعني من أن أتكلم .. منذ رأيتك في الكلية لم أفكر

إلا فيك أنت .. ولكنني لم أستطع ..

فتألك شاردة : وبما حديث خوفي .. وبما تتواصل النفوس الضائعة بإشارات

خفية .. ثم هزت رأسها وقالت : لا ! لن أسمع ! لن أسمع لنفسي بأن أخاف بعد

اليوم ولن أسمع لك .. ولأفما غائدة الحب قلت إنك تفكر في .. هل تجبني جميلة ؟

- بالطبع ..

- ولكن أنا أعرف أنني لست جميلة .. لا يهم ! معك حق يا سالم .. أنت

لست جميلة ولا أنا جميلة .. الحب وحده هو الجميل والحب وحده يربط الجمال ..

أخبرني لسي إلى ظلال الأشجار النورية الزجاجية التي تصنعها مصابيح الطريق

العالية وقالت لنفسها نعم : لو لم يكن سالم معي لأخافتي هذه الظلال .. تجر إلى

زعمي عنصرات الأفكار المكتبة التي لا أستطيع الخروج منها وتجنسني مقبضة

منوال الليل .. أما الآن فانا أراها ظلالا لا غير .. مثالا كجسالك ناعم يفرض طريقا

نفسى فوقه ويفرشه من أجلبا لأننا نحب .. قالت وهي تضغط على يده من جديد :

معك يا سالم لا أشعر بالخوف !

انتقلت إلى سالم عندي انفعالها ولكنها لم يكن يستطيع أن يعبر عن نفسه

سألها .. خطر له أنه هو أيضا لم يستطيع في حياته أن يتكلم مع أي بنت غيرها

وأنة ظل طول عمره يخاف قبيحة الخوف من الكلام .. يخاف أن يخطئ .. أو أن

يقول شيئا لا ينبغي قوله فيلزم الصمت .. معها وحدها يستطيع .. ولكن ليس

تماما ! إذ قال لحياته :

- الآن أيضا أخاف أن أقول شيئا يفضيك !

- ولكن أنا يستحيل أن أغضب منك .. كيف ؟ لأن تسامحني أنت إن أنا

أخطأت ؟

تردد قليلا ثم قال : نعم .. إلا إن تركتني ..

أيسمت : الآن يا سالم أنت مجنون بالفعل !

تخلعت إلى جانب وجهه في الطريق المقيم وكانت تقاوم دموعها بصعوبة حين

استطاعت أن تقول لأول مرة

- كيف ؟ ألا ترى كم أحبك ؟

ولكنها كانت سعيدة .. الآن كانت خائفة من سعادتها ..

\*\*\*

عاشت لبني فرحاً لم تعرفه في حياتها من قبل ولم تتقبل مجده وجوده في هذه الدنيا . أن تنسى نفسها تماماً أن تكون وحيدة في فراشها بالليل تسمع الموسيقى فلا تنبئها الوسائد والخافوف بل بحديثها وبها وبها من كل جانب ، طيف عينيه الرصاصيتين ، شعوره الخزيير المشوش الذي لا يعرف أبداً كيف يمشطه ، حاجبيه الكثيفان ، كل نقابهميل الوجه ، نفس ، ناعمة اللبونة ، نظرة مسومة وبخارانه تحيط بها وتغزوها في وإثريسي في وقت واحد ، وهي وحيدة في الليل وهو يعيش بداخلها ، لم تكن الذموع التي تصاحب بون إرادتها تكفي لتخفف وطأة ذلك الامتلاء الذي تنطيط به وتنمنى في الوقت نفسه وهي تنقلب في فراشها لو تتخلف منه . تقول لنفسها لا يحتمل الجسم كل ذلك الامتلاء بالفرح :

كيف كانت بون سالم ستعرف ذلك كله؟ كيف كانت ستعرف الدوار المظهور ويختفان القلب حين تلقاه والده في الأديان والخبر في الأطراف والرمشة في تلاس الشقاء ورغبتها في التحليق بعيداً لأن الأرض أضغر من أن تسع لهذه النبوة والجسم أضيق من أن يستوعبها ؟

كيف كانت ستعرف ما يحدث لجسمها حين يضمها إليه فتعمر في الجسم كله رعدة وعرق خفيف كالأذى وتفتح الصمام كزهور تنثر عطر ووحدها وجسدها . وتعود جيلها ، وتحلم بمغفلة العيون لم يفتتح هو أيضاً ربما يحترقها فلا يفلتها إلى الأبد ؟

كيف كانت ستعرف هذا كله ؟

( ٢ )

عاش سالم أيضاً أياماً وأسابيع سعيدة . كان يطوف بقاهرة أحيانا ويقتله أن لبني تشفى إثر حياة غير حسنة . فليس يعرف لغات ولا تجد أي مشكلة في دروس الفرنسية في الكلية . فك سماع أن أباهما قريب مشير ، ليس أبه أن تكون لغوية ، أغنى منه بالتكيد ، ولكنه لم يترك في ذلك كثيراً ، رضى بالليل الذي يعرفه عن لبني وببنة السكينة التي وجدها معها . وكان جدّه يتركه في حالة ، لا يلج على أن يذهبوا سراً ولا على أن يندموا فوق السفوح . وعندما يتطوع سالم في بعض الأحيان بأن يحكي له شيئاً عن لبني كان يستمع إليه صامتاً وعلى شفاهه ابتسامة ثم يقول في النهاية :

- اللهم لا يصرفك هذا عن المذاكرة .

ولم يهتم سالم أيامها كثيراً بمسألة المذاكرة . فائراً ما كان هو أو لبني يدخلان إلى المحاضرات حتى عندما يذهبان إلى الجامعة . ولكن القليل الذي كان يفرّغ في وقت القانون أو يسمعه في المحاضرات كان يثبت في ذهنه على الفور . وكان يشرحه لبني عندما تطلب منه . وحسن جدّه يدافع في بعض الأحيان عن إجاباته على الأسئلة القانونية التي يطرحها عليه أستاذ من أجيته لمرورسه يقول مختصراً : كنت مثلكم أنك ستسمع في القانون . دعك رجعة الله عليه في آخر مرة رأسه فيها وأنت طفل صغير . عرف سالم بالطبع أنه يحس أبو خطوة . كما كان يعرف كثيراً من تفاصيل هذه الزيارة الأخيرة التي تركتها بنهايتها الغريبة بصمة لا تمحى على جدّه . ولم تكن لديه في هذه الأيام رغبة في استعادة قصص جدّه الملوثة . ولا كان الجيد أبجداً يستر راعاً في الإفاضة . فعلى الفتوة الأخيرة براً الباشكاتب ويميل إلى الصمت والتأمل على قير عائلته .

ولكن فوزية سألته مرة بالانتماء وهي تجلس قبالته ترضع طفلها سالم الصغير :

- قل لي يا سالم . من هي التي (أخطبت) أخى العاقل ؟  
تصرخ وجهه وراح يداعب بسيابته الرضيع الذي ترك شدي أمه وجعل عينيه نحو خاله وقال : ألا تريين أن سلوم يشبهني بالطفل أنا أعشق أبتك يا فوزية .  
لكن فوزية أصرت : هل هي واحدة أعرفها ؟ واحدة من الجيران ؟  
فرد متظاهرا بالالام : لماذا تسألين ؟ ومن ذبراك أن هناك واحدة ؟  
وسعت سيابتها في جاني رأسها وقالت : أنظرن أن أختك لا تفهم ؟ صحيح أنك في الجامعة وأنتى لم تتعلم منك . ولكن لى عينين وعذى هنا مع !  
انهمك سالم في صداقة الصغير الذي بدأ الآن يتحسم له ولكن حين مد يده ليحمله حول رأسه فجأة وعاد يلطم شدي أمه .  
قالت فوزية وهي تربت على رأس طفلها ببط . أنت كنتم طول عمرك . لا أحد يعرف منك الحق ولا الباطل . ولكن لو كانت واحدة من الجيران كعرفت . أنظرن أنها زميلة لك في الجامعة .

كان يلفظ أمانها وهي تجلس في الصالة على الكتيبة منهكة في الإرضاع لكنها ضحككت فجأة ودفعت نواحيها فنجذبت سالم نحوها وقبلته في خده قبله حارة وهي تقول :

- الحق ما جدأ لك يا سالم . المهم أن تكون سعيدا . ستخرج لك ما نعت سعيدا .

جلس إلى جوار أخته وسألها :

- وأنت ؟ هل أنت سعيدة يا فوزية ؟

قالت دون أن تنظر في وجه أختها : الحمد لله . فراح رجل طيب وسلوم يملا علبا البيت .

ثم سكنت وهي تتسأل : هل تستطيع أن تحكى لي سالم عن مشاكلها الحقيقية ؟

هل يمكن أن نكلمه عن فراح الذي تعرفه رغم كل ما فعلت أن أخاها ؟ يجب  
هل سينفيسها ويفهمه ؟ كيف يمكن أن تحكى له عن التغير السريع الذي أصاب زوجها خلال سنة واحدة ؟ غابست الانتماء من وجهه وأصبح عصيبا يثور لآفته شيء ويخلق شجارا في البيت . وحين تحاول تهدئته ويقول له إنها لا تقصر فى واجبها وإنها تخدم في البيت كالجارية برء بان أمه تعمل فى بيتها أشعاف ما تعمل فوزية دون أن تشكو ومن أن تطلق بكلمة واحدة هي تعرف مع ذلك صيب ذلك كله . فراح لم يصبح سيئا لكنه يرهق نفسه فى الشغل أكثر من اللازم وكل الأشياء التي توقعها لم تحدث . لا البهجة ولا المكافأة التشجيعية ولا الوقت الذي يسمح له بالتراسة العليا التي حلم بها . والحرب الذي كان يكنى تماما قبل سنتين أصبح الآن يتبخر قبل آخر الشهر بكثير . رغم كل ما نفعت للتغيير أهور المعيشة فى البيت ورغم ما يعطيه لها جدها .

فخيرا وفعت فوزية رأسها وقالت لأختها بصوت متردد :

- أريد أن أفخر وقتك فى موضوع يا سالم .

جلس إلى جوارها على الكتيبة وهي تحمل طفلها على كتفها وراحت تربت على ظهره . ثم سكنت لحظة ويدا أنها قد عدلت عسا فريد قوله وسألت أختها بالانتماء .

- على فكرة . هل عرفت يا سالم أين يلعب جدك يوم الخميس ؟

- لا . قلت لك أنتى حتى لم أحاول . هل عرفت أنت ؟

« لماذا إذن أسألك ؟ »

ثم أكتفت بضحكة مفتحة : « مصيبة يا سالم أن يكون جدي متزوجاً في السر !  
تؤزج مبعدا عنها وقد في ارتياح : جدي ! لا يمكن ! »

قالت وهي تواصل التريبت على الصغير : « ولم لا يا صاحبي ! فحدث كثيراً  
وتكتشف الصداقة بعد .. بعد فوات الأوان »

ثم أمسكت بابتها وأبعدته عنها قليلاً وراحت تؤزجه : « لكن أنت لن تكون  
كذلك يا سلوم ! أنت ستقول الحقيقة دائماً ، لن تصنع أولادك عندما تكبر بأنهم  
أخوة لا يعرفونهم ، كما أن أمك ومالك قد يكون لهما دعم ومساندة لا يعرفونها ! »

ابتعد سالم عن أخته ليتنظر في عينها مباشرة ولم يصرعه صوته ملح .

« فوزية ! ليس هذا مريضاً للزواج ! إلا جدي ! »

فواصلت حديثها لايتها : « إلا جده يا سلوم ! طالك قلب وعلى نيابة لا يعرف  
أن جده رجل كريمة الرجال ! »

لكن فوزية شعرت أنها ذهبت بعيداً في الكلام فعدت تحتضن طفلها وتقرئ  
في عين أخيها وهي تقول بهدوء : « لا تقلق يا سالم ، أنا أمزج بالفعل ، أقسم لك  
إنني لا أعرف شيئاً وأنا مثلك تماماً يمكن أن أشك في كل الرجال إلا جدي ، أنت  
تري كم يحبنا ، أنتنن لو كانت له زوجة وأولاد فسيكتفي بأن يراهم يوم الخميس ؟  
ثم قالت بضحكة عابرة وهي تنهض : ومع ذلك كنما قلت لك ، أوقع نصف  
عمري وأعرف أين يذهب يوم الخميس ! »

سار سالم خلفها نحو الباب وهو يداعب الصغير بالصيحة في خده مستجدياً  
منه انتباهاً أخرى ، لكن فوزية توقفت لحظة ، ثم بدا أنها تغليظ على توددها :

« اصبر يا سالم ، ما رأيك في حكاية البيت ؟ »

فيل أن تنتظر وده عادت تجلس على الكتبة فجلس سالم إلى جوارها وهو

يسأل :

« أي حكاية ؟ »

« أنت سمعت بحكاية الشرح الذي في جانب البيت ؟ »

نعم وجدي ينوي أن يرممه ، لكن السكان لا يريدون المشاركة في التكاليف ،  
فقال فوزية وكنتها شئزع ككسائها : « سمعت يا سالم أن الأرض في صيدا  
ارتفع ثمنها : سمعت أنها يمكن أن تبيع نصف الأرض بشئ كبير تبني به عبارة  
جديدة في النصف الآخر ثم تبيع شققها بالشئ الفلاني ، يمكن .. فاطعها سالم  
وهو يسأل بدهشة : « بدهم ونبي ؟ لماذا ؟ هذا بيتنا يا فوزية ! »

ثم استدرك : « لا ، في الحقيقة هو بيت جدي ، ولا يمكن لجدي أن يفرط قيمه  
بدهم ! هل هذا معقول ؟ »

كان سالم الصغير قد قام على حجرها فتكلمت بصوت خالط :

« أعرف أنه غير معقول ، وأعرف أن جدي لن يوافق . »

« إذن أنت تكلمت معه بالفعل ؟ »

« لمحت له قبضتيك ، قال مثلك : هل هذا معقول ؟ وأين نذهب نحن وأبن  
يذهب الجيران . »

ثم أكتفت بقبض مكتوم : « كان هؤلاء الجيران يفكرون حيناً ! يدفعون مبالغ  
للإيجار ويستضعفون حتى أن يدفعوا نور السلم ! نحن ، الذين توقع كل شيء ..  
رفع سياجته : « سيدك هو الذي يدفع كل شيء ، لا نحن ، وهو .. »

نظرت في عين أخيها مباشرة وقالت بلهجة بالثرة دون أن ترفع صوتها : « أنا  
بحاجة إلى فلوس يا سالم ! مرتب فراج لا يكفي للبيت ، وأنا لا أشغل ولا أساعد  
في المصاريف .. »

قال متعجيباً : « ولكنكما كنتما تعرفان ذلك من قبل الزواج ، كان يعرف جدي  
أنك لا تشغلين . »

ثم استدرك بصوت خافت : « وأظن أن جدي يساعدك ، »

قالت وهي تنظر شاردة إلى مقلها التام : نعم .

ثم واصلت توبن أن ترفع رأسها : جدى يدفع ما يقدر عليه ولكنه لا يكفى .

كيف يكون عندما هذا الكثر ونعيش فقراء ؟

نهض سالم وقال وقد بدأ يتملكه الغضب : هذا الكثر ليس ملك فراج ولا ملكك

ولا ملكي هذا بيت جدى وبنا يعطيه طول العمر .

مدت فوزية يدها فلم تكسب بيد أخيها وجذبت ليجلس إلى جوارها حيث كان :

- أهدأ يا سالم - أهدأ - أنا أيضا أدع له بطول العمر . أنا لا أحب أهدأ في

المتى كما أحبه . ثم انصرفت حينها بالتعويج وهي تسأل :

- قل لي ماذا أفعل ؟ فراج أخفى وخيصة ، والواحدة منا يا سالم لابد أن

تكون عزيزة في بيتها . كيف تكون لي قيمة وأنا لا أعمل ولا أملك شيئا ؟ الرجل

الآن يؤن زوجته بما توفعه البيت .

قال مختافا : وألحب يا فوزية ؟ ألا يؤن الرجل زوجته بالحب ؟ ألا تكون عزيزة

لأن يحبها ؟

قالت ومصرعها تنساب بلا انقطاع : في الحكايات فقط يا سالم " عند الحب

جلى وسلك ، أنا لست عزيزة على فراج لأنه لم يتحب في زواجي ، هو يعتقد أنني

أنا التي اشتدته ولكني لم أفعل كل الشئ الذي يستحقه . ومعنى حق لأن الغلظة

غلظتى .

أقلت منها العبارة الأخيرة دون قصد فعاتت تكرار .

- قل لي ماذا أفعل يا سالم .

نظر سالم إلى أخته الباكبة في حيرة وميؤن . ثم مد يده إلى كتفها وضمها

إليه يرفق وهو يقول بصوت مرهف .

- ولكن .. ولكنك عزيزة جدا يا فوزية :

ثم اختنق صوته وسكت .

( ٤ )

بعد تلميحيات جابر جاءت فوزية ، وسأل الياسكاكتب نفسه : من عليه الكثر

بعدما ؟ شعبان الذي جاء قبل أيام يشكر لمن مظالمه الكثرات البليظة ؟ أو

ربما سالم الذي وقع في حب بيت غنية ؟ أو فراج الذي تبخر كل مفاوته مع نخبز

مرتبه ؟

كان الياسكاكتب يجلس وحيدا في شرفته في الليل ، يراقب الشارع الذي بدأ

يرتفع لأقتراب مولد السيدة وأصبحت أرفسفته ملى لزوار الست . كما بدأ

اصحاب المحال يعلقون أفرع المصاييح الثمينة بعرض التواجيات . ولكن أنسية

كثيرة كانت تشغل بال الياسكاكتب .

لم يكف عن محاسبة نفسه منذ جلست وحيدا في المقهى ، ولاحقته أمور

تنتزع من نفسه . فاجابه أولا اقتراح فوزية ببناء المحلات في سطح العمارة .

ولكنه بعد تفكير قال ولم لا ؟ عر عليه أنه سيفقد شجرة العمر حنة التي كان

عصرها من عمره ثم سأل : وكى بقي من هذا العمر على أى حالة .. كان يعرف

جدة الخالة التي تعيشها فريدة وفراج يعلم أن ما يعطيه لحيته خفية لا يساعد

كثيرا على تغيير هذه الحالة . ثم بدأ هو أيضا يشعر بالخلاء ، الذي يحدث عنه

الجميع . أعاد ألا يفكر أبدا في المثل . كان معاشه وإجاره وإيراد قطعة الأرض

الصغيرة التي ورثها هو وشعبان عن جمعية يفيض عن احتياجه الفيلة ويكفى

لكسبة حاجة أسرته كلها . ونونك من زمن بعيد عن الاعتماد على إيراد البيت

الذي لم تعد إيجارات مساكنه تغطى مصروفاته . والأى بدء يسحب من مخزونه

لمصروفات الشهر العادية ، واكتشف أن هذه التحويلات ستضيق كلها في تكاليف



الشرم الذي اعتدوا السكان عن المشاركة فيه لأنه ليس منكم - كما قالت الست إنصاف - وكلها تراج قبل أن تصيف في أسى حقيقى - من أين ونحن نلتفت لمصاريف علاج الحاج إبراهيم - فما العمل - يهدم الله بالفعل وليكن ما يكون - يفتقر البيت والجيران معا - هو يصدقهم - أن لكل واحد منهم غيره بالفعل - تربي في هذا البيت مع أبنائهم الذين أجر لهم الحاج السمعى المساكين - وظل الأبناء الذين ظلنهم يحفظون له الرد ويستأثرون النصح -

كان يعيشهم مثل ابنة شعبان - وأهم أطفالا يكرهون ويتزوجون ويتجبنون - يقولون له يا عمى وأطفالهم يقولون يا جدوى ترفيق - لم يعد يعرف أبيهم حو ابن من ولا في أى صديق يسكن لكنه يحفظ وجوههم ويعرج بهم حين بلغهم على السلم أو أمام باب البيت - يفتقد لسلهم عن حالة الأسرة وحالة المدرسة فيربون عليه في خجل وندم -

أحزنه أن شعبان لم يشأ أن يكون له من هؤلاء الجيران أصدقاء - وأنه لم يرض أيضا أن يتسلط سالم يقولاهم ويهادتهم - ليكن - شعبان حر - أما هو فيدون هؤلاء الجيران سيفقد حياته طغيها - سيشناق لكل مكانه حتى للست إنصاف صاحبة الصوت العالي والمشاغرات التي لا تنتهي مع الباعة -

بود أن يعيش حتى آخر عمره في البيت الذي تربي فيه ويعرفه ناسه والذي شهد أيضاً آخر أيام سمية - يشعر منذ يوم الحقيقى أن صفحته الأخيرة قد دنت ويريدما أن تطوى بسلام - لم يكذب حين قال إن سمته كالحصان - حالته مازالت أفضل مما يشعر أى إنسان في سنه أو حتى أصغر منه - عذيقه هذه الصحة كثيرا منذ شبابه - وما زال جسمه - المدوك - ووجهه العريض المتناسق القسمات والثورة بالدماء يوجبان بالفة والعافية ورغم الشجاعة الطويلة العميقة ولسع الأسيب فهو يبدو أصغر من سنه بكثير - لم يشك في حياته من المرض باستثناء

وعكات البرد وحالات طارئة من عسر الهضم لم تكن غريبة - وهو الذي يعرف دائما ويعجزه عن مقاومة إغراء الطعام البعيد ويأته لا يعرف متى يفيض عليه أن يتوقف - تجاوزه حتى ألم الأسنان الذي أرغم كل أصحابه في مراحل من أعمارهم على استخدام الأنظم الصناعية وحل بدنه على فستقته التي عجز عن السيطرة عليها في شبابه وفي شيبوخته - ولكنه يعلم أيضا بأنثاء القبل الذي بشره به أبو خطوة منذ مطلع الشباب - بدا له بعد موت سمية المبكر أنه كان لابد من وقوع الحسنة لك يجد الطريق - غير أن رغبات جسده لم تكن وحدها هي التي ماتت طوال السنوات التي أعقبت وحيل سمية - بل ماتت تطلعات روحه أيضا - عاش يؤذى ما عليه من (أراجيات) نحو ولده ونحو ولديه من بعده - تسمى الرغبات طوال تلك السنين - ولكن روجه لم تخلق بعيدا -

قرأ أيامها الكتب التي أعطاهها له أبو خطوة - لمراها حويلا وأحبها كثيرا - ووجد الفكرة في كل هذه الكتب بسيطة وجسيمة : أن يتعلم بالتفاني معبنة تصل به إلى الترهة التي يعيد الدنيا في قلبه فسرها رغبة في نفسه ويتبين على المعجزات - ورأى أنه لا توجد أى مشكلة في ممارسة الحياة كما توصي الكتب - كان يجعل بينك الوصايا بشكل طبيعي حتى وهو في عز شبابه وانطلاقه وراء نوات - بدا له أنه قد ولد بهذه الأخلاق - كان متواضعا دون التفتال لم هو أنه من - بعيدا كل البعد عن تعلق من هو أقوى منه بجاه أو ماله - يبذل من ماله ورده دون من ولا استعلاء - يكره انتثار الدج للعطاء ويشي بحق إساءة المسرة إليه - ينسأها لا بل ينظرها فحصى - بل بمعنى أنه إن غضب لها في حينها فإنه لا يذكر بعدها فيم كان غضبه - يحب من قلبه أن يساعد الناس وأن يقضى حوائجهم - كل تلك السجايا وغيرها مما أوصت به الكتب لم تكن غريبة عليه - غير أن الضلوة التالية التي نصت عليها بعد ذلك لم تكن لها علاقة بأخلاقه ولا بآرائه -

وإنما يزور محل عليه ويشرح له صفوه قبلك طريق الصالحين وتجري على يديه  
الكراميات . أيضا عليه النور ولكنه لم يقدح الأمل حتى في هذا الهزيع المتأخر من  
عصره . غير أنه أتدرك عن يقين أن الرباء لن يقوده إلى الطريق . حين يحضر  
حلقات الذكر يزور في الحلقة أطول من غيره فينبهك جميعه تماما ولكن روحه لم  
تكن تستيقظ . شعر بأنه يخدع نفسه ويخدع أولئك الناس الطيبين من حوله الذين  
تتعلق منهم بعد طول الطلوع آفات الخسوع وبموع الزجاء .

ومع ذلك فقد ظل وثقا من أن هذا لا يعنى وقوعه في قبضة الشيطان . كان  
إيمانه بسيطاً وعميقاً مثل إيمان أبيه الحاج السعدي . وكان ندبه على خطاياهم  
صافيا كما شعر بذلك صنيعة الصالح . وظل يكرر سينظروني في الوقت ما يؤذن به  
الوقت . وظل قلبه يقول له إن الوقوع في الرباء مفضية تقوى ما سواها .

أخذ يجاهد مع ذلك منذ موت سمية مقتناعاً بافتراء الأئمة والوفد بعد أن  
جمع جسده حتى نسيه . المشغل تماماً بيهوم حياته مع والده وحفيديه . ولم يفكر  
في امرأة أخرى . الأصعب أنه نجح في إخفاء شهوته للشهوان التي لم تنطفئ تماماً  
رغم ما حوله . ظل طوال تلك السنين يرى في عمله وفي خبرته نساء من كل نوع .  
بعضهن بلعن وأخريات يرفينه بالفتنات التي يعرفها جيداً كأنهن يقرأن بقية  
نفسه : لماذا تكذب يا توفيق ؟ وجهك يفسح النداء الذي تخفيه خلف قناع الزهد  
وحيثما يكاد يمزق جلده كي ينطلق . لماذا تكذب ؟

ولكنه ظل جامداً . ونجح بمن السنين في أن يكف نفسه إذا ما هو هم بشئ .  
أكثر من النظر .

فمن أين جاءه تلك العاصفة المتأخرة التي اجتاحت كل مسوده ومقاومته ؟  
دهشته في الشهور الأخيرة التي كان يلطم فيها أوراكه لكي يخرج إلى المعاش ..  
لبنقاع مثل مجنون شيب أدنى ما عليه في العمل وفي الحياة عندما ظهرت هي .  
لا . الأصعب أنها ظهرت بعد أن بدأ يستبد به شوق غريب إلى الحياة وحين جارف

إلى السماء كأنها هو في بدء حياته لا في نهايتها . حاول أن يتغلب على ذلك  
الإغواء المتأخر الذي غزا جسده كالنمى . لكن يؤت نفسه على نظراته التي  
نفسه لزميلاته في المكتب وللمعاملات منه . راح يسأل نفسه : ما الذي جرى له ؟  
يخرج من عمله ويمشي في الممرات إلى أن يهده التعب . ولكن الشوارع كانت  
تعتيه السماء أجمل مما راهن في عصره كله . شجوه عينه مباشرة بقوة قاهرة نحو  
السيقان المظفرة والصخور النافرة والشفاة المسننة والعيون الجميلة . لا يقوته  
أصغر تفصيل وهو يمضي مع ذلك بخطوته المبرعة لكنه يهرب .

يقول لنفسه ومادا في ذلك كله ؟ السيقان أعضاء القمى والعيون للنظر  
والصخور للوضاعة . لكل انسان في الدنيا سيقان لا ينتهيه إليها . ولكنه إذ يمضي  
في الطريق يرى امرأة تتطلع إلى أزياء في واجهة محل . ترفع قدمها تلعب بسف  
الحذاء وتبشي حافها انتشاء ببسبلة فتجست فكرو رغم كل محاولاته . هاتين  
البياضان تلك المرأة المشوقة الغامضة . ساقان طويلتان تتسابان من اسلاء مستدير  
محبب عند السمانة إلى أن تنسجيا بندرج ونعومة نحو البيضة المرموية المساء  
لكعب القدم . يرى نفسه يكاد يلصق هذه الساق بتمامه . يتحسس نعومتها  
البيضة . يرى شفوية تسنان تلك السمانة الشبية . ويشعر أنه يصعد بشفتيه في  
ذلك النعومة . فيتوقف في حلق وهو يغمض عينه . يزفر ويستنفر . يرق الأرض  
يقدمه غاضبا على نفسه ومن نفسه . ويحاول المشي لكنه يعجز عن أن يمشي حوله .  
ولكن لا فائدة . الساقان اللامعتان هناك وهما لبيبا عضوين للقمى وإنما  
لتعذيبه وهلاكه .

وفي جولاته المعمومة تلك يمثل جحلاً للكتب القديمة وراح يقلب في الكتب ليجرد  
أن يهرب من خيالاته وأشغافه . ظل الياح يهجم حوله دون أن يشكلم وهو يتأمله من  
بعيد بنظرة عاجضة . وأخيرا اقترب منه وقال بايتساما مأكرة - عبرى شي . لا  
يوجد فوق الأرفف . تحب أن تراه ؟ وعندما عرض عليه التجليات أولئك أن يرميها

في وجهه ويخرج من الحلق، لكنه لم يفعل. بل وقف يقلب فيها وهو يشعر بنفسه  
سرع في صدغه وجبينه وورعشة في يديه. كانت الصور الثرة تدب إلى ما لم  
أبعد من خيالاته الجائحة التي يهرب منها ولم يستطيع أن يتوقف عن التقلب فيها  
رغم شعوره بضجى وبأنه يتنفس أمام نفسه. لم يخرج من الكتلة إلا بعد أن  
اشترى تلك الجلات ثم بدأ بعد ذلك يبحث عن غيرها وهو يفتح نفسه في  
تلك الشهور التي استبدت به خلالها شهوة العودة إلى النساء. بأن ما يقوله هو  
الشر الأهم. بأن هذه القوة تعصمه من زلة الزنة الحقيقية. اجتهد في جمع  
الجلات واجتهد في إحقاقها من أنظار أهل البيت. أيسر له صنع الماشح  
مفاتيح خاصة عالية الثمن للمكتب وقال له إنه يستحيل تنفيذها أو فتح أذراج  
الكتب بدونها. وظل هو يحتفظ معه بتلك المفاتيح باستمرار. لا تفرقه لحظة.  
كان يشعر بالبار إذ يفعل شيئاً كهذا في مثل هذه. لكنه لم ينجح أبداً في  
التخلص من تلك البراية التي تعلبها في شجوهته. ثم ينقطع نائب النفس أبداً  
ولم يفلح في الإقلاع أبداً. يمر لنفسه الجلات موجدوها. جعلتها أو  
تركها. وأما لا أؤذي أحداً ولا أرتكب ذمراً. ولكن حاله كان يقول له غير ذلك.

وفي تلك الأيام ظهرت ناراني هائل. ترددت على مكتبه أماما متعاقبة. كانت  
تنزعه من استيقاظه وأوراقه وإجرائاته الخاصة بالماشح لكي ينجز لها سطرته.  
كان معروف بأنه يخدم كل أصحاب الغضاب على السواء وأن مكتبه معدود لهم  
جميعاً وإن حاول أن يتخفف من هذا العمل قبل المباشرة ناركا بصرفه الأجر  
لروسيه. لكن ناراني كانت تدخل مكتبه دون استئذان. تقدم أوراقا ومستندات  
لقضايا عديدة لإثبات الحق والمطاعن القانونية مع شركاء الزوجية الراحل. كانت  
تقترب من التمسك من عمرها بالتكليف لكنها تعنى كثيراً بمشاورها وطلبها فلا  
تبدو منها الحقيقة. ومع أنها لم تكن تصنع شعورها. أو ربما تصنف وتنفذ  
ترك خصلات بيضاء. فقد كان جسدها قديماً.

واعلمت أن توندي دائما الملابس والألوان الهائلة. وتعرف كيف تبرز أنوثتها  
الباطنية. كانت تتجاوز معدونه وتدخل إلى مكتبه ثم تجلس مباشرة على المقعد  
الجلدي المواجه له وتقول بتهجئة شديدة التهذيب. فيها شيء أمر مع ذلك «يا  
حقيرة الباشكاتب سيادت بالأمر». «ليترك كل ما بيده ويستدعي مرؤسيه  
لنصائح ينقده ما تظليه. ومرة كانت تجلس أمامه واضحة صافاً على ساق خارج  
دون وهي يتطلع إلى جمال رناسق ساقها البيضاء. وضغط نفسه بهدوء.  
بعينه من ثوبها الرمادي المجدول حول رديها المنمذين المنسكين ويتحليها  
في صورة من تلك الصور التي أهدتها. فمعهذا الدم إلى وجهه. وارتاع من  
انحلال فكيه. ثم كتفها خست هي في لحظتها ما يفكر فيه فتضجر وجهها وهي  
تغزل في جلستها وتطرق برأسها على القور.

ولكن ربما في تلك التواني حدث بينهما تفاهد ما. اتفاق ففصر على أن شيئاً  
آخر غير الأوراق بدأ يجمع بينهما. وجد الباشكاتب نفسه ينتظر حضورها إلى  
مكتبه بلهلة وهزارت هي تلك في الانتصاف بعد انتهائهم أعمالها. لاحظ  
الباشكاتب رغبة جديدة بسيطة حول عيبتها وحمرة خفيفة فوق شفتيها. لم يعد  
الحدث يدور عن العمل وحده. بل صار يشرق إلى مشاكل الحياة. وإلى  
مقارنات بين أحوال الحاضر والماضي الذي كان يصل بكثير أيام الشباب.  
شبابها وشبابه.

ولدت ضحكات الباشكاتب المشرف على التقاعد وأدهشت معاونيه الذين لم  
يعتادوا منه الاهتمام الخاص بالهدي التعاملات مع المحكمة. بدأوا يشاورون  
ويستسبون. واتخذ الباشكاتب حضور زملائه لكنه لم يجر مطلقاً. أحدث نكته في  
داخله موجة من الاستهانة بكل شيء. كلما اقتراب موعد خروجه إلى التقاعد.  
وكانت ناراني أول امرأة من لحم ودم تقسم حياته منذ رجل سمية. وعندها تقيت

وومن أو ثلاثة عن المشور إلى مكتبة فصيح قلعا وعصيا . ومنع نفسه بالكاد من أن يتصل بها ليمسك ما الأخير . قال لنفسه . البيت با حضرة الباشكاتب . لم تصبح مراهقين إلى هذا الحد .

ولما أملت عليه في اليوم الثالث أو الرابع وجد نفسه يقوم من مكانه ليستقبلها عند الباب مرحبا بعبارة كثيرة لا معنى لها وهو يسافحها بيده الإثنين ويضبط على يدها . وكانت هي أيضا تبسّم مشرودة الوجه والتماعة في عينيها . فادها عبر الحجرة الواسعة إلى مقعدها المتوفى أمام المكتب وهو يقول « أويشتا » فقالت بصوتها الناعم الهامس « وأنتم أيضا » فكمثل ضاحكا وهو ينحده إلى مقعده خلف المكتب « إننا لا نجمع الشمل » .

لم يكن في نيته أن يقول شيئا عن هذا النوع . لا يدري في الحقيقة كيف أثّرت منه العبارة . لكن نازلي قالت وهي تتأمله بوجّه دهشة « بهذه السرعة ؟ أنت لا تضع وقتك يا حضرة الباشكاتب » .

وعندما وجبت ينظر إليها مشمورا وقد فاجأه ردها الذي يحض أيضا المرافقة بسرعة ضحكك بدورها ضحكة خافته وقالت :

« أنت أويكتنى كنت قد أعدت كلاما في رأسي ولكنه طار .

ماتلها وصوته يرتجف قليلا : إنل قمت توافقين ؟

رعدت إليه وجها باسما وهي تقول : أين نكاد يا حضرة الباشكاتب ؟ لم لم

تتكم أنت اليوم لتكلمت أنا . لماذا ينبغي أن يبدد الرجال دائما ؟

عقدت الدهشة لسانه وراحت هي تترنن إليها بعينيها المتضمرتين اللتين وقد

ارشم على وجهها تغيير جاذ تماما وأكملت بتيرة واضحة :

« سألتك عنك وعرفت كل شيء » . أنت أول من سأل .

ثم قالت ببساطة بصوتها الهادي : « ولكن لي شروطي .

ولم يستطيع توفيق أن يحسم لنفسه أيامها وهو يتكلم ويتصرف كالنوم إن كان ما يحدث قد جرى ضد إرادته أو لأنه يريد حقا . كان يعرف بالطبع من متابعة فضايها وأوراقها في الملفات أنها امرأة شديدة الثراء . تلك أراضي وعقارات وشركات وتمكن في فيلا في شارع سيشي . يعرفها جميع السادة والكتبة والمحاضرين في المحكمة ويتأدونها جميعا « نازلي هاتم » وعرف أيضا أنها أم لشابين أحدهما وكيل للنياية والأخر طبيب كما أن لها ابنة متزوجة ولديها منها طفل . وأدهشه قليلا أنها تعرف هذه المعلومات المهمة : أسرته والبيت الذي يملكه والمحل الذي يديره ابنه والأرض التي ورثها هو وشعيان عن سميرة والأماكن التي عمل فيها قيل أن يأتي إلى هذه المحكمة . وكل التفاصيل الأخرى في حياته .

ولكن ما أدهشه حقا هو شروطها : سيتزوجان عرفيا حتى لا تترث ولا يرثها . لن تقيم معه في بيته ولن يقيم معها في الفيلا ولكنهما سيسكنان شقة صغيرة في وسط البلد . ولن يلتقيا كل يوم وإنما في الأيام التي يحددها .

اعترض الباشكاتب على الفور على فكرة الزواج العرفي . فغالت نازلي لماذا ؟ مسألة الإشهار يعني ؟ عن نفسي أنا بالطبع سأقول لأولادي وتستطيع أنت إن شئت أن تقول لأسرتك . نحن لا نفعل شيئا محرما .

وهل سيقبل أولادها هذا الوضع ؟

ضحكت وهي تقول : سيرفضون فقط لو عرفوا أن الزواج يمكن أن يحرمهم من الميراث أو أنه يمكن أن يضيع أحوالهم . ولكن قلت لك إنني سألتك عنك وإنني أعرفك .

ثم أكملت بصوتها الخافت : وأظن أن هذا الشرط يناسبك أنت أيضا يا أسنانا توفيق يناسبك تماما !

كانت نازلي هاتم تعرف كل شيء وتحمي كل شيء . فقبل عرفت أنه سيظل يرضى . « الإشهار » لأسرته ولغير أسرته باستثناء الشاهدين اللذين جلبتهما هي ؟

لم يستمع أن يقول حتى لأبو خطوة ولكنه أدرك من نظره وجهه صديقه المبالغ في يعرف ، شجونه نفسه : زواج شرعي وظهور فلما إذاً لو كان مقتنعاً بذلك حقا في قرارة قلبه يتصرف كغيره يخفى ما يسرق ؟ ولماذا لم يشعر طوال هذه السنين طمأنينة النفس التي عرفها مع سمية ؟ سمية : أي مجال للمقارنة ؟ ولكن لم يقل الآن ما يقول ، في حينها كان الترتيب مناسباً وكان العلاج ناجحاً ، لن يجده إلا أن الابتكار ولن ينفذه الرياء .

لم يعرف نازلي هانم على حقيقتها إلا في تلك الشقة الصغيرة التي استأجرها بناء على نصيحته في عبارة مزدحمة بعيادات الأطباء ، ولم يكن ذلك متفقاً تماماً مع الإتيان ولكنه كان ترتيباً مناسباً للعلاج ، والأفضى إلى مكان آخر ، غير أنه العمارة البنية المظلمة ، في السلالم والعيادات ، كانت تارلي مدسح نفسها بين الأصوات والتجربات التي أزعجت في لثنيها الأول في مراض الزوجية : لكن تلك المرأة الشابة ، الصوت الباسم والهادئ ، التي توقع أن يتودها وبعلها من ندرته المتكسبة منذ النشأة كانت تتحول شيئاً فشيئاً دون فاصل بين الألفاظ والصراخ من نبرة متحركة تنبئ إلى جارية خاضعة تدل ومن الزينة الباسم إلى الضم والنفخ ومن نبرة إلى ضمة ، غير أنها كانت ناسقاً باتات في دور العارية الخاضعة التي تصب أن توتر وأن يعاقبها جسدها وأن تصحس في نذل فيستثير ذلك كله السيد ليعطي أحسن ما عنده ، وقالت له مرة بصوت مخفوق فيستثير ذلك كله السيد ليعطي أحسن ما عنده ، وقالت له مرة بصوت مخفوق وفي في حضنه ، هذه الأرض ملت جرداً ، طويلاً وتريد الآن أن ترتوي ، ثم تكن وحدها ، فليصبر ، كان السيد أيضاً يريد أن يحوض كل ما غات في السنين الطويلة التي قمع فيها جسده ويريد أن يشفى من الحمى التي اجتاحتها في الشهور الأخيرة .

زاج يتعامل مع كل مرة في جسمها ، ولكنه يريد أن يستقطر منها كل ما يمكن للجسم أن يعطيه ، كأنه يريد أن يرشف مرة وإلى الأبد خلاصة المرأة .

خلاصة كل نساء الأرض ، في تعبه وتنفذ نازدة ، وفي اجتياح عاصف نازدة أخرى .

اتلفا في بدء الزواج على أن يلتقيا مرتين في الأسبوع في الظهيرة ليقتضيا الوقت معا حتى المساء ، ولكن في الشهر الأولي التي سبقت خروجه إلى المعاش والتي أعقبته كان ذلك اللقاء يتم أربع أو خمس مرات في الأسبوع لم تستد الأرض الجرداء من نقص الرى ولا انتهت العاشق الذي طال حرماته من اكتشافه لأعناقها ، أيامها كان اللقاء الذي اتلفا على إتهاته في المساء يستد أحباباً إلى عمق الليل ، وذلك قبل أن تتلفم أمورهما بالتحريم ، قبل أن تعدد الثورة وينها كل منهما الآخر بما يتجاوز قدرة جسديهما ، حتى ولو كانا جسدين عليلين ومثوقين للعشق ، انتهت المسألة إلى هذا التلف الأسبوعي الواحد يوم الخميس ، وظل كلاهما يحرص عليه .

بعد كل لقاء كانت نازلي الجارية تأخذ وقتاً طويلاً أمام المرأة لتضع زينتها البسيطة ، المرسومة مع ذلك بكل بقاء ، لكن ترجع قبل الخروج نازلي هانم بكل كبرياتها وشموخها ، ولفت نظر الباشاكتيب ، ولكن فيما بعد ، أنه لم يكن يدور بينه وبين نازلي ، خارج العشق ، أي حديث له معناه ، أحياناً حين كانا يجلسان معاً في هوى ، قبل الخروج من بيتهما فيشربا شاي وبنكلا الحلو ، كانت تساه عن رأيها في بعض قضاياها التي لا تنتهي ، أو تحسب بقاء أرقام إيرادات مستحصلها أو مصاريف مستوفعها وترجوه أن يراجعها معها ، أو تشكو له أحياناً من أن أولاده يتركون كل الحب عليها ، وكل ما بهم من أن يجردوا الفؤاد جسامرة في النهاية ، أحياناً أيضاً كانت تنقد زوجها الراحل لأنه قبل أن يموت لم يرتب أمور الثروة والفرقة ترتيباً مناسباً ،

وحين كان توفيق يحدثها عن قلقه أو عن ندمه لأنه يعيش حياة مزعوجة أو لأنه  
يخون ثقة أسرته التي تحبه كانت تقول له بصوتها الناعم وكنتها لم تسمع ما قاله .  
يا توفيق . نحن كبرنا على هذه الأشياء !

ولفت نظره أن نازلي التي كانت تمارس العشق يحنون لم تتحدث مرة واحدة  
عن الحب . ولا هو أيضا .

ولفت نظره أنه لم يحدثها مرة واحدة عن سنية ولا عن أبوخطوة .

لكنه اعتصر مع ذلك في «الغريب» لأنه كان يحتاج إليه وكان يناسيه .

وعاد اليأس كالمسكوك يسدل نفسه ، للمرة الألف أيضا ، وهو جالس في شرفته هل

كانت نازلي هي التي أخذت روحه أم أنه وقع عليها لأن روحه خامدة بالتفعل ولا  
أجل له ؟

هل يجب عليه أن يعلم بأنه انتهى ؟

( ٥ )

أغلقت المكثورة صفاء عيادتها مبكرة عن موعدها في النظيرة وتوجهت إلى  
فندق (شبرد) لتقابل ليني التي طلبتها وقالت إنها تريد أن تراها اليوم . اقترحت  
صفاء أن تثليا في العيادة أو عندها في البيت ولكن ليني أجبرت على أن يكون  
اللقاء في الخارج .

جلسا في الحانة التي تطل على النيل . على طعنين متفاوتين بجوار الحاجز  
الزجاجي . ولم يكن هناك غير بقعة رواد متناثرين في المكان . راحت صفاء  
تتأمل ابتها بابتسامة ونظرة مستفهمة قبل تسألها «خبراً يا ليني . ما الذي تذكر  
بي ؟» وابتسمت ليني بدورها لعبارة أسما الآثورة وقالت «اشتقت لك وأريد أن  
أحدث معك في مسالة .»

كانت المكثورة صفاء كعادتها تترك شعرها الأسود الطويل مسترسلا ومرحلا  
بعناية حتى يشكف ظهرها . وتستخدم زينة كالكمحل حول عينيها الراسعتين  
وتصبغ شفشيها الجسليين برفق وإحكام . وكانت تلبس (تايرز) أزرق و(بلوزة)  
سمالية اللون . كان كل شيء فيها جميلا . وأردت ليني بلوزتها البيضاء العادية  
وقوقها (بلوفر) من الصوف الأزرق أيضا . راحت تتأمل أسما وتفكر بأن مجرد  
النظر إليها متعة .

عندما طال الصمت بدأت صفاء الكلام : كيف حال دادة سنية ؟

هزت ليني رأسها وقالت : بخير . ثم أطرقت وعادت إلى الصمت .

شعرت صفاء بشوق حقيقي إلى مريقتها القديمة ولكنها شعرت أيضا بهرج  
من الطريق للحديث عنها . بقاها مع ليني جزء من اتفاق الطلاق . تعلق بها منذ

المعسر أكثر من تعلقها بأمها . ومع أنها تعرف أن شوكت لا يحبها . إلا أنه لهم أن يبقاها ضروري مع لينى بعد خروج أمها من البيت . واعتادت الدادة سنية أن تزور صفا مرة في الأسبوع وأن تبيت عندها أحيانا بعد أن تستيقظ لينى . لم تكن المربية كثيرة الكلام . في الواقع أنها نادوا ما ننكم . لكنها تسمع لصدا . وكان هذا يكفيها . ثم تمسحها أو تواسيها بل كانت تسمع فقط وكانت تحبها . انكم تتقدمها الآن بعد أن أصبحت عاجزة عن الخروج والحركة : صوتها المرتعش في التليفون يزيد خوفها إيليا وخوفها عليها . أحيانا تفكر فيها بالسبل وتعلم ما لم تحسن وهي شيكى . هل سلفك حتى صوتها عما قريب ؟ ما علاقتها الآن بلىنى ؟ هل تحكي لها هي الأخرى أسرارها ؟ وهل حازت الدادة القدرة على أن تسمع وفهم ومن أين لها كل تلك الطاقة على العنان والحب وهي التي تعلمتها الدت ؟ نظرت صفا شاردة عبر الواجهة الزجاجية إلى الليل . كانت سحب بيضاء كثيفة في السماء . وكان النهر رماديا . أخيرا تكلمت لينى وهي معلقة وقالت لأمها أريد أن أسالك عن شيء . كيف يكون الإنسان سعيدا ؟ ضحك صفا ضحكة خائفة ثم قالت لايتها : أنت تعرفين كثيرا يا لينى . أكم تجدى إجابة عن هذا السؤال في الكتب ؟

- لا أريد إجابات الكتب . أريد أن أسمع منك أنت .

- أنا بليدة في الألبسة النظرية ! ربما لكل إنسان سعادته التي تختلف عن سعادة غيره .

- ولكني أريد أن أكون سعيدة .

ابشمت صفا : الإنسان لا يريد أن يكون سعيداً يا حبيبتي . هو إما أن يكون سعيداً أو لا يكون . إرادته لا تدخل لها بالموضوع .

- وأنت . هل وجدت السعادة ؟

سكنت صفياء وهي تفكر : هل هذا فع ؟ ربما تكون لينى قد جاءت الآن لتحاسبها . لم تعد الثقة التي انقضت علاقتها بها على أن تغرها بالجواب . وعلى الشررة الفارغة في لفاتها القليلة . الآن جاء وقت الأسئلة الصعبة : ومن يدري ؟ ربما يكون شوكت قد ملا وأساها بكلام عنها فقالت صفا . متهربة من الرد : هل تعرفين كلمة دادة سنية التقليدية . الرضا ؟ أن يرضى الإنسان بما يحده . هي مثلاً لم تجد في حياتها سوى القليل . فرمت في شياها دون أن تتعب ولكنها رضيت بي ولك أختها وأحبها .

وفكرت لحظة قبل أن تقول : وربما أيضاً أن يرضى الإنسان بنفسه . ألا يطلب من نفسه غير ما يمكن أن تحب . أن يرضى حتى يضعفه الذي لا يستطيع أن يغيره .

قالت لينى متبرحة : يا أمي يا حبيبتي أنا لم أفتيك اليوم لأستمع إلى حكم ومواظ . أنا أريد أن تكلمتي عن حياتك . هل وجدت السعادة وكيف ؟ نظرت صفا إلى ساعتها وتكلمت بهدوء لتخفي انفعالها : لا أستطيع بعد عقل كذا ساعة في الحياة أن أدخل امتحاناً في .. ولكن عموماً ما السبب في هذه الأسئلة ؟

قالت لينى وهي لا تزال عطشنة : لاني أحب . أشوق وجه صفا . ربما فيه فرح حقيقي : أخيراً ! مبروك ! كنت أظن أنك أنت ثم وضعت يدها على يد ابنتها وقالت : أترين ؟ الآن أنا سعيدة بحق . سعيدة بك ومن أهلك .

لم تهتز لينى لانفعال أمها وقالت وهي تحاول وجهها نحو واجاب الواجهة : فلماذا أنا لست سعيدة ؟

- كيف ؟ أه ! أنت تحببته وهو لا يحبك ، أو ربما لا يعرف أنك تحببته ؟  
لا ، أنا أحبه وهو يحبني ، أو يقول إنه يحبني ، لا أعرف . أظن أنه بالفعل  
يحبني .

- إذن ما هي المشكلة ؟ هل هو شخص صعب ؟  
وأوشكت أن تقلت منها عبارة « مثل أبيك » لكنها توقفت في اللحظة المناسبة  
وكانت لبني تقول :  
لا ، هو طبيب إنسان في العالم ، وأنا أحبه جدا وأكون سعيدة معه ،  
المشكلة ..

وضعت يدها على جبينها وصفا . « نلظ إلىها لكن تكلم فقالت لبني : أريد أن  
تساعدني ؟

المشكلة أنني أخاف من كل شيء ؟  
- لا يمكن أن يكون هذا بدون سبب يا لبني . لو كانت واحدة غيرك هذا الكلام  
سكان لها ببساطة أن ترى طبيبا نفسيا . ولكن أنت ذكاث - أنت حتى أنك  
مهي بكثير . لو فكرت ..  
ونسأت مساء . إن كانت أيضا ، قد فقدت بالفعل الثقة بسبب تجربة  
انفصالها عن أبيها . عادت لبني تتكلم بطريقة فيها يشبه الهمس : لا أعرفك  
السبب . أو أعرف أسبابا كثيرة . ولكن هذه لا تساعدني ..

ثم نظرت إلى أمها بما يشبه من التحدي وقالت : أتريدن أن تعرفن ؟ الخوف  
أعيش معه منذ صغري . بعد أن كنت تضجعين في الفراش وتطحن النار . كنت  
أفهم وأفهم من جديد فور خروجك وفي أكثر الأيام لم يكن هذا يساعدني . كنت  
أخرج وأنا أرتجف من اللهب لأنام في حضانة دادة سنية . وكانت هي تضجني  
بعد ذلك نائمة إلى الفراش .

- وكيف لم تقل لي هي ولم تقولني أنت ؟ .. ولكن هذا طبيعي دادة سنية لا  
تتكلم وأنت .. ثم سكنت لحظة قبل أن تكلم : عندما كنت في مدرسة الرهبانيات كن  
يقولتني من الشيطان الذي يوجد في كل شيء حتى في أظافر أصابعنا . وأذكر  
جيدا أنني كنت أخاف بالفعل ، هل كن يخطئك أنت أيضا ؟

قالت لبني بأقنعة الحسرة : يا أمي الخوف يعيش معي من قبل أن أدخل  
المدرسة . أنا ولدت بالخوف . أنا مارلت حتى الآن .. !

- ولماذا لم تكلميني عن هذا من قبل يا لبني ؟ ربما لو تحدثنا معا .. ثم  
استدركت : أنا لا أكون الآن ولكني أكون تلميذة ..

عبر وجه صفاء البميل حزن حقيقي . وهي تنظر إلى ابنتها . أريد أن أقول  
لها سمحيني ولكنها كانت تكرر العبارات العاطفية وتعرف أن لبني أيضا لا  
تطبقها . وبما الدكتور شوكت على اعتبار الدموع والكلام العاطفي ضعفا لا  
يثق ، حتى وهي شغلة كان يعاقبها إذا ما بكيت . ولم يقبل أن تدخل صفاء في  
أساليب الصديقة لربية لبني لتكون قوية . ولكن لماذا استسلمت لذلك ؟ لماذا قبلت  
أن ترى ابنتها الصغيرة تصارع تحبس دموعها وتضعم بالعار إذا ما بكيت ؟ كيف  
سيرت على هذه القصة ؟

لحقتها لما جدتها لبني مرة أخرى حين ساكنها وهي تنظر عبر الزجاج إلى  
النهر :

- هناك مسافة حيرتني منذ الصغر . لماذا كان الطلاق بينك وبين أبي ؟ هل  
كان لي أنا علاقة بالخوض ؟ هل كنت من بين أسباب الطلاق ؟  
تراجعت مساء في مقعدنا وقالت باستغراب : كيف تكونين أنت السبب ؟  
بالعكس ربما كنت أنت السبب من تأجيل الطلاق . لا يوجد أي من . سكرت لبني



وبين أيك غير أننا نحن الاثنين تحبك ! .. كيف يخطر ببالك !

وحولت صفاء وجهها أينما نحو الظهر وهي تفكر : بالفعل ، كيف يحظر ببال  
لبنى شيء كهذا ! وما الذي يمكن أن يقولته لهذه الطفلة ، التي ما زالت طفلة رغم  
زكائها وفراحتها . عن أبيها الحظيم : علمتها الأولى والكبرى بالطبع أنها لم  
تكتشفه على حقيقته قبل الزواج . لم تكتشف أن ثقتها بنفسه التي أعجبتها  
وجذبها إليه لم تكن سوى غرور أعشى يجعله يرى نفسه محور الكل - غرور  
بطمه ، وبنجاحه ، وبرسامته ، ومفانيسه الثوري . ثم يتذكره للشدة وبفكره  
العملية الجديدة . يجد في كل ما فعله أو يفعله في حياته مصدرا للتباهي ودرسا  
يجب أن يتعلم منه الآخرون . غرور يجعله لا يرى من أمامه ولا حتى من تشاركه  
فراشه ! في اليد ، كانت تنعذب في صمت . تخجل أن تقول له شيئا وهي تراه  
يصرخ عنها فوز أن يرفض رغبته . تنقلب من نفسها إذ تقطع إلى أن ظهر  
توترها بنفسها خفية . ولما لم تجد فتحا صاوحه . وجدت صعوبة في التعلل على  
ضجلها وتكلمت بترويه ، بالصفات جمل وبلمحبات مبجلة ، وكانت تنظر منه بعدا  
أي شيء غير ما سمعته أذنها . قال ضجوت وهو ينظر إليها حياشمة دون أي  
الفعال إنه يفهم مؤامرتها لتطليه ! قال إنه يجمع مع كل النساء غيرها ثملا  
تتعهد هي ألا تقبض نفسها معه ؟ في بالطبع ثمار منه ومن نجاحه ومن ثلوقه في  
القلب وتجاوز عن اللحاح به ولهذا تريد إزالته بهذه الحكاية ! لكنه لم يسمح لها  
بأن تهرق ثقله في نفسه أو أن تعطفه . إن كان عندها برود فلتعالج نفسها دون أن  
تجعله ضحاكها ! أضاف إلى عذاب التوتر إشعاره بالذنب دون أن تهتر فيه  
شعرة .

ياد ! كل تلك السنين من العاسة التي عاشتها مع هذا الجنون !  
التفتت إلى لبنى العاسمة وقالت لها . حدث الطلاق كما يحدث أي طلاق . لم  
تفق ولا ذنب لك فيما يحدث بالبيع . بل الذنب أجنبيا . نحن أخطأنا في ذلك . أنا  
أشعر الآن بالذنب لأنني لم أعرف بحقيقة متخالف شعورك ولكن أنت تعرفي

بالبني من قراءاتك أن الإنسان لا يعيش بمخاوف الطفولة ولا حتى بالمشاغل  
الحقيقية التي يمر بها في ثقافته وشبابه . وكل إنسان يصنع نفسه بالبني . وفي  
الغالب يصنع نفسه ضد ما مضى ..

لوحث لبني ببداهة وهي تقول : لا داعي لهذا الكلام يا أمي . قلت لك من البدء  
إنني لا أحتاج إلى مواظبة . أريد أن أسمع كلاما جديدا . قولي مثلا ماذا أفعل في  
حكاية الإنسان حمام ؟

بدأت تحكي لأمنها بهمس محايد تماما . دون انفعال ودون تهديد . ولكن حين  
انتهت كانت ترفع رأسها كعادتها لتواجم الصمغ التي تريد أن تظفر . أما جفء  
فتركت دموعها لتساب في صمت . لم تسألها هذه المرة لماذا لم تقول لي من قبل ،  
كانت تفكر أنها لم تقترب أبدا حقيقة من أيتها وأنها مسئولة بشكل ما عما  
اصابها .

أمسكت بيدي لبنى الموقبوستين على المنقذة دون أن تقول أي شيء . ثم  
سألها هاسمة أيضا :

- هل حدثت أحدا بخبري عن ذلك ؟

- دادة سنية .

- أقصد حدثت أحدا غيرها ؟

- لا . ولكن لا بد أن أقول لسالم . من جهة أن يعرف .

فعلقت صفاء بيضاء وبشرة حساسة دون أن ترفع صوتها : ولا كلمة ! لا هو ولا  
أي إنسان غيره . هذا شيء يمكن علاجه .

- ياخذاع ؟

تركت صفاء يدي أيتها وسألها : هل تريد أن تتقويه ؟

فأدارت لبتى رأسها مرة أخرى : لا أريد أن أعيش فى الكذب .

قالت صفاء : بون أن تنتظر فى وجه ابتئها : لا أنت ولا غيرها . لا أحد يريد أن يعيش فى الكذب ولكن ما العمل وحياتنا نفسها كذبة كبيرة ؟

ثم قشعت حفيظة يدها وأخرجت مرآة صغيرة وراحت تصلح زينتها التى أفسدتها الدموع المتعرق وتنا منومة لأنها كانت منسلة فى رأسها عن كلام آخر .  
يقوله لبتى الفارقة فى الصمت . ولكنها شعرت أن ابتئها قد اتسحت داخل نفسها من جديد . وأنها قد أصبحت الآن بعيدة عنها تماماً .

ومع ذلك لم تشرك صفاء لبتى إلا بعد أن انشغرت منها وبعداً يلا شيوخ لأحد بقصة المدرس قبل أن تنكح مرة أخرى . وعدت أن تتصل بها فى الغد بعد أن تفكر جيداً فى الموضوع ثم تكتلى بها وتتواصل الكلام .

لم تتابع لبتى أمها بتركيك . أخذت تبرز رأسها وتقول نعم - بالفتح - غدا .  
ولكنها كانت تفكر فى شىء آخر كانت تقول لنفسها : إقر لا حل سوى الانتحار أو أن أزل سالم . ولكنها كانت تعرف أنها أجيبن من أن تفعل هذا أو ذاك .

وخارج القطار كان الجو بارداً . عرخت البكتورة صفاء على لبتى أن توصلها بمسيارتها إلى أى مكان تريد ولكنها قالت إنها تحب أن تمشى . سألتها أمها تمشين فى هذا الجو؟ هزنت رأسها وقالت صفاء : يايتسامة منكفة وهى تصعد إلى سيارتها . مجنونة مثل أمك ! لا تمشى موعنا غدا .

هزنت لبتى رأسها مرة أخرى وتكررت وهى تلوح لأبها بالتحية : لم أقل إنها حقى لماذا أودت حفيظة مقابلتها اليوم ؟

\*\*\*

سارت لبتى على شاطئ النيل فى اتجاه جزيرة الروضة لكنى تقابل سالم فى انزع . كان الجو بارداً . بالفعل فتمسكت (بالكرسى) على جسدها وأسرعت خذلها .

لكنها توقفت فجأة أمام حاجز الكورنيش المجرى . فكرت وهى تنتظر إلى الأمام الروادية المتأخرة : ومع ذلك فسوف أتقدم ! شئت أن أبيت فسوف أتقدم . رأت فى الصباح مرتضى فقتضت ولم تكن مبقطة .

شيكمت يديها أمام صدرها وراحت تنقل بصرها بين السحب البيضاء فى السماء وشراع مركب كبير متعلق بالهواء يتجه نحو الجنوب . كان الشراع مشدوداً ومثوتاً لمبدأ (المراكبية) يستقون الصارى ويطوون الشراع . واقبهم وهى تحاول كالعادة أن تمنع الدموع من عيشها وفكرة واحدة تتكرر فى رأسها . كل شىء . إذن سينهى . كل ذلك اللوح القصير العمر . كل تلك الشهور من الأحلام . كلها منسحق .

بدأت تمشى ببطء فى اتجاه الكازينو الذى ستقايه فيه .

عندرجع إذن إلى الصيامة القديمة . سترجع إلى التلطف للزواء فى خوف واحتباس الصوت والهروب فى القارة والربيع من الناس والأشياء . سترجع إلى الوقت الذى يقبل الوقت ويمعنى معه !

ولتفرض أنها قالت له من قصتها مع حمام وأنه فهم وفطر . (كيف؟ بنية معجزة؟ لا تنوى!) فهل سيفخر لها أنها أخطت عه حكاية المقالات والمشورات والمظاهرات؟ هل سيفهم أنها كذبت عليه لكى لا تفقد؟ هل سيفهم؟ هل سيفهم؟

ولتفرض أنها سكنت وأن المسألة مرت بسلام لعل سيفوت مرتضى الفرصة؟ عرف رغم كل محاولاتها للتخفى أن هناك شيئاً بينها وبين سالم . ونحن يتصادف أن يرافها معا يرفها يايتسامة بفيضة ونظرة كارفة . إنه سيب للحد أكثر من (إجوا) على أى حال ؟ يعتبر أن سالم بريقها منه تعمدت المجموعة ألا تشركه فى أى شىء . لا فى الاجتماعات ولا فى تحرير المقالات لكنه جاءها مع ذلك فى

الصباح بابتسامته التي تفتتها وقال لها سنة خوة باجميل ! إن سنحظك غدا  
ويتقى المشجيرات ؟ قد ؟ ١٥ يناير؟ ليس كذلك؟

ابتعدت عنه وجاها الحوار على الفور، خافت منه وكانت خائفة من الأصل.  
نادا لم تقل لهم الحقيقة وهم يوزعون اتهام؟ لماذا لم تقل على الأقل أنا جمانة  
وأخبركم أن نظرتي من هذا العمل خافت حتى أن تقول ذلك. جاء غسان النوف  
والعرق المار لكتبا لم تخطي، وشعرت بالعار وهي ترى زحاما وزميلاتها يقبلون  
الظلوب منهم ببساطة وحتى خصام. كان يجب أن تتسحب. لا في تلك اللحظة  
وإنما قبلها بكثير. كان يجب أن تعترف لنفسها بأن هذه اللعنة ليست لعبتها.  
ستعترف بهذا لسالم. ستكون أصرح مع نفسها. ستقول إنها حش وهي في شب  
اللعب لم تفسح عندما بدأ تعلق، حدثتها نفسها عن هؤلاء الطلبة الفقراء يدفعون  
بالفعل عن مجالهم، أما هي ففعلت أي شيء ثواقف؟ الدكتور شوكت معه كل  
الأموال ويعطيها كل ما تطلب.

هل أراحت ضميرها عينا أمضت عن أن يوصلها سائقه بسيارته إلى  
الجبهة؟ عندما حسنت ألا تلبس الثياب الغالية مثل الدكتور صفاء أباد. هي  
ليست منهم. أكثر من ذلك، لمعرف بأنها كانت في وسط اجتماعهم تدعو بغور  
وتفرز من روايتهم أحيانا تبتعد خطوات عن يقرب منها ليكلمها ورعدة فم  
وجسمه وثيابه تصيبها بالترار. نسأل نفسها لماذا لا يستمعون ياريس؟ لا يوجد  
في عصر أكثر من الماء ولا أرحم منه. لماذا لا يصفون ملاييمهم ليزيلوا رائحة  
العرق على الأقل؟ كيف لا يشعرون مغذراتهم؟ كيف لا تستفزون من روائح  
أجسادهم وهم طلبة جامعة؟ المفروض أن يكون أحد قد علمهم شيئا عن الثقافة  
وأنهم يفهمون هذه الكلمة. فلماذا ياريس كل هذا الاستهتار؟ لو كانت لديها ذرة من  
الشفاعة لبرخت ففهم أنهم فعل أن يثوروا على السياسة يجب أن يثوروا على

قدارة أجسامهم! لكنها لم تفعل. لم تقل رأيها في أي شيء. بل كانت تشعر  
بالذنب حين تأتيها هذه الأفكار. وإن لم تستطع التخلص منها أيدا.

أقم من ذلك أنها كان يجب أن تعترف بأن حبها لسالم يشغل كل حياتها.  
لكنها لم تفعل. تركت نفسها لعل لا تستطيع تحمله وأخفت أمره عن سالم. أقنعت  
نفسها ببيت من الشعر لشكشكير يقول «لا تدخل معركة ولكن إذا دخلت فائتة» .  
برافوا! ولكن ماذا وهي لا تستطيع أن تثبت حقيقة لا تستطيع.

بدأ رافا خفيف في السقوط. تأسرت لبس خطواتها ولكن ساقها عادت  
مرتجفة أكثر من المعتاد.

سعدت إلى الكازينو فتجد أن سالم عرف كل شيء. من مرتضى، سمعها  
بأنها بخونة. تخلى عنه أفعالها. سيكون قد عرف بحكاية الأستاذ حمام. ليس  
بعيدا أن تكون قد وصلته بطريقة ما. سيشتبه. سيضربها. سيقدمه إلى الأبد!  
الأفضل ألا نقاله. الأفضل أن تموت الآن حيا؟ لماذا لا يأتى الموت عندما يتعاد  
الإنسان ؟

لكتها وجدت نفسها رغم كل شيء. في الكازينو لم تكن ساقها وحدها  
ترتجف بل شفتاها ولحيا .

وحين رآها سالم مقيمة عليه وقت وقال مزاحيا: ماذا بك بالشي ؟  
فولست قبالة دون أن تتشقق بكفة.  
قال لها : تحبين أن تدخل في الصالة؟ الدنيا برد وشفاتك زرقاوان .  
هزت رأسها وبشمت : لا ياس .

لكتها ظلت في مكانها . وكرو سالم في قلق: ماذا حدث ؟  
فردت شاردا : فأبلى امي .

ثم استجمعت نفسها بيده خائفة وقالت: نعلك حق. فلندخل إلى الصالة.

تفترت لبني الى وجهه المذهب ، تابعت محاولات لكن يتوزع الكلمات يصعبه  
ففرها إحساس حارف أصفا كل شيء آخر غير أن سالم بذكر - وان بذكر من  
أجلها فقلت بشيرة فيها شيء من الاستسلام :

وكيف يمكن لي أنا أن أتوكل؟ ألم أقل لك أكثر من مرة إنك أحسن شيء  
حدثت قري حياتي؟ ثم إنني شئت جميلة ولا ذكية. لست أدركي منك - أنسيت أنت  
أنت الذي تشرح لي مسائل القانون الصعبة التي لا أفهمها؟ وأنا أحب لك أنت  
كما أنت، أحب جدك الذي لم أقابله وأحب أختك وأبنتها عندما تتحدث عنهما لأنك  
أنت تحبهما. ولو كنت تحبني لكانت تحبني لأني أنا كما أنا ..

أشرف وجه سالم قليلا وهو يفكر شيئا جدي أيضا يقول ذلك عندما حدثته  
بذلك فأتى لي إن الحب الحقيقي انقاء وهدوء والأرواح لا تتنافس في الجسد ولا  
في الذكاء لأن كل الأرواح جميلة وذكية .

فأنت لست : لو كان جدك معنا لكانت لأنه يقول هذا الكلام :

ولكنها ابتسمت لتسببها حين شرأ على نفسها ما يمكن أن يحدث لو سمع  
الذكور شوكت أو الاكتورة صفا هذا الكلام عن الأرواح. ليس طمعا على  
الإسلام :

وقالت لسالم في دهشة حقيقية لو نغير معا ياساتو هكذا إلى الأبد ففهم  
هكذا 'شو في هذا المكان، في هذا الجرد عندما جئت قلت لي إن هناك شيئا  
يعزاني. نعم، هناك أشياء تعزني ولكن صدك أنساها. ولم جودك فلا تستكثي اليوم  
عن الحزن.

وأكدت لنفسها سيأتي في موعده قدما على الأقل تنساها في هذه اللحظة. ثم  
حككت جبينها بيدها وقالت

- لكن أنساها إلى الأبد - فلابد أن تبلى معي إلى الأبد : لا تتركني لحظة ..

قامت وتبعها . كانت الصداقة الزوجية تكاثرني التي يغفلونها في الشتاء ، أخذ  
برودة من المكان المفتوح . يتسرب إليها هواء بارد من فوجات الزجاج . لم يكن  
عنادا عبرهما في المكان وبعد من الجرسونات في سرات بيضا لا تملك أتم  
جميعا يركزون أنظارهم عليها فقالت لسالم : شرب الشاي ونمسي .

ولكنها استرخت قليلا وهي تشرط الشاي الساخن وسالم يستقر إليها صامتا .  
راحت تطمح إلى هاتين العينين المصيبين وكنتها تريد أن تعرفها في ذهنها .  
كنتها أن تعرفها مرة أخرى . راجع هذا أيضا خسر في وجهها ، منملا له قال  
بسرور خفيض

- هناك شيء بفرقتك .

- نعم .

سكنت مرة أخرى قبل أن يقول في شيء من الحزن : شئت من أجلك بالبنى لو  
كنت أحسن ما أنا .

سأنته في قلق : ماذا تقصد ؟

- من جهة أفكر .. فأحاول أن أنسى ولكني لا أستطيع . أنت ذكية وتقوين كثيرا  
لا أعرفها بلقات لا أعرفها . وأنت جميلة وغنية وأنا .. كان يمكن أن يجدي إنسانا  
أفضل مني بكثير .

قالت لبني في بأس : أنت تريد أن تتركني . هل هذا ما تقصده ؟

- لا ، كيف تفكرين في ذلك؟ أنا أريد فقط أن تعرفني .. ربما تعتقد أنني  
الآن أو لأني كنت .. لأنه كانت تاتيني الحالة التي جعلت أبي يعتقد أنني مجنون ..

وبما متفهمين أنني لا أعرف .. ولكن أنا أعرف الفرق .. أعرف أنني لا أستطيع ..  
ولكن لو تركتني .. أشن أنا .. وبما بالفعل ..

- ولكن أنا أحدثك عن كل شيء ، ولا أعرف منك إلا القليل .

سألت في توجس وقد عاودها ما تُعرب منه ، ما الذي تريد أن تعرفه ؟

- عندما سألتك قلت إنك فأبئت أنك ، جل حدث شيء ، عندما قابلتها ؟

تفهمت بشيء من الارتياح وهي تقول : نعم قلت لك من قبل أنك لك جد تميم

رأسرة تحبها وأنا ليس لي أحد أبدا - أرى أمي تليلا ، أما أبي الذي أعيش معه

قريبا أراد أقل مما أرى أمي ، هو طوال الوقت في العيادة أو في المستشفى ، لولا

وادة سنية لانتعرت !

قال في الزعاج شديدا : تتعمرين ! كيف تفكرين في ذلك ؟

أبسمت بالرقم منها : لا تنفك هكذا ! أنا أجبن من أن أتشعر !

سألت لحظة قبل أن يسألك : هل شعيرين والدك ؟

رجعت في كرسيها وولعت رأسها وهي تقول : لا ! أقصد نعم .. نعم .. ياليتني

أحبه .. هو أبي .. ولكننا لسنا صباحين .. لماذا بدأت هذه الحكاية من الأصل ، ما

السبب في كل هذه الأسئلة ؟

- كنت أقول .. كنت أريد .. أردت أن أعرف عليك .. على حياتك وعلى أسرتك ،

فقلت دون تفكير : هذا سهل جدا يا سالم !

عندما دخل العمارة توقف لحظة في المدخل - كان فسيحا - من رخام أبيض  
على جانبيه يسوع مسبقا ساحة مربعة لعل لأن نوعي وسعة حشاشين ، ونصف به من  
الناجيتين اصطنع بهاد الزاوية خضراء - لامية - ومن الصنف تتدلى ثريات خضراء  
باهرة الضوء من الكرسيستال ، وفوق دخولها هي واحد من حراس الأمن  
الجاهزين إلى مكتب في الزاوية بزيابهم الزرق ، وجها تنفي في أدب شديد ثم  
أسرع قبلها لمصباح باب المصعد - واسمها مائل إلى أن لمي لم تنظر نحو الحارس  
وأنها لم تشكره .

انتبه أيضا إلى فخامة الشقة عندما واجهته الصالة الواسعة التي ترتك أن  
تكون في مساحات ضخمها كلها - بهر كل شيء - طلع الآثاف وطريقة ترتيبه والمكتبة  
الجميلة بتشيها المزخرف فقال وهو ينتظر حوله :

- بيتك جميل يا بشي ،

= شكرا - هو بيت أبي -

أراد أن يسألك وهل هناك قرقر؟ ولكنه لزم الصمت - عند رآها هذا المساء  
وهي شرد كثيرا ولا بد أنها تسبح ما بقوله ، تبدأ كلاما وسوقا قبل أن  
تكتفه ، يتنفع وجهها أحيانا وتختصص ضحكات عصبية في أحيانا أخرى - وعندما  
عوضت عليه أن يأتي معها لم تترك له فرصة للتفكير -

قالت : ما دمت تريد أن تعرف كيف أعيش لماذا لا تأتي وترى بنفسك ؟

سأعرفك على وادة سنية ولو أسعدنا الحظ فسأعرفك على الدكتور شوكيت ؟  
هيا !

فأصبت وخزيته من يده ، وفي الطريق أشارت إلى ناكسي ثم خلال دقائق كانا  
أمام العمارة الشاهقة التي تطل على نيل الجيزة في المنطقة الأخرى ،

ضغفنت على الجرس قبل أن نفتح الباب بفتاحها فاستقبلها في الزودة

خادم يلبس سترة بيضاء مثل الجرسونات، سالته قور دخولها :

- الدكتور هنا ؟

- لا ، الدكتور اتصل وقال إنه لن يأتي للعشاء .

وأشار بيده لسالم في اتجاه الصالون المختفى في آخر الصالة الشاسعة وهو يقول : تفضل يا أساتذ .

لكن لبتي جذبت سالم من يده قاعلة : تعال ! أنت تصب النيل لمحتفل الورد !

جلسا في الشرفة العالية على مقعدين مبطنين بقماش اسفينجي ، وكانت الشمس القارية قد بددت بعض السحب وصيقتها بلون وردي ينعكس على سطح النهر أطرافها ذهبية متقاطعة . تبتلعها الأبراج ثم تظلم على السطح في الخضم .

استغرق سالم في متابعة تلك الانتماعات الزجاجية في لثاء قبل أن تحجب الشمس سحابة كبيرة فلتفتلى هذه الأطياف ويتحول النهر إلى مجرى ومادى . أكن مستطيل يشق كتل المباني على جانبيه ويضار الجسور التي تزينها العربات . لم يسبق له أن رأى السيارات من هذا الارتفاع صغيرة الحجم وضجتها تنق من بعيد خافتة كالصدى ، لكن النهر العث أمام بصره كان هو الشيء الوحيد الهادي الذي يوحى بالسكون حين يركز نظره عليه .

التفت إلى لبتي التي كانت تنظر مثله صامتة إلى النيل وقال : سلك حق ، عندما تنظر إلى النيل من بعيد ..

ثم سكنت فيكلمات هي : يكون النيل وحده هو الجميل . أليس كذلك ؟ - هذا ما أردت أن أقوله .

ظلت تنظر نحو النهر وقالت بصوت خافت : أحب أيضا تسمية النهر الخالد . مليئة بالصورة الجميلة - معاصر زاده الخيال ، وطمأن والكأس في يديه . ولم يزال ينمط النهر ويسأل النيل والجزائر . أحب بالذات البيت الذي يقول : لبتي خوجة فأتكني إلى لياليك ما شجاني وأغشى للرياح نجارا . أي هروب أجعل من

هذا الهروب ؟ أن تصبح موجة في النيل وأن تهبط للريح بشكوك . لا مشاكل على الإطلاق !

قال ولي صوته نبرة من الأسى : أنا لا أقرأ الشعر مثلك يا لبتي .

ضجكت ضحكة خافتة وهي تحول وجهها نحوه : أي قراءة يا سالم ؟ هذه أفضة بلعبها الرابع كل يوم تقريبا . ألم تستمعها أذا ؟

سمعها . لكنها لم تقرأ الآن عن علي ولم أذكر فيها كذا فنون .

أنت فكرت هكذا لأنك تفرق كثير ، لبتي أستطيع أن أصبح مثلك .

قالت متناغمة باللامبالاة . نعم قيل أن أعرفك كنت أقرأ . على وقت كثير لا أعرف ما أفعله به . قلت لك أنت هناك أسيرة نفسها وتشغلك . أما أنا فلبس لي أحد . أعطني هذه الأسرة يا سيدي وخذ كل القراءة التي قرأتها !

ثم أعرفت وهي تلمح لنفسها : لبتي يا سالم لا نتحدث الآن بالذات عما يفرق بيننا . أنت تسمعني ويكون سعي .

مائت نحوه فجأة وهي في مقعدها وجذبت قراعها ثم قبلته قبله بسرعة في جبينه وابتعدت عنه بالسرعة نفسها .

ففي ثلث اللحنة سمعا صوت خطوات بطيئة تقترب . ثم ظهرت بالباب سيدة عجوز تستند إلى الجدار وهي تغلق خطواتها بصعوبة . لم يتحقق سالم من ملامحها جيدا في غممة الغروب التي حلت . رأى لفت أنها تبس جليايا من قماش مشجر وتضع على رأسها طرحة بيضاء شريط موشجها كده .

ميت لبتي من مكانها وقالت وهي صوتها انزعاج : دادة ! لماذا تركت غرفتي ؟ ما الذي جعلك تفرمين وتخرجين إلى هنا في هذا البرد ؟ منذ متى يفعلن ذلك ؟

احتضنها لبتي وهي تضيء نور الغرفة فرأى سالم وجهها المتغير ياتجاهيد مثل إسفنجة متكونة تفل منه عيوان كأيضار . لم يبد أنها رأت سالم لأنها قالت بصوت ضحيف : متى وجدت يا لبتي ؟ ولماذا تأخورت ؟ ليلي ياكني عليك طول النهار .

قالت لبني وهي تقيها : مساء الخير يا دادة ، آيا ، آيا حيث منذ قليل وكنت  
سافر عليك الآن في لحقتك ..

ثم أشارت بيدها إلى الشرفة وهي مازالت تحتضن مربيها : هذا زميلي سالم  
الذي كلفته عنه . سدايكم الآن معاً .

راحت العجوز، شغفها من بعيد يمينها لتكلمني وهي تسند يدها إلى باب  
الشرفة قالت : مساء الخير يا لبني ، بالنجاح إن شاء الله .

نهض من مكانه ورد عليها بن يعيد بارتياك فكانت وهي لا تزال تنفضه  
- أنت إنسان نيب -

أشرق وجه لبني حين سمعت هذا وقالت لسالم بشرة فداقرة : أرايت ؟  
فكانت الزبية بصوت يدا لسالم حزينا : وأنت أيضا طيبة يا لبني .

غير أن لبني قابلتها وهي تضع يدها حول كتفيها وتقودها بيدها مبعدة عن  
الشرفة : تكفي هذه الشفاوة - يادادة ! الآن نوجه إلى لحقتنا ونأخذ الدواء ..

قالت العجوز وهي تبتعد مسندة إلى لبني : ولكن لماذا تجلسان في الهواء  
سيجيبكما البرد ..

فردت لبني : لا تقلقي أنت يا دادة ، سأقول نعم حسن أن بعد لنا فلجانين من  
النساء ، وسنمنعهما في غرفة الكتب ونحن نذكر ..

عادت لبني بعد فترة فوجدت سالم يقف مستندا إلى سياج الشرفة وهو يتلصق  
إلى النهر . كانت أنوار الشوارع والإعلانات الملوثة قد أضييت وانعكست على

صفحة النيل . وقفت لبني إلى جانب سالم وكان إعلان في أعلى عمارة بالوسط  
المقابلة يتوهج بنور أحمر ينطفئ ويضيء بانتظام . وكان يلقي على النيل أشعة

جعراء مشوازية وفجاجة . وقالت لسالم إنها تكره هذا الإعلان لأنه يعرض لسالم  
لونا كاذبا مثل وجه مهرج المبرك .

لم يرد سالم . شعرت به يقف مبتوتا رغم أنه كان يرتجف احتيافا ثقيلة .  
مبت يدها وأمسكت بيده : وقالت يدك باردة بالفعل وستصاب بالبرد كما قالت

دادة ستيه . تعال نطخل ..

ظل يقف مكانه وسالها دون أن يصوي وجهه نحوها : مائة علك لاداة سنة  
عسى :

فردت ببساطة : كل شيء - آيا لا أخفي عني أي شيء .

فقال وتيرة التوتر شخصاء في صوته : ولكن مائة علك لها بالضبط نظير  
فقراء ولكننا لا نستطيع في جارة :

قالت في دفقة : وماذا لو كنت تسكن في جارة ؟ ما أهمية ذلك يا سالم ؟ ألم  
يقبل جدك ..

ثم توقف فجأة وراحت ترتب على ثراعه يرفل وهي تقول : لا يا سالم . لم أقل  
كلها علك أي شيء . غير أنك زميلي وأنتي أحبك وكانت هي سعيدة لأنها تحبني ،  
واليوم أريت بنفسك أنها تحبك أنت أيضا . تعال .. تعال نطخل ..

\*\*\*

كانت غرفة الكتب واسعة وداخلة تحف بجوانبها كلها مكتبة من خشب أبيض  
صفت في رفوفها كتب ومجلدات منقطة ، ويصورها مكتب من الخشب ثامنه  
وكوسى على الظهر . وفي ركن من الغرفة منقطة صغيرة حولها مقعدان  
وبالقرب منها كتبة من الجلد اللامع اللون .

قال سالم وهو يجول وسط الكتب : هذه معظمها كتب علمية وكتب في التاريخ .  
تدري إنك تقرئين روايات ولكن لا أرى أي روايات هنا .

فكانت لبني التي كانت تسير وراءه متابعه خطواته : هذه كتب أبي ويعني كتب  
أبي التي تركها . مكتبي الصغيرة في لحقتي .

ثم انصرفت وهي تبتسم : ولا تتلق . كلها روايات ويمكن أن أعبرك منها لو كان  
عندك وقت لقراءة الروايات .

فقال بالتحال : نعم أريد أن أعرف كل ما تعرفين ، أريد أن أصبح مثلك فهزيت  
لبني رأسها وهي تقول لنفسها : ليتك لا تصبح مثلي :

جلسا متواجهين يرتشفان الشاي الساخن في صمت . كأن ينظر لها بعينين  
 نيرج مبهما غساراة رقيقة كالدمع ويتسرح وجبهه كذا التفت عيونهما . وكانت هي  
 مستغرقة في التفكير . تتحرك في مقعدهما بقلق . يرتعش لتجان الشاي في يدها  
 ويحدث صفيضة في الحلق كذا ولغته إلى شفتيها أو أعادته إلى مكانها . وبدا أنها  
 منه تريد للصح أن يستمر . لكن مع حسن العجز ظهر بالباب . كان يمشي دون  
 أن ينظر . قدس كنه بزحفه وفال وهو يحمل الثوبون بيد والسماحة بيد أخرى  
 ويجري وراءه السك الضويل :

- مكانة لك يا أمسة لتي .

أمسكت بالسماحة وراحت ترد على المتكلم بصوت خافت : نعم .. نعم .. ثم  
 ألتفت وجهها لحياة وتامت من مكانها وأبذت عدة خطوات وهي تقول :

- نعم . فابت هذا الكارثة في الصباح وأعرف أنه يعرف ..  
 ثم ارتفع صوتها فجأة وهي تقول : أنت متأكدة ؟ .. بالطبع هو يعرف كل  
 الأشياء . نعم .. وما العمل الآن ؟ فبات الوقت ! مع السلاسة . نعم . نعم .  
 ستمحس منها ..

كان مع حسن يغف في انتظار أن تنهي المكالمه ولكنها ظلت تمسك السماحة  
 بطريقة الرأس قبل أن تناولها له بيد شاردة وهي تقول :

- لا أريد أن مكالمات أخرى .

سألتها وهو يمسك التليفون كغفل وقصيع : هل أجهز العشاء لك وللأستاذ ؟  
 كومت بيدها لا . أنا لن أتعشى . يمكنك أن تصرف إذا شئت .  
 قال دون حماس : ولكن يمكن أن أبقى يا أمسة ..  
 فالتفت بفتاك صبر : أفعل ما تشاء يا عم حسن . ولكن أنا لن أتعشى .  
 - إذن بعد ذلك .  
 وتبسمه التصرف الخادم بخطواته الزاحفة قالت وهي تنظر نحو سالم دون  
 وعي : ما الفائدة ؟

- ما الفائدة من هذا ؟

فلوحت بيدها دون أن ترد .

قال سالم وهو ينهض من كرسيه : هناك شيء مهم تخفيه علي الليلة .  
 أنت لست شيعية منذ قابلتك وتحقق شيئا . أنا قلت لك ما لا أقوله لأي إنسان  
 .. حتى الحالة التي .. حتى الطبيب الذي .. حتى أبي .. وأنتي ربما ..  
 أضاف اضطرابه واحتراسه وجبهه وهو يتحرك في الغرفة بعصبية إلى  
 خزانة لمعادت تجلس مكانها وتضع يدها أمام وجهها كذاها تحمي نفسها من  
 خضو ما :

- نعم يا سالم . نعم .. أنا أخفي منك شيئا لأنك لم تعرفه فقد أحسرتك . وأنا  
 لا أريد أن أحسرتك .. لو وجدتني ..

قال ووجهه يزداد احمرارا : المسألة مفهومة . هناك رجل آخر \*  
 وضعت وجهها بين يديها وسألت على الضفدة وهي تنكم بصوت متبجح : أي  
 رجل آخر ؟ أي رجل . وأنا قيل أن أعرفت كنت أكره كل الرجال . تكلم بك استثناء .  
 .. أقول لك حادثة ولكن ليس الآن .. أعذك .. المسألة أنني لا أريد أن أوتلك في .  
 أنت ترى . جدا ويجب ألا تدخل لي .. أنا . أنا خائفة ؟  
 انصرف الآن يا سالم من فضلك . أرجوك . الليلة لن تستطيع أن تسامعن .  
 سمع سالم صوت إغلاق الباب الخارجي فأنشبه فجأة وقال  
 أنا أيضا سأمصرف .

الحالت وهي لا تزال منكفة على وجهها وجسدها كنه يرتجف :  
 - نعم يا سالم غلت لك لا فائدة . انصرف الآن ! حتى هذا كذب ! لا أحد  
 يحس أحدًا من خوفه .  
 لكن سالم تكلم في مكانه . ظل واقفاً يتنقل إلى الجسد المتروك المرتجف  
 يسمع كلاما لا يفهمه . يدور رأسه ويكاد يترنح وهو يتقدم نحوها .  
 يضع يديه الكبيرتين على كتفيها المرتعشتين ويسندهما يتأمله بترق كانه



كانت تجلس وحيدة على الأرض في المكان نفسه، قد ساقها وشد عليها  
ومدّها إلى الكنية الجلدية، لا تريد أن تفكر في شيء، تمشي فقط ما شعته منذ  
البدا، أن تنام، أن يستحيل الهوس الذي حل بها إلى نوم طويل تنسى فيه كل  
شيء، لكنها فجأة خطت جيئتها بيدها وغمست لنفسها وهي تغدال في جلستها:  
" يا رب! كل هذه الضجة عن الحب تنتهي هذه النهاية؟

كل أفراح الأسابيع والشهور لم تكن سوى أكاذيب؟ كل حياتنا كذب كما قالت  
الدكتورة صفاء؟ أهدم نصنعيها بنفستنا لأفينا وفي النهاية لا فرق بين سائر  
والحب والاساذحمام والافتصاص؟

لا أمل إذن أبدا في أن يتخرج الجسم من حصار جلده؟ لا أمل في الحب  
الحقيقي ولا في تلك المبررات الموعودة التي كتب بها عليها الشعراء والموسيقي ؟  
لا وجود لتلك المبررات؟

موجودة ولكن لا يمكن الحصول عليها؟

البعض يصلون إليها ولهذا شبر الحياة؟

كيف يمكن أن تعرف؟

هناك بأن تقوم من مكانها وهي تسند يدها إلى الكنية الجلدية لكنها شعرت  
بتعب شديد وثقل في أطرافها فطلعت جالسة كما هي، كان رأسها محمورا ولكن  
جسدها ظل خائرا ، راحت تهرز رأسها وهي تقول لنفسها نعم، لا فرق بين سالم  
وعامر.

ها هي مرة أخرى لا تعرف إن كانت هي التي ظابت أم هو الذي قادها ، هل  
يقودها حتى جسدها؟ ولكن النتيجة هي نفسها، تصور وجهه وتشرده وهو يعدل

يساعد ملعلا على النوم . ولم يكن يدرك تماما ما الذي يفعله ولا ما الذي يريد .  
لكن ليلى كفت عن ارتعادها بعد فترة ووقعت رأسها فاستطاعت إلى تراعيها  
الرجوعة على المتفردة ونفخت له بعينها التحقن ونفالت في مسر لاكاد بين  
كانما تلصها، كأنها تحاول أن تقوم : وكل هذا لاني قايلك أنت ..

تلمست ذراعها برفق وساعدها على أن تنهض وتقف على قدميها وانحنضتها  
إليه واستقر بمسدة برفق على كتفيها وذراعها وهي مستسلمة له كأنها هو الذي  
يرفعها بيديه القويين من أن تسقط في الأرض وضعت رأسها في صدره وهي  
حائدة تماما، وثلا وأغلق في سكون كامل وهو يضمها إليه فتمتعت وهي بمنصة  
اتبعين نستمتع إلى بسن قلبه المنتظم : لو بسن النوم هكذا : لو بسن نوم سريال  
ونسيان !

ولكنها أحسنت وهي في حطته بصدره يعلو ويهبط وهو يتنفس بصعوبة  
ويضايعه التي تتحسسها برفق تزيد سرعة وهي تهبط من كتفيها إلى ذراعها  
ورجبتها نفسها يقبل صدره فبلاات صغيرة متفردة وهي تدور بيديها مبتدأ أريد  
أن أملك . وكانت تضع يدها تحت البلوفر المسبك الذي يليه وتعد أوزار  
معيه بيد أخرى مرتبكة وتسلل تلمس صدره بنسايها المتوترة وتضرب برفق  
فتمبرات ماعمة وجدها هناك لم تزيج الثورم والمجيس كله واحدة إلى شيء  
ونفوس يجمعها كله في صدره وهي تستسلم بعمق رائحة جسده وتستر  
غميمات متقلعة وسط أنفاسها اللاهثة، نعم هذا هو أنت ؟ هذا ما لم .. هذا  
جسده وهذا رائحته .

وكان هو يتلمس بصوت مسموع كأجاث متقلعة بينما يدفع يديه الكبيرتين من  
كفي يكرزتها اللذين لمزقا وصدرها يرتجف في صدره وكان يقول بصوت  
متحشرج وهما يتزلقان معا فوق السجادة : هذا لا يبي ، لا يبي ..

ولكن كل شيء كان يقول غير ذلك

\*\*\*

ثيابه ويقف فوقها. ولكن هناك فرق مع ذلك. حمام كان مدفورة. استطاعت أن  
تلتصق به وان تفسره. أما حمام فتركته يمشي دون أن تدركه. من أين أتت أن بشي  
مكل هذه التسلية؟ أين كان يختزن كل هذه الديدان التي لم تعلم حتى بأنه يمكن  
أن يعرفها؟

تهدت وهي تفكر: لم يكن ينقص شي ليكون مثل حمام سوى أن يسألها وهو  
يقف فوقها: لماذا لم تقولي إنك كنت يتقا؟ غريب أنه لم يذكر ذلك. هل اكتفى إذن  
بالشك في غير رأيه؟

وهل تكون هذه هي الحالة التي حدثت عنها الجنون الذي يائس ويخاف؟ وما  
الفرق؟ فلتعشرف. كان هناك شيء يختلف. مع حمام لم يكن شيء غير الزعر  
والاستمزاز والأثم. هنا خلل طبعها في البدء وسكنت ثم تعرفهما في معرفة  
وص في حقيقة تخلف لو يستمر هذا الهدوء إلى الأبد. كان الحب آخر ما تفكر  
فيه. ذهنتها كان مشوشة بعد مكانة سوء. منعولا ياتشاكل أثنى يجب أن تحجب  
والإثماء التي لابد أن تتخلص منها. ولكن كل شيء انجلى من رأسها فجأة ولم  
يبق غير أن قفا مع سالم. بدء جسمها بتصرف وحده. بدت تلمسه وتلقاها  
تقبله وهي تلتصق به أكثر فأكثرت كانها تريد أن تصبح وإياه جسدا واحدا. ثم  
بدأت دون غامل تخلق معه في نشوة أخذتها بعيدا عن الأرض وهي ترى منعقة  
العينين نجوبا لم تر مثل يربقها وأنوارا لم تعلم بمنك جمالها وجسدها يتقلب في  
ذلك الغضب. انزوت إلى أن أنشبت منه العرج وهي ترفع ذراعها وتدق بنفس  
أخباره أخيرا. على تلك النجوم المسنحية وتدرر معها من عاصفة دامناتها  
الأسية.

وهي اللحظة التي تفجر فيها كل ذلك الفرح وهي تخلق عالمها ويعيد أوهي  
سالم على رأسها بمنظره تعيدها إلى الأرض. إلى باطن الأرض. إلى النهر

المعبود. فلك في مكانها على الأرض منكشة على نفسها وهو يعيل عليها بوجهه  
الذي فقد كل جماله فجأة وهو يهيم بعبارات لم تلمحها على الطير إلى أن فهمت  
أنه يستعنها ويستم آياتها وأنها رداة سنية وعم حسن بعبارات فاحشة. ويقول  
كلها غريبا آخر عن أبيه وعن أخوته لم تفهمه أيضا وقد أصابها الخرس والشلل.  
كان ينقر تحوها بكرافية وتقرز وهي تنظر إليه ضارعة لا يصبر حتى أن تطلب  
منه أن يشتد بصوت خافت. ومع ذلك كانت تظلو لحظات في قلب ذلك الزعر  
يجتاحها فيها إشتاق غريب عليه. تود لو تقول سالم هذا ليس أشد! هذا ليس  
صحيحا! هو كابوس مستطيل منه لتجده مرة أخرى إلى جوارها تحتضن به من  
خوفها ويحميها من نفسها. ولكنها لم تستطع أن تخرج صوتا أو أن ترفع أصبعها  
إلى أن ثعب من تلقاء نفسه وخرج كثره يرتفع.

عده حالة؟ هي لا تستطيع أن تتلف نفسها من حالاتها!  
من يمكن أن يشرح لها ما يحدث؟ من يمكن أن يساعدها؟

نهضت بصفوية وبدأت تتحرك بيضا. توقفت لحظة أمام امرأة جانبية لموجبت  
شعرها مشوشا وثيابها مهوشة ومعلقة الأكمام. رأت وجهها شاحبا ومثقلا  
الذي لم تترك نفسها ليل. رأت ترون بورتها ثم عدلت عن ذلك وسارت نحو  
الباب بهيم. كتفتت الصالة والحدوف إلى اليسار وهي تفسن في طريقها كل  
الأشياء في البيت ولم تترك الباب وهي تقول في هفس  
رادة سنية. أتب صالحة.

هناها الصوت المنحب المجلج بالسي. أنا أنفرك.

توجهت نحو العجوز الجالسة على فراشها وهي تستند إلى وسادة وجلست  
إلى جوارها وهي تقول: رادة. أريت أن أحكي لك...

لمعدت الحربية يدها المتقنصة تبيد عن يدها وقالت:

- لا تنكح شيئا يا لبتى -

مالت على صدر مربيها فراححت ترمث على شعرها وهى تقول:

- لا تنكح شيئا يا بنت صفاء - أنا أعرف من كائن شدي

وكان النعاس يتسلل إلى عيني لبتى ومربيها نودعهما .

وقالت دادة سنية لنفسها قلبى جشنى منذ الصبايح - لم يكتب على أبوا .

أصغر جنيضة فأعرف أن شيئا سيحدث لصفاء - أو لايتها - أقول لبتى ظنى يقرب

فلا يقرب - يا حسرتى! وهما تصيب من الدنيا - لو كانت واحدة منهما بنت بشئ

لا أحببتها أكثر مما أحبهما - حكمتك يارب! صفاء كانت كالقطة المفضلة للعينين

حتى تزوجت - دكتوره قد الدنيا ولا تعرف شيئا من هذه الدنيا أكثر ما تعرفه

طلقة - كنت أضعك على عيطها وهى تأتى لتبكي فى حضنى لأن واحدة فصاحتها

خاضعتها أو لأن واحدة فى كتاب تقرأه ماتت - أضعك فى سري على عيطها

وأقول لها (معلمش) يا صفاء - ولا أتركها حتى تهدأ - ولكن شوكت عذبتها - وعندما

كانت تأتى لتبكي أو تشكو لم أكن أعرف ماذا أقول؟ ماذا كان يمكن أن أقول؟ لو

كان شوكت يتكلم مثل صفاء لخصت - ولكنه لم يكن ينظر حتى فى وجهى - هو

حتى الآن لا ينظر فى وجهى ولا يكلمنى - لولا لبتى لشوكت له البيت من زمن -

تزوجت صفاء - من سيده - ورضي ربة عنها - ولكن هل سيعطر لها ريتا ما قبلت؟

يارب! هذه الأسيرة بنت الناس! لماذا يقع أولاد الناس على أولاد الصرام؟ لماذا

وقعت صفاء فى شوكت - وقعت لبتى فى الدرس - لبتى أخيب حتى من أمها ولهذا

يتكلم قلبى عليها أكثر أنا لا أخاف الآن على صفاء ولكنى أخاف على لبتى - هذا

التعليق الذى تحبه ابن حرام ثان؟ يارب! تجها يارب!

كانت لبتى قد نامت فراححت العجوز تعال وتضعها فى الفراش بجهد شديد - لم

تشأ أن ترقنها للعود إلى غرفتها قالت لنفسها النوم رحمة -

\*\*\*

٦٤

أبذكر سالم كيف رجع إلى البيت -

لا يذكر إن كان قد ركب أو مشى لا يذكر أى شئ يسبق وجوده فى صالة

البيت ويده يلمس فى شئ من الخزع -

- ماذا حدث يا ولدى؟ وجهك كاشفة البيضاء! هل حدث شئ؟ شكك -

مثل سالم وألفا ينظر إلى جدته فى صمت وتكلم مجددا: حدث شئ - أريد أن

أتكلم معك يا جدى حدث شئ - أنا لا أذكر - لا أعرف - ولكن ربما يا جدى تكون

قد رجعت الحالة - أنا - سأستحم أولا ثم نتكلم - يجب أن تسمعنى - يجب أن

تكلم -

قال الباشكاتب متوجها : كنت مع لبتى؟

- نعم - نعم كنت معها - ولكن أين كنت بعدها؟ أنا خائف - يجب أن نتكلم -

قام الجد من جعده فى يده وقال يتهر وهو يحن رأسه:

- أنت شعب الآن - وأنا كذلك - سأدخل الآن -

- ونحن بعد -

فقال جد من حسم وهو يشبه إلى غرقه : فى الصبايح يا سالم - حاول الآن

أن نام

ولكن بعد الحمام - بعد أن دعه سالم جسمه تحت الماء حتى كاد يذميه - كان

يرقد فى فراشه وعيناه مفتوحتان (هو يشأل - ماذا حدث؟

كانا يشعانقان - يذكر دة جيدا - يذكره تماما يرى نفسه يتقبل وجهها

وشفتيها لورقيتها وكل قبلة تبعث فى جسده رجلة لم يعرلها من قبل - ولا حتى حين

كان يقبليها خلسة فى الكازينو أو وهما يسيران فى شريق متسلم - كانت تشوة فراج

جسده كله وكبى ابتسا ترتجف وهى تلمس صدره وتنفس بصوت مسدوع وسرور

يده بعنف لتقبل راحته بلطفه وعمق كما لو كانت ترفشف منها ثم تمسح بها وجهها

الذي لم يره أبداً جلس هذه الأحرار من قبل، ويذكر كيف ضبطت جفا على السجادة  
وفيما يستعلمان بكلمات غير مسموعة ويذكر كيف كانت هناك يد جبارة تلوح به  
بعيدا في اللضاء وتدور به وتغوص به في باطن الأرض في اللحظة ذاتها . ويذكر  
الصبيحة التي أفلتت منه وكيف وضعت يدها على قدمه لتكتمها ، كل ذلك يذكره  
ولكن ماذا بعد ؟

يذكر أنه كان سعيدا جدا ، ثم ماذا ؟

كيف تركها وكيف خرج من الشقة ؟ أجده ذهنته لم يكن هناك سوى ظلام  
كامل هل ظلمت من بره نائمة أن يخرج كما نبت من ميل ؟ هل خرج من شقة  
نفسه ؟ هل قبضته وأومضته بنفسها حتى الباب ؟ هل نزل السلم على قدميه ثم ركب  
السيارة ؟ هل مضى على رأسه ؟ ركب لا تومس ؟ كل ذلك يستعذب بالأسئلة من  
ذهنه تماما ، انتهى ، فما معنى ذلك يا سالم ؟

لا تحاول أن تهرب - ليس له سوى معنى واحد - رجعت الحالة - فماتة نعلت  
أشاعها وماتت قلت ؟

جلس في الفراش وحيدده يتيقن ، ولكن الحالة انتهت من زمن - منذ سنين  
لم أحسن معب ولا أحفظت في تلك مرة واحدة . لقد كلامي جيدا وأراقب ما  
أفعله ، ألزم الحسنة عند ما أحس أن أخطئ في الكلام ولكن مائة إذ لم لو  
كانت الحالة التي جعلتهم يستهزئوني مجسولة قد رجعت ؟ هل شتمت لبتى ؟ هل  
جسرتني ؟

نزول من سريريه وبدا يرتدى ثيابه بسرعة سيكتفيا في التليفون لابد  
ولكن ماذا سيقول لها ؟ هل سيقول من فضلك أنا مجنون قد كبريتي ما الذي  
حدث بيننا ؟ وهل يستعده لو كان بالفعل قد أماء البها ؟  
عاد يجلس على قرائحه بعد أن ارتدى القمصين والبنطلون .

لا لن تصدق ضيعة مما يقول ، هل تأخذها إلى الطبيب الذي كان يعالجه ؟  
يطلعها على حجاب جنه ؟ يستشيد بغزوة وبأية ؟ وماذا سيقول لو صدقت ؟  
سأقول أنا وقعت في مجنون حقيقي ويجب أن أعرب منه لا فائدة خسرهما  
والسوء الآخر .

ولماذا قالت في أول الليل سأخسر ؟ لماذا لم تقل ستخسرني ؟ لا تعرف أنه  
لن يختل أن يخسرهما ؟ هذا بالفعل هو الشيء الأسوأ من البشر ومن المرات نفسه  
هو يعرف بالجميع أن ما فعله معيا خطيئة عظيمة . ولكنه سيكفر عنها على الفور .  
سيقول لجنه وسواها على أن يزوجه له ، سيعترف لأبيها وسيقبل أي عتاب  
ينزله به وبنا .

سمع سالم لضغطها صوت الجرس ، ثم سمع بعده صوت المفاح ولحق الباب  
رجاء صوت أبيه وهو يقول في دهشة : فائدة الشقة كلها مخطئة ؟

ثم نادى : يا سالم ! خفضت صوته وهو يقاسم : هل نام الجميع ؟

قام سالم وأخذ يطلع ثيابه مرة أخرى دون أن يحدث صوتا ثم وقف في قرائحه  
أخلت الأسئلة التي تتوافع في رأسه مكانها لخواه كامل وكانت كلمة واحدة تتكرر  
في ذهنه سأخسرهما ، سأخسرهما ، ثم جاءت صحراء واسعة بامتداد البصر  
وكان ظمان وراح وتفت حوته في دعر وهو يبعث عن شيء ما يعرف أنه ضاع منه  
فجاءته عزلة تعدو وتلفت ولقت إلى جانيه وراحت تتسمع به وتكتم بصوت يعرفه  
ولا يستشيع أن يصدده وقالت لو تكلمت سحري سأعطيك ما تبحث عنه ، فقال أنا  
أخاف من الساحرة التي رمتني في الصحراء ، وأخذت البيت من جدى وسحرت  
قرية . ثم أخذ بجري والغزاة تعدو خلفه وهو يريد أن يجرب منها ولكنه يقع على  
الأرض تحطفت الغزاة فوقه ودموع تنزل من عينيها الواسعتين مثل مطر غزير ثم  
ترفع ساقيها وليسبل من خلفها ما ، غير وجهه ولكنه خاف أن يشرب من هذا الماء

كان يعرف أنه لن تنضم إلى الجامعة في مثل هذا الوقت المبكر من الصباح.  
فتطلبها من التليفون من مكتب تليجرام قرب البيت . ويجرد رفع السماعة قال في  
هتفة: أيني؟ فرد الصوت: لا أنا! الشغالة. البست أيني..  
ثم ترددت وسكتت.

قال يمين من الأوتابك يمكن أن أكلمها؟ أنا سالم . أنا زميلها.  
فكرت الشغالة يتردها نفسه البست أيني.. (ثم سمع صوتا بجوارها يقول  
شيئا لم يسمعه). أكملت الشغالة بعده في حمم: غير موجودة. ثم وضعت  
السماعة.

ثم ووجه سالم في شقول الجامعة عندما وصلها. رأى مظاهرات ومظاهرات في  
داخلها ورأى البوابين يحاصرون الطلبة المتظاهرين داخل الجامعة ويمنع المؤرخين  
خارجها من الدخول. فوجد سالم بما يحدث لكن فكره كان في مكان آخر. وتقدم  
إمام حديثه (الأرومان) قبالة الجامعة ينتظر. قال لنفسه لا يمكن أن يكون أيني  
داخل الجامعة. سيصل بعد قليل وسأكون هنا وسأخرج لها كل شيء.

كان الطلبة المحتشرون بالقرب منه يتناقشون مع الجنود والشرطة بصوت عال  
ويشتبهون معهم وهم يدافعون ليعبروا المصارع ويدخلوا الجامعة. وكان  
الضباط الذين يتبعون نقارات شمس سودا. يكتفون بكلمة واحدة «سورج» دون  
أن يلتفتوا بوجههم للطلبة وراء الجنود المترامسون يدفعون الطلبة والشبابان  
بحسبهم إلى الخلف.

مثل سالم بعيدا عنهم وهو يتطلع في كل اتجاه بحثا عن أيني لم يجدها وسط  
هؤلاء المتداعين لعبور المصارع. وبينما كان واقفا يفتش بصره بين القادمين من

أو ضده الدخول فلاحظ أنه وسده بيده ثم قام وأخذ يجري من جديد والغزاة وراءه  
وشبه حريق في مكان ما وكانت الصبة كبيرة جدا عن الالهة فتدرب منه فأنصرع من  
عدوه ويصيح في حبل من أعلاه خضرة وراء العراء هربا هربا. لم يفتح سمع  
فراخ سمع شعر رقبتها وبقيتها وراحت الترس بفت أيضا وقتلته بالسلوك إن  
معدت الجبل يمكن أن تلك المسحر فقال ولكنني عطشان..  
وكانت تنفخ جافة ولسانه في فمه كقطة من الخشب عندما صعدا وهو يلثث  
لقام وشرب. لكن أشباعه لم تغارقه طول الليل.

\*\*\*

في الصباح لم يذكر سالم جده باليلة الخائبة ولم يطلب منه أن يتكلم كما ألج  
عليه بالليل.  
نظر جده إلى وجهه المكدر وحسب الناظرين بعد ليلة الأرق وعندها رآه يرتدى  
لباسه كاملة مساء.

- ماذا مضاعفات اليوم في الصباح؟ فقال نعم.  
سأله مرة أخرى بشهجة غامضة دون أن ينتظر في وجهه: الحجاب الذي أعطيت  
لك يا سالم. أما زال معل؟  
- نعم يا جدي.  
- أين هو؟  
- في جيبتي في الحقلة باستمرار.  
فقال جده بلهجة حزينة: قلت لك يا سالم أن يكون دائما في رقبته وأن يلبس  
تلك قلم تنسى؟

فرد سالم شاردا: حاضرا يا جدي

\*\*\*

ناحية فقال النهضة اقتربت منه فتاة سمراء كثيرة ما رآها مع ابنتي وحيته بهزة من رأسها ثم وثقت إلى جواره وقالت في همس :  
- أنا دعاء - حذيفة لبني -

قال ياريتاك : أهلا .. هل تعرفين أين هي ؟ هي ليست في البيت ...  
- أعرف .. ( ثم أكملت في همس وهي تظلم حولها ) فيضمو عليها في العجر مثل الآخرين ..  
فلما سالم وأخفا يشعل إليها دون فهم كفته لم يسمع شيئا فقامت وهي تحاول وجهها عنه :

- أعرف أنك لا تعرف أي نسى .. كانت لبني حبيب على ألا تعرف ...  
منك أكثر مما تخاف من البوليس ..  
- تخاف من البوليس ومتى أنا ؟ مع كانت تخاف ؟ أنا ؟

فردت دعاء وهي تضحى رأسها نحو الأرض .. كانت تخاف أن تعرف عملها في السياسة .. قالت لي لو عرف سالم لمأسسره .. لم أفهم أبداً مع ذلك لماذا كانت تخاف إلى هذا الحد .. هل أنت ضد الناصريين ؟ .. كانت وافقة تماماً أنها ستصومك لو عرفت .. ( ثم ضلعت إليه وهي تبسم ) شكك إقطاعي على كل حال ..  
- أنا .. أنا ضد من ؟ ثم احتسيت الكلمات في حلقه ووقف ينتظر إلى دعاء عاجزا عن التعلق ..

- سيسرها مع ذلك أن المظاهرة تجت ( ولوحت بيدها ) يعني ؟  
أخيراً وجد سالم جسده فقال لدعاء بهمس شديد الخفوة : ولكن لماذا ؟ لماذا قبضوا على لبني ؟

وجدته وفي صوبها عصب منصر الكلب أبلغ عن الجميع .. ولكن من المؤكد أنهم سيفرجون عنها .. لا يوجد أي دليل ضدها .. أنا خذرتها في الوقت المناسب فقامت إنها مستسلمة من .. من الدليل ..

- وفي أي سجن هي ؟

- وماذا يبيدك أن تعرفين أين توضع .. أنت زوجة ولا قريبها ..

لم يفهم سالم ما حالته .. ظل مطرقاً وهو يقف في مكانه مشلول القدمين وقد غابت كل الأصوات من حوله وبدأ شئان غريب في أذنيه .. حين رفع رأسه أخيراً لم يجد دعاء إلى جانبه .. بدأ يجرى هنا وهناك بحثاً عنها وسط تجمعات الطلبة .. لكن لم يستطع أن يثر عليها ..

واصل الجري بعيداً عن الجامعة وكان يكلم نفسه : يجب أن أسألها يجب أن أراها .. يجب أن أعرف لماذا قبضوا عليها .. يجب أن أفهم ما حدث ليلة أمس .. لماذا كانت تخفي عني .. وما الذي أخطت عني .. وما معنى أنني ضد الناصريين .. وما هو الجليل الذي تكلمت عنه دعاء ؟ دليل على ماذا ؟ ما الذي فعلته بالقسط وما الذي كانت تريد عني ؟

وجد سالم نفسه في عيادة الدكتور شوكت الذي استقبله في غضب وكان سالم يجد مرة أخرى صعوبة في الكلام ..

كان الدكتور شوكت أشقر شعره ناعم ومرجل .. أخذت منه لبني لوز العينين العسليتين الغاتحين والأفك الشفيف .. وكان يتكلم ببرحابة رغم غضبه .. بصوت يكاد يخرج من أنفه .. وفي وجهه الأبيض الشاهم البشرة تعبير من الاستعلاء نظر منه سالم أكثر من نفوره من نفسه وهو يتكلم بشيرته الرخوة :

- ما معنى زميلها ؟ .. ومادمت زميلها وأنت بهذا الطول والعرض فلماذا لم تنزع أنت المشهورات وتوزعها بدلاً من أن تترك بنتاً تحتفظ بمشهورات ؟

- مشهورات ؟ أي مشهورات ؟ أنا لا أعرف أي .. أنا ..

- أنت ماذا ؟ من أدخل في محفلكم لعب العيال الذي تصطلونه الآن ؟ كنتم ترمون العرب والحمد لله جارينا وانضمونا .. البطل الكار شمع نفسها وأنتم ترميون أن ترجع إلى أيام الخراب ...

- يادكتور أنا لا أفهمك ... أنا لا علاقة لي بهذا كله ، أنا لست رئيسها في السياسة ولا أعرف أي شيء في السياسة ...

ظل الدكتور شوكت صامتا لفترة وهو ينظر نحوه بوجهه المحقق ، ثم قال :- إذن من تكون؟

- أنا رئيسها في الكلية ،

- وماذا تريد الآن؟ لماذا جئت إلى هنا؟

تردد سالم لحظة ثم قال باندهاش:

- أريد أن أראה ، أريد أن أعترف لها عن شيء حدث بالأمس ...

ظل الدكتور شوكت ينظر نحوه في دهشة ونفاد صبر قبل أن يقول:

- تريد أن تعترف لها الآن وهي في السجن عن شيء حدث بالأمس؟ هل هذا كلام عاقل؟ إذ ذهب إلى مأمور السجن وأطلب مقابلتها لتعترف! لماذا جئت لي أنا؟ - لاني أخبها!

أفلتت منه العبارة فانتبه الدكتور شوكت ، كان قد قرر أن يطرده ولكنه بدأ ينظر نحوه بتركيز شديد منتظراً أن يكمل كلامه ... ولما وجدته ساكناً ومطرقاً قال :- ما شاء الله ، وهل جئت الآن لتخطبها؟

لم يتكلم سالم ووقف أمام الدكتور ينقل كتباً يحملها من يد إلى أخرى وقد بدأ عرق يتلصق من جبينه وراح ينظر حوله دون تركيز ثم بدأ يلوح بيده بجوار أنه كما لو كان يهيمس دباباً ، فقال الدكتور شوكت بشيرة أهدأ ليستمع على الكلام

- ولبيتي .. هل هي تجلب؟

- هي تحب دادة سنية!

ضحك الدكتور شوكت ضحكة عصبية بالرغم منه:

- إذن فانت تعرفها حقاً! انتظر .. أنت ... ما أسعدك؟ تعال-

وتكن سالم كان قد استدار وخرج من الغرفة بخطواته الواسعة وهو مستمر في التلويح بجانب أنه ووقف الدكتور شوكت خلف مكتبه ينظر في اتجاه الباب ففكر أن يخرج ورائه ويطلب منه العودة لبعده عما بينه وبين لبيتي ، لكنه لم يشرك من مكانه ، وبعد فترة استدعى الممرضة وطلب ألا يتدخل عليه أحد.

جلس وهو يفكر: إذن فهي أيضاً لها قصة! لا تكفي حكاية السجن ولكن هناك غوام أيضاً! لا يكفي الغرام ولكن هناك سجين! كان يجب أن يتوقع كل شيء من بنت صفاء! فاجأته حين عرفت أنها تهتم بالسياسة ، كانت تبدو فائقة بالدراسة والتفوق وقراءة كتب الأدب الفارغة مثل أمها ، لم يلاحظ أنها تهتم بشيء آخر ، لم تتكلم أبداً عن السياسة لكن يشرح لها ما يجعلها تفهم قليلاً ، ونحن أيضاً للأيام السوداء! تب الرجل الذي لم يكره في حياته أحداً كما كرهه! وتدخل من أجله السجن رغم تحذيراته! صباح الخبر يا نعم قرويدة! هي تتجدها! لا أكثر ، تعود عليه ، سيعرف كيف يعيد إليها عطلها ، ولكن لماذا لا تعود أيضاً على أمها! لماذا لا تكرهها وهي التي تستحق بقضها ، على العموم لحسن الحظ أنه هذا ، عندما نكلم صديقة الكبير في الداخلية بعد أن جاءوا إلى البيت وقبضوا عليها في الفجر قال له ألا يهتم ، قال إنه مجرد «قرص» إنهم سيقفون عنها خلال أيام ، ولكن أي سداجة وغباء ، يبقين ناعماً بانكارهما السياسية! نحتفظ بالتشديدات في غمرة اليوم! لو كان يمثل هذا الغباء أيام عمله في السياسة لظل في السجن حتى الآن! نعم ، من حسن حظ لبيتي أنه هذا وأنه يستطيع أن يكلم أحداً في الداخلية وأن يطمئن عليها ، عندما قبضوا عليه في أول أيام ثورتهم لم يستطع أحد أن يعرفه حتى مكانه ، والآن فإن الأسرة لبني نحن إلى هذه الحرية! نحن إلى التزعم الخالد الذي لا يأتيها من رواة إلا السجن حياً وميناً! خائف قديلاً!

ومن الذي تريد بالضغط ؟ تريد مع مجموعة من العمال أن يغيروا التاريخ ؟  
 عليه عرف أنه كان ساجدا مثلها في شبابه . ولكن عظه عاد إليه منذ زمن طويل .  
 أصحابه وزملائه الذين ظفروا يعيشون بالقبائل لا يعرفون غير السجون والقتل .  
 يخرجون من السجون ليبحثوها من جديد . أما الفقر الرطبي العام الذي كانوا  
 يملكون بتغييره فمزال كما هو وسيفل كما هو . هكذا كانت الدنيا وهكذا سوف  
 تبقى . لم يهتم هذا جيدا في شبابه . كان يصدق خرافة المساواة بين الناس .  
 ولكنه فكر كثيرا وهو في السجن واكتشف الحقيقة . الناس يتفاوتون في الذكاء  
 ومن الطبيعي أن تتفاوت قدرتهم فيما يحصلون عليه من الدنيا . بعد ذلك عندما  
 سافر للخارج أدرك في رحلاته أن الفقر موجود في كل مكان . في البلاد التي  
 ترفع الشعارات والبلاد التي تعيش بلا شعارات . الفقر هنا وهناك على السواء  
 والفرق في النتيجة لا أكثر . ومع ذلك فقد استمر هو نفسه يكرر الشعارات  
 القديمة لفترة حتى بعد أن ترك التنظيم . كانت صفاء هائم الانفراطية تستغزه  
 بانكارها المتطفلة . لكنه كف عن ذلك مع الوقت أيضا . بعد أن ركن كل جهده على  
 عمله . اتعقل من يدرك أنه إذا استطاع أن ينفذ نفسه فليفعل .

إن ينفذ فليفعل العالم أن يضاف إليه فليسير آخر . ولكن الأنسة ليني  
 وأصحابها يريدون الآن أن يستمر الفقر للجميع . من حسن الحظ أنه لم يستمر  
 كل شيء في البلد . قد تمجيب الحكومة تطامرات هؤلاء العمال وتراكم المصالح من  
 جديد . من حسن الحظ أن لديه مبلغ لا بأس به في الخارج وأنه يرسل المخرات  
 إلى هناك أولا بأول . ولكن مع بقائه لا يأس أحد للمستشفيات . طالما بقي  
 الإنسان فستبقى الأمراض وستبقى الحاجة للمستشفيات . ومع ذلك يا صاحبي  
 الخارج أضحت !

نعم ، الخارج ؟  
 نال متطلع فشرة إلى صورة ليني في إطارها على المكتب وقال هذه إجنين

صانكم سيادة اللواء وأطرح عليه الفكرة . من السجن إلى الخارج ؟ كيف فانت  
 هذه الفكرة تبني في السجن يوس ليروج لها عظاما ويكون هو خلالها قد انفق  
 مع اللواء وأحد التوازن والتشديد وبعبارة ذهب إلى إيطاليا ونقيم هناك مع عمتها .  
 ثم إن من يريد أن يدرس القانون عليه أن يدرس في إيطاليا . تدرس هناك  
 القانون الروماني . نعم . الخب في إنجلترا والقانون في إيطاليا هذا هو الصبي  
 يقرب عصفورين ببعضه من لعب العمال في السياسة وفي الحب . لأنه من هو  
 في النهاية هذا الآله الذي يحبها ؟

ما الذي يدرية أنه آله ؟ قد يكون فقيث عما يظهر عليه وربما يطعم في أموال  
 ليني . في أمواله هو ! وشكك بصراحة . جذاب فليعطه حقه أكثر من ذلك قليلا يا  
 لكتور ؟ هو جميل بالفعل . عدها نوق ليني ؟

إن كان عدها نوق فقد ورثته متى ولم توثع عن أمها التي تقع على التفاضل  
 أصحاب الكروش . ولكن من ورثت من أمها شمس آخر . هل هذه الأنسة . نورث  
 أيضا ؟ لا أظن . هي لم توثع لحصل الحظ جسد أمها الحيواني . بل ورثت عقلها  
 أنا وجسدا يتكاد يكون غلاميا . ولكن ما الذي يحثه هذا الجسد وهذا العقل هل  
 شككت أنه تحفة واحدة في صفاء ؟ اعترفتها ساذجة منذ عرفتها في الكلية . وبعد  
 الزواج كانت تدعو منسدة نول الوقت في البيت وفي العيادة وفي القراءة الهينة  
 حتى في الفرائض كانت تقرأ وتنام واكتساب في بها . الهائم متفقة . لم يكن  
 سيصرف شيئا أبدا لولا ذلك الطبيب الصديق الذي همس له . شتمه وطرده لكنه  
 كان يجن . أراد مع ذلك أن يقطع النك بالفرن . عمل كالأفلام البوليسية . تابع  
 سيارتها بسيارته . رافعا دخل العمارة فانتظر قليلا ثم دخل وراحا أراح بيده  
 الباب التي جرى وراءه ليقول له إن مدني بت ليس في شقتك . التفتيز كان  
 صليقة . لا . بل مجرد معرفة . مع ذلك فقد سمح له بدخول بيته وبني يتعرف على



صفاء ، عندما فتح له الباب نظر إليه في دهول وتعجب في أولئك : تفضل ..  
تفضل يا دكتور .

تكلم بهسوء دون أن يدخل من الباب : قل لها ألا ترجع إلى البيت . ثم  
انصرف .

ولكن هل هذا يكفي؟ ألم يكن من الواجب أن يشره ويضربها بالرصاصة مثل  
أولاد البلد؟

ويسمع من أجل ساقطة وخزير؟ لا . لا . هكذا تفعل لافضل . بل ولا كلمة .  
من أجل لبني ومن أجل نفسه أيضا تفور ، ربما يقتلها صدق الثغور نفسه ذات  
يوم ، في داهية هي وهو ، ثم تجادل بالطبع في مسألة حضارة لبني ولكنه لم  
يستطع أن يمتعها من ريقها . كيف كان سيفسر المسألة لبني البلقية كيف  
يستطيع أن يفسرها لها حتى الآن؟ لم يستطع أيضا أن يمتع لبني من تشبهها  
بهذه الدابة الملعونة . مجرد وجودها في البيت يذكره بصفاء الساقطة . أما الآن  
فثلاثة مصافير ! لا . بل أربعة ! ناسف لبني ، تبعه من السياسة وعن هذه الولد  
وعن صفاء وعن الدابة . بعد سطرها تأخذ صفاء لو شاعت هذه الدابة البشة  
وثريرة من بقائها في بيت .  
نعم ، عملية ناجحة :

\*\*\*

(٩)

رجع سالم في المساء فرأى جده حالته أسوأ من البارحة . وجهه الشاحب  
والنظرة المنطفئة من عينيه وخطاء البطينة وهو يقطع المسافة من باب النطة إلى  
غرفته . سلكه الباشكاتب مشغلاً : لماذا تأخرت يا ولدي ؟ أين كنت يا سالم ؟  
فهر رأسه وغمغم بشئ لم يبينه جده وهو يدخل إلى غرفته .

ظل الباشكاتب مترددا أمام غرفة سالم بعد أن يقر فيها فترة طويلة دون أن  
يبد منه صوت ولا حركة . وأخيرا طرقت الباب برقة ثم دخل ليجد سالم مستلقيا  
على فراشه بشيابه الكاظمة وهو يحرق في السقف ، تاداه وهو يهرق برفق فالتفت  
نصوه . نظر إلى جده كانه لا يراه وقال بصوت عميق : رأيتهم بجيني . كانوا  
يركبون الآتوبيس معي ويمشون في الشارع معي وصعدوا السلم معي ..  
قال جده بقليل : من هم ؟

ولكن سالم رفع إصبعه إلى سقف الغرفة وراح يدور بعينيه من اليمين إلى  
اليسار . وزلج البد رأسه أيضا بصورة قنائنية وراح ينظر إلى حيث يشير بطيئه  
وهو يسمم :

- لا يا سالم . بيتنا ظاهر لا تدخله الشياطين . اهدأ يا ولدي ، لماذا لا تقوم  
الآن فتوضأ وتصلي معا وكنتين ؟

أخذ يمسح بيده على رأس حليده وهو يتكر في سمه أدعية بيتنا كان سالم  
يفضحك مسككات خائفة متقطعة وهو يحول رأسه ببطء من اليمين إلى اليسار  
وبالعكس يتابع حركة تدور هناك ، ثم نظر إلى جده وقال :

- أتعرف ؟ أنا لا يعني ! أنا كشتهم ! أنا أخاف الآن منهم ...

قال الباشكاتب بلهجة متعجبة : بالطبع يا سالم أنت لا تخاف لأنه لا يوجد ما تخاف منه .

فأكمل سالم دون أن يتحرك من مكانه : يتوّن أحيانا كالأراجوزات وأحيانا يلعبون فسادين وعسكر بولس ومخاطف بيضاء وأحيانا يكونون غزلاناً وخيلاً ولكني أكتشفهم حتى لو كانوا المتجارب أو المتجاربين . يعرفون أنني أكتشفهم ولهذا لم يتركوني اليوم لحظة ، وركبوا معي الأتوبيس وعملوا ضجة كبيرة جداً ، حتى هنا .

أشار بإصبعه لسلف لم أسمع راسه يتكلم بديه تيسد أذنيه وهو يقول : لو تتوقف هذه الضجة : رأسي يوجد في مكان يتعجز .. رأى وجهه يبيته يتحدى بالعرق وعندها مسحه وجهه عروماً بارداً نقل سالم على وجهه وراح يرتعش ارتعاشة هيبه ومضغلة . وكان جفناه يرتجبان على عينيه الفاتنتين وهو يقول بصوت خافت متعجب : لا تخف منهم يا جدي . في الصباح ستصرف معهم ولكني الآن أريد أن أنام .

تقال الجذ : نعم يا سالم . نعم . اهدأ . كل شيء سيتغير في الصباح إن شاء الله .

وكان يتكلم وهو يضع يده على صدر سالم ويقتل في سلابسه لم يبد عن حليده أي مقاومة ولم يبد أنه يشعر بما يلعبه جده .

لكن الباشكاتب شتم أخيراً في رأس : أين ذهب يا سالم ؟ وميته ؟ ضاع ؟ لا تعرف أنك إن شركته تركنا ؟

غير أن سالم كان قد أغلق عينيه وراح في النوم دون أن تكلف انتباهه

جسده .

\*\*\*

جلس الباشكاتب وحيداً في الصالة المظلمة دون أن يضيء المصباح وراح يتساءل مبهوماً بما الذي يحدث لهذه الأسرة ؟ لماذا وقع سالم في هذه المظلة ولماذا لم تسعد فوزية في زواجها ولماذا لا يفلح أي شيء في تجارتها ؟

أثكون الخطة مرة أخرى غطيت أنا وحدي ؟ قال شعبان إنني أفسدت حياته ولكنه لم يسرح لي كيف أفسدتها . ولكن فليكن أنني قصرت مع شعبان فهاهي غطيت مع فوزية وسالم ؟ ما الذي كنت أمتشي به لفوزية مثلاً ؟ لم أعرف بسرهما إلا بعد أن وقعت الفأس في الرأس لماذا كنت أملك لها غير أن أحاول إنقاذها ؟

كفى ! لماذا تهرب يا حضرة الباشكاتب ؟ ليست المشكلة الآن شعبان ولا فوزية . المشكلة في سالم . كانا سكنت عنه حتى سقط وضاع ؟ لماذا كنت له منذ البدء إنك فرح لأنه أحب ؟

كنت أقصد الحب . الحب البريء لن هم لي مثل سنة . يحيها ثم يتزوجها بعد أن يتخرجها في الجامعة . هكذا تحدث الأمور . سميت له أن يجلس حذاء عادية كاشبان ظنت أن هذا سيساعد على شفاؤه وعلى أن يصبح عادياً مثل بقية زملائه . وبالفعل تسكنت أحواله كثيراً بعد أن أحب . لم تعاوده الحالة قبل هذه الحسية الأخيرة . قبل أن يسقط هو مثلما سقطت أنت من قبل . وكيف كان لي أن أعرف أن هذا سيحدث . وأن الحب بدلاً من أن ينقذ سيرجع به إلى أسوأ مما كان عليه ؟

كان يجب أن تعرف ؟ قبل أن تشجع على البدايات كان يجب أن تعلم أنك لا تستطيع أن ترصد النهايات . كان يجب أن تعلمت نكاحاً . أن تعلم من تجربة حياتك أنك لست أهلاً لأن تصبح غريبك بعد أن عجزت عن نصيح نفسك . لكنت خفت على سالم أن يصبح مثل أبيه ! ما عنيه أبوه ؟ شعبان أفضل منك بكثير يا حضرة الباشكاتب ؟ على الأقل هو لا يظن أسراراً مشيئة في حياته .

ثم يقول الله: أوب خطوة إنك تكاذب وإن المكابدة يستلزمك !  
أي شيء أكابده أنا الآن سوى الكذب ؟

حتى في شبابي لم أكن بهذا السوء ، لم أكذب على الناس ولا على نفسي كنت  
أخفي فأعترف بذنبي وأعزم في كل مرة على التوبة وعلى أن تكون هذه آخر مرة  
لكنى لا أتناهى بالقوى ، لا أمام أبي ولا حتى أمام أبى خطوة ، وعندما أصبحت  
سبية لم يكن هناك قس في حبس لها ولم أكنها ولا حتى بفكرى - ولما وهبت وقضى  
وحبسانى بعد ذلك لشعبان وأولاده لم يصرفنى شئ ، فكيف إذن قادم كل هذا  
الصدق إلى كذبة تارلى ؟

أعرف أنى لم أكن ملاكاً في أى يوم ، ظلمت عدوى كنه أخفى معن الدنيا ويعنى  
للأخرة دون أن استقر على حال ، ولكن لماذا نزلت إلى هذا الصدى ؟ أضفى عن  
الجميع سوى مثل لمن يخفى ما سرق - لمن شديد الفرية نجح بشئ طويلة في  
أن يخفى سرقته ، عمر طويل آخر وأنا أكذب على الناس وعلى نفسي ، وتستسلم  
بعد ذلك لماذا يحدث العالم ولاسرك ما يحدث ؟ لا يمكن لشئ بالطبع إلا أن يفسد  
حياة من حوله ، شعبان على حق ! والآن تطورت التوبة ، وتطورت كثيراً يا سيد  
توفيق -

اجتاحت الباشكاتب ، من جديد ، موجة من الغضب على نفسه ويقال لا ، في  
هذه المرة إن لم يأت التغيير حالا فهو الهلاك إلى الأبد - حالا ؟  
سمع الباشكاتب المشاح يدور في الباب ، ونحن دخل شعبان وأعضاء التور  
فوجئ بوجود والده فقال في دهشة :

- لماذا تجلس في الظلام يا حضرة الباشكاتب ؟ ماذا حدث ؟  
نظر إلى والده نظرة مدنية وهو يتعمش « لاشر » ، ولاحظ أن وجه شعبان مشرق  
على غير العادة ، جاء تجلس قبالة والده وهو يقول

- عندي أخبار جيدة يا حضرة الباشكاتب ؟

عبرت وجه توفيق المستغرق في أفكاره نظرة استفهام وهو يتطلع إلى شعبان  
الذى أكل - كنت قد حدثت حضرتك عن مطالبة الضرائب ، الحمد لله استطعت  
أن أخلصها كثيراً جداً .

قال الباشكاتب وهو يبرز عينيه : وكيف حدث ذلك يا شعبان ؟

بدأ على شعبان بعض الإخراج وهو يتفادى نظرة والده قائلا :

- لم صاحب في السرق يلهم في هذه الأشياء - ساعدنى على تسوية المسألة -

- كيف ؟ ثم يا شعبان منذ أيام جدك المرحوم تسوى كل أمورنا بالإمانة

والقانون - واظم يا ولدى أنى لو احترت طريقاً آخر لكأن عدداً بدل هذه العبارة  
التي بناها جدك عسارات كثيرة ، بعض الموظفين كانوا يعتبروننى حافياً أو أبلاً  
لأننى لم أمد يدي إلى طيم خارج منزلي ولهذا يبارك لنا الله طيما نملك وتعيش  
مستورين رغم كل شئ - قللى لى كيف سوى صاحبك هذه المسألة مع الضرائب ؟

فراجع شعبان قليلاً في مقعده وقال : بالقانون طبعاً يا حضرة الباشكاتب ،  
بالقانون : وأجعتنا بما نقاتر الحسابات وخصمتنا من الإيرادات مصروفات لم تكن  
مقصومة ، بالقانون - ولكنى كنت أريد رأي حضرتك في موضوع آخر - صاحب  
هذا يتاجر في السجائر المستوردة ويريد أن أؤجر له زاوية من المحل ليبيع  
سجائره - سنكسب في شهر واحد من الإيجار أكثر من مكسبنا الصافى في شهر  
لحمأ رأي حضرتك ؟

- وهذه السجائر مستوردة فعلاً أو مهربة ؟ إن تكن ..

ثم عدل الباشكاتب عن إكمال ما بدأ : وقال وهو يحك جيبه : أسمع يا  
شعبان : أفعلم ما بدا لك ، أنت تخطي وتعترف ريشاً وأنت أدري بمصلحتك - أنت  
أمرى منى - تنهد شعبان يارنياح وهو يقول : على خير الله !

أراد أن يقوم ولكن والده استبقاه بإشارة من يده :

- اجلس يا شعبان ، تمنيت أن تكون عندي أنا أيضا أخيار طيبة ولكن ..

بدأ الضحك في وجه الابن وهو ينظر إلى أبيه الذي كان من الواضح أنه لا يعرف من أين يبدأ ، وأخيرا ، حكى لولده بكلمات موجزة حالة سالم والوساوس التي حلت به وسأله في لقل : « ما العمل ؟ »

قال شعبان بلهجة صاعدة ولكنه يخفي مسؤوليته

- وأبي من زمن أن هذا الولد غير طبيعي وأنه يحتاج إلى علاج -

قال الباشاكتاب دون افتتاع : فلننتظر حتى الصباح ، قد نأخذ أنه بالتفرد كما حدث من قبل ،

- كما تشاء يا والدي -

ثم قام شعبان ودخل إلى غرفته -

ولكن في الصباح عندما وصلت فوزية تحمل ابنها الرضيع لم يكن سالم قد خرج من غرفته ، وراة جدها ، الذي ترك وقته الباقية دون حلاقة على غير عادته يجلس مستعدا على مقعد في الصالة ، وقد بدا أنه شاخ قجاة ، حكى لحفيده سيارات متعثرة ما حدث لسالم ، طرقت فوزية باب غرفة أخيها برفق ، ثم طرقت بشدة فلم تسمع أي رد ، فتحت الباب بيد وهي تحمل ابنها باليد الأخرى ، لم تبق هناك طويلا ، صرخت وبن وجيها فرح وهي تسأل جدها :

- ما الذي جرى له ؟ كانه لا يعرفني ، كانه لا يعرف سلوم ..

ثم قالت وبموعها تنساب دون إراعتها : انطلق يا جدي وانظر بنفسك -

قام الباشاكتاب بجوجور قديمة متوددة نحو غرفة حفيده ، لم يكن يريد أن يعرف ما الذي جرى ، وحين دخل فاجأه منظر سالم وهو يجلس بثياب الأنف و يكتب بسرعة فائقة أشياء على ورقة فولسكاب وأمامه على المكتب أكوام أخرى

من الورق وأجزاء ملككة من جهاز الراديو الترانزستور ، كانت هناك أيضا أوراق مبعثرة على الأرض وفوق السرير ، ووقع الجد ورقة من الأرض فوجدتها مزخمة بأرقام كثيرة ومعادلات رياضية مكتوبة بخط صغير .

سأل الباشاكتاب حفيده بهدوء : « ما الخ فيه : ماذا تفعل يا سالم ؟

نظر سالم إلى جده وعلى شفاهه ابتسامة لطيفة وقال : « أوشكت أن انتهي ، - فنتهي من ماذا يا والدي ؟

- من حساب الذبذبات ! هم يعملون ذبذبات في الجو ويحدثون بها هذه القضية الشديدة .

قال سالم وهو يضع يدا على أذنيه دون أن يتوقف عن الكتابة : سأتوصل بالحساب إلى موجات هذه الذبذبات ، في معادلة بسيطة جدا ، نسين وهاء المهم أين السين وأين الحصار ؟ عندما أعرف سيمسكون تماما ، سنصبح أغنياء وسنعيش في بيت كبير لأن اكتشافي سيبيع العالم منهم ، لن تسمع لهم أي صوت ، مثل هذا ، هل تسمع صوته ؟

وأشار سالم بيده إلى الأجزاء المبعثرة من جهاز الراديو الذي فكره إلى شغل صغيرة .

وقفت فوزية بالباب وهي تحمل طفلها وقالت ولم صوتها أثر اليك : - هل أنكنت شيئا يا سالم ؟

رد جده قجاة عنه : لا ، لم يأنك شيئا منذ الأمس .

- سأعمل كوبا من الشاي وأتي لقمه -

فصاح سالم في غضب : اخرجوا من فضلكم ، أنتم تعطلونني ؟

وانكب ثانية على أوراقه يتش فيها بسرعة وعصبية ويلقط بين الجين والآخر نبتة من بقايا الراديو يقربها من أذنه ويصمت بأبصاره .

ينادل الباحثات النظر مع فورية التي بدأت وصرعها تسيل من جديد . ثم خرجا من الغرفة . عاد الجد إلى مقعده في الصالة بينما ذهبت فورية للعمل الشاى .

\*\*\*

فى مساء اليوم نفسه ذهب شعبان لاستشارة الطبيب النفسى المشهور فى باب الفوق .

ذهب بمفرده وبدا يشرح للطبيب حالة ولده وحكاية العذلات والكلام الذى يقوله عن الذبذبات والاضواء . قال له انه لا يكار الآن يتكل أو ينام . سأل الطبيب : هل تعرض ايك لصدمة قبل أن تأتي هذه الحالة ؟ - لست متأكد . نستطيع أن نسال جدك . ولكن على العموم هو ليس طبيعيا من زعم . كما قد عرفتاه على حضرتك قبل سنوات . - نعم قرأت ملفه عندى قبل أن أقابلك . ولكن تلك الحالة لا تنهى إلى هذه التصرفات . لابد وأن يكون ايك قد تعرض لصدمة حديثة . كرر شعبان : ربما . يستأىل إن كان أحد فى البيت يعرف . كان الدكتور قد بدأ يكتب (ورشة) طويلة من الملمن والأوية الأخرى وقال لشعبان :

- ستجد صعوبة فى إسمائه هذه الأوية . هم عادة يرفضون العلاج فى هذه الحالة ولكن لا بد منه . وعندما يبدأ قليلا أحضره لى لأراه . هذا علاج مؤقت وإذا لم ينفخ فقد نخطو إلى أشياء أقوى . ربما تحتاج حتى إلى الكهرباء . قد نعالج الصدمة بصدمة .

\*\*\*

فى هذه المرة لم يعترض الباحثات على شى . لا على العلاج بالصدف ولا بالعقاقير ولا على عودة سالم إلى النوم الطويل بالليل والنهار . لم يكن يستطيع

أن يعترض حتى لو أراد . لأنه للمرة الأولى لزم هو أيضا الفراش دون أن تكون هناك وعكة برد أو أزمة معدة . فاجلج وقاجلت الأسرة إغصاء طويلة حلت به . وأمر الطبيب الذى استدعوه إلى البيت على عجل بأن يلزم الراحة التامة وينظم فى العلاج . وبفى المشتات رغبنا منه أياما فى الفراش لأن الحوار كان يعاوده كلما حاول النهوض .

لهذا أيضا أخطوا عن الباحثات حذر جلسى الكهرباء اللتين طالع بهما الطبيب الكبير حقيقه .

\*\*\*

كانت تلك أيام مولد السيدة زينب الذى اعتاد الباحثات أن يتابعه من شرفته ويشارك فيه ينطسه كل عام . فى هذه المرة أعجزه المرض فكان يتابع بقلبه كل شى وهو يرقد فى فراشه ويكاد يرى الصور من خلال الأصوات . لاحظ الضحية وهى تزداد يوما بعد يوم مع وفود الألف الجديدة من الزوار من كل مكان والذين يعلم أنهم احلوا الآن كل الأرضية فى الميدان والشوارع المتفرعة منه وأنهم زحفوا حتى جنية البيت . ميزت أخته . إلى جانيه القدامات وهياح الضحية وضجيج الميكروفونات . تلك الوشوشة الجماعية الموحدة لألف الأصوات . تلك النغمة المبهمة الشى تنموج وحدها فوق كل الطنين من مد وجزر . والتي كان يسميها لنفسه «روح الأصوات» . يتعرف مع ذلك على كل التفاصيل المفردة فى النسجة الأتية من الطريق ومن الغيام والاكتشاف القصوى فى شارع المدلول .

يسمع صوت ربابة وإشهاد مداحين . وقرقعات ينادى التنس . وأزيز (المراجيح) . ونداءات باعة الأظعمة . وبيعة الصنوبر وبيعة كتب الانعبة المدينية . وخشخشة ميكروفون المساحر الذى ينظر ابنه بالمشتا إلى نصفين أمام عين المتفرجين والنخول بفروش خياغ واحد . يكار براهم جميعا ولمعهم ولكنه ينتظر

مع ذلك في كل مساء . في آخر الليل . مسونة شجبا لا يظلمته أبدا رغم كل الضجيج . يصبر من أدبه إلى قلبه على الفجر وهو يكرر يناديه المنعم . توكلت على الله وبن رحالتي . . . يعجز في سمعه بالنقطة المصدعية المتواترة كمروج البحر وهو يناجي روضة الرحمن ملجأ المؤمنين فينتمن الباشكاتب الراقص في مرآته .

\*\*\*

ولما جاء يوم المولد قرر شعبان أن يحتفل به كما كان جده السعدى يفعل وكما ظل الباشكاتب يصيبه لسنوات طويلة . ففكر أن هذه هي الطريقة التي يمكن أن تعود بها البركة إلى البيت ويرفع بها الدعاء إلى الله ليشفى أباه وابنه . أراد أيضا أن يشكر الله على المال الذي بدأ يجري في يده منذ أن أجبر الزاوية ليلامع السجاش وبعد أن واجت مبيعات الأقمشة هذه السنة لزوار المولد . استأجر شعبان ووصيا عشرات من القاعد الخيويان ووصيا فرق السطح . وشارك السكان أيضا بإضافة مائدة من بروتهم حتى امتلا المكان وشعل الحماض العسيرة كلها . فتطوع كل واحد بها بقدر عليه . ركب حميد الكهريائي أثير رفوفات ومكبرات الصوت . ووسع أفرع التصاييح الثقيلة في مدخل البيت وعلق انضاء في أسفله . ونصب أبو عزوز النجار أعمدة خشبية فوق السطح وعشق غيبها أثوابا من قماش الضياف المزخرف كأعلام مطلوبة لجسد البرية . وشارك بنات البيت منذ الصباح بسبح اللالو في أنوارهن . واستطاع أبو زيد أن يكسب المدخل .

وفي الظهيرة فسخ شعبان بعجل كبير زجه أمام باب البيت ووزع الصوف على زوار أم هاشم . وفي لحظة التبع ظل أبو زيد وكبير بصوته المرتعش مثلما كان يفعل في الزمن القديم . وارتفعت أوعية أطفال البيت وأطنال الجيزان

المحلقين للفرجة على الذبح يشربون الصلاة على النبي ودعاء الحمد من حقيقتهم الطاهرة . ثم علت بعد ذلك من مكبر الصوت الموضوع فوق البيت آيات القرآن الكريم يتناوبها القارئون الذين يختصون المصحف الشريف .

ولما المساء أصغر شعبان على أن يرتدى والده بذلته وعبائه واصطحب سالم الخدر وهو يستعد من تحت إبطيه بينما يسند بيده الأخرى ذراع والده المتمدد على عصاه وصعد بهما معا إلى السطح . أجلسهما متجاورين في الكنف الأول في مقعدين كبيرين مبطنتين بالقماش . إلى جوار الحاج إبراهيم الطويل الذي صعدوا به ممولا على المقعد .

وكان المكان قد امتلا حتى أضمر بالجيران من العبارة ومن البيوت المجاورة الذين لم تكفيهم كل المقاعد فضل البعض واقفين . وكان شعبان يخوف على النوعيين وفي يده قارورة عطر معدنية كسرة بشر منها على الكفيم المسبوبة قطرات قيمسحون وجوههم وهم يدعون له . وكان غيره يطول بالكواب ما محضر بالزهر . يوالى إرساله الحاج سرعى العطار من شفته في النور الرابع في أباويق نحاسية كبيرة .

وتأمل الباشكاتب فرقة المتشبهين كانوا خصمة يرتعون جلابيب صوفية وعادة الثوب رعاش . ويضع كبيرهم شالا من جوهر أبيض يندى من ظلي كنفه وقف أمام البكرتون واصطف الأربعة الآخرين خلفه . وكان الباشكاتب يعرف من تجاربه أي مقاطع سيتلوها وحده . وآية أبيات سترديها وراء الطرفة . وارتاح قلبه عندما وجد جميل الصوت منذ بدأ يشد مع فرقته مدائح قصيرة لمصاحبة المولد والحمام .

وأخيرا جاءت اللحظة التي انتفضها الجميع . حين علت من فوق سطح البيت بعد انقطاع طويل أبيات البردة التي اعتنقوا على مصاعها منذ الصغر . تنظليا

مكبرات الصوت للحى كده . واغرورت عينا الباشكاتب بالدموع وهو يسمع  
الابيات الاولى التي يهترأ لها قلبه :

أمرُ شُكْرِ جيسران بنى سُلَمٌ      مزجتُ معها جرى من مقلتي دُمى ؟  
لولا الهوى لم تُرقِ دمعها على طلل      ولا أرقنتُ لأُكسرى البان والعلم  
فكيف تنكر حينا بعد ما شهدت      به عليك عَقولُ النسيم والنسيم ؟  
وكانت شفتا الباشكاتب تصبقان الخُططين . ووضع وجهه بين يديه مخالفاً أن  
يجهش باليكا . وهو يترنم فى سره .

مُخَضَّتِي النصحَ لكن لستُ أسمعها      إن المحبَّ عن العَذالِ فى صميم  
فإن أُمَاشى بالسوء ما اتفشت      من جهلها بتذير الشيب والهزم  
وسألت الباشكاتب هل يشدد اليوسفي عن نفسه أو عنه ؟ إن يكن هناك  
من لم يردعه الضيق فلا يمكن أن يكون ذلك الشاعر النقي وانما هو من طائفة  
أعداءه وقتل أمداده . ولكنه انتبه من خرافة إلى الخُططين يكررون مرة بعد مرة  
وحشد الجيران يردد وراءهم بعاطفة حيائية

محمدٌ سيد الكواوين والشُّفَين      والفريقين من شرب ومن عجم  
نبينا الأمير القاهى فلا أحدُ      أيرُ فى قولٍ لا منه ولا تعم  
هو الحبيب الذى ترجى شفاعته      لستُ حول من الأقوال مقتحم

انزاح الباشكاتب يده عن وجهه وبدأ يردد مع الجميع بصوت خافت مجهت أول  
الامر تلك الضراعة الواحدة للحبيب الذى ترجى شفاعته . ثم نسي نفعه بعد ذلك  
تماما . وانطق يتشد فى سره حيثما متابعوا الملاحين . ويظهر حيناً آخر مع  
الجميع وكأن ثقل الستين وثقل المرض قد انزاحا بالفعل عن كاهله وعاد مرة  
أخرى إلى شيبائه وهو يردد أبيات البردة عن مولد المصطفى عليه السلام وبما  
قاساه فى حياته وأثناء دعوته . وقد استنكت قدماء من يوم وشهد من سقى

أحشاء وطوى . ويرى بعينه معجزات القادر فى هجرتهم «فتتوا العدم وقتوا  
العتكوت على خير البوية لم تُسع ولم تُحم» ويسرى صه من «حرم إلى حرم  
كما سرى البحر فى داج من الظلم . ويعيش أيام جهاده وغرواته «وسل حنيا وسل  
بدرا وسل أحدا» . ثم يثو صوته مع المشدين ومع جيرانه

يارب بالمصطفى بلغ مقامى سدا      واغفر لنا ما مضى يا واسع الكرم  
واغفر الهسى لكل المسلمين      بما يكون فى المسجد الأقصى وفى الحرم  
يجاء من يشه فى طيبة حرم      واسمه قسم من اعظم القسم  
ولم يعد الباشكاتب الآن ينتبه إلى المزعج الذى غطت وجهه وجعلها كثيرة  
حولته . وكان يملك على قدميه عندما انتهى الملاحون البردة وهو يرقع يديه ويكلم  
الناثية معهم . وعاد شعبان إلى الظهور وهو يعمل مبقرة راح يتوحيها أمام أبيه  
وأمام سائم الذى كان يقيق ويغفر . ثم بدأ يتوحيها بين صفوف المقاعد وبين  
التجيران الواقفين وهو يصيح بأعلى صوته «مدااااا» فيعمر المكان كده التراف  
على على لى .

وكان الليل يتقدم وأصوات الرُحمة صاحبة فى الطريق مثلما كانت منذ مطلع  
التنهار . تملأ من هناك ومن فوق السطح أصوات التهليل والتكبير والدعاء لصاحبة  
اثيلة الحبيبة السيدة زينب . السات الطاهرة . أم هانم . بنت بنت النبى . أخت  
المسكين والخصين . أم العواجز وجابرة المنكرين .

مدا يا ست مدا ؟

\*\*\*

القسم الثالث

(الباب الثاني)



يقول إنه لا يتق في هذه النتائج أبدا ولا يمكن الاعتماد عليها في كتابة العلاج. فيضطر الباشكاتب إلى إعادة التحليل في المعامل التالية. ولم يعد يستطيع، حتى لو أراد، أن يدفع لفوزية ما كان يعنيه لها من فيز. لكنه على الأقل لم يضال فراج أبدا بسداد ما اعتبوه مينا عليه. وكف فراج أيضاً عن الاعتذار لعدم سداد هذا الدين.

ما كانت تشغل الباشكاتب قبل كل شيء آخر في هذه الأيام هي حالة سالم. ظل مريضه على حالة رغم العقاقير الحيوية والمخففة. وكان إبراهيم، كلما افترق ويشير إلى أبيه أو أخته ياليا بصوت مجهود إيعادهم عنه - اعتادوا أن يثروا إليه في معظم الوقت في معاطف بيضاء. وأن يحدثوا ضجيجا بسبب له هذا ما مؤلما فيصد أنثيه بكفيه ويصصر جبينه دون جنون. لكنه كف بعد العلاج عن محاولة اكتشاف المعادلات التي سيطردهم ثم انقطع ظهورهم تماما بعد جلستين الصدمات الكهربائية. طردت هاتان الشيطان الأشباح الماكوفة واستبدلتا بهما أشخاصا أشد شراسة. إذ ظل سالم يقوم مغزوعا في الليل ويصبح صبيحات أقرب إلى العواء وهو يلوح بيديه محاولا أن يطرد الخفافيش والصقور التي تنقض على رأسه وتمتبه.

يكث فزوية وهي تقبل يد والدها ضارعة إليه، مرة أخرى، أن يرحم أخاها من هذا العذاب - سألته هل يمكن أن يحدث لسالم ضرر أكبر مما هو فيه الآن لو تركوه دون علاج؟

أراد شعبان أن يستمر مع ذلك حتى تنتهي الجلسات التي حددتها الطبيب لتظهر النتيجة. لكن الباشكاتب الذي غادر فراشه بمجرد أن عاد له شيء من نشاطه - فزع عندما رأى حالة حفيده. لم يستطع أن يتمر شعبان كما فعل من قبل بأن يوقف العلاج على الفور. اكتفى من فوزية بالإشارة إثر ما جرى لتعبه

تعرف الباشكاتب متى بدأت عملية شرميم البيت لكنه لم يعرف أبدا متى منتهى.

أصر الثقال على الحصول على الجزء الأكبر من أتعابه مقدماً لشراء الثراء واتفق على إنهاء العمل في خلال شهر أو شهرين على الأكثر. لكن شهيراً كثيرة مضت ومبالغ كبيرة أخرى ضاعت دون أن يحدث شيء، إذ فجأة يختل المداول وعمله بعد أن يتركوا البيت مملوفا بالأعمدة الخشبية ومن حوله أكياس الجير والاسمنت وأسياخ الحديد. وتحفى قدام الباشكاتب وراءه قلا بروجع إلا بعد أن يتقاضى مبلغاً جديدة غير الذي اتفقا عليه، وبدا أنه لن ينتهي إلا مع انتهاء آخر فرش يملكه صاحب البيت...

وفي هذه الأثناء اضطر الباشكاتب أيضاً إلى استشارة أكثر من طبيب بعد أن تكررت نوبات الدوار وأصابه هزال مفاجئ. كان الطبيب الذي زاره بعد إغمائه الأول قد أنبه وسأله كيف سكت على نفسه حتى ارتفع ضغط دمه إلى هذا الحد واضطربت نبضات قلبه؟ ومع أنه التزم بالعلاج الذي وصفه له الطبيب حتى استطاع أن يقف على قدميه، إلا أنه بدأ بعد ذلك يلفظ الكثير من وزنه بالتدريج فاضح أنه أصيب بمرض السكر. أصبح من الضروري أن يعالج بحقن يومية وأن يتعاطى دوية كثيرة أخرى. وبذلك كان أعضاء والإيراد العضول الذي بنى من أرض سمية وكفيلان لسداد أتعان هذه الأدوية ولزيارات الطبيب الكبير لدورية - والتحليلات المستمرة التي يطلبها في معامل يحددها بنفسه. كان يعضب إذا ما أجرى الباشكاتب التحليل في مستوصف شعبي أو في معامل رخيصة.

بعد العلاج، إذ امتنع سالم عن الأكل وأصبح يسكو بعد الجلساتين، إلى جانب الصداع، من شيطان مسنن وهو يسك يملكه والألم يعصر وجهه متحولاً إرجاع طعام لم يذله.

قال الياشكايب لولده متظاهراً بالهتود: يا شعبان، هذا الولد سيحوت لو استمر على هذا الضال. لنعطه على الأقل فترة راحة من الجلسات. فإن ساء حاله أكثر يمكننا أن نفكر فيها من جديد.

رد شعبان على والده يهده أيضاً لم يقل من نيرة تائيب: ربما يا حضرة الياشكايب لو كنا أكملنا علاجه من البداية لكانت الظروف الآن إلى هذه الصدمات. - مئة حق يا شعبان، أما كل ما نطلبه الآن منك هو فترة راحة لسالم ترجع بعدها إلى هذه الجلسات إن شئت.

زفر شعبان ثم قال وكأنه يخلو مسئولية مرة أخرى: كما تشاء يا والدي، يعلم الله ما الذي فعلته لأدير تكاليف هذه الجلسات وما شئت الآن نوقفها: أولئك الياشكايب من يقول: «هذا هو ما نملك يا شعبان» حالة سالم كانت أن نقضى على تكاد حتى الآن أن نقضى على وأنت تعصبها بالثقاليل! أليس أهلك لم لا أراك جزءاً عليه مثل فوزية؟.. ولكن لا! كفى! توقف! من أرواك بما يدور في قلب شعبان أو في عقله؟

لم تنطق على أنك لست أملاً لتحكم عليه أو على غيره؟ توافق؟ توافق! ثم دقت نجوى على أن تقوم شعبان؟ فل هو السبب فيما حل بسالم أم أنت؟ من الذي شجعه من الأصل؟

قال الياشكايب بلهجة كسيرة لا تشبه لهجته في شئ: لا تغلق يا ولدي سينجو سالم من هذه الأزمة بإذن الله.

طالقت يدها لتحفظها بقوة أبو خطوة القاضية الحفيدة لمبحث عن الحجاب وأعاد تعليله من جديد في صدره. لكن فوزية دلت إلى التفكير في شئ آخر.

كانت لازم أخافه قبل جهاز. تعلبه بيدها القيمات القليلة التي يملكها مشاع اعتادت أن تغلق وهو صغير، تأخذه في حضنها وتهدهده عندما تهجم عليه الوحوش التي تنهز رأسه، تولف حكايات كثيرة وتعجبها أسلوب الذي كان يعلم المشي دون أن تقارق عينيها أخافه الرائد في الغواش. إن لاحظت أنه قد شرد أو كلف عن متابعيتها تبدأ في اختراع شئ جديد لتبقيه صاعياً ومتنبهاً، وصارحت عندما بنها مدعى لديها، أنها تعض شام الألوية في مواجدها لكنها في الحقيقة تسقيه بدلا منها اليسون أو السليو. ولم تلاحظ أي فرق يحدث في حالته حين تعلبه الألوية أو حين شبعها.

لما الياشكايب بعد أن سمع ذلك إلى الحاج مرعي العطار. ذهب إلى جاره في بكائه القوي الذي تفوح منه من بعيد دوايح البصير والأعشاب والمكروب على وجهه. «تأس سنة ١٩٨٨». كان يشبه والده الراحل صديق الياشكايب في كل شئ، يرسم على وجهه شعير الجذ والانشغال طول الوقت، ويلبس مثله الجلباب البادي وطربوشا تشبهاً ومكروباً باستمرار. وكان ذلك يحير الياشكايب بسبب اتقارص محلات كي الغرايش من الحى ومن البلد. استقبله مرعي بتعجب كبير وأدخله مكتبه الواقع في عمق محله الواسع الذي وجدته الياشكايب مزدحمة بالكداس من الكتب القديمة المجددة، وقوارير رجائية صغيرة مرسومة فوق أرفف ضمن أنها تقسم للأعشاب الطبية.

وعندها عرف مرعي ما يطلبه الياشكايب تحول تعبير وجهه الجاد إلى ما يشبه الصرامة وهو يسأله بدقة أدقته عن كل تفاصيل حاله سالم. ما الذي يحدث له بالضبط من يومه وفي بطنه، وهل يستمر الطعام في بطنه أو يرجعه، وهل تزداد درجة حرارته أحياناً؟ سأل أيضاً عن كون البول وما إذا كان يشعر بجفاف في اللسان، وهل يسيل لعابه حين تأتيه الحالة؟ وما هي، بلا مواخذة، حالة الطبيعة عنه؟ كم مرة؟ وهل تميل إلى الإسهال أو العكس؟

ابتسم الباشكاتب وهو يقول: لا أعرف يا حاج مرعى إجابات كل هذه الأسئلة،  
 حتى الطبيب لا يسأل عن كل هذه التفاصيل  
 ألوح مرعى طربوشه قليلا إلى الخلف وقال بون أن يشتم ما لدينا يا حضرة  
 الباشكاتب هو أبو الطب، ليترك جنت لي منذ الجدة  
 أراد الباشكاتب أن يداعبه «حقها حية» لكنه فطر على الفور أن مرعى ليس  
 من النوع الذي يقبل المزاح، فتبعض وهو يقول:  
 - سائيت بانجوية لكل أسئلتك إن شاء الله.

قام مرعى بعودة وهو يضيظ طربوشه فوق رأسه قائلا: في أسرع وقت  
 كانت قوزية تعرف كل الأجوبة التي يطلبها العطار فدونها الباشكاتب في ورقة  
 عاد بها إلى مرعى الذي راجعها بكل دقة ثم طلب من الباشكاتب أن يعطيه مهلة  
 يومين بالضميمة. وعندما ذهب في اليوم كان العطار قد أخذ أربعة أكياس تضم  
 أعشابا مختلفة مكتوبا عليها بخط رقعة بالغ الجمال وبالقلم البسيط إرشادات  
 مفصلة «يتبع في المساء ويشرب بارداً على الريق... يتلى جيداً ويشرب مساختاً  
 أربع مرات في اليوم...» «قيل التوم بساعة» «طعنة صغيرة منقوش بعد الأكل».

وعندما عد الباشكاتب بده ليأخذ الأكياس سجدتها مرعى بشي من التردد وهو  
 يقول: سيهرت كليتيت يا حضرة الباشكاتب ورجعت إلى كل ما عندي من الكتب  
 لأنك قال عندنا الشافي هو الله. ولكن إن أعجبت سالم هذه الأعشاب فيجب ألا  
 يأخذ معها أي دواء آخر. وأرجو أن تخبرني كيف تتطور حاله لأننا قد نغير  
 بعض الجرعات أو الأعشاب وقد نضعها كلها إن لم نفع. الشئ الوحيد الذي يمكن  
 أن أقوله لك يا حضرة إنك سيمشرد شييت إن شاء الله..

وأخيراً أعطاه الأكياس في حزم شديد وهو يقول: وتذكره يا حضرة  
 الباشكاتب بالده. ونذكرني بعد، وربما يقول مجاه الست...  
 فقال الباشكاتب وهو ينادي الأكياس بالحرمي تسه: امين.

وعندما أراد أن يطلع شيئاً للعطار رد بده المعبودة في تصميم لا يقبل جدلا  
 - عندما يأتني الله بالشفاء يا حضرة الباشكاتب، ستجني لنا فوق السطح ليلة  
 من لياليك الجميلة.

اتفق الباشكاتب مع لموزية على أن تعطي لسالم هذا العلاج بون علم شعبان،  
 لم يكن وافقاً أن ابنه سيوافق على إضافة الأثرية الغائبة. ولا كان وافقاً أن ما  
 يفعله هو الشئ الصحيح.

لكنه حاول شيئاً آخر لمساعد حفيده - ذهب بنفسه إلى كلية الحقوق ليسأل  
 عن الطالبة لينى التي أبوها طبيب - كانت تلك هي كل المعلومات التي يعرفها  
 عنها. وحين انتهى إلى صاحبها عرف منها أنها سافرت إلى إيطاليا وأنها  
 ستكمل تعليمها هناك أخذ اسم والدها واستدل على عيالته...

لم يستقبله الدكتور شوكت على الفور عندما أخبرته بالمرضية إن هناك رجلاً  
 عجوزاً يريد في مسألة شخصية. سألتها هل شكله ممن يظنون إعانة أو كشفاً  
 عجيباً لأحدى قريباتهم - قالت إنها لا تعرف ولكنه سأل عن أخبار الأسرة ليس.  
 فكتب الدكتور قائلاً: ربما هو خبيراً فابستت المرضة وهي تقول هو عجوز جداً  
 لا يصح محبواً. لوح الدكتور شوكت بده قائلاً: فليندر حتى ينهي العمل في  
 العيادة. إن كان هناك وقت فسأنايله.

بعد أن انتظر الباشكاتب ساعتين استقبله الدكتور شوكت وهو يجلس إلى  
 مكتبه. وبأخذه بمجرد دخوله: كيف تعرف ابنتي؟

غالب الباشكاتب دهشة وقال: مساء الخير أولاً!

ثم بده عليه شوكت وظل ينظر تحوه وهو يعتقد دقته بيده فبدأ الباشكاتب  
 يشرح بأريالية أن حفيده سالم كان صديقاً للأستاذ لينى قبل سفرها. وأنه أصيب  
 بحالة نفسية سيئة، وذلك هو يسأل الآن إن كان يمكن أو الأستاذ لينى مساعدة

حفيده بأى شكل، ولو من طريق رسالة أو زيارة.. تذكر الدكتور شوكت كل شئ من الشاب الذى زاره يوم سميت ابنتي وقال لنفسه يجب أن تضع نهاية حاسمة لهذه الحكاية.

قال يليجته الرخوة مضطجبا الياشكاتب: ثاالى إن كان يمكنى مساعدة جليلك! يمكنى بالطبع، أنصحت بأن تقصه فى مصحة للأمراض النفسية أو العقلية ثم لا تجعلى أراه أو أسمع عنه أو عت بعد اليوم! ليس عدى وقت لهذا لست.

قال الياشكاتب فى ذفول: على أىامى كنا نكلم من هم أكبر منا منا بطريقة مخطفة. أنا فى سن والدك يا فتكورا!

قال شوكت وهو يتنفس: أنت لست مثل والدى، والدى كان يعرف...

استشاه الياشكاتب غضبا وهو يقول: أحمك الله أنتى لست مثل والدك! على الأقل أنا استعفت أن أرى أولادى!

واستدار خارجا وهو يضرب الأرض بعصاه بعنف وقال شوكت لنفسه دون أن يهتز: أنتى أنتا لفرقتا من هذه المسألة نهائيا!

غير أن سالم لم يعد بحاجة إلى المستشفى الذى أصبح بها الدكتور شوكت، استقرت شهيته بالفعل، كما تنبأ الحاج مرعى وأصبح الطعام يستقر فى بطنه، ونشيطا فشيئا أخذ يستعيد بعض الوزن فقد وأصبح نومه أقدا مما كان، ظل مرعى يمر على بيت الياشكاتب كل يوم تقريبا فى نزوله وصدره، يسأل عن تطور الحالة، ويغير أحيانا خلطة الأعشاب معتبرا الصراع مع الوحوش التى تشبهت بوابل سالم معركة تخصص هو بالذات، وإن ظل يعقب على الياشكاتب، برزاقته المعبودة، لو جئسى منذ البدء، والذى لما استغرق العلاج كل هذا الوقت!

وكان الياشكاتب يبالغ فى الاعتذار عن هذا التقصير، ميااعة لمرعى فى بعض الأحيان، وصادقا فى أحيان أخرى حين لاحظ التحسن الذى بدأ ببطء على حالة

حفيده، أخذت الوحوش تتسحب التدريج، وبدأ سالم يعود بيده من العالم الذى غاب فيه طويلا. يتحدث أحيانا بجمال قصيرة إلى جده وإلى خوزية، ويطلب الطعام بنفسه، ويوم تعرف على سالم الصغير يبدأ يداعبه همست قوزية ليدعها بتجربة فتارة «أرايت» البركة فى عم مرعى!، فقال جدها وهو يقبل رأسها «وفيك أنت يا خوزية».

بقيت بعد ذلك فقط حين رجع لهم سالم تلك النظرة المنطلقة فى عينيته وبسمة ثابتة على شفتيه وعاد إلى صمته الطويل، غير أن ذلك كان شيئا ألقوه منذ زمن طويل.

وكان الياشكاتب قد فعل شيئا آخر يوم ذهب إلى الجامعة بحثا عن ابنتي.. إذ قدم شهادة مرسية لإعفاء سالم من الامتحان فى هذه السنة، لم تكن حالته تسمح بذلك.

ولكن فى السنة التالية كانت هذه الحالة تسمح بأن ينزل سالم للعمل.

\*\*\*

وبسما كان الياشكاتب يتابع مع قوزية حالة سالم وجد الوقت أيضا ليفعل أشياء أخرى مؤجلة، كان عزمه قد استقر منذ ليلة المولد. جلت به ليلتها سكية فتفحصها طويلا وهو يتصبر مع جبراته فى تلك الليلة من المحبة الخاصة، ثم يكرز برود آياتنا من الشعر ويسمعها فحسب، ولكنه كان يسترد عافية نفسه.

فى أول خميس استطاع فيه الخروج ذهب لقاء، تازلى وجلسا معا كصديقين غايا عن بعضهما لفترة، أحسنه تازلى نفساني بشأن صحته وزودته باسم الطبيب الكبير الذى أصبح بعد ذلك يتابع حالته، قالت بلهجة جازمة:

- هو أحسن طبيب فى البلد فاسمع كلامه يا توفيق.. وحاسب على نفسك. لم تعد صغيرا!

وكان هو يعرف أنه قد أصبح كبيراً جداً، لمي السنين الأخيرتين ظل يضاف  
على موت الناس بحكم العادة لا أكثر. وإضافة أن يقضي الوقت في الشرقة عن  
قضاياها ومشاكلها مع الحامين ومع أبنائها. مرد ج. العشق بعد ذلك أو فت.  
ثم يصعبه وفنونه لا شيء فيه من حرارة الزمان القديم. كعاد لقاء الجميع أن  
يقصر على الشرقة حتى لم كانت لدى الياسكايب الرغبة، وحتى لو توافرت القدرة  
التي أصبحت تزداد صعوبة أسبوعاً بعد الآخر.

لزم الياسكايب الصمت فترة وهو يشغل وجهه نازلي الذي أجرت له عملية شد  
جند فاصبحت بمثابة الضمير أو الصعيرتان كخوزنيل لا حرماني. ثم غاب بهدوء  
وهو يتنفس:

« وما رأيك يا بنت الناس... »

لم يكمل كلامه لكن نازلي قالت بلطفة: عموك أشغال من عموي

« أنت تعرفين ما كنت أريد أن أقوله؟ »

فايستم وعادت تتكلم بنبرتها الهادية الهاسية

« بلطف يا توفيق! من بدة أعرف أنك تريد أن تقول: « وأنا كذلك. »

ثم هزت رأسها وقالت بأسف: أصبحنا عجوزين!

وبعيت تشعبه وهي تضع يدها فوق يده: ولكن ليس شروطين!

فاجأة ودعا بالتمهل. كان قد فكر قليلاً كثيراً كيف يصاردها.. شعر بكثير من  
الإفراج والارتباك مضافة أن يخرج مشاعرها بعد « عشرة » هذه السنين الطويلة.  
لكن نازلي أثبت أصداءه بكمين وأبداً.. ثم ين في وجهها أي جرح حقيقي.  
تصرعت بحسب يستغرق عن شخص غابته بالمصادفة. ليست غفلتها على أي  
حال!

وكانت « شروطينها » بسيطة هذه المرة: أن يتم الطلاق كتابياً أيضاً وأمام شهود  
وأن يسجل فيه أنه ليس لأي منهما حقوق لدى الآخر.

لم يملك الياسكايب نفسه فقال ضاحكاً: يا نازلي ماثم هذا ليس طلاقاً. هذا  
رد كميالة (مخالعة):

قودت دون أن تشعرك: شعلتك ومصلحتي يا توفيق.

وبعد أن انقضى على موعد الطلاق والشهود، قالت نازلي وهي تنظر حولها:

« على فكرة، يمكنك أن تطلب «حقوا» كبيراً لهذه الشقة، الموقع مطلوب.

مستند الإيجار الذي دفعته طول هذه السنين، وربما أكثر.

جال الياسكايب بفكرة في الشقة ولم يرد. ظل ينظر إلى نازلي وهو يفكر: هل  
يقدر المرحوم المسجد على المال الأرواح أم أن الأرواح نسبة من أصل في التي  
تتكاثر على المال بهذا الضرع؟ وهل موات الأرواح يعني؟.. لا. هي لم تفرض  
نفسها على. بل أنا التي سحيت ورامها. فهل تنتشر الأرواح عن عبد كذا تنتشر  
الأجساد؟ ولماذا؟ كذاي كنت أبحث عنها لكن أقرب في الوقت ومن الوقت. أكم  
أسمع من أبو خطوة أن العاقل من يمر على الأوقات لا التي تمر به الأوقات؟ من  
يعلمها لا من تحكيه؟ وأنا لم تمر بي الأوقات فحسب. بل تركتها تزحف بي عمرا  
الشعت أمامه واتعدت أمداده. حتى أعذاري الوجيبة لم تكن في العلق وجيبة.  
لكن لن أفاق. - استنظر ألا أشتي الدنيا لا توجه بده نقيباً خائفاً. ولكن كيف  
توقعت أن يأتي هذا اللقاء؟ لماذا لم تكن تصبر أبداً على غشاك واستطال  
هبرك على غشا روحك؟ ولماذا مثلاً لا تنظي روح نازلي؟ وهل هي تعرف أصلاً أن  
هناك قلعة الروح؟

عندما كان عاطف - أو سلوم - في الرابعة من عمره تقريبا رجعت فوزية إلى بيت الأسرة بمسبة ولدا . لم تكن تلك هي المرة الأولى في الفترة الأخيرة . تذكر محبتهم وبينهما ليلة أو ليلتين أو أكثر . في البدء كانت تقول إنها اختلعت لهم أو إنها تريد أن تربي - وحياتها قليلا لأنها لا تظمن شعاعا إلى عمل السخاية التي أصبحت تأتي مرة واحدة كل أسبوع . ولكن فوزية لم تكن ترجع إلى بيتها إلا بعد أن ينكح فراج لأصطحابها . وفيهم الجميع ما يجري دون حاجة إلى كلام . ولكنهم سكتوا لأن فوزية لم تشأ أن تقول شيئا .

كان فراج يأتي في العادة متجهما . يجلس لفترة مع الجد . ومع شعبان أو سالم إن كانا موجودا . بينما تختفي فوزية في غرفتها . في تلك الأحوال يجلس مطرقا ويلزم الصمت معظم الوقت مكتفيا بتبادل النحيات والتجاملات . وأحيانا يشكو من ظروف العمل . يقول إن كل الشغل فوق رأسه ولكن لا أحد يقدر . وإن من يحصلون على المكافآت والعلاوات هم مصلحون رئيسي مجلس الإدارة الذين يحطون الإنتاج . لأنهم لا يفعلون شيئا مشروكة ويقومون بعمل خارجها . سألته الماشكاتب مرة كيف يفعلون ذلك وهو ممنوع بحكم قوانين العمل . فنشر فراج نحوه بإشفاق وشرح له أن الدنيا تغيرت . وأن هؤلاء الموظفين يديرون أمورهم - يدفعون العلوم - ويقدمون الهدايا لمراسلهم ليسمحوا لهم بالتفرغ لأعمالهم الخارجية ولأرسالهم أيضا في بعثات للبلاد العربية . واعتادوا أن يتركوا فراج يتكلم أو يصمت كما يشاء وهم يعرفون كيف سينتهي ذلك كله - فيعلم أن يشرب الشاي يسأل : أين فوزية ؟ وينادي عليها جدها أو يخرج أخوها أو

ثوبك يا حضرة الماشكاتبيا ها هو ضلال آخر! هل اكتشفتنا إلى الآن  
فبدلاً قد تكون أفضل من ذلك على الأقل هي لم تفعل شيئاً تحتقد في قوادة نفسها  
أنه خطية . ولم تصمم هي على أن يكون هناك زواج واليهام إن كنت أنت تظن  
في الرحمة رغم كل خطاياك فلماذا تفسن بها على ماؤلى؟ لا . إن أردت أن أطوي  
عنه الصبغة فيجب ألا ألوم ماؤلى على شيء أبداً . بل ربما كان يجب أن أطلب  
منها الصبر .

سألته ماؤلى حين طالت صيته:

- لماذا تنظر إلى كائنك لا ترائي؟ فبم تفكر يا تولى؟

فقال بهنو: في الطلاق.

\*\*\*

أيوها لاستعداداتها ، فتأتي وتلقى بواب الغرفة مطرقة وهي تشبك يديها أمام حجرها أو وهي تدفع أمامها طفلها الصغير الذي يجري نحو حوض أبيه في نسخة كبيرة ، بمجرد أن يراه ، ويقول فراج عسا ، دون أن يخطر ببالها كلمة واحدة « اليس » .

ومع أن طورية لم تحدث أحداً عن أسباب خلافاتها مع زوجها فقد كان يفهمها أن مرتبة لم يعد يكفي مصاريف البيت حتى منتصف الشهر - وأن الذين الذين تراكت عليه كانت سبباً مستمراً في اتهامه لإزواجه بالإنفاق وعدم التدبير ، كانت غير كريمة تحسبها له بالورقة والظلم وهي تكي ، ولم يكن يقتنع ، وفي هذه المرة طال بقاء طورية مع ابنتها في البيت ، لم يأت فراج لاستقبالها بعد يومين أو ثلاثة ولا أسبوعين أو ثلاثة ، ولم يكن هناك من رجالها من يستطيع مساعدتها .

اعتقد (شعبان) أن مبلغ الكبير الذي حصل عليه مقابل تلجير الزاوية لباتع السيمانر سيكفي إلى جانب التلج الذي يدره محل القماش ليعيشوا حياة معقولة . وتغال كثيرا فاعتقد بإمكان عودة أيام الرخاء القديم ، غير أنه اكتشف بعد قليل أن الغلاء يسبق أي مبلغ يمكن له تدبيره ، وبعد أن ضاعت مذكرات الباشيكاتب وأصبح عليه يكفي بالكاد لإعلاجه ، نشأت مشكلة حفرية في نفطه بمصاريف السب ، ولكن فقد فصح أن يجد وسيلة لتسليم في مقدمه أمريكي ففاجأ فتح بالقرب من ميدان السيدة بعد شهر من شقائه .

عمل سامح كاتب حذبات في المتجر ، وأغناه هذا من ليس الدلاقية البيضاء المفضلة التي تستهني بغيره ، ولكنه مع ستره زفاف ، إذ كان يعمل في ركن داخلي صغير ، يكتفي بالتقديم فقط والمكتب الذي يشتغل فيه ، وارتاح إلى مدير المتجر كثيراً ، كانت حسابات في غاية الدقة والامتانة ، كما أنه لم يكن بحاجة إلى

تعليمات المدير التي يوجب بها زملاؤه طول الوقت لامتثال الحسنة الكامل والتركيز على العمل لهذا نجح سالم وحده من الطود خلال ستة أشهر ، على عكس بقية زملائه الذين التحقوا معه بالعمل في وقت واحد ، لم يكن المدير يحب التعامل مع مكتب العمل ، ولكنه أدرك حاجته إلى سالم الذي بدا أيضاً أنه لا يعرف أي شئ من هذا المكتب .

كانت المصاغة قريبة من البيت إلى المتجر مما وفر مصاريف المواصلات وتم يكن سالم يخطن أو يحتاج إلى صرف أي نقود فاعشاد أن يساهم بمرتبه كنه نفوساً في البيت ، بعد أن يقطع جزءاً من هذا المربح الصغير ليعطيه للزوجة ،

حكته له أنشء بعد شقائه كل شئ من فوموسيا مع فراج - قالت له إنه كلما ساءت حالته في العمل بسبب مكافئ زملائه الذين يلتصقون عليه عب العمل كنه ويحصلون زخدهم على العلاوات والمكافآت ، كلما تكد عليها يعيشتها في البيت ، قالت إنها تملك من فراج أن يمسك بنفسه بصروف البيت ليرى كيف يمكن تدبير العيشة بالمزوت حتى آخر الشهر ليرد بأن هذا « شغل الستاد » ، أمة اعتادت أن تعبر بيتها وتوفر مصاريف تعليمه بأقل من المبلغ الذي يعطيه لها .

وبسارحة طورية أخاها بساطونية ، هي تعتقد أن فراج يفتعل كل هذه الشاجرات لأنه يريد أن يخرج من موضة لها مرتب ، لم يعد مرتبه وحده يكفي للعيشة ، وبعد أن كان متشديداً في أن زوجته يجب أن تلتزم في البيت لتربية الأولاد أصبح يعبرها بأن شهادتها الإقتصادية لا تنفع لأن تشتغل في أي وظيفة .

فأجاب أخيه في سرارة - بدلاً من أن يشد حبله ويبعث عن عمل على تانكس بعد الظهور أو أي شغل إضافي مثل شغلك وسيل طبخة خلق الله فهو يدق نفسه ليل نهار في الوظيفة (الهياب) ويعبرني بيتي لا أعمل -

أصبح سالم ، بعد العلاج ، يضمن الاستماع دون أى تعليق ، تتصاعف صيته القديم وأصبح يحدد يتركيز فيمن يحدثه فيعتقد أنه يصغي إلى كل حرف ، لهذا أحبه زملائه في العمل وصار موضع أسرارهم جميعا ، كان ينسى هذه الأسرار بسرعة بعد الاستماع اليها ولا يلجأ اليها حتى لصاحبها فيعتقد أن هذه مبالغة في الكتمان ، ولكن في هذه المرة بعد أن استمع إلى شكوى فوزية قال يهودى والبسمة الثانية على شفثية :

- كان رأيي منذ البداية أن هذا الزواج غلطة يا فوزية - لانا وافقت عليه ؟

تحولت وجهها عن أخيها وانهمكت في ترتيب ملابس سلوم .

لا تستطيع أن تقول لسالم ، هي نفسها لا تعرف كيف حدث ما حدث - كانت تزد صاحبة لها في البيت الذي يسكنه علاج ، زارتها قبل ذلك مرات كثيرة دون أن يخسر بيالها أى شيء - اشبهت في وهو أن يلتقي خارج الحي ، في أماكن بعيدة عن الأنظار - وفي هذه المرة وهي تغزل من عند صاحبيتها وجدته يظف بالمصادقة أمام باب شقته المفروح وكان السلم خائبا فابتسمت وابتسم - هي لا تعرف ولا تفكر بالضبط ما بعد ، تذكر فقط أن زعمه كان يفوق زعمها وأنه راج يلطم خذه .

الفتت مع ذلك نحو سالم وفاتك بلهجة هائلة ، تكاد تكون مستسلعة :

- لاني أحببت ، لاني أحبه .

\*\*\*

جلس الباشكاشي في مخها القديم بعد أن أدى صلاة الظهر في مسجد السيدة - أصبح يمر على المنفى كل يوم في هذا الموعد الذي يكون فيه شعبان وسالم في العمل وتكون فوزية مشغولة بإعداد الطعام .

اعتاد أن يصحو في الفجر ليصلى ثم يقضى بعد ذلك وقتا طويلا في قراءة الكتب ، كان يقوؤها بتركيز وتعن حتى كان أن يحفظها كلها ، لم يترك وصية من وصاياها في العبادة أو السلوك إلا ونفذها بكل دقة ، أدرك أنه يطلب شيئا كبيرا ، يهون في سبيله كل ما يبدل ، وسلم يئن أيا كان ما يبذله لأن جهول قليل بعد أن بدد عمره في التواخي والمعاصي ولكن صديقه قال له يوما إنه حتى العنصية تستغفر لصاحبها إن أتى طائعا وبنينا ، فهل يتقبل منه بعد كل ما سلف ثم ما هو ذلك الذي يظنيه بالصميم ؟ ما هي تلك البشرية الموعودة ؟ ألا يكفي أن يطلب من ربه المغفرة ؟ يكفي ويريد ، بل هي في حالته فضل وتبعية من الله ، وفكر ساخرا من نفسه : أم تريد حظا يا توفيق يا ابن السعدى بعد كل ما فعلته في حيات أن تكون من الأولياء الصالحين ؟ ولكن لابد مع ذلك من حكمة في تشبيه تلك البشرية الغامضة التي حدثها عنها صديقه ، الحكمة هي أن تتواضع أن تتعلم ما قاله لك ، أن تريد ألا تريد ، ولكن كيف ؟

كان يجلس ممسكا بعصاه بيديه الاثنين ومبشدا عليهما بذكره وهو يتطلع إلى الميدان - سرح بفكره وهو ينظر إلى السجيل الغلق الذي يواجهه وابتسم لنفسه لأنه ظل طول عمره يحاول قراءة آيات الشعر الطموسية المحفورة في أعلى واجهة السجيل دون أن ينجح ! استطاع بعد جهد على مر السنين أن يدخل البيت الأول - سجيل الله يا عستان فاشرب ، فنبنا صاميا بسفي العليلا ، لكنه توقف بعد مطلع البيت الثاني - أنا ظمآن قارون ... وظل ما بعده حروفا مبعثرة كالمفلاسم - لكنه يحب النظر إلى هذا السجيل ، يتخيل زمانا لم يكن فيه هذا البناء المهجور الرمادي اللون وكانت تحف بنباتات الشعر على الواجهة الزخارف من أمخ أوراق الشجر وتضكلات الأوراق والتفرش المونة كفافها تحيي كل قاصد للسبيل .



هو يحييه حتى على حاله الآن . يجب كل شيء في هذا المكان . يذكر فرخته عندما كان يهل على الزين بعد غيبة أثناء عمله في أسبوط أو المتصورة . فرخته عندما يرى من بعيد اثنية والثلاثة السابقة بشرافاتها المتحدة . زحمة الناس حول الثفاخ الطاهر . يخفق قلبه ويود لو يصالح كل إنسان دون تمييز . التارة في الثنوارع . وأعجاب إحلات . والياعة الجالسين على الأرضة . وحتى عمال الترام في الكش الذي يتوسط الميدان والوافدين حوته . يريد أن يقول للجميع : إن رجعت . ومارال حتى الآن . بعد أن أصبح بالفعل يتوكة على العصا التي كان يمسكها من قبل على سبيل الأناقة . لا يستطيع أن يحتل يوما دون ضوضاء هذا المكان وناله . لا يشعر أنه يعيش حقا إلا حين يراهم . لو أمكن أن يدلفوه بعد موته تحت أسطحت هذا المكان !

توقف الياشكايب ليمسح نفسه ! كيف وهو ممكئ ياندشيا إلى هذا الحد سيصل إلى العلة والظرة التي تقول الكتب ألا وسول بدويهما . ولكن أبو حنوة قال له خذ من هذه الكتب ما يوافقك . ستتعلم وحدك ما الذي شأفته منها وما الذي نرتكه لأن طريقك لم يعيده لك غيورك . لا ترفع نفسك بالتفكير فسيأتي كل شيء في حيله .

وضع جابر فتجان القهوة أمام الياشكايب المستغرق في أفكاره وهو يسأله مبتسما .

- مازلت غافقيا على يا حضرة الياشكايب ؟

فايتسم بوجهه وهو يرد عليه : قلت لك يا جابر مائة مرة بسمبارك ليخضر والمقارل الذي جاء به اليرم البيت أكمل المهمة . وبعد بلن ينهي العمل في شهرين فاستمر أكثر من سنتين . ولكن ماذا أفعل ؟ وبنا يسامحك ؟

قال جابر مقتظاها بالأسى : والله يا حضرة الياشكايب أنا أردت أن أخدم ولكن ما العمل ؟ أنت رجل شيب والناس في هذه البنية إما أكل أو فاكول ..

رفع الياشكايب فتجان القهوة بيده المرتعشة وهو يسأله وأنت يا جابر . أكل أو فاكول ؟

أشار جابر إلى جيباه ومزوره (الزموه) الممزق وهو يقول :

- انظر بنفسك حضرتك واحكم !

أشار الياشكايب بدوره إلى فم جابر الذي كان يستحب شيئا وسأله :

- فلماذا إذن يا جابر تصرفت قرطك على هذا ؟

رد جابر دون أن يهتز : أنا يا أسفا في النهار الواحد ألف هذا الميدان الواسع على رجلى عشر مرات دون أن أترك المقهى . أفضل يانهار وأقبل كالمشوك وراء طلبات الزين حتى تورمت قميصي كما ترى . فلماذا أفعل لأحتمال هذا العذاب ؟

- وما الذي وفك على هذا العذاب ؟

- شائبة أولاد وأهم .

- ألم يغير أحد من أولادك حتى الآن ليريدك من العمل ؟

- كهم كبيروا يا أسفا . منهم من شلم وأفلح واشتغل . ومنهم من خراب ولكنهم جميعا عازالوا يدعون أيديهم إلى جابر الغليان :

تذكر الياشكايب عبوات كيف الملقوفة من ورق السلوفان وحكاية الدولارات والسببار الذي أهلكه فقال ضاحكا :

- أنت غليان يا رجل يا حسالي ؟ ماذا يستقول زينا يوم يلفاك ؟ فكر لأن حكايتنا أنا وأنت قريت !

ولما جاء رد جابر حين قال بأب شديد وهو يمسح الطاولة بمشطته :

- سارو شك يا حضرة الياشكاتب :

ثم قال وهو يرفع الغلبان متأهبا للانصراف :

- أنا في هذا العمل يا أستاذ منذ أن كنت صبية صغيرا ، وروى على هذا كل أصناف الناس ، رأيت الكبار والشبان والصبيان والفجار والناس الطيبين الذين يعملون الخير في السر ، والذين يظهرون أنهم شبيعون ويبتلون حال الفجر ، فإذا كنت أنا جابر الغلبان أستطيع أن أؤمن بينهم فما بالك ؟

ورفع يده الخالية نحو السماء - ثم أكمل بشحكة وهو يريش بعففيه :

- ولكن سبطني يا أستاذ - أنا بالقلع غلبان !

وانصرف عن الياشكاتب وهو يصفك -

قال توفيق لنفسه بعد أن ابتعد جابر : متعاقبل - موعظة بوعظة ! ولكن موعظة جابر أقوى بالفعل يا حضرة الياشكاتب ! فعن يعرف الطوب حقا غير مولاك ومولاه ؟ هل أزدهان الكبير الآن لأنك دخلت في طاعة شريفة بعد طول عصيانية ؟ إن يكن ذلك فقد شككت بأخ توفيق - مائة مرة قلت له نواضع ! نواضع !

نادي جابر ليدفع له الصاب وعندما جاء قال له يقلب مثلك :

- سامحني يا جابر على ما قلته لك -

تراجع جابر خطوة وقال : استغفر الله يا حضرة الياشكاتب ؟ أنا أسامحك !

أنا لم أقل لك إني وافي ! قلت لك أنا غلبان !

ثم راح يضحك لقال الياشكاتب : إنني فسامحني يا غلبان :

رفع جابر يديه معا وهو يقول : ربنا سامحنا نحن الاثنين لأن حكايتنا قربت ! وضحك من جديد ، لمضحك له الياشكاتب ولكن قلبه ظل مثقلا .

\*\*\*

- ١٨٦ -

عندما رجع الياشكاتب إلى البيت كان مجهدا وقلقا لكنه وضع على فمه الانسامة التي يلقي بها فوزية وشكلها ، كان يحاول كل ما يستطيعه ليخفف عن حقيقته إحصائها بالهزيمة ، اتحنى على الصليب وقبله ، لم يعد يستطيع أن يخطه ، رفع سلوم يده القصيرة محاولا أن يتخس جيب الياشكاتب وهو يسأل : فمن اللبس يا جدي ؟ فوضع الياشكاتب يده على جيبه وهو يقول للصغير - أولا ، سمعت كلام ماما أو عنبشها زى كل يوم ؟ قال سلوم وهو يشب على قدميه ليتخس الجيب بلهفة : - سمعت الكلام - سمعت الكلام - هات اثليل ! -

أعطاه قطع الحلوى فيجرب سلوم ميتعدا وهو يهتل ويقول : لكن يايا أنسني ملك ! بابا حلو وأنت عيجوز ! -

ضحك الياشكاتب وهو يتطلع إلى فوزية بعين مستلهمة فهمست : - مثل كل يوم - يصعدني كل دقيقة بالسؤال عن أبيه وعنى ستويع إلى بيتنا -

ثم قالت لجدها يا بتسامة صغيرة : أنت تقرا كتبنا فديمة كثيرة يا جدي ، ألم تجد في أي كتاب منها طريقة تحمل بها عملا بعيد إلى فراخ عقله ؟ عمل نضعه له تحت عتبة الباب أو في ثيل قرووط ؟

أبتسم جدها وهو يقول : هذه ليست كتبنا في السحر يا فوزية -

فقال وهي تتجه للمطبخ : وأين إذن تجد كتب السحر ؟ - ففكر إلى أن أنه لك الخد !

لم يتخس الياشكاتب كثيرا ، أصبح لحداده ملا طعم بعد حرمانه من الأرض الذي لم يكن يعتبر أي طعام بدونه وجبة حقيقية - وبعد منه من الملح والثوابل ولكنه اعتاد أن ياكل أي شيء تقدمه له فوزية لكي يبدل بطنه ويخام قلوبته -

وفي مساء ذلك اليوم كانت الأسرة كلها مجتمعة على العشاء وراحتوا يزورون ضمامهم في صمت - يبتسرو الانجهاز على وجه سالم وشعيران والرجوم على وجه

فوزية ، وكان الباشكاتب شاعرا أكثر من المعتاد ولكنه قطع الصمت فجاء وهو يقول لشعبان :

- رأيت اليوم منك في المنام ، رأيت زحاما كثيرا ورأيت تشغولا جدا في تلبية طلبات زبائنك .

قال شعبان: دون أن يرفع رأسه عن طبقه : أسمع منك وبنا يا والدی ، الحال واقف تماما هذه الأيام ، لولا إيجار محل السجائر لأفلستا من زمن .

قالت فوزية وفي صوتها نبرة خفيفة من المزاح : ألم تحلم شيئا أيضا عن زوجي المجنون يا جدی ؟

فهرز رأسه وقال بعد لحظة صمت : ربما ينتهي يوم الخميس ..

ثم انفتحت نحو حفيضة مكلا : وبجسنا أيضا يا فوزية أن تعطى شعرك - رأيتني في المشرق قبل أيام وقد أشق لحبيبتك . ربما لا يجب الآن أن نكتسفي شعرك -

نفضت فوزية عن القناع : لم يشك قبل اليوم من شعري يا جدی ، المشكلة الآن أنه يريد زوجة يوتوب ، ولكن قريبة حكاية أنه ربي نقتله !

\*\*\*

مع ذلك عندما خرجت فوزية في اليوم التالي لتشترى لوازم البيت وضعت غطاء على شعرها

وفي المساء عاد شعبان إلى البيت متعبا ، قبل يد والده في حوازة وامشأت وهو يقول : جاشي اليوم يا أبي طليان كبييرات لأقمشة أزياء مدارس في الحي - طليان لا طلب واحد يا أبي ؟

وقال لأبيه في حماس : أحلامك أحلام الصالحين يا والدی ، أنت رجل ميوكة ! ثم أنه في يوم الخميس التالي زارهم قراج بعد غيبة شهر .

لم يكن هناك شهيد لحبيبتك ففوجئت به قوزية وهي تفتح الباب ، تعلق سلا يعق والده وهو يصيح صيحات عالية ، وأشارت قوزية صباثة إلى غرفة الجلوس ثم انسحبت إلى غرفتها .

جلس الرجال معا دون أن يبدا أيهم الكلام ، كان شعبان وسالم ينظران إلى قراج يفكران تذكر هذا الموقف كثيرا من قبل ، أما الباشكاتب فقال وفي صوته نبرة من العتاب الرقيق : موهيا يا قراج ، لم تترك منذ مدة .

لم يرد قراج على الفور ، أخذ يبحث قليلا يلحظه الجديدة قبل أن يقول - هي الواقع إنما كنت أفكر في حالنا أما ولموزية ، لا يمكن يا حضرة الباشكاتب أن تستمر الأمور على هذا الحال .

قال شعبان بشيء من القسوة : إذن يا ابني كما نطقنا بالمعروف نطرح بالمعروف ، أينما يوجد لك ..

قاطعه الباشكاتب : انتظر لحظة يا شعبان ، هل هذا هو ما تريد يا قراج ؟ تشجع قراج وقال : لا ، كيف ؟ وعاطف هذا ؟

ثم أنزل الصغير من على حجره وقال : هل يمكن أن نتكلم على راحتنا ؟ حمل شعبان حفيضة رغم صراخه وبكائه وأعطاه لأمه وعين رجع كان الباشكاتب يقول : .. هذا مفهوم يا ابني ولكن ما باليد حيلة ، أنت ترى حالتنا الآن .. ثم تعلق إلى والده وأكمل : يقول قراج إنه علم فوزية بالفعل عندما ذهب بالتبذير ، وإن مرفقه لا يكتفي بالفعل ليغطي مصاريف الشهر .

قال شعبان : وماذا بيدنا نحن أن نفعله يا سيد قراج ؟ هذا حال كل الناس ، ربما لو بحثت عن عمل آخر ..

قال سالم ، الذي كان صامتا طوال الوقت ، بصوت هادئ : ما هو المطلب المطلوب يا أستاذ قراج ؟

رد زوج أخته محتجاً وقد أحمر وجهه : أنا لم أت لأتسول يا أسنان  
سالم !

وبدأ يلحش بالباشكاتب قائلا : سالم لا يلحد هذا بالطبع .

لكن فراج أكمل بغيره المحتجة : مع ذلك لا يصح الكلام بهذه الطريقة ! بمعنى  
هذه حالة طارئة . ستتحسن الأمور قريباً بإذن الله . أنا تقدمت لإعارة إلى  
السعودية وسيفتني ربنا هذه المرة إن شاء الله . وأي مساعدة حتى تنهي الإعارة  
ستكون دينا على بالطبع .

قال سالم بالهدوء نفسه : ليست دينا . بما أن لوزية لا تشتغل فينبغي أن يكون  
لها دخل كل شهر . أنا سأعطيه نصف مرتبي .

نظر الجميع نحوه في دهشة . بمن قبيح فراج . وقال شعبان محتجاً :

- وكيف ستصرف نحن في البيت ؟ أنت تعرف أن مرتبك يسد قى ..

لكن الباشكاتب وقع يده يسكت ولكنه وهو يقول : بآرك الله فيك يا سالم .

نحن نستطيع أن نتحمل يا شعبان . سندير أمورنا بإذن الله .

وقال فراج مؤكداً : ومع ذلك فسأعثره دينا حتى الإعارة .

قال شعبان : مفهوم . ولكن أرجو يا أسنان فراج من أجل ابنك الصغير ألا  
تكرر هذه الحكاية .

فرد فراج : إن شاء الله لن تكرر . لم يكن يبدى .

وقال الباشكاتب وهو يتطلع إلى السقف :

- لا تحمل همأ يا شعبان . هذه الحكاية لن تكرر .

وكان يتكلم بلهجة واثقة تماما .

وعندما رأى فراج فوزية وقد غطت شعرها استعداداً للخروج معه . قال وهو  
يشير إلى رأسها في إجابته ورؤس :

- ما شاء الله ! عين العقل !

وبعد أن خرجت فوزية مع زوجها وابنتها . التفت شعبان نحو والده وقال في  
المنهاج :

- يوم الخميس يا حضرة الباشكاتب كما قلت حضرتك بالضيض ! ثلغنا الله  
ببركتك !

قال الباشكاتب شامداً :

- البركة في سالم .

لكنه سأل وهو يكاد يرتجف :

- هل هذا صحيح ؟

\*\*\*

جلس الدكتور شوكت في (كافيتيريا) المطار ينتظر الطائرة القادمة من روما التي تغترب كعادتها . ففكر أنه لن يستطيع الآن أن يذهب إلى عيادته ويرجع إلى المطار لأنها لن تتأخر ، كما قيل ، غير ساعة ونصف . ساعت الليلة وعندما تصل الطائرة ويصحب ابنه حتى البيت سيكون الوقت متأخر جدا . قال للمرضى على أية حال إنه سيتأخر عن موعد . وتستطيع المريضات الانتظار أو الانصراف . عودته على احترام النظام والوقت . لا يستطيع أي مريضة تتأخر عن موعدها دقيقة واحدة . لا بد من شيء من التأخير في هذا البلد . ولكن المسألة ليست بيده هذه المرة . إن كل عائلات فيسبشرون ، لا داعي حتى لأن يكلم الممرضة . ثم أين يمكن أن يجد الطبيب في هذه القوضى الشاملة في المطار؟ جوب ذات مرة أن يجد حين عاد من إحدى رحلاته فلم يفلح . كل شيء فوق في هذا البلد . ربما كان يجب أن يسافر هو إلى روما بدلا من ابني . لديه ما يكفي ليعيش هناك . لا إلى لندن بالطبع . لن يجد مشكلة في أن يعمل هناك ولكن ماذا عن ابني؟ إن كانت لم تنجح في روما فهل تحتل الحياة في لندن؟

لم يكن هناك كثير من الزبائن في الكافيتيريا ، معهم حتى قهقهتهم مقولة : رأى غير الواجبة الزجاجية المستقبلين يتكلمون في صلاة الانتظار . معظمهم بلبيسون الجلابيب وينظرون أقاربهم القادمين من الخليج . يا عمال العالم اتحدوا ! أهلا وسهلا ! ترى كيف يتحد عمال الخليج مع إخوانهم من الفلاحين والصيادين؟ بالصبر القديمة : وأهم بحينة هناك . في أحد المظاهرات وأهم يقرضون على الأرض في صفوف وأمامهم شرطى يسلك عصا ليمس أي واحد من النهوض أو الحركة !

لم يأت الأخ ماركس إلى هنا ليرى ويتعلم : كان سيقول شيئا مخطئا بالتأكيد . مثلاً يا عمال العالم اتحدوا ! هذا هو الحل المتأخر بالفعل . الطريقة الوحيدة لتغييره على التفكير في التغيير على الفور . لا مشكلة لأنه هناك من في مدينة هؤلاء النساء . سمدعي النفس بالنداء بالوضع الزملاء الذين يدخلون السجن ويخرجون منه كالمكوك بعشيمورتي خائفا لو سمعوا هذا الكلام . هم بعشيمورتي خائفا دون أن يسمعون . يمكن . أثرت لهم بكل أرباح السجن والفقر ونحوه أخارج دوني .

ولكن انتظر لحظة يا شوكت أنت كنت أوستقراطيا مثل صفاء هاتم . ربما بعض هؤلاء العمال الواقفين هناك من أقربائك الذين لا تعرفهم . ليس لجدة إن أباك الثولي الفلاح شرج من أمك التركية أصبحت أنت من جنس آخر . ثم إنك لا تعرف أي شيء عن أمك التركية هذه . ليس لك أخوال أو خالات . فهل صحيح يا سمعته أنها كانت خادمة جلبوها من استانبول ليبت صاحب العزبة ؟ يقولون إنهم يريدون أكل هذا شيء أقرأ أنه . فهم . يا وركت أخاك الشعر الأصفر والعيون الملونة والجمال الأبيض الذي يحب فينا هذا البلد فتزوجها أنت المرحومين . سمعته كرا روميه في منبجة حماماته في الخارج . أم . ليس فلفل كل صلة له بالخوانة وأقربائه عند ما خرج إلى القاهرة وعمل في سمسة الطائر . لا أعرف أي شيء أقرباء ولكن أنا لا يتخفى من يكون أبي أو أمي أو أقربائي . أنا شوكت ابن شوكت ! أنا الذي صلت نفسي ولا فضل لأحد على لم أرت أرفضا ولا مالا ولم يساعني حال ولا حد . لا فضل لمخترق على فينا وصلت إليه . أنا بالفضل شوكت ابن شوكت ومن حق أن أنتظر بذلك !

ولكن ها هو شيء جديد في الكافيتيريا امرأة جميلة وأنيقة وشمل في يدها باقة ورد تابعها بنظره إلى أن جلست قبالة على متحدة بعيدة ثم تجمعت عضلات وجهه فجأة وهو يتأملها بالضح . نعم . هي صفاء هاتم . لا أحد غيرها !

حول وجهه بسرعة إلى ناحية أخرى - هو لم يرها ولا حتى بالمصادفة منذ  
الطلاق - الحسن الخط ، تعتمد كلاهما أن يتجنب الآخر - حتى في روما كان يتعمق  
زياراته مع لبني لكي لا يلتقيا هناك - ولكن كان يجب مع ذلك أن يتوقع أنها ستأتي  
الكثيرة كيف غاب عن ذهنه هذا الاحتمال؟ وما الغفوية؟ في في حالها وهو في  
حالها ، يمكن حتى أن يخرج من الكافيتيريا إكراما لمطاطرها؛  
مع ذلك الشمس ينظره تحوها في حذر شديد ، كانت تفتح كشفا وتقرؤه  
بانهمك شديد وعلى المائدة بأفة الورود -

فكر - طلبها الهاتم لا تقوتها الأصول؛ بقى الأصول تعرف للأصول ؛ ولكن هل  
تنبط الخيانة الزوجية ضمن هذه الأصول ؟ مظهرها بريئة جدا وهي تجلس هناك  
منهمكة في القراءة - بريئة جدا وجميلة جدا مثلما كانت طول عمرها - مثل حكاية  
دوربان جراي - لا بد أن لديها مثلها صورة في البيت يرسم عليها بشاعشها  
والخللاها بينما تحتفظ في بقاع هذا الوجه البرئ ؛ وإلا فهناك ظلم في أن يظن  
وجهها بهذه النعامة والجمال حتى هذه السن ؛ ولكن لا أراها عن قرب - ربما  
كانت هناك تحتاج في الوجه - لا يمكن أن تهرب من الزمن -

في هذه الليلة رفعت صفاء وجهها والتفت عيناها بعينيه ، ثم بيد أنها فوجئت ،  
ظلت تنظر تحوها ثم عزت رأسها بإياعة خفيفة - أو ما - هو رأسه بعصبية ثم حول  
وجهه على الفور - الهاتم مهذبة أيضا " الكنية يجب أن أترك لها هذا المكان على  
الفور ، أنرك هذه الكافيتيريا البضعة واتحد هناك مع عمال العالم " يمكن احتمال  
روائحهم وأصواتهم المزجة أكثر من الوجود مع هذه الهاتم في مكان واحد

وكان بهم بأن يقوم عندما وجد صفاء تقف أمامه وهي تقول بابتسامة  
صغيرة:

- مساء الخير -

ظل يعتمد يديه على المنضدة وقد نهض بجذعه وهو يتطلع نحوها ثم عاد إلى  
الجلوس وهو يقول بلهجة جافة:

- مساء الخير - خيرا؟

- لن أأخذ من وقتك دقيقة ، هل يمكن أن أجلس ؟

أشرب إلى منضدتها التي تركت فوقها كتابها ولباقة الزهر ليرفهم أنها  
مترجم إلى مكانها - لم يرد شوكت ولكنها كانت قد سمحت كرسيها وحسنت  
بحركتها الرشيفة بمساعدة قليلا عن المنضدة وبدأت تحدث بلهجة عذبة جدا -

- كنت أريد أن أقترح عليك شيئا - إذا وافقت يمكن أن نستقبل لبني معا بدلا  
من أن نقابلها بالورود - أعرف أن هذا سيسعدنا ، لا ، هذه كلمة كبيرة ، أفقدت  
على الأقل سنحفيها من الإحراج والارتباك -

لا توجد تعاضد في وجهها بقى العرام ! لا بد وأن التعاضد موجودة أيضا في  
صورة دوربان جراي - هذه شيطانة - لا يمكن أن يكون هذا الجمال واليسيرة  
الطساء في هذه السن أوميا -

قال وفي هوته الرخو نبيرة عصبية: جادامت لبني تهلك وشعرصين على  
مشاعرها إلى هذا الحد فاطن أنك كان يجب أن تفكر فيها منذ زمن طويل -  
عندما -

نهضت صفاء وقد احتقن وجهها وهي تقول: أخطأت بالفعل حين تصورت أنك  
يمكن أن نفهم أي شيء ! كان يجب أن أعرف أنك لا تتفهم - حقه على - ثم قامت  
وعادت إلى مكانها بخطوات مسرعة -

لمحت الكتاب وراحت تنظر فيه دون أن تتمكن من قراءة أي شيء قالك لتضمها  
حملك على أنت يا صفاء - لا يهم - فعلت ذلك من أجل لبني - نعم كانت غليظة -  
أعرف - كانت غليظة وما أغنية ذلك على أي حال؟ أراها لبني منا أو تراه أولا ثم

تراها بعيدة. هي تعرف أن كل شئ منته بينهما إلى الأبد، مع ذلك تمسك لو أودع عليها هذه الدقائق من الإحراج. وهي ترى أنها وأباها متباعدين ونفسها إلى أن يصبهما بالدور. أنا أعرف الآن كل جرح لبني. لو أمكن أن أعطيها من جرح واحد جديد مع ذلك فهي لم تعرفه. كذبة ولم تعرف نفسها كذم إلا في رومها. لا تستطيع أن تخفف لنفسها ابتعادها عنها هذه السنين الطويلة. لا تستطيع حتى أن تفهم العيب. هل كانت تهرب منها لأنها ست شوكت؟ وماذا فيها؟ هي في النهاية كما كانت تقول دابة سبية. بنت بطني. البنت الوحيدة. هل كانت تصاب أن تعرف لبني الحقيقة؟ ما للجريمة في هذه الحقيقة؟ صدقني أنفذا بالقتل من الجنون مع شوكت. أنقذها من الانتحار. فبنت شوكت على علاقته من أجل لبني ولكنه أحال حياتها جحيماً منذ أن صارته بحاتها معه. لا تدري هل كان يعاقبها أو يعاقب نفسه لقتله تلك المشاجرات والإهانات المنصورة يوماً بعد يوم. ماذا كانت ستفعل لو لا صدقني؟ ظهر في الوقت المناسب بالاضبط. علوما استولت عليها فكرة الانتحار للهروب من جحيم الحياة مع شوكت.

رأته في البيت لأنه كان يستورد معدات المستشفى من أجل شوكت، وكثيراً ما كان يأتي قبل وصول الدكتور فيجلس معه في انتظاره. وعندما كانت تتكلم كان يميل قليلاً بجسمه النضج ويصمت لها وعلى وجهه تعبير اهتمام واحترام مبالغ فيه فتشرك أن تشوكت. هذا قبل أن تكتشف أنه لا يتكلم هذا الاهتمام. وأنه يعطى كل نفسه بالفعل لن بحثه، سواء كانت هي أو شوكت أو أي إنسان آخر. لم تعرف في حياتها قلباً محباً للناس مثل هذا القلب. وبدأت تنفذ حين يغيب ويستقبله بلهفة حين يأتي. وبدأ هو أيضاً يهرب بنظره منها ويحقق وجهه الأحمر من الأمل حين يتراجها، وسكنت مرة ولما في انتظار شوكت. لماذا لم تتزوج حتى الآن يا صدقني؟ فكشاً إلى صليته ووضع يده على كرشه وقال ومن التي ترفض بي يا دكتورة صفاء؟ فقال بون تفكير. أنا

لا. هي ليست نائمة. صدقني هو أفضل شئ حدث في حياتها بعد لبني. وكان عزمها قد استقر على الطلاق وانفقت عليه مع صدقني من قول تمسك شوكت، ولم عليها بهذه التمشية أشياء كثيرة. لكنه حرمها من لبني. إن تكن هي قد تركت جرحاً في نفس ابنتها فهي لم تعرف عمق الجرح الذي خلقه غياب لبني عنها إلا بعد أن سافرت إلى رومها ولحقت هي بها على الفور هناك لتري ابنتها المريضة. أصابها الانهيار العصبي في السجن وتلقها شوكت من هناك إلى المصحى. شاهدت عذاب ابنتها في هيمستيريا الانهيار التي تعرفها جيداً من نواستها وتعرف أنه ما من إنسان يستطيع أن يساعد غيره على الخروج منها. طقت مع الشيب دقية دقيقة سابع العلاج وتتابع اجتياها حين نوم ولا راحة حتى كادت هي تنسها أن تسقط. ولزمت لبني بعد ذلك أسابيع في نقاهتها. لم تكتشف كل الحب الذي كانت تخفنه لابنتها وتكتمه إلا هناك وهي تراها ضعيفة ومريضة هي تلك الليالي البيضاء، راقدة على فراشها في المستشفى. انكم تحبها. ولكم هي نائمة على كل الوقت الذي ضاع منهما؟

لم تشبه المذكورة صفاء إلى الدرغ التي كانت تنساقط على الكتف المنفوح لكنها انتهت فجأة إلى شوكت يقف أمامها فمسحت دموعها بسرعة ونظرت إليه بشئ من التعدي.

قال لها وهو يضع يده على المنصدة: أنا أسف لقلطعتك ولكنهم أعلنوا عن وصول الطائرة. إن كنت عازلة تريدن. قلنا. من أجل لبني....

هزت رأسها وقالت حين أن تنظر نحوه وهي تشير بإصبعها إلى باب الكاثرييا. ستكون عند بوابة الاستقبال.

ابتعد عنها برأها تخرج من حقيبتها على الزينة. وقال لنفسه وهو يخرج دموع التماسيح! جرحت مشاعر الهائم بكلمتين. كانتا لديها بالفعل مشاعر

وقفا متجاورين عند بوابة الخروج من المطار دون أن يتبادلا كلمة . كانت صفاء تتطلع بلهفة إلى وجوه الخارجين وتشرب بعنفها حين ترى زحاما من عربات الحافلات التي تنفخ القاذورات . ولكن لبنى لم تخرب كثيرا داخل المطار عن بقية الركاب في طائرة روما . وكان الدكتور شوكت يفتش عينيه أيضا عن لبنى وينظر في ساعة كثر دقة . عبر أنه كان يتخصص بنظره من حين وآخر إلى صفاء الواقعة إلى جوارده والتي لم توجه له كلمة ولم تنظر نحوه مرة واحدة . وقال لنفسه : متجافني ! لكنها لم تكن هي التي طلبت أن أصبحها ! ولكنها تخشى بالظن أن تنظر في وجهي ....

بعد أن انقطع زحام ركاب الطائرة . ظهرت لبنى وحدها وهي تدفع أمامها عربتها . بدا في وجهها شيء من الدهشة وهي ترى أمها وأياها يقفان معا . عانقت أمها بعد خروجها . وكانت الدكتورة صفاء ترتجف تقريبا وهي تحتضن ابنتها ثم حاولتها بإقة اللورد واستدارت فمسح دموعها . وقيلت لبنى أباهما في وجنتها .

ابتعدت لبنى عنها قليلا . وسالت بهنو : دادة سنية؟

تبادل صفاء وشوكت نظرة سريعة ثم نظرا نحو لبنى بعين واحدة . قالت لبنى بهنو لها نفسها : كنت أعرف (ثم نظرت نحو أمها) منذ انقطعت عن الحديث عنها في الرسائل والتليفون هسه . ولكن بلى عندي مع ذلك شيء من الأمل .

أطرفت لبنى وقد تدلى ترابعتها الذي يحمل بإقة اللورد . همت صفاء أن تحتضنها من جديد ولكنها أدركت أنها تستطيع أن تشاركها حزنها ولكنها لن تستطيع أن تجعله بدلا منها في هذه اللحظة . فامسكت بذراع ابنتها وهي تقول : سائر كل ترناحين الليلة يا لبنى وسنحدث غدا .

ثم قالت بلهجة عادية وهي تتعمرق : سلام يا دكتور شوكت .

\*\*\*

في السيارة كان شوكت يقتل النظر إلى لبنى التي جلست إلى جوارده صائبة تنطق للطريق . تغيرت كثيرا في هذه السنوات الثلاث . تتمد الطفلة التي سافرت . هي الآن امرأة جسيمة . أكثر امتلاء . وقد أصبح وجهها أملل للإستدارة . والزيئة التي تضعها تبرز جمال ملامحتها . كل هذا حسن . ولكن لماذا صيغت شعرها باللون الأسود ولماذا تركته يستمرس تشبه ياها ؟ أتمنى أن يقتصر هذا على الشعر ؟ أتمنى أن تكون قد أصبحت أطل يجب أن تخبرها من هذه الحالة التي استولت عليها منذ سمعت من مربيتها ويجب أن أتمنى عليها على كل حال .

حاول أن يجعل لهجته عادية وهو يقول : هل تعرفين يا لبنى أن القضية التي أخذوك من أجلها ما زالت هي المحكمة ؟ خرجوا من زملائك ولكن القضية ما زالت . التفتت نحو والدها : أعرف . كانت تصلى كل الاختيار في روما .

ولكن أنت الآن لا علاقة لك بهذه المسائل بالطبع ؟ قلت هذا سيادة اللواء وأوصى بملسه في المطار لكي لا تواجهي أي مشاكل في التحول .

ابتسمت لبنى ابتسامة صغيرة . ولكن المشاكل حدثت مع ذلك يا أمي ! أخذوا جواز سفرى . ونشروا كل حقايتى وأخذوا كل الأوراق التي معى قبل أن يسمحوا لى بالخروج .

ابتغض الدكتور شوكت في مكانه وقال : كيف ؟ سيادة اللواء وعنى بنفسه .

لاهم يا بابا . خرجت في النهاية وهذا هو المهم .

قال فيما يشبه الغضب : ولكنه وعنى . المفروض أنه صدى إلى . عانجت له زوجة .

وقعت لبنى يديها وهي تقول : كما ترى !

لكن الدكتور أكمل غاضبا . كان المفروض أن يبنى بنفسه ليتفكر ويستعمل خروجك أنت لا تحولين كم هو صدى لى . زوجة كانت في حالة ميؤوس منها لولا ما فعلته لعلاجها .



ظلت ايسامه ابني علي شفقتها ولكنها قالت بشئ من تقاد الصبر

« لماذا لا تتغير يا ابني؟ »

قال متعجبا: « أتغير ؟ كيف؟ »

« أنت الأبدى ، سامعني »

فكر شوكت «تغير» هذه كلمة أسهل ، إنني في لم تصيح شعرها فقط ولكنها

صبرت أفكارها أيضا ،

قال : بالطبع ، لا توجد عندي مشكلة لأنغير ، ولكن أنت ؟ هل غيرت أفكارك

التي انتهت بك إلى السجن؟ هل سترجعين مرة أخرى إلى هذا اللعب؟

« لا ، لن أرجع ،

ثميد الدكتور شوكت في ارتياح: عين العقل.

« أو عين الجبن! لكنني لن أرجع.

لم تقل له إنها في روما افتتحت تسمية بأن ما يقوله زملاؤها في مقالاتهم

ومنشوراتهم أقل من الحقيقة ، وأنت في بيت زوج عمته الدبلوماسي جدار الانفتاح

الذين كانت تسمع عنهم ، اعتاد أن يدعهم العشاء ، وبعد أن يتكلموا ويشربوا عدة

كؤوس من الويسكي بلك عبارهم وتطلق المصنوع ، يتبادلون الخبرات عن كيفية

تهريب الشخصيات من الجمر ، وعن أماكن شراء البضائع (النضوية) من إيطاليا

وتهريبها على أنها بضائع صالحة ، وعن أخصم الطرق لتهريب الصناعات ، ومن

الذي يجب أن يدفعوا له في البلد ، كانوا يتباحثون أيهم (أشطر) من غيره

ويتكلمون بصراحة تدفعها لايشعرون بخجل مما يقولون ولا يلهجون حتى مدى

اليدانة والإجرام فيما يقولون .

ولكن ما أعجبها أكثر أن زوج عمته الدبلوماسي المثقف يصبر على سماع

أحاديث هؤلاء الصنوع الذين كانوا يلا استثناء حقيقة من الجهلة ، وأنه يضحك

على ثقاتهم الفجة ويتبادل المزاح معهم ، في البدء اعتقدت أن هذا جزء من عمله ،

أنه ربما يجمع معلومات أو شئنا من هذا القبيل ، ولكن ثم مضى وقت طويل حتى

اكتشفت أنه شريك ، يتبادل المصالح معهم .

لهم كن الحق هؤلاء الطلبة ، حتى ولو كانوا لايمتصرون ، ولكنها الآن تعرف

حدودها ، تمنى لهم حقلا طيبا ولكن من بعيدا ،

جلس الدكتور شوكت إلى جوارها مستغرقا في التفكير هو أيضا ، بدأ عصيا

وهو بعضي أوامر السابق طول الوقت أن يسرع ، مدة متعبلا ولكنه كان يفكر في

الخطبة في شئ آخر: الآن يجب أن يتلقى المصانع من ساقطة وطفلة:

هزات بالفعل... ثم إن هناك شيئا يذيقا في أن تكون امرأة في هذه السن

بمثل هذا الجمال.

\*\*\*

في البيت تكلفت ليني حولها وقالت لنفسها رجعتا إلى بيت خالي ، لا مائدة

سنية ولا هم حسن ، ربما يكون الله قد رحمهما بالموت ، كيف كانا سيعيشان في

هذا العصر السعيد؟ دادة سنية كانت أسهل متزعزعا بالثكنة ولكن هم حسن؟

حتى قبل أن تسافر إلى روما كان يوسفها لدى الدكتور لزيادة مرتبه لأن المرتب

لم يعد يكفي لمصاريف البيت ، وتعليم الأولاد ، هل سأل الدكتور شوكت عن هذه

الأسرة بعد وفاته ؟ يجب أن تعرف .

ذهبت إلى غرفة دادة سنية ، لم يكن هناك مدبرها ولا (الكتبة) التي كانت

توزيع فوقها ، حولها الدكتور شوكت إلى مخزن لتحتة الجديدة ، في وسط الغرفة

كان تمثال خشبي فوق حامل لرجل طويل نحيل محض الرأس ، كان يثقل أسلوب

(جياكوميتي) الذي نحب ، ولكن بدلا من الرشاقة والتوازن والتموج في نمائته

كان هذا يشبه تمثالا لرجل مريض ، كان تمثالا مريضاً ، حولت بصورها عنه ، وراة

الدادة تجلس فوق الكتبة بفرحتها البيضاء ، وراة البسمة التي كانت تنير وجهها

التقضم حين تراه: أهلا يا ابني يا حبيبتي ، لا ، ذك انتهى ، لا الكتبة ولا دادة

ولا حتى ليلى ابني التبت من زمن - منذ متى ؟ منذ السجن ؟ منذ المصحة ؟ قبل ذلك لمي الليلة التي سبقت السجن ؟ المهم أنها انتهت -

ذهبت إلى غرفتها ، هناك وجدت كل شيء في مكانه . رأت سريرها وصورتها ومكتبها الصغيرة . لا حتى هذه اللانجا . ماتت في داخلها . شيء لا تشائقي إلى شيء حقا . عالجها جينا في مصحة روما . عليها الطبيب الذي واقفها لمدور ولم يكن كف عن الكلام أن تسمى الخوف ونفس بعد كل شيء . آخر عالجها بالبقاء في حمامات المسباحة ساعات كل يوم . ولم بعد يتوهم عثيان المعدة ولا الشوار ولا ارتعاش الساقين . ثم بعد هناك رياوس ولا صلاوس . قال لها الطبيب نسنا قريبا ما فالتة أمها . إن الإنسان ينضج ويصنع نفسه بالصراع ضد ما فيه . لكنه لم نضج نفسها أبدا . ولم نضج أي شيء . صارع الطبيب نيابة عنه . ونسنا ضد ما فيها ومستقبلها معا ! الآن لا خوف ولا طمأنينة . لا حزن ولا فرح . لا حب ولا كره . لا إفرار ولا تعرج . سنعيش في الوسط الشريح . مثلنا مثل كل الناس .

وسالم ؟ سالم كان عيدا وانتهي . كان كايوبا وانتهي . كان ما كان وانتهى . والكنودية صفا . تعرف الآن كم سحبتها . تنافس ليس عليها وهو ترى عراضها الجافة وأرى كل ما خلفت لتستود أسومنها . وهي أيضا سحبتها . ولكن الطبيبة وصلت مع الأسف بعد وفاة المريضة :

حسنت لى على السرير ونشرت إلى صورتها في المرآة مظلمة . عضدت أن تغلق في القديم . وقالت نفسها بانصبابة صمغرة . الآن ماذا سنفعل في كل هذه الوجبة :

\*\*\*

عمره الدكتور شوكت الطبايح الجديد عندما قالت ليلى إنها لن تتعشى وإنها موجهة من السفر ونرد أن نأكل . دخل هو بدوره إلى غرفة مكتبه واتحل بالمريضة :

لن يذهب إلى العيادة في هذه الليلة وعلى المريضات الاستئصال غدا نعيد موانع جديدة .

جلس إلى مكتبه وأخرج زجاجة الويسكي من مخبئها الذي وضعا فيه قبل مجيئ لى . لا . لم أخشى ليس هذا اتفاقا يجب ألا نهزم صورة أيها أمانها . أنا لست سكران على أية حال . أشرب فقط لأريح أعصابي من إجهاد العمل .

حسب لنفسه كئسا وجلس إلى مكتبه . . ولكن أي إجهاد يريد أن يرتاح منه الليلة بالذات وهو لم يعمل أبدا ؟ إذن فلنعمل :

اتجه الدكتور إلى مكتبه وأخذ منها أحدث مجلة شية متخصصة في طب النساء . وصلتته من لندن ثم رجع إلى مكانه وبدأ يشرب من الكأس في جرعات كبيرة على غير عادته .

فتح المجلة وقرأ قائمة المواد ثم اختار الموضوع الذي يهمه . انتهت الكأس فصب لنفسه كئسا جديدة . راح يشأمل الصورة الموجودة في صدر الموضوع بالكلان .

رغم دراسته وعمله وكل من عرف من النساء فهو لم يستطيع أبدا أن يتغلب على ظهوره من هذا الشكل . هذا الجرح المستطيل الذي لا يندمل . هل يكون تذكروه القديم العهد من أيام الدراسة هو السبب في . . .

لا ! لا داعي لهذه الأفكار التي لا تقود إلى شيء . فلنعمل .

لكن العمل لا يأتي . كان يفرا ويحب قراءة ما سبق دون أن يسوع شيئا . وانتهت الكأس الثالثة بسرعة أيضا . أخفق المجلة بحركة عصبية . ربما الأفضل لو خرج . يذهب إلى مكان يلتقي فيه بناس آخرين ويشرب ويمط زحم . أحسن من ذلك أن يلتقي بلى واحدة من صاحباته ويتعشى معها القليل . ها هو التليفون . يمكن أن يجرب لكنه راح ينظر إلى التليفون لى أن يمد يده إليه . وصب لنفسه الكأس الرابعة بيد ترتعش .

ماذا بك يا دكتور شوكت ؟ لماذا كل هذا الهم في ذلك ؟ طبيعة لأننى رأيت  
صفاء ! ولكن لماذا ؟ أنت تعرف أنها موجودة طوال الوقت وتعيش معك في نفس  
الهدية . كان يمكن أن تراها في أى لحظة . نعم ولكنها أعادت في ذكرى ذلك اليوم  
القميص . أنت لم تنس أبداً على كل حال . المساقطة ٢ . نعم أعرف . أعرف مساقطة  
وجعيلة . جعيلة جداً ومساقطة . كانت ملك بك على أى حال . أنت استمتعت فعلاً  
بامتلاك هذا الجسد الخارج لفترة من العمر . ولكن هل استمتعت كما يجب ؟ هل  
استمتعت هي ؟

مساقطة . مساقطة . بكفى يا أنى ! وأنت ماذا بالضييق ؟ قالت إنك يجب أن  
تغير . صفاء قالت ولينى قالت .

تغير . ضحك لنفسه بصوت خافت وهو يرشف لأن من الكأس الجديدة بيضاء  
وقد بدأ اللوار . طظ فيها وهي بنتها . أنا شوكت ابن شوكت ؟

ضحك مرة أخرى ووضع يده على قمحه . طظ في شوكت ابن شوكت ! ماذا  
تهنئ بك يا دكتور الجود أنك رأيتها ؟ تعال نقل الحقيقة . هل ماركت حبها ؟ إن  
يكن ذلك كذلك فعليك العوض يا شوكت يا ابن شوكت ! عليك أن تذهب إلى  
مصحة لينى في روما . الأسهل أن تشعر . هذا أيضاً تغير يا دكتور ؟

وما الذى تغير ؟ يجب أن تعرف . نعم أنت كنت تعرف نفسك من زمن طويل  
تعرف . حاولت أن تعالج نفسك بنوبة من حصر وبأوبة من ثقب ومن فرنسا ومن  
راق الواق . وكنت تسمع متظاهراً بعدم الاكتراث إلى الضاحك والتجارب التى كانت  
يتبادلها أصدقاءك في جلسات الرجال . وإلى أقوال هؤلاء الكذابين . بالأسفل طول  
الليل . . . الكذابين .

ضحك لنفسه مرة أخرى بصوت مسموع . أنا لم أكن أريد طول الليل  
عشر الليل . واحد على عشر من الليل ؟ عشر دقائق من الليل ! خمس . لا  
بأس . ولكن لا فائدة ! البداية هي النهاية

ولكن ماذا عن الأخريات ؟ لم يكن يشتكين . قبله على حاله .

على من تكذب يا دكتور ؟ كنت تجذبن بوساسك وشهرتك وهداياك المغالية  
فلماذا لم تبق أبى واحدة منهن محبة أكثر من أسابيع ؟

طظ ! أنا لم أكن أريدن أيضاً ! ماذا كنت تريد إذن ؟ نعم ؟

أنا لم أرد واحدة غير صفاء ! لو أنها ساعدتني بدلاً من أن تخونني . قريباً .  
مصحح دعوتها من خذ وهو يقول لنفسه أنت سكرت يا دكتور شوكت يا ابن . . يا  
ابن ال . .

عد بدء إلى الكيبون وطلب الرقم . يجرب معها العلاج الأمريكانى الجديد !  
طول الليل ما ها ها . ومما لا نرد عليه صدقى الفنزير ! لكنها هي هذا هو  
صوتها :

- ألو ؟

- هذا أنا . . أنا شوكت ابن . .

ثم سكت وأحسب صوته .

نصحب صوتها هي : نعم . ماذا حدث ؟ لينى يخبر ؟

- لينى ؟ نعم . نعم . آ . أنا أير لينى . أنا لست بخير . إسمعنى . من فضلك هل  
يمكن أن أراك ؟ يعنى . . من فضلك !

قالت جهوداً . أنت سكران يا شوكت . صوتك يقول إنك سكران جداً فلا ننظم  
الآن .

- نعم ؟ لماذا من فضلك . . على الأقل مرة ؟ على الأقل . أنا كنت زوجة منكما

ذهبت إلى صدقى ! لماذا صدقى من فضلك وأنا ؟ على الأقل مرة ؟

كررت . أنت سكران ولا تعرف ما تقول يا شوكت . .

- على الأقل . . .

أحسد صوتها لجدة : يا مجنون ! لو انقضى صف الرجال كله من العالم !

على الأقل أحترم انت ابنتك في ليلة عودتها . يا مجنون !

- ابنتي ؟ ملعون أبي ابنتي : أنا أقول على الأقل مرة .. من فضلك ؟

لكن صغارا كانت قد وضعت السماعة في غضب ولم يكن هناك على الطرفة الآخر غير صغارة وقد شوكت يده المتعذرة في استعانة إلى التليفون ليطلب الرقعة من جديد لمسقط الجهاز على الأرض في شجرة وتين وحيد نهض ليشتطفه وجد ثلثة يترفع ويتعثر قفيل واقفا لحظة وهو يمسك رأسه بين يديه ويعصر جبينه.

ظل يقف قشرة محاولا أن يتأكد نفسه وهو يقول: ابنتي.. ابنتي ؟ هناك شيء قالته عن لينى.. ما الذى قالته بالضبط ؟ يجب أن أرى لينى..

طرق باب ابنته ففتحت له وكانت بغياب النوم.

وقف مترنحا بالباب فقامت وانزعاج : بابا ؟ هل حدث شيء ؟

- نعم .. ولكنى لا أذكر بالضبط ما هو ؟

وقف مستبسا بينه إلى الحائط وقال : أنت الآن تشبهين أمك يا لينى لهله.. ثم هربت منه الفكرة التي كانت تشكل في رأسه فقال فجأة :

- اسمعى يا لينى .. هل أنت تحبين الولد .. الولد المخبول الذى جاء إلى عيادتى يوم تبيضوا عليك..

- أبى ولدا ؟

- الولد .. الولد (الخليفة) الذى .. الذى كان يريد أن يعثر لك وأنت فى

السجن ؟ فى .. فى ..

- سالم ؟ هل جاء إلى العيادة ، لماذا لم تقل لى ؟

ثم سمع فتكلم : جاء جده أيضا بعد سقوط وقال أن الولد جاءه حالة نفسية.

لا بحالة ولا بحزنون .. لكن أن سجنوا من الأهل لكن من فضلك أنا أسألك هل

أنت تحبينه بالفعل ؟ هو من أسرة مجائز بالطبع جده أيضا مجنون .. جاء إلى

وشتمنى فى العيادة أنا شوكت أين ..

- من فضلك تسكت يا أبى .. أنت لا تعرف الآن ما تقول .. أرجوك أن تذهب إلى غرفتك أريد أن أنام.

- لحظة من فضلك .. أنت لا تفهمين .. من فضلك .. مجنون .. عاقل .. قاتل .. أنا أسألك هل تحبينه ؟ أقصد ما الذى يمنع بعضى ؟ إن كان الحب يحتمل الخيانة لماذا لا يحتمل الجنون ؟ الشئ الوحيد المهم فى الموضوع يا لينى .. أبى .. جذك يعنى .. كان عنده مثل يحيى - كلب أبيض و كلب أسود الاثنين ولاد كلب .. فى ! فى .. يعنى كلب دكتور و كلب مجنون ما الفرق ؟ أقصد يا لينى .. من فضلك ..

أزاحت لينى أباها من الباب بحتف وهي تقول فى غضب : من فضلك أفت ؟ اذهب إلى غرفتك الآن .. أنا أريد أن أنام !

ثم صطقت الباب وأنقذته من الداخل بالفتاح .. أفاق شوكت قليلا مع ضجة إغلاق الباب ووقف يتسائل فى ذهن : ماذا حدث بالضبط ؟ يجب أن أذهب إلى الحمام !

\*\*\*

فى الصباح كان الدكتور شوكت ولينى على مائدة الإفطار فى الموعد .. كان وجهه شاحبا قليلا ويشعر بصدا ع.

سألت ابنته : هل نمت جيدا يا لينى ؟ هل أرتعت من السرور ؟

تأملت قليلا وهي تقول : نعم .. شكرا ..

- هل ستخرجين اليوم ؟

- لا أعرف .. اسمع يا أبى : لماذا لم تقل لى من قبل أن سالم مر عليك فى العيادة ..

- من هو سالم ؟

- زميلى .. الذى قلت إنه جاء وجاء جده أيضا إليك فى العيادة ..

قال بشي من الدهشة : أنا قلت ذلك ؟ أه ، بالفعل جاعني يوم القيظ عليك وإن  
مستحيل قال كلاما غريبا . لا أظن أن امرء يهتك في شيء ، أقصد لا يستحق أن  
تهتم به . ربما أكون قد قلت لك لا حذرك منه ومن جده المجنون ولكن متى حدثك  
عنهما ؟

لزمك فيني الصمت ثم انفجرت فجأة بالصمت وقالت :

- أنت لا تتغير يا بابا إلا إذا ...

- إلا إذا جازا ؟

- إني ! المهم ، هل جدت اشتراك الناري هذه السنة باسمي ؟

- ما العلاقة بين هذا و... بالطبع أرسل من يجسد الاشتراك كل ستة . لماذا

تسألين الآن ؟

- لأنني يجب أن أواصل السياحة ؟ وربما يجب أن تسبح أنت أيضا بابا ؟

- لماذا ؟

- لأنني أبتك ولأنك أسي ؟

قال الدكتور لنفسه وهو يرشيق القهوة : لولا أنك تشبهيني لما صدقت !

\*\*\*

( ٤ )

اعتقد الياشكاتب صحة سالم الذي أصبح الآن مثل شعبان يقضي النهار كله  
في العمل ويستيقظه في الظلم أيضا جزئا من الليل . وطيب من حفيده ولكن بين  
إلحاح أن يولد وقتا للذاكرة ليدخل امتحان الكلية . فيمر أن سالم لم يبد أي  
صماس لذلك . فاضطر الياشكاتب أن يقدم من جديد شهادة مرضية لإعاقته من  
الامتحان ستة أخرى . وكانت تلك إحدى المرات النادرة التي خرج فيها بعد عودة  
لعوزة إلى بيتها . اعتادت حظيرة أن تأتي كل ظهيرة لتعد له الغذاء وتبقى معه  
حتى يدخل ليرتاح قبلولته . وفي المساء يقضي وقتا قليلا مع سالم وشعبان .  
وقبلا عدا ذلك كان يقضي معظم وقته في غرقته .

أصبح الياشكاتب يجد صعوبة في صعود السلم . مع أن الجيران كانوا حين  
يسمعون إيقاع عصاه يخرجون له متعدي في كل دور ليرتاح قليلا على (البسيطة)  
قيل أن يواصل صعوده . قل خروجه من البيت . وقلت أيضا حاجته إلى النوم  
فأصبح نعاسه مستظهما وصار يقضي وقته في العبادة والقراءة . يؤدي  
الفرائض والنوافل . ويكرر الفرض الواحد أكثر من مرة ليمحو من ذاكرته في  
السنين الماضية .

وانهمك الياشكاتب أيضا في قراءة الكتب التي أعطاه له أبو خطوة مرة بعد  
أخرى حتى كاد يحفظها . وكان يلوم نفسه لأنه مع حرصه على التزام وصاياها  
ظل يهمل أمورها جميعا . ويفكر أحيانا : الذنب ذنبك يا سيد إن كانت البشرية  
تزاوغة . كيف تريد الوصول وأنت تعصى نفسك وخصه واجازة من التقيد بالمرأة  
اللازمة للتقية روحك وتسفيتها من كل كدر ؟ يقول لنفسه في الواقع آيا أعيش

نصف عزلة ولكنها إجبارية ؟ لا فضل لى فيها منذ أصبح الخروج من البيت حيلة  
لا نحتل، والتعود على الجوع والعيش اللازم فى العزلة لفهم الجسم جاء إجباريا  
أيضا . أملاء المرض لا العزم ! ثم إنك لم تقو على أن تهجر الناس الذين تسميهم  
الكتب . السرى . لكن تفرغ نفسك وحدها فتأملها وتحمل إلى حقيقتها .

ثم كيف تنحل بالفعل هذا العالم من السكينة وعقلك لا يكتف من التفكير وعن  
السؤال ؟ أنت كعبد خائب يا حضرة الباشكاتب ! تريد أن تذاكر الفروس البسطة  
وتزجل الصعجة ! تلعب بجور جدا وخائب جدا لم يبق أدبه وقت لتدخل الامتحان !  
وتكاثرت أحلام الباشكاتب وسط تومة التقطع واختلطت بأحلام بقاعة كان  
يقابل أثنائها أحياء بصوت مسعور . وفى لترات مسجوعة كان يحاول أن يفهم  
مغزى تلك الرقى وأثقا من أن الأحلام رسائل . ألم تكن هذه الأحلام فى أنى  
ضابقت أمه بعد أن تحققت زياة ولادة وحقيقتها ؟

زارته سمية وزاره أبو خطوة عدة مرات . اعتادت سمية أن تأتيه مبتسمة كما  
لو كانت فى صحراء أو فى خلاء واسع ثم تستدير مشيرة بيدها إلى ذلك الفضاء  
الذى لا يرى نهايته ولا أفقه فظنهم فيه وجود كاته يعرفها وإن لم يستطيع أن يعز  
أصحابها . ويسأل توقيت نفسه هل تشير سمية بهذا الفضاء إلى الأهل ! إلى  
القترب النهائية ؟ هذا يفهم جيدا ولا يحتاج إلى سمية لئلا عليه . فأتى رسالة  
أخرى تريد أن تبليها له ولماذا لا تتكلم ؟

أبو خطوة . على العكس . كان يتكلم كثيرا حين يزوره . يأتيه كما رآه آخر  
مرة بشعوره الأثيب ويخبره الفذاتين واتسامته المرحه . يذكر جيدة حين جاء  
مؤنيا ذات ليلة ويكرر عبارة سمعها منه من قبل . ليس بحفك ولا حتى يكتك ولا  
بنفسك . وإنما عندما تنسى ذلك كله با ترفيق . حين تريد ألا تريد نفري نفسك  
وتزى النور فى قلب الظلام . مدال الباشكاتب صاحبه فى لهفة . إذن فما فى  
العلامة ؟ فكرر عليه : أن ترى النور فى قلب الظلام .

قال الباشكاتب وكيف آراه فى قلب الظلام ؟ فرد صاحبه : سيبدو ضوء ظلمة  
الليل والنهار . سأل : وفى النهار ظلمة ؟ فرد : أشد حلكة من الليل .

\*\*\*

بعد كل مرة كان الباشكاتب يخرج فيها ويعود وهو يلهث مجهدة من السير  
ومن صعود السلم كان يلم البيت متسائلا عما يدعو إلى الخروج واحتفال هذا  
الحذاب . ولكنه بعد أن يقضى فى البيت عدة أيام . كان يتجول تلقا إلى البيت  
الغالى منتظلا من غرفة إلى غرفة . يذكر نفسه بصالته وسما قاساه فى المرة  
اللاحقة وبأن الأفضل أن يبقى مكانه لينفذ تعصبة الطبيب بعدم التعرض  
للإحباء . ولكن صورة ابتزاز والتسديد والناس الذين يتفهم هناك لا تفرق عنه  
رغم كل ما يحاوله . ليعود إلى غرفته فجأة ويرتدى ثيابه وينزل وتليه ينفق فى  
التدال لطل صغير ذاهب يلعب .

ولكن كما جاء الجوع والعيش إجباريين للباشكاتب فكذا جاءته العزلة  
الكاملة التى طال تبره منها .

فى إحدى مرات خروجه القليلة كان يصعد السلم فى الطابق الثانى مبتلنا  
كعادته وغارها فى التفكير كعادته . ولكن يربن نفسه الآن لغروجه وهو يذكر فيما  
بقى له من درجات السلم . حين انزلت العصا من يده فجأة وهوت فى الفراغ بين  
موضعين فاضلوق هو أيضا وتخرج على السلم . ظل راقدا على ظهره على  
البسطة وهو يتنوء . وحين حاول النهوض مرة أخرى صعدت على يديه . لم  
يستطع أن يحرك ساقة فصرخ يظلل التجدد .

حملة الجيران إلى البيت وظلت ساقه فى الجبس عدة أسابيع وقالت فوزية  
لتفلسها فى حزن وهى تنظر إليه يتمدد شاحيا فى فراشه : كأنما لا يكفى السكر  
والضغط والنوار وقلة الأكل . لأن هاعى ساق مكسورة أيضا !

\*\*\*

عرفت عينه الباشكاتب بالدروع : بسبب ما فعلته بنفسه بسبب ما فعلته  
بك وبشعبان وبفوزية .

- ولكن يا جدى أنت .. أنت لم تفعل غير كل خير . كيف تقول هذا الكلام ؟  
نحن كنا نحبك ونعجبك .

- إذن فلا تدع لى بإسالم بالصحة . بل ادع لى بالتراب النور .

- أى نور يا جدى ؟

فقال جده وهو يقطع إلى نقطة ثابتة في المرقعة . النور العلامة ..  
ولم يكمل .

مدى سالم وهيرته تشتت : علامة على ماذا ؟

- ستعرف أنا وأنت حين يظهر . ربما يا سالم حين نزيد فى هذا الجسم  
الغطاي . ثم ضبط رأسه بقيضته وهو يقول : ونحن نكتب هذا التعيس عن طرف  
الخور !

- بعد ذلك صار الباشكاتب يقضى كل وقته فى غرقته . كان يطفى النور بالليل  
ويطفى المشيش بإحكام فى النهار وترتفع صلواته وأدعيته يصوته المتهدج .  
وكان يقضى فى النظمه ينتظر . ولكن أير خطوة ظل يأتيه مؤثراً دون أن يفهم  
السبب .

\*\*\*

لم يعد الباشكاتب يقرب الطعام إلا حين ترقيعه فوزية وتضعه بالقوة فى فمه .  
يكان ذلك ضرورياً على أى حال لأن يده المرتعشة صارت عاجزة عن حمل الطعام  
والشراب . كان يلوث شيابه إن حاول أن ياكل بيده .

لزم الباشكاتب غرفته بإزادته وبغير إرادته بعد أن صار يعرج على ساقه  
الصلابة ويذاقم من السير عليها بضع خطوات . لم يعد يستطيع الخروج ولا حتى

أصبح من الضروري بعد ذلك أن تقيم فوزية مع جدها لفرعاه . فكان فرأى  
يأتى إلى البيت ويتناول وجباته هناك إلى أن يرجع شعبان أو سالم لى المساء  
فيمضى بزوجته وولده إلى بيتهم القوي . غير أن فوزية كثيراً ما كانت تهرس  
على أن يقضى الليل معهم فى مسكنها بمصنع لظنها

وأنت سالم أن تفعل فى ذرية أساء . ليقى مع جده أطول وقت ممكن . كانت  
جالة الجدة تعلقه بعد أن تكونت ثوبات إلهوار بعدما تحورت ساقه من الجعش .  
جاء الطبيب إلى البيت لمضاجعة جرعة كالمولين التى يلعانها بالسكتب .  
روصف أدوية جديدة لتسقط الدم ثم نصحه بالتزام الراحة والتقيد الدقيق بنظام  
الغذاء .

وهذه أدوية أسالم : الصنع جده يا سالم بأن ياكل . تعبت معه فى الكلام  
لكنه لا يكف حرق أسفاده . أعرف أن لا يحب المطبق ولكن هذا مما أسره  
الوصف . كانت عد مرعى لبيته . سفة تمنح تدرسه على الكلام فقال لى يا شتر  
لى حالة جده يجب الالتزام بواهم الطبيب . خطط العلاج لا بعيد . لا حل بإسالمه  
غير أن ياكل بأمر موصوف له . انظر كيف صار جده على عظم !

أفضت هزال الباشكاتب بالفعل . وتبدل جلد وجهه الذى كان عريضاً نحيف  
تدلى من صبت كالزوائد إلى جوار وقته . لكن عندما حبسه بإسالم على  
ضرورة أن ياكل كما ينبغي ولم يمشى إلى تحوله رد عليه جده ذرية لم يفهمه .  
إذ قال :

- هل أصاب التحول إذن هذا الجسم وحلت به الأمراض ؟ تلك غطاي يا  
سالم كيف أعرف بدونها أنت اتلقى ما استحق من العقاب ؟ كيف أعرفت أننى  
ريد استحق المرحمة ؟

قال سالم محتجاً : ولماذا تستحق العتاب يا جدى ؟

تصرف معاشه الشهير الذي كانت الأسرة بحاجة إليه لتكثيف عمله والمساعدة في مصاريف البيت . فاجتهد شعبان أن يحصل من والده على توكيل شامل لتصرف نيابة عنه . وجاء موثف من الشهر العقاري إلى البيت ليضطلع على توقيع الباشكاتب على التوكيل . والحق على ما طمّنه شعبان بون نقاش . كل ما كان يعنيه هو أن ينهوا إجراءاتهم بسرعة وأن يتركوه لتفوتهم .

الوحيد الذي لم يكن الباشكاتب يثق بصحته هو سالم . كان يجلس مع جده في أوقات فراغه من العمل . يراقبه في صمت ويلبى له ما يطلبه . يستدعيه حتى الحمام ويقف إلى جواره لمساعدته حين يتوضأ . يقرض له سجادة الصلاة ويضع له مقعدا ليضلى عليه بعد أن تمدح عليه الركوع والسجود ويصلي سالم وراءه . ويستمع إلى الأدعية التي يرددها جده ويكررها معه . غير أنه في معظم الوقت كان يجلس صامتا على عاتقه .

حاولت قوزية أن تجعله يتكلم بعد أن استرد نفسه . حكى لها جدها القليل الذي يعرفه عن ليني ومن علاقة سالم بها . وفكرت أنها لو جعلته يروح بها في صبره فسيساعد ذلك على اكتمال شغائمه . لكنها حين فتحت معه الموضوع بصورة عابرة ابتسم ابتسامته المحايدة وقال :

« هذه حكاية وانتهت يا قوزية » .

فقال قوزية بلهجة مازحة : كيف انتهت يا سالم ؟ يقول جدي إن الحب القهقري أرواح وأنا أعرف هذه الأرواح . أعرفها تماما . هي أرواح (لوزة) ! إن جاءت فهي لا ترحل . فكيف استطعت أنت أن تهرب منها ؟ أنا لا أفعلك ؟

لنقل ينقسم في وجهها دون أن يرد .

ولم يكن يكذب على أخته . كانت ليني تظن على ياله أحيانا ويذكر الأشياء الكبيرة التي سبقت مرضه : ليلته الأخيرة معها . وزيارته لبيتها وما جرى هناك .

وسمعه يستجيبها . ثم تلقى تذكرواته عند ذهابه إلى غيابة أبيها وبلغها بعد ذلك الظلام . ولكن تلك كانت تبدو له أشياء بعيدة جدا . لا يفعل لها حين يذكرها . كانت مثلها مثل كل شيء آخر في الحياة بالنسبة له : هورا براها من وراء حاجز زجاجي ويراقبها كمتفرج دون أن يشارك فيها . لم يعد حيا وقويا في نفسه بعد أزمات حياته وصدمات الكهرباء . غير جده وقرينة .

وأصبحت الجامعة أيضا تكرر بعيدة لا تعنى سالم في شيء . لكن عذير المعلم الأرميني الذي أعجب به كثيرا شجعه على أن يحول أوراقه إلى كتبه التجارب . قال إنه يشعر نقائيه في العمل ونواميس من الحسابات يمكن أن يكون له مستقبل كبير في « البيزنس » ومن يدرى ؟ فقد يأتى يوم يصبح فيه مديرا لمطعم مثله . المهم أن يستغل وقت فراغه من العمل للدراسة . فقال سالم وهو يشكره إنه سيفكر .

\*\*\*

وفي تلك الأيام التي كان الباشكاتب معتكفا فيها . وبعد منتصف الليل بكثير والجميع ينام . ارتجبت العمارة على صوت دوى هائل كالانفجار . علا الصراخ واليكا من كل الشقق وأخذ الجميع يتدافعون على السلم بدلا من النوم والصيحات تتجاوب من كل مكان . الزلزال ! أظلم يارب .

وجرى سالم وشعبان أيضا يثياب النوم إلى غرفة الباشكاتب محاولان حمله لتزول معهم . لكن الجند كان يقف في وسط الغرفة شحيلا رشاحبا في جليابه الأبيض الذي أصبح واسعا جدا عليه وقال بصوت متهدج :

« رأيت ذلك في المنام ! رأيت سنية تجرى وكنتم كنتم شجرون وزايعا .

أين قوزية ؟ هيا . انزلوا . انزلوا بسرعة !

راح بدفعهما عنه ببدية الناحيتين نحو الباب لكنه رفض وهو يصراخ أن منزعج منهما أو أن يترك غرفته .



قال في عناه : في هذه الغرفة سيقى إلى أن يتحقق الوعد أو أموت !

فقال سالك : إن بقيت هنا يا جدى قائما أيضا بائس .

راح جده يملعه يديه الضعيفتين ليترك الغرفة لكنه لم يفلح في إخراجهما

فتركهما شعيان معاً ونزل مهزولاً .

وجد شعيان كل السكان وحيران البهوت المجاورة في الشارع وهم يفسرون

كلنا بكف . ويسعلون وسط سحابة من الغبار تلغى البيت والمكان . لم يقع زلزال

ولكن شرفة البيت انصابت تصدعت فجأة وهوت بمصاصاتها في الشارع . تحطمت

الشرفة وتناثرت حجارها في المكان ولكنه السحابة الهائلة تلك ملقاة على

الأرض كتلة واحدة مغلقة وبتماسكة لم يصيبها شيء .

وقال واحد من السكان : الحمد لله أن ذلك حدث بالليل . لو سقطت بالنهار

لراحت فيها أرواح .

ويروى آخر وهو يسعل : هذه بركة الباشكاتب الطيب . لا يريد الله له اليهودية .

وعلا صراخ الست انصاف : وأنا ماذا سأفعل ؟ والحاج إبراهيم المراقب فوق ؟

يا مصيبيتي !

وسأل عزوز ابن التجار أباه في قلق : معنى ذلك يا أبي أننا سنزول المرح ؟

فمد أبوه يده وجذبه إليه وطمعه بكل قوته .

لكن صبرت شعيان علا فوق كل الأصوات وهو يصيح بلهجة أمره :

- استكثرا !

كان يسمع صوتاً بدأ الصبح أيضا يتجهون إليه . وصنعتوا جميعاً وهم

يسمعون قفقهة سقوط كتلة من الطلاء والأسمنت في جانب البيت الذي سقطت

منه الشرفة . جرى السكان مبتعدين متعدين أن التفت بكله سينهار فوفهم وأرتفع

من جديد صوت الجراخ واليكاء والدغا .

وقفوا يراقبون ما يحدث من بعيد . لم تنهار جدران البيت لكن مع صوت

سقوط كتلة الجير والأسمنت وانطلاء الحديد انكشف الشوخ القديم الذي دفع

الباشكاتب كل ما يملك ثميمه وبدأ أنه قد اتسع يقول العبارة .

ولكن وسط الصمت الشامل وسحابة الغبار التي تكاثفت علا صوت أبو زيد

البواب وهو يصرخ ملوحاً بترابيه في الهواء :

- من شيئاً يتاء الحاج شعدي بيت جاي الحديد ! سكان عره ! جبر يتلويهم

كثهم ! جبالة أرمي على السلم . مواشيف تشر . تشر وتهد الحيطان . فين ناش

جمان ؟ أنا واجع التميوط حد غاضى إن شاء الله جبر يتلويى أنا كمان وارثاج

عنكم . اتقوا !

أما شعيان فكان شارداً عن ذلك كله . وقتل يتأمل الشرع من بعيد وهو يفكر .

\*\*\*

ثم انصرف عن ولده دون أن يتكلم وهو يلكر : «والآن اثنان في البيت ! على العموم نبقا أشياء أقبح .»

لم يكن الباشكاتب وحده هو الذي رفض إخلاء البيت ، تملك كل السكان بالبقاء رغم الإضرار الذي قال بوضوح إن العمارة على وشك الانهيار . نوجهوا إلى شعبان رسالة ابن بأخوين ومن أشغالهم ومثلهم قرب البيت . وتزعم توجد في الحى مساكن خالية ؟ عرضوا بعد فوات الأوان أن يرمموا البيت على حسابهم . فرد شعبان بأن الأمر ليس من شأنهم لأن أن يتفوت مع الإدارة الهندسية في الحى المسؤولة عن قرار الإخلاء . وسيفقد ما يتفقون عليه . وأطلق بعضهم حنقهم خراب الذمم وبذلس الماثل الذى استغل طيبة قلب الباشكاتب وعشه في التزليم . قالوا : إن هذه أحر الأيام وإن القباضة أوشكت أن تغرق ما دام الفش قد وصل حتى إلى جوار الست الطاهرة .

تركهم شعبان يمارسون مع إدارة الحى . كان بحاجة إلى وقت لينظم تفكيره وليدير أموره .

أما الباشكاتب فلم يعد يقادر غرقته المعتمة إلا حين يصحبه سالم وهو يكاد يجعله حذلا إلى الصمام . ولم يعد يكف عن جواره وابتهالاته بالليل أو النهار . إلا في لحظات عفوانه القصيرة . فبعد أن تستغنى عن الأكل استعنى عن النوم . وكانت فوزية تستطيع إرضاعه حتى أن يزود بعض الطعام الذى تضعه له بيدها في فيه . وإن رفض أحيانا شىء مما ان فتح فيه . مثل فوزية والملة أمامه ويدها ضيق الأكل وتقول إنها تعلم أن يكرهها ولا يطيق أن يراها ولكنها لن تفرج ح وزيجته من وجوده إلا إذا أكل شيئا . ومع ذلك فلم يكن ياكل إلا لحيات كذا إن فوزية لم تكن تستطيع إرضاعه على النوم فتدهورت حالته بمرعة وأصبح يعجز عن الوقوف على قدميه إلا إن ساعده أحد . وحين كانت فوزية ترى التجليات الأبيض

عابث المستولون في الحى العمارة . وبعد أن حوروا مضطروا لمالكها والسيد إبراهيم المشلول . صدر قرار بإخلائها على الفور قبل انهيارها على من فيها . قال الباشكاتب الذى تعود عمره كله على احترام القانون إنه لن يتنقل من مكانه . تشبث بأصحابه العظمية الموثقة بدواع شعبان وهو يبكي ويضع كطفل صغير مضطربا إلى أبيه أن يتصرف . أراد أن يقبل يد ولده وهو يرجوه بصوته البككى أن يتركه في عرقته حتى يموت . قال إنه حكم بانفراط العلامة . انتزع شعبان يده من فمسة والده وقبل رأسه وهم يمدونه بنقوى العسر قائلا له ألا يشغل باله ولته سيصرف بإذن الله .

سأل سالم والده بصوت هامس بعد خروجهما من الغرفة المتعمة : ما هي هذه العلامة يا أبى ؟

فرد شعبان وهو يتعشى أيضا : لا أعرف يا أبى . ولكن أثنى أن جده ينتظر كرامة من الكرامات . هذا ما فهمته . قال سالم بإقتناع كامل : هو يستحقها . نظر له أبوه مليا وهو يقول بشر من التردد . بالطبع . ولكن الكرامات كما أعلم يا سالم توجب ولا تطلب . يكفى الإنسان أن يطلب من ربه المظفرة لاسيما إن كان خلال عمره ..

قاطعه سالم وصوته يترى بالقصبي : هو يستحقها ! ألم تقل أنت بنفسك إن

أحلامه أحلام الصالحين ؟

« نعم قلت وأنا أدع له . المهم الآن هل الوقت .. »

يشهد على جسده الهزيل كأنه يخوض فيه كانت تحول وجهها لكي لا يرى  
دموعها . رغم ثقلها بأنه لن يرى شيئا في ظلمة الغرفة .

واعتماد سالم أن يخلق لجدّه ذقنه في ظهيرة كل يوم قبل أن يصحبه إلى  
الحمام للوضوء . وكان في هذه الحالة يضغط على زر النور في الغرفة الممتعة  
بمجرد دخوله . ولكنه دخل ذات يوم لم يجد الضوء يضيء الغرفة . رأى جده يجلس  
طوق سريريه وهو يشي ساقا تحته بينما تشدّ ساقه اليساية من اليسير . وقد  
فتح شيش الغرفة على أضنه . ظل يقف مأخوذاً عند الباب . محاولاً أن يفهم ما  
حدث . فقال جده بصوت هادئ وإيمامة تغمر وجهه التأمل المنفصل :

- ادخل يا سالم واجلس .

تقدم سالم وقبل رأس جده على عاتقه . فمد اليد ذراعيه الضعيفتين واحتضن  
سالم إليه باتمحي ما يستطيع من قوة . قل يحتضنه طويلاً قبل أن يطفئه فذهب  
خفيه ليجلس على الكبة المواجهة للسرير وهو يتنهد إلى الممرقة المفتوحة وإلى  
جده بنظرة مستقيمة .

كان الياسكايب يبدو شبيهاً في جلسته على فراشه وكان وجهه شاحباً جداً  
في ضوء النهار الذي لم يدخل الغرفة منذ مدة طويلة . غير أن صوته لم يكن  
مرتبشاً ولا مثبجاً . ون في آذن سالم كصوت الياسكايب المرح القديم وهو يرمو  
إليه ميمسماً ويقول :

- أوحشتني جلسات سحرنا القديم يا سالم وأوحشتني كلامك . قل لي ما

أحوالك الآن في العمل ؟

لم تغادر الدبشة سالم وهو يرد على جده :

- شغلي ليس فيه جديد أبداً . حسابات وأرقام .

- وإن لملي أي شئ آخر تفكر يا سالم ؟

- أفكر فيك أنت يا جدي . وجيوتك كثيراً أن تأكل وأن تفرح لكي تسترد  
صحتك لكلك لا تسمع كلامي .

- ألم أقل لك من قبل إنه مع كل جزء يموت من هذا الجسم يصحو جزء من  
الروح ؟ وأنا الآن كما تراثني يا ولدي وأحب أن أقر لك بروح حية .

قال سالم متفعلاً وهو يمد يده نحو جده كأنما لينمعه من الكلام :

- لا تقل هذا الكلام يا جدي . سيخفيك الله من المرض وسيعطيك العلامة  
التي تطلبها . ألا تعرف أنه لا حياة لي بنوتك .

قال الياسكايب مشيحراً : ولكن لماذا يا ولدي ؟ ما الذي فعلته أنا طوال حياتي  
لأستحق أن يكافئني الله بك في مهابتها . وهل لك في الشبهة . أن تكون أنت أبا  
أبيك ؟

راح الياسكايب يتأمل سالم وهو يفكر : أم أنك أيى لأنى يجب أن أعلم منك ؟  
كيف مررت يا سالم كل ما فاسته في جسدك وفي عقلك دون أن يتكرر صفو  
نفسك ؟ كيف تظل تعطى كل شئ لأخيت ولأنيك ولي . ما لك ووقف وحيدك دون أن  
تطلب شيئاً لنفسك أبداً ؟ أيمكن أن يكون المرضي هو الذي يهب كل تلك المراقبة  
على الحب أم أننا نحن المرضي ؟ ما الذي يدور في عقلك حقاً ؟ وما الذي يجب أن  
أعلمه منك يا أيى ؟

قال الياسكايب لجة بشئ من الاتفاخ : قل لي يا سالم . هل مازلت تفكر في  
زيفك لسي ؟

تهض سالم يجذعه وهو يجلس وقال لجدّه بشئ من الذهول :

- إني لم ألت تعرف يا جدي ؟

- ما الذي أعرفه ؟

- وإلا فلماذا تسألني ؟ اليوم . الآن . كانت معي وكنت أنت أيضاً معي .

ظل جده ينظر نحوه مسألاً . فاعتدل سالم في جلسته من جديد وقال :

- أنا لم أفكر فيها أبدا من زمن ، إن خلوت على ذهني فقد كنت استغفر الله  
تأني ، ولكنها اليوم .. كنت متأخرا في الليل بعد رجوعي من العمل ، تمت قرب  
الصبح فجاءتني في المنام ، ربما هذه أول مرة أحلم بها ، لابد أنك تعلم ما كنت  
تسكني ..

قال الياسكاش يهودي : لا يا ولدي ، أنا لا أعرف ، لكن أحلامنا تقول لنا  
الحقيقة أكثر من صحتنا ، لماذا قالت أنت ؟

حوال سالم وجهه من جده وقال بصوت خفيض : لم تقل شيئا ، كنت أنا وهي  
في زورق على النيل وحبناك غدا لا أعرف من أين يأتي ، هل كان ملاحا في زورق  
أو هل كان الغناء أصوات طيور في السماء ، ولكنا كنا سعيدين ثم جاء ظلام وأخذ  
الزورق بهتز بنا وعلت ليدي يدها شعوي ومددت لها يدي فالتفت فوقنا طائر أبيض  
ضخم له مخالب كبيرة ووقفنا خائفين كأن أحدهما سيملك الآخر ولكننا دخلنا بعد  
ذلك فنمنا طويلا مظلم كأننا نبحر في بحر ، نعرف أن شخصيا يطاردنا  
وتريد أن تصل إلى آخر هذا البحر لأن هناك تورا في نهايته ، صموت بعدها وكان  
وجهك أنت أقر شيء في الحلم أو أول شيء فتحت عليه عيني ، فما معنى ذلك يا  
جدي ؟ هذه أول مرة أتذكرني في الحلم وأول مرة تسكنني عنها من زمن -  
فلماذا ؟

رفع سالم إلى جده عيشين مملوحتين فقال الجد بلهجة قاطعة  
- لا أحد يقدر عليك غيرك يا سالم ، أنا أعرف الآن أن الأفضل ألا نطلق  
بما لا أعلم ، لكنني أعرف أيضا أنك تستحق النور الذي رأيته في حلمك ، المهم يا  
سالم ألا تظن النور حين يجرى ،

- لا أفهم يا جدي ،

- ربما نفهم معا يا ولدي ، وربما لا يكون الوقت قد فات ، اليوم أنا أيضا أريد

أن أفهم ..

أشرق الجد قليلا ثم رفع رأسه بعد فترة ، كان يبدو عليه الإجهاد لكن صوته  
قليل واضحا تماما وهو يتكلم .

أنا لم أقل لك يا سالم كل ما سمعته من أبو خطوة عندما رأيته آخر مرة ،  
هل تذكر أمي حكيت لك عن بطري حلم بها لي ولم يفتح عنها ؟ يومها أيضا  
أعطاني الحجاب الذي أوصي بأن يظل دائما قربك ودعيت في اليوم التالي  
وكان يوم خميس لأودعه قبل السفر ، جلست إلى جدارة ونفسي تراوتني أن  
أسأله : ما هي تلك البطري ومنى تتحقق ؟

سامحتني الله لأنني سألتها كنت أشك فيما سمعته منه وقالت لي نفسي إنني  
حتى لم أُرَ أيا من كراماته التي يسمعون عنها وأنني كلما سألته كان ينهز من  
الجواب ، استجيمت شجاعتي وقهرت أن أسأله لكنني رأيته وجهه يمشي فجأة  
وأصبح ينفلس بصعوبة ثم قامت عينا ، أصابني انزعاج أنا وكل من في المكتب  
وبدأنا نحري هنا وهناك ، فتمت له أزرار قميصه وأحضر أحدهم ماء رشه على  
وجهه وحين سرخت أين الطبيب ؟ جرى البعض يستدعون طبيبيا ، لكن ذلك كله لم  
يستغرق خبر دقائق قليلة فأنا أبو خطوة بعدما كذب كان في سنة من النوم ونثر  
لي ولدي حولي وقال يهودي والسفر فربا كيف يسبق جنازتي موكب وتشريفنا وأنا  
لست من الحكام ؟ وما حاجتي إلى التشريف وأنا يكفيني قلب واحد طاهر  
بصديقي إلى مثواي ؟ علا صوتي وأصوات الجميع في المكتب ونحن نكرر بعد  
عمر طويل يا حضرة الباشا محضر .. اتق الله فينا يا رجل .. أنت ألقى علينا من  
كل حكام الدنيا .. هل تستدعي الطبيب ؟ فرد علينا وهو يمسح شايه ويضحك :  
لماذا خفتم هكذا ؟ أنا كنت أمثل عليكم دورا ، أريد اليوم أن أزوج قليلا من العمل  
ثم عاد بعد ذلك يمزج معي ومع الجميع ، لم أره في حياتي يا سالم أكثر مرحا  
مما كان في ذلك اليوم ، وعندما قلت له إنني جئت لأودعه قبل سفرني قال

سئلتهم في ذلك فعلموا ، ثم أهلك بذراعي وهو يقول : ألم أجازحكم بانني أريد أن  
أزول اليوم ؟ وقال لزملائه وهو يتجهم معي نحو الباب : أراكم غدا إن شاء الله ،  
فرد أكثر من واحد بعد غد إن شاء الله يا حضرة الباشا المحترم ، غدا الجمعة ،  
نقال لهم نعم ، يوم مبارك .

وعندما خرجنا من باب الحكمة قال وهو يتوكل على ذراعي كأننا نسيخلف  
حديثنا بدأناه : سألني يا أخى تولى من الكرامات ، ما الذى يشغل بالك عنها ؟  
هل سمعتني أنت أتممت عنها مرة ؟ رددت وأنا أكاد ارتجف لأنه خدس ما أفكر  
فيه . لا فقال : وصيقتي أنت ما تحدثت عنها مع غيرك . كل ما يحدث خارج  
نفسك لا وزن له . المهم هو ما يتحقق . الحق فى داخلك أنت ، والكرامة الحقيقية  
هى أنت . حتى السحرة والجواري يتكلمون الأشياء من مكان إلى مكان ويخفون  
الظواهر ويظهرون الخفى قبل يقرهم هذا من رحمة الله ! تخففت ! ولكن الكرامة  
علامة . قال وقد تكون لفظة وقد تكون امتحانا ، ربما يفكر إنسان فى شياخه بما  
وصل إليه ولكنه إن لم يرجع ثانية عن الشهرة لمسيخف دائما عبد الشهرة ويستقط  
فى الفتنة . طالححت عليه ولكن الكرامة علامة على الوصول : أليس كذلك ؟ قال  
أنت وما تؤمن به يا أخى توفيق . الوصول الحق هو أن ترى النور فى قلب الظلمة  
وقد يكون أقرب إليك مما تظن . لكك لن تراه قبل أن ترى نفسك . قلت ضاحكا  
صارحتك من قبل يا مولانا أنه من الصعب أن أحب نفسي ؟ فرد أبو خطوة بما  
يشبه نقاد الضمير قائلة إن حتى نصيبها ! لا ترجع ثانية إلى ذكر نوبك  
لمنتك ينكران الرحمة . حين تصعب التوبة لما علم أنه لا صغيرة إن قايك عدل ربك  
ولا كبيرة إن قابك نفسك وأحسن القلب بفضل خالك . ثم سمكت أبو خطوة بعد  
ذلك لحظة وثق ضوئته وهو يسأل منك : خفيديك اسمه سالم . أليس كذلك ؟  
لم ينتظر ردى . بل قال : هو ما هو يأنى الله . وأنت معه لأن نوره يتيمسح  
عنه .

ثم وضع يده على كتفى وقال ستصل يا أخى إلى ما تطلب بفضل مولانا  
وستعلم وحدك أن المكابدة والانتظار باب الرحمة واسع . لكن لا تتعجل الوقت كما  
قلت لك فالوقت مخلوق ملكه ومسيره لك . أما أنا فستتظنر غدا لتكمل ما بدأناه  
لحلا تسافر اليوم .

ودعى بذلك الكلمات ولم أكن أعرف ولا كان أحد ممن فى المكتب يعرف أننا  
فى البيت . فى يوم الجمعة المبارك . سيكون نحن وأسيروط كلها تقريبا فى جنازة  
أبو خطوة . وأنه ستكون هناك جنازة تسبقها للواء فى الشرطة بتقدمها الموسيقى  
والطبول وصغرف الجنود . قبرت كلها كما لو كانت (تشرية) الجنازة أبو خطوة .  
وشاوركت فى حمل نصيبه يا سالم فكان خطيفا كالريشة . قبل أكمل بذلك ما  
بدأناه ؟ قل أنت يا سالم ؟

قال سالم الذى كان مفتيها لكل حرف من كلام جده : ألم يقل يا جدى إنه  
يريد قلبا طاهرا يصحبه إلى مثواه ؟

غضب الباشا كاتب وقد بدأ الإجهاد يتسلل إلى صورته : ولكنى خاطئ ! لم يزرني  
النور ! .

سكنت سالم قليلا ثم قال : عندما كنت أخاف وأنا طفل صغير من عقاب أبى  
أو من المروض كنت أتى هنا إلى غروفك . حتى ولو لم تكن أنت فيها . فكنت  
أطمئن . كنت أعرف أنك تحبني وأنت سعادتي .

وفوردي أيضا . فوزية لا أحب أحدا مثلك لأنها تعرف أنك ضحيتها . أقصد  
يا جدى ..

ثم سمكت مرة أخرى وبدأ فى وجهه الألم وهو يقول : أنا لا أهتم كثيرا من  
الأشياء ولا أعرف أن أتكلم ولكنى قرأت منك فى كتابك أن النور نور لأن ضووه  
يبعد ظلمة النفس ويجلب البصيرة وأنت يا جدى ..

ثم سكنت مرة ثالثة وقال في يأس : لينثنى أستطيع أن أتكمم : أنت الذي  
تستحق يا جدى . أنا لا أستحق .

نزل جده ينظر إليه وقد اتسعت عيناه وبدأ صدره يعلو ويهبط ثم قال : ولكنى  
الآن أراك يا سالم ! نعم . أنا أراك !

ثم نزل من حراشه فجاءه وتقدم من سالم وهو يعرج على وجهه المريضة  
ويخوض في جلبابه الأبيض الواسع . هد يديه الاثنان نحو حفيده وراح يشير  
بأصبع مرتعش وهو يقول : أنا أرى ! أرى يا سالم !

التفت سالم خلفه لينظر حيث يشير جده . ولكنه ترنح فجأة فى مكانه فاستدار  
ليجد جده قد أرمس عليه يريد أن يتشبث به . ثم أخذ يتزلق ببطء وقد ارتفعت  
نراعاة فهين فى دعو وهو يولعه بالمشغى من السقوط : لا ! قل يا جدى ! قلب !  
قبل أن يصرخ بأعلى صوته منابيا : يا فوزية !

\*\*\*

( ٦ )

انفتح سالم عن الذهاب إلى عمله .

أرسل المدير إلى البيت من يسأل عنه فلم يخرج من غرفة جده . وقال شعبان  
لرسول ابن سالم يلزم جده المريض .

لم يشرك جده لحظة منذ سقط بين ذراعيه . ومنذ أن قال الطبيب إنه شغل  
كامله كان شعبان قد قرر أن ينقل والده إلى المستشفى لكن الطبيب العجوز الذى  
كان يعالج الحاج إبراهيم قال له : كما تشاء ولكن رب البيت هو رب المستشفى .  
ولعل أسرته تهتم به أكثر من الممرضات هناك . وتشبث سالم بأن يبقى جده فى  
البيت . فأنتهى الأمر بأن يمر الطبيب على البيت مراراً فى الأسبوع . وأن يأتى  
الممرض كل يوم لإعطائه حقنة وتغيير الحبال التى علقوها على عمود الممرور .  
ومع أنه ظل يأتى فى تلهيرة كل يوم . فقد تعلم سالم بصرعة كيف يقوم بهذا  
العمل . وبعد أن يتفرغ منه كان يجلس على كرسي إلى جوار فراش جده ويستك  
الكتب التى تعود أن يقرأها ويردد بصوت عال الأديعة التى كان يسمعها منه .

لم تكن عين الياشمكاتب تطرق ولكن حفيدته كان وثاقاً من أنه يسمعه .

وكان سالم يؤدي كل صلاة مرتين . مرة لنفسه ومرة لجده . وباستثناء فترات  
التواضع كان يطفى نور القرفة أو يخلق الشيش .

ولمى ذلك الوقت وصل إنذار ثان للسكان بضرورة إخلاء العمارة الآيلة للسقوط  
ولم تلم إجلالهم بالقوة . فلم يتحرك أحد . فاثوا أين تذهب ؟ غير أن شعبان كان  
قد انفق بالفعل . بواسطة بائع السجائر المستوردة . مع أحد الخلاق على أن يبيعه  
نصف أرض البيت بعد هدمه . وتبيض جزءاً من سلمه الثمن . أجر شقة فى

على المنيرة القوية واستعد للانتقال إليها مع الأسرة . وقال له السكان الذين شعروا بلهفته على إخلاء العمارة في أقرب وقت إن الياشكاتب ما كان ليتصرف هكذا .

فرد عليهم : « وأنا ماذا بدي أن أفعل ؟ هل أستطيع أن أمنع البيت من الوقوع أو أن ألق أمام الحكومة ؟ »

لكن بعض السكان المقتردين الذين فهموا أن المسألة منتهية بالفعل دفعوا لشعبان في السر صائح كسليم إيباز لإسكانهم في العمارة التي سببها في الجزء الذي يخصه من الأرض . وحدها الست إتصاف كانت لاتكف عن البكاء وتزور شعبان كل يوم وتوسط فوزية لديه فيعدها خيرا إن شاء الله . ولكنه يبتئها بصورة مزيرة : هل كانت ضرورية هذه السحارة التي جلبت كل المصائب ؟ فتزد وسط بكائها : نعم كانت ضرورية ليكمل في الدنيا وعلى !

لم يكن سالم يعرف شيئا عما يدور أو عن قرب انتقالهم إلى البيت الجديد . اعتكف في الغرفة التي أصبحت لها رائحة الستشيطات . غير أن فوزية دخلت عليه مرة بعد أن انتهى من تصميم جده في طست بالغرفة وأرقده في فراشه بغاية كان يلك حوله الغطاء بأحكام عندما دخلت فوزية تصرخ فيها :

- إقتلى الباب بسرعة !

أغلقت الباب كما أمراً . وكان من الصعب عليها أن ترى شيئاً في الغرفة المظلمة . فراجحت تتحسس طريقها نحو قراش جدها وسحبت سالم من يده وأجلسته بجوارها على الكتبة المواجهة للقراش وقالت له :

- لماذا تبقى في الظلام يا سالم ؟ لماذا لاتفتح الشيش على الأقل ؟

- جيك لم يكن يريد نورا في الغرفة في الفترة الأخيرة .

- ومع ذلك لقد كان الشيش مقترحا يوم سقط . ألا تذكر ؟

قال متحيرا : نعم أتذكر وحتى الآن لا أعرف لماذا فتحته يومها . ولا ألهم في حدث .

- لأنه كان يحب دائما أن يسقى في النور . أحب جدى الظلمة فقط وهو مريض . ولعله أحس بما سيحدث له فتراد أن يودعنا في النور .

لم يسمع سالم كلمة يودعنا . كان مستغرقا في أفكاره وصبرته لما كنش لنقيته

- لم أفهم كل ما قاله لي يومها وهذا يعذبني يا فوزية . كان يريد مني شيئا لكني لم أعرف هامو وسألني عن .. عن أشياء لم تحدث عنها من زمن طويل . وتكلم أيضا عن النور .

فالتت يأسف : لو كنت معكما لحطشها ؟ . لكني أعرف أن جدى يحب لك الخير ..

ثم قالت في هدوء : افتح الشيش يا سالم من أجلك لأمن أجله . فهو الآن لا يفرق بين نور وظلمة .

لم تر فوزية النظرة الغاضبة في عيني سالم ولكنها شعرت بها في صوته وهو يسألها :

- من يدريك ؟

فردت عليه بالهوء تلكه : هذا كلام الطبيب .

قال سالم وقد ازداد غصبه : وما الذي يعرفه الطبيب ؟ جيك من الصالحين وسيشفي الله ويطوم سائلا بإذن الله ..

- حتى الرجال الصالحون يا سالم ..

ثم سمكت قبل أن تقول بلهجة مختلفة : لم أت لأنكم بعك في هذا الموضوع . كنت أريدك في شيء آخر . أردت أن أسألك : هل وقعت على تركيل لوانك ؟

رد سالم دون ميالة : نعم ، أعطاني ورقة وقعت عليها . لا أنكر ما هي .  
- كيف لا تذكر ؟ هذا شيء مهم ، وأنت لا تعرف بالطبع أن أياك يا حورية من

الثبت ؟

كان يجهل ذلك لكن فورية شريحت له في حرمها أنها لم توقع على التوكيد  
لأنها تريد أن تعرف رأسها من رجلها ، ويكفي ما فعله سالم مشكورا من أجلها  
حتى الآن . إن كان والدنا قد قبض مبلغا من المال فهي تريد أنه تأخذ نصيبها  
منه وأن تعرف كيف تستشير الأبور بعد ذلك . عليها الآن أن تضع مستقبلها  
ومستقبل سلام . لم تأت إلا عارة التي انتشرها فراح ولا تفق أنها ممتاكي وهي  
لا تريد أن تكون تحت رحمتي أو تحت رحمة أي مخلوق .

كان سالم شاردأ وهي تتكلم وسكتها : ولكن لماذا يا حورية الأرض ؟  
تفترق فورية إلى وجه أخيبها في العشة التي ألفتها عيناها ورأت أنه يركز  
نظره على سرير جد . فاستبكت بوجهه ومولته تحمها وهي تقول :  
- اسمعني يا سالم من فضلك . لو كانت أير نصيب من المال الذي قبضه

فويل تصابحنى ؟

حاول سالم أن يستجمع تفكيره وقال لأخت :  
- بالطبع سأتابعك يا فورية . أى شيء تظلمينه سوف أفعله . تهتدي فورية  
ثم قالت بعد فترة :

- وكيف ستساعد نلتك يا سالم ؟

- أنا .. أنا لا أحتاج إلى أي مال ، عندما يشفى الله جدي سأنزل القفل .  
فأنت ببساطة : لو كنت تحب جدك حقا طالع له ...

ثم توقفت وهي تتسأل : ما الذي يمكن أن أقوله لسالم ؟ أخاطب عليه أن  
يمرض من جديد أو أن يسره مرضه ، لو يمدى أن أحبه يسلم بالحقيقة ؟ أنت  
تقول لي يا سالم إن جدك من الصالحين ؟ لو تعلم كم أحبه : لولاه ربما لكت أنا

قد وضعت من زمن . وتقول لي إنه كان ينتشر نورا ؟ أنا أراه هناك وهو ممدد  
على السرير في الظلام كالقطعة مظلمة نورية . ولكنه كان سنا يا سالم ويجب لنا أن  
نعين .

مدت فورية يدها وضمت أختها إليها وهي تقول : صدق يا سالم .

أنا لا أعرف ولعل الطبيب أيضا لا يعرف . لعله بالفعل يسمعك وأنت تكلم  
وتقرأ له ولكن من أدراك أنه لا يتعذب إن كان يسمع ولا ينطق ؟ لا تعذب جدك يا  
سالم . أنت تعرف كم يحبك .

قال سالم : وهو يعرف أيضا كم أحبه .

- إذن فلا تعذبه . جدي لا يحب ذلك له ولا لك .

سكت سالم : ماذا تعني أنت بكلماتك يا فورية ؟

- أنت سألني عما كان جدي يريد أن يقوله لك يوم مرضه .

لسال سالم بصوت سطواني : وماذا كان يريد يا فورية ؟ ليتني أعرف !

يريد ما قلت لك ، ويريد أن أشارك في رعايته لأني استطيع أن أفعل ذلك  
بالضغط . لا يريدك معه طول الوقت .

سكتت فلم سالم الصمت بنوره . ثم قامت فورية ومشت حتى سرير جدما  
انحنت لورقه وقبضت جبينه برفقة . ثم توجهت نحو الباب وقالت لأخيها بهدوء قبل أن  
تخرج :

- افتح النور يا سالم ، جدي يحب النور .

وقالت لنفسها في أسى وهي تخرج : ولكن هذا لن يستمر طويلا !

\*\*\*

حدد شعبان مرقد إنتالهم من البيت إلى شقة المنيعة الجديدة .

جاء عمال فككوا قطع الأثاث وكوموها في أركان الغرف . كان قد قرر أن يبيع  
بعضاً من الأثاث وأن يفتل بعضه الآخر إلى المسكن الجديد وأصبحت الشقة



خالية باستثناء غرفة الباشكاتب التي أوجأها شعبان حتى اللحظة الأخيرة . بدت الشقة الخالية واسعة جداً ، أصبحت الأصوات والخطوات ترن فيها وتتردد في صدى ضخم كئيب . سمع سالم من أبيه أن هذا هو الحل الوحيد لأن العمارة على وشك الانهيار فسأل عما سيفعلون بالنسبة لجده وطياته شعبان : انفتحت بالطبع مع عربة إسعاف وسننقل غرفته كما هي . سريرده ومكتبه وكل مكتبه . سنكرم حضرة الباشكاتب حتى ...

ولم يكمل عبارته .

وكانت فوزية مشغولة مع أبيها في الترتيب للانتقال من البيت . انطلقوا أيضا أن تنتقل هي وفراج وسلمو إلى شقة المنيعة لتشارك في تنظيم المسكن الجديد وفي رعاية جدها . ولتبقي هناك إلى أن تجد الشقة المناسبة التي كانت تبحث عنها لنفسها . حصلت من أبيها على جزء من نصيبها من بيع الأرض وحسنت مع فراج أن الشقة الجديدة التي ستضع فيها جزءا من المبلغ ستكون باسمها هي .

وأثناء الاستعدادات الأخيرة دخلت فوزية غرفة جدها . كان سالم يفتح جزءا صغيرا من النيش ويجلس على الكنبه معتصدا رأسه بيده . يسترجع من جديد كل ما دار بينه وبين جده يوم سقوطه ويحاول أن يفهم ويعرف . رفع رأسه حين دخلت فوزية فقالت له :

- هناك واحدة تريد أن تراك يا سالم .

ظل ينظر إلى أخته مستلهما فقالت بهنو : شديد : هي ليني .

هبط سالم واقفا حين سمع الاسم وقال : «جدي» : ثم فطر من مكانه واندفع نحو الباب . لكن فوزية سدت طريقه بذراعيها وقالت :

- لا . لن تخرج بالبيجاما ! ارتد ملابسك .

وايتمت فوزية لنفسها وهي تطلق الباب وراءها : كنت متأكد أنه أعرف هذه الأرواح ! يارب !

\*\*\*

وكانت ليني تنتظر وحيدة في الصالون الخالي الذي لم يبق فيه سوى أربعة مقاعد متناثرة . كانت تليس من جديد بلوزة بيضاء بنصف كم و(جولت) واسعة كما اعتادت منذ سنين . قالت لنفسها وهي تتلفت حولها : لماذا أنا هنا أما الذي يجعلني أتى الآن ؟ قد تكون غلطة . لايمهم . كل شيء غلطة . أنا نفسي غلطة لا فائدة منها . تجاهلت طويلا ما قاله أبي في ليلة سكره . ليكن . جاء سالم إلى عيادته قبل سنين فما جدوى أن أراه الآن ؟ لو كان سالم مريضا حقاً قلن أستطيع أن أساعده . لن أستطيع حتى أن أتصح بأن يذهب إلى المصححة في روما ! رفض أبي أن يقول شيئا حين سأكته عنه فلم أفتح معه الموضوع مرة أخرى . الدكتور غارق في عوالمه العظيمة ولا وقت لديه لأمثالنا . لايلك الآن عن العمل ليل نهار حتى الويسكي انقطع عنه بعد ليلة سكره الكبير . أظن أنه كان متفعلاً ليلتها لأنه قابل الدكتور صفاء . لم أفهم كل كلامه لكنه تحدث على أي حال عن الحب . لعله مازال يحبها حتى الآن وإن كانت هي تفتقه لماذا ؟ مالي أنا وذلك الآن ؟ تكرهه أو تحبه المهم أن لكل منهما حياته فمأذا عن حياتي أنا ؟ أين ضاعت بعد أن عولجت في روما وتحسنت الأحوال ؟ واظبت على الأنوية والعلاج . غطست في حمام بارد وحمام ساخن وحمام فاتر وشقيت تماما ! وقبل أيام عندما غطست في حمام السباحة في النادي قررت ألا أطفو من جديد . قال عتلى هذه هي النهاية المنطقية الجيدة لواحدة مثل شقيت من كل شيء . حتى من الرغبة في الحياة ! تئمت أن ينتهي كل شيء في تلك العتمة الرجراجة في قاع الحمام . لكن عندما نفد الهواء من الصدرى خائني جسمي . راحت نراعي تضريران الماء بجثون ولما وصلت إلى السطح كنت أشفق وأصرخ وأطرد من جوفي باستماتة ماء الحمام وطعم الكور . تأكدت أن جثتي غريزي لا علاقة له بما يقرره عتلي . لا علاقة لعتلي بشيء . قرر ألا أرى سالم وما أنا هنا أنتظره . لماذا ؟ حكايته انتهت

وكل الحكايات انتهت . قلت لنفسى ولكنى أحب أن أرى جده . هذه ليست كذبة . هو الوحيد الذى أفكر فيه عندما أسمع الكلام العاقل الذى يقوله أبى وأمى وكل الناس الذين أرىهم . هو الوحيد الذى سمعت منه على لسان سالم كلاماً يختلف عن كل هؤلاء العقلاء الذين يدفعوننى للموت . قلت ربما يستطيع أن يساعدنى . والآن تقول حبيبته إنه هو أيضاً مريض لايتكلم . ضاعت الفرصة ! لو كنت قد جئت على الفور ! لماذا أبقى ؟ هل أنصرف الآن ؟

لكن الباب فتح ودخل سالم .

كان يرتدى القميص والبنطلون لأول مرة منذ مدة بعيدة تحيلاً فى ثيابه . ونهضت لبش حين رآته . ظلت تقف صامتة وهى تتأمل وجهه المتقاع والانبسامة المصنوعة على شفتيه . وكان هو أيضاً يتأملها وهو يتنفس بصعوبة . فجأة وجدت نفسها تتدفق نحو خطوتين ثم توقفت حين عد لها يده بامتداد ذراعه وهو يقول :

- حمد الله على السلامة . سمعت من جدى أنك فى فرنسا .

لم تصح له اسم البلد . عادت تجلس مكانها دون أن تحصل نظرها عنه . فأخفى هو رأسه وهو يقول : صحتك أحسن .

كان يريد أن يقول « أنت الآن أجمل » ولكنه غير رأيه . فسأته : وأنت ؟

رد ببساطة : أنا مرضت بعد .. ولكنى عولجت وأنا الآن أحسن .. لم أعد أخذ علاجاً ولكنى الآن أحسن .. هل انتهيت من دراستك أو ستسافر مرة أخرى ؟

لوحث بيدها وهى تقول : لا . اكتشفت أنني لا أحب القانون فتوقفت عن الدراسة . لم أت الآن لكنى ..

ثم سكنت : كأننا يجلسان على مقعدين متقابلين يتبادلان الحديث بلهجة مهذبة فأزادت لبش أن تصرع : كفى يا سالم ! لا تدعنا نتكلم لمجرد فتح الفم وإغلاقه .

كفى ! ما الذى يحدث ؟ لماذا أنا هنا ؟ يجب أن أنصرف ! لكنها مع ذلك أحت رأسها وقال فى همس : تعبت حتى عرفت عنوانك . ذهبت أولاً أسأل فى محلات الأقمشة عن والدك ..

لم يسمع سالم ما قالت ولكنه رفع رأسه فجأة وقال :

- هل هو الذى طلب منك أن تأتى ؟

- من ؟

- جدى !

- كيف ؟ أتالم أروء فى حياتى !

- لا أدرى . لماذا إذن سألنى عنك قبل أيام ؟ ألم يكن هو الذى طلبك ؟

سكنت لبش لحظة ثم قالت : ربما . لم لا ؟ منذ أيام وأنا أفكر فيه . الحقيقة أنى جئت لأراه . تقول طلبنى ؟ لم لا ؟

هو سالم رأسه وهو يقول : جدى من الصالحين .

فقلت لبش : لا بد . ولكن ماذا قال لك بنى ؟

- كانت أول مرة يذكر فيها اسمك منذ سنين وسألنى إن كنت أفكر فيك .

- وبماذا رددت يا سالم ؟

- قلت إننى .. إننى حلمت بك مرة ..

فأثارت نفسها : مرة واحدة يا سالم ! حلمت بى مرة ؟

راحت تنظر إلى وجهه الشاحب . وإلى ذقنه القابضة . وإلى عينييه الجميلتين اللتين تتحركان فى قلق . وإلى ساقيه الطويلتين اللتين يبدل وضعهما كل لحظة

وسألت نفسها : هذا هو سالم ؟

فردت والدموع تظفر من عينيها دون أن تبدل أدنى محاولة لمنعها كما اعتادت

أن تفعل طول عمرها : نعم . هو !

شعرها ! لكنه بدلا من ذلك كله كثر سؤاله :

- لماذا تبكين ؟ .. هل قلت شيئا ؟

مسحت لى دموعها براحتيها وقالت بعد لحظة :

- لا ياسالم . أنت لم تقل شيئا . تمنيت أن تقول شيئا !

سألها فى حيرة : ماذا أقول ؟

فابشمت ابتسامة صغيرة وهى تقول : خدشنى ماذا يقول جدك عن الأرواح ؟

- يقول كل الأرواح جميلة وكلها طيبة .

- وهل قال لك ياسالم ما الذى ينفذ هذه الأرواح ؟

- نعم . قال الحب .

## النهاية

وها هو الجواب : أنت هنا من أجله ! تعرفين فى قلبك منذ جئت ومن قبل أن  
تأتى أنك هنا من أجله . حتى ولو كان قد فقد كل عقله ، فهو نفسه سالم . سالم  
الذى كان يقاومك وجهه فى روما وفى مصر وقبل السفر وبعد أن رجعت . سالم  
الذى فعلت كل شيء لتطرديه من حياتك لكنه ظل يظهر لك دون توقع فيمسك يدك  
وأنت تمشين هناك على شاطئ النهر فى روما أو يأتى ليجلس أمامك على رصيف  
المقهى أو ينأى إلى جوارك فى الفراش . هو نفسه . سالم . الذى تمر أسابيع  
وشهور لا تذكرينه وإذا به فجأة يحيط بك كغلالة ترين كل شيء من خلالها ولكنتك  
لا ترين غيره . ما همك إن كان مريضاً ؟ لماذا طوال تلك السنين ظل الأصحاء  
والأقوياء الذين رأيتهم أشباحا عابرة ويقى هو غيب ثم يعود بلا انقطاع ؟ لو  
ترجع يا سالم أيام خوفنا معا ! لو يرجع للعنقا طعم حقيقى غير طعم الكلور فى  
حمام السباحة ! لحظة واحدة من ارتعاشه اليد ودفنها حين تمسك بها . من مذاق  
قبلتك . من رائحة جسدك وهى تنفذ إلى مسام الجلد ! لحظة واحدة من الخوف  
الحقيقى والحب الحقيقى بدلا من هذه الحياة الكذب . من المشى بلا سبب والكلام  
بلا معنى وفتح الأبواب وغلق الأدراج وطلوع السلم والرد على التليفون وانتظار  
السيارات وقناع كاذب للحزن وقناع أكذب للضحك لمقابلة أفتنة الآخرين ! لحظة  
واحدة تبعث فيها الأرواح الميتة للتلقى كما قال جدك ! ولكن كيف تبعث هذه  
الأرواح ؟

سألها سالم فى انزعاج : لماذا تبكين بالبنى ؟

لم ترد . وراح يراقبها بعينين قلقتين ودموعها تنساب دون أن تنتشج أو يصدر  
عنها أى صوت . وكانت أفكار كثيرة تتدافع فى ذهنه وتطارده بعضها دون أن  
ينطق . أراد أن يسألها كيف خرج من بيتها فى ليلتهما الأخيرة معا . وأن يقول  
لها سناكفر عن ذنبي بعد أن يشفى الله جدى . وأن يسألها لماذا غيبرت لون

## تنويه

رجعت أثناء كتابة هذه الرواية إلى بعض الدراسات والكتب الصوفية ، وأخص بالذكر - بين كتب أخرى - «المواقف والمخاطبات للنفري» ، وكتاب «الكنز في المسائل الصوفية» للاستاذ صلاح الدين التجاني .

بهاء طاهر

رقم الابداع: ١٨٨٩٥ / ٢٠٠٠

I - S - B - N

977 - 07 - 0749 - X